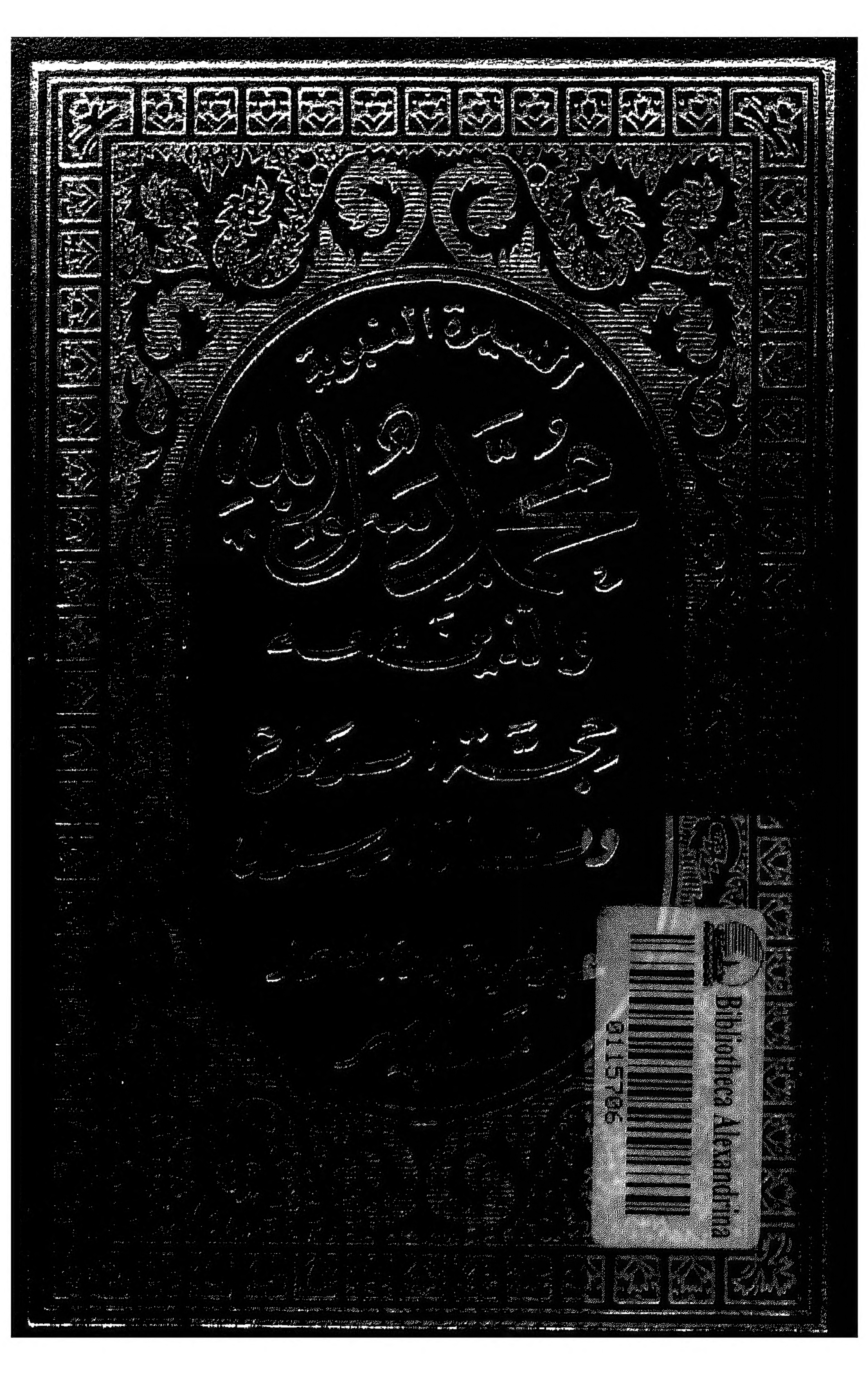

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه

السيرة النبوية



حجة الوداع

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾

(قرآن كريم)

١

سجى الليل ونام الكون وما كان يعكر الصمت الذى ران على مسجد الرسول إلا غطيط أهل الصفة ، ما منهم رجل إلا عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم . كانوا من فقراء المسلمين وكانوا سبعين قد انقطعوا للعبادة وحراسة رسول الله ـ ﷺ ـ وكانوا يلزمونه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يشبع بطونهم ، فإذا أتت رسول الله ـ ﷺ ـ هدية أصاب منها وأشركهم فيها ، وإذا كان فى دوره طعام من لبن أو تمر أخرجه إليهم وتناوله معهم ؛ وما أكثر ما كان يصوم ويصومون .

وفى هجعة الليل سار بلال بينهم على أطراف أصابعه مفتوح العينين خشية أن يدوس أحدهم أو ترتطم رجله بأحد النوام فيوقظه من نومه اللذيذ . وفيما هو يقدر موقع قدميه وقعت عيناه على أبى هريرة عرِّيف أهل الصفة فرفت على فمه ابتسامة ؛ إنه تذكر ما رآه منه فى أول الليل ، كان الصبية يلعبون لعبة الغراب فإذا بأبى هريرة يتسلل إليهم وهم لا يشعرون ، حتى إذا ما صار بينهم ضرب برجليه كأنه مجنون ، ففر الصبية هٰهنا وهٰهنا وهم يتضاحكون .

إنه يحب مداعبة الأطفال ليشرح صدورهم ويدخل السرور إلى نفوسهم ، وكثيرا ما يداعب أصحابه دعابات لطيفة كيسة ، وله فى رسول الله ـ ﷺ ـ أسوة ، فهو يداعب أبناء المهاجرين والأنصار ويقبلهم فى حب أبوى عميق ، ويحملهم أمامه على دابته أو يركبهم خلفه ، ويمزح مع أصحابه ولا يقول إلا صدقا .

وبلغ بلال الدرج فراح يعرج فيه ، حتى إذا صار على السطح الذى يؤذن من فوقه أخذ يرعى النجوم ويمد عينيه إلى الأفق الشرقى ، إنه الفجر الكاذب وما حان أوان الأذان بعد ، فجلس يرصد السماء ، وما لبث أن انثالت الأفكار على رأسه ، ذكريات بعيدة طواها الزمن ولكنها لا تزال حية فى وجدانه ، وذكريات قريبة حبيبة إلى نفسه ينشرح لها صدره ، وآمال لا تزال فى جوف الغيب لا يدرى إذا ما كانت سترى النور يوما .

تذكر أيام كان مولدا من مولدى بنى جمح ؛ كانت أمه حمامة لا تملك من أمرها شيئا ، زوجوها من أبيه رباح لينسلا للسادة عبيدا ، فجاء إلى الدنيا عبدا حياته عبث ونهايته عدم .

وشب لا يعرف من أمر الدنيا إلا أن سيده أمية بن خلف . إن غضب عليه جلده وإن رضى عنه أعطاه من فضل زاده ، وعاش بلا أمل يخرج فى قوافل التجارة كما تخرج السائمة ، ليس له من أمرها ألا شبع بطنه والعرق الذى يتصبب منه إذا ما حمل الأثقال على ظهره ليرفعها إلى ظهور الإبل أو ليحطها عنها ، وما كان له أن يشكو من التعب فما كان للدواب حق الشكوى أو التبرم من حياتها !

ومن خلال ظلمات العدم بزغ النور والأمل ، فصوت أبى بكر الصديق يلامس أوتار قلبه فيهزها فى نشوة وهو جالس يرقب الفجر فوق أعلى بيت فى المدينة مثلما هزها فى تلك الليلة التى قال له فيها لما كان فى مكة : إن محمد بن عبد الله يدعو إلى عبادة الله وحده . وراح يدعوه إلى الإيمان بذلك الدين الذى يثبت الربوبية لرب السموات والأرض وينفيها عن كل الأصنام والأوثان والبشر .

أحس فى تلك الليلة سحر الكلمات التى كانت تسكب فى أذنيه وعظمتها ؛ إنها كلمات قليلة ولكنها فتحت أمامه آفاقا واسعة من الرجاء والأمل . إنه فى لحظة من لحظات العمر الذى كان يبدده سدى تيقن أنه ليس عبدا لأحد من بنى جمح ،

وأنه حر ليس لبشر سلطان عليه ، فهو وأمية بن خلف سواء أمام رب الناس إله الناس ، بل قد يصبح عند الله أفضل من أمية بن خلف إن أحسن العمل .

كانت حريته لا تستند إلى شيء ، وكانت إرادته كلما هفت روحه إلى الحرية تخبو ؛ فالموت الذى سينهى حياته بالعدم كان يقضى على كل إرادة ، ولكن الدين الجديد الذى يدعو إليه أبو القاسم لم يجعل الموت نهاية ، بل هو بداية لحياة أخرى خالدة توفى كل نفس فيها حسابها ، فلم تعد الحياة عبثا ولا حملا ثقيلا بل دار ممر إلى دار مقر ، والعاقل من أخذ من ممره لمقره لينال الفوز الأكبر .

لم يعد يتأرجح بين الوجود والعدم ، تملكه نزوع وجدانى ينشد الحرية المطلقة ، حرية العقل وحرية الاختيار والإرادة . فكلمات أبى بكر قد رفعت عن عين بصيرته الغشاوة فشعرت ذاته بوجودها وحريتها ، وامتلأ قلبه بنور أضاء ذاته العميقة فإذا به يكاد يقرع أبواب ملكوت السماء .

إنه عرف ما يريد بعد تدبر وتفكير فاعتنق الإسلام دون إكراه ، وحمل الأمانة وهو سعيد ، فقد عزم على أن يتحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، وأن يعانى الحياة فى صبر بعد أن بدد ظلمات وجوده واهتدى إلى اليقين المبين .

خرج بنو جمح لما حميت الظهيرة فطرحوه فى بطحاء مكة ثم أمروا بالصخرة العظيمة فتوضع فوق صدره ، ثم قالوا له :

ـــ لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .

كان إيمانه أرسخ فى ذاته الحية التى شحذها الإسلام من تلك الصخرة العظيمة التى تكاد تكتم أنفاسه ، وكانت إرادته أمضى مما نزل به من بلاء فراح يقول :

ـــ أحد .. أحد .

ونزل نشيده بردا وسلاما على فؤاده ، فلم يكتف بالثبات على دينه بل جعل

يسخر من معذبيه . وجاء أبو بكر الصديق ورأى ما يقاسيه من تعذيب فأنقذه مما كان فيه ، وأخذه فأعتقه فتحرر الجسد بعد أن تحررت الروح .

وأشرق وجوده وابتهج به فالدين الذى اعتنقه يعبر عن صوت العقل ، عن جوهر الذات المتعالية ؛ ينمى فى النفوس الخير ويسد جميع المسالك فى وجه الشر ، ما دام الخير والشر لا وجود لهما إلا فى عين إرادة البشر .

كان سعيدا بحرية روحه وجسده ، وبالطمأنينة التى شاعت فى وجدانه ، وبالتجانس الذى بات يحسه فى نسيج الكون بعد أن كانت الفوضى سمته ، والتنافر صفته ، وزاد فى سعادته أنه تعلم بعد الهجرة إلى المدينة أن الله قد خلق آدم ليكون خليفته فى الأرض ، فبنو آدم قد أصبحوا خلفاء لله بسلطان العلم الذى علمهم ، وبثقل الأمانة التى حملهم ؛ وإنه شرف يشارك فيه إخوانه من البشر ، وإنه ليعمل مع إخوانه المؤمنين على توكيد استحقاق الإنسان لهذه الخلافة وهذا الشرف . وقد زكاهم الله بقوله العظيم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ... »[1] .

إن صراع الذات مستمر ، وسمو النفس فوق الأهواء يشتد عوده ، والنزوات تتحطم عند حدود الله ، والإحساسات الدينية السامية تزداد إرهافا . وذلت عبودية المادة بعد أن أغلقت الأفئدة المؤمنة الأبواب دونها ، ورفعت الأقنعة عن الحرية الراشدة ووجدت على ظهر الأرض الحياة الروحية الحقة القادرة على طرق أبواب السماوات ، فكان الإنسان فى أروع صورة وأحسن تكوين .

وطافت به ذكريات أيام الخندق ، فرأى سلمان الفارسى يضرب فى ناحية منه فغلظت عليه صخرة ورسول الله ﷺ قريب منه ، فلما رآه يضرب ورأى

---

(١) آل عمران ١١٠

شدة المكان عليه نزل فأخذ بالمعول من يده فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى ، قال سلمان :

ـــ بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟

ـــ أوَقد رأيت ذلك يا سلمان ؟

ـــ نعم .

أما الأولى فإن الله فتح علىّ بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح علىّ بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح علىّ بها المشرق .

كان بلال على يقين من أن الله قد أعطى رسوله ـــ ﷺ ـــ مفاتيح تلك البلاد ، وأن المسلمين سيفتحونها ، فما ساوره فى ذلك شك ، ولكن سؤالا قام فى نفسه : ترى أيقدر له أن يؤذن فى صنعاء أو منف أو دمشق ؟

إن الله قد أكرمه يوم فتح مكة ، فقد اعتلى ظهر الكعبة أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين ليؤذن فى ضمير الكون معلنا تحرير البشرية من العبودية لغير الله وحده ، وبزوغ شمس الحرية الكبرى ، وبداية عصر القيم والمثل العليا .

ورن فى عين ذاته ذلك الدعاء الذى سمعه ذات ليلة فى مسجد الرسول : « اللهم اجعلنى ممن سيلقون أسماعهم إلى أذان بلال فى الجنة » . فسرت فيه قشعريرة وبللت الدموع روحه قبل أن تبلل مقلتيه ، وأطرق برأسه تواضعا لله وشكرا حتى كادت جبهته تلمس الأرض .

وبدأت طلائع الفجر تزحف فى الأفق الشرقى فراح صوت بلال يدعو الناس إلى الصلاة ، إلى استفتاح يومهم بلقاء الله لتطهير النفوس وتطبيب الروح واستدرار البركات ؛ فما أروع أن يبدأ اليوم باسم الله وذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب .

* * *

وقام سلمان الفارسى يتوضأ وكل خلجة من خلجات نفسه تتجه إلى الله وتسبح بحمده ، فهو يعيش بالله وفى الله ؛ فخفقات قلبه شكر وومضات فكره ذكر ؛ فقد كان فى بيت أبيه خادم نار المجوس ولكن الرحمن الرحيم أراد له الرشد والهداية فبذر فى أعماق ذاته الشك ووهبه نفسا تهفو إلى الحق ، فما إن مر بكنيسة من كنائس النصارى وسمع أصواتهم فيها وهم يصلون حتى دخل عليهم ينظر ما يصنعون ، فلما رآهم أعجبه صلاتهم ورغب فى أمرهم وقال دون استكبار : هذا والله خير من الدين الذى نحن فيه .

كان يريد وجه الحقيقة أينما كانت وقد برأه الله من الهوى ، فلما علم أن أصل ذلك الدين بالشام لم يفكر فى أبيه ولا فى أهله ولا فى قريته ، بل شد الرحال إلى الشام باحثا عن إيمان يستريح إليه فؤاده .

وجاء إلى الأسقف فى كنيسته وراح يخدمه ويتعلم منه ويصلى معه ، ولكنه وجد الأسقف يعمل غير ما يقول ، يأمر الناس بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه ، فلم يسخط على الدين بل سخط على رجل السوء ، وبقى فى الكنيسة ثم رحل من الشام إلى الموصل بحثا عن الحقيقة ، ولم تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلبه فشد الرحال إلى نصيبين ثم إلى عمورية فى أرض الروم ، وهناك علم أنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث على دين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب .

نبى ؟! يا ليته يستطيع أن يلقاه ليجد عنده جوهر الحقيقة التى ترك الأهل والخلان والأوطان فى سبيلها . وجاءه الفرج فقد مرت به قافلة من العرب فالتمس منهم أن يحملوه إلى أرضهم التى أصبحت حلمه ومهوى فؤاده ومحط آماله . وبلغوا وادى القرى فظلموه وباعوه إلى رجل يهودى عبدا .

إن ابن دهقان قرية جي بأصبهان المجوسى خادم النار الذى هام على وجهه فى الأرض بحثا عن الحقيقة قد أصبح عبدا اليهودى . ولم يدر ما حكمة صيرورته عبدا ولكن ظل قلبه عامرا بالإيمان بأن الله الذى خرج للبحث عنه لن يضيعه ، وكان أن تعلم العربية لغة ذلك النبى المنتظر ، وكانت حكمة الله التى غابت عنه أن يتعلم لسان القرآن الذى سيشفى نفسه وينير فؤاده بأنوار اليقين .

وقدم على اليهودى الذى اشتراه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة فابتاعه منه فاحتمله إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رآها فعرفها بصفة صاحبه فبات يتحرق شوقا للقاء ذلك النبى الذى بشر به الأنبياء ، واحتمل الرق صابرا فى سبيل أن يكون له شرف أن يلقاه ويلقى إليه السمع والفؤاد .

وهاجر رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ، وسمع به فإذا برعدة تسرى فى بدنه وإذا بكيانه كله ينتفض وإذا به ينطلق إلى حيث كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، فلما رآه وأصغى إلى حكمته خفق قلبه فى رضا ، وتيقن أن ذلك الحديث الذى ينبض بالصدق هو ما هجر كل مباهج الدنيا فى سبيله ، وبهرته الحقيقة وغمره فرح فياض أن عثر على ضالته المنشودة ، فنطق بالشهادتين فى صوت متهدج تخنقه العبرات من فرط الانفعال .

وعلم رسول الله — ﷺ — أن سابق الفرس عبد ليهودى من بنى قريظة ، ولما كان رسول الإسلام قد بعث لتحرير النفوس والرقاب قال :

— كاتب يا سلمان .

وهرع سلمان إلى اليهودى الذى اشتراه وراح يفاوضه على تحريره من الرق

والعبودية ، فكاتبه صاحبه على ثلاثمائة نخلة يحييها له بالحفر والغرس ، وأربعين أوقية ، فقال رسول الله — ﷺ — محرر الأرواح والرقاب — لأصحابه :

— أعينوا أخاكم .

فأعانوه بالنخل ، الرجل بثلاثين من فراخ النخل الصغار ، والرجل بعشرين ، والرجل بخمس عشرة ، والرجل بعشر ؛ يعين الرجل بقدر ما عنده ، فقد كان المسلمون يحبون أن يروا إخوانهم فى الدين أحرارا من أغلال الرق البغيض .

واجتمع له ثلاثمائة من فراخ النخل الصغار ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— اذهب يا سلمان ففقر[1] لها ، فإذا فرغت فأتنى أكن أنا أضعها بيدى .

وحفر وأعانه أصحابه ، حتى إذا فرغ جاء رسول الله — ﷺ — فأخبره ، فخرج عليه السلام معه إليها ، فجعلوا يقربون إليه فراخ النخل الصغار ويضعها رسول الله — ﷺ — بيده حتى فرغوا ، فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها واحدة .

وأدى سلمان النخل وبقى عليه المال ، فأُتى رسول الله — ﷺ — بمثل بيضة الدجاجة من ذهب ، فقال لسلمان :

— خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان .

فأخذها فوزن لهم منها أربعين أوقية فأوفى صاحبه حقه منها ، وأصبح سلمان حرا فخر ساجدا لله شكرا أن حرره من رقه ، وأن كشف له عن وجه الحقيقة ، وأن افتتح عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وأن جعله صاحب رسوله المصطفى عليه السلام .

وتذكر سلمان وقلبه يخفق سعادة ما كان بين المهاجرين والأنصار من شأنه ،

---

(١) فقر : احفر .

قال المهاجرون سلمان منا ، وقال الأنصار بل سلمان منا ، فقال رسول الله — ﷺ :

— سلمان منا أهل البيت .

وكان بعض المسلمين الذين لم يتخلصوا بعد من روح الجاهلية يعيرون بلالا بأنه حبشي وأن أمه سوداء ، وكانوا يعيرون سلمان بأنه فارسي . فقضى رسول الله — ﷺ — على هذه النعرة التي لا تتفق مع دين الإنسانية جمعاء ، فقال عليه السلام :

— « يأيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد ، ليست العربية بأحد كم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .

وأتم سلمان وضوءه فخرج إلى المسجد وقد أشرقت أنوار المعرفة في فؤاده ، فهو على نور من ربه ، قد ارتفعت الحجب عن عين بصيرته بلطف خفي من مولاه ، فلمع في قلبه من وراء الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف بالزهد في الدنيا ، والتبري من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله ، فمن كان لله كان الله له .

* * *

وخرج علي بن أبي طالب إلى المسجد تتحرك شفتاه ببعض ما في صدره من كنوز علمه ، وقد اتجهت عيناه إلى الباب الذي سيخرج منه رسول الله — ﷺ — حبيبه ومعلمه وقدوته وأب زوجه الزهراء وجد ولديه الحسن والحسين .

أصابت قريش أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله — ﷺ — للعباس عمه وكان من أيسر بني هاشم :

— يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه

الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله ، أخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه .

فقال العباس :

— نعم .

لم ينس رسول الله — ﷺ — قبل أن يبعث ليتمم مكارم الأخلاق أن أبا طالب قد كفله صغيرا وأن الأوان قد آن ليرد للشيخ بعض أفضاله ، فانطلق مع عمه العباس حتى أتيا أبا طالب فقالا له :

— إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

— إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما .

وكان مما أنعم الله به على علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه كان فى حجر رسول الله — ﷺ — قبل الإسلام ، وفى بيت خديجة بنت خويلد فلم يبهره ما فى الدار من فاخر الرياش بل كان مأخوذا بابن عمه ، وبذلك النور الذى كان يملأ الغرفة التى أعدها ابن عمه لعبادته .

وكان الصبى يجلس إلى ميسرة غلام خديجة يسمع منه فى إعجاب ما كان من أبى القاسم لما خرج معه إلى الشام فى تجارة مولاته ، إن محمدا قد أسر الناس فى الأسواق بيسره ودماثة خلقه ولين جانبه . وكان ميسرة يقول فى حماس . إن أبا القاسم قد خلق ليكون أعظم تاجر فى جزيرة العرب وإن أمانته تؤهله لذلك ، ولكن عليا على الرغم من صغر سنه كان يستشعر فى أعماقه أن ابن عمه قد خلق لشىء أعظم من ذلك ، فهو زاهد فى عرض الدنيا لا يحفل كثيرا بالمال ، وهو ينفقه إنفاق من لا يخشى الفقر ، فهو جواد كالغيث كريم كالسحاب .

وجاء ما أكد حدس الصبى فبعث الله رسوله بشيرا ونذيرا للناس كافة ، فآمن به وصدّق بما جاءه من الله تعالى ، وكان إذا حضرت الصلاة خرج رسول الله

صلوات الله وسلامه عليه إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب وهو ابن عشر سنين مستخفيا من أبيه ، ولكن أبا طالب عثر عليهما يوما وهو يصليان ، فقال لرسول الله — ﷺ :

— يا بن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟

— أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه .

— أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين أبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت .

قطب الصبى جبينه وطاف به حزن ، كان يطمع فى إسلام أبيه ، وقد خفف من لوعته أن الأمل فى إسلام أبى طالب كان يراوده ما دام أبو طالب حيا ، ولكن أبا طالب قد وافاه أجله دون أن يربط لسانه بشهادة الحق ؛ كان فى قرارة نفسه يؤمن أن الله أكبر من أن يبعث بشرا رسولا . إن عليا كرم الله وجهه كلما تذكر أن الشيخ مات على الكفر أحس غصة فى حلقه ودموعا تبلل مقلتيه .

إنه فى تلك الليلة التى هاجر فيها الرسول — ﷺ — نام على فراشه وتسجى ببرده الحضرمى الأخضر ، ولم ترتعد فرائصه وإن كان يعلم أن قريشا اجتمعت على باب الرسول يرصدونه حتى ينام ليثبوا عليه ويضربوه ضربة رجل واحد ، وأنهم قد يدخلون عليه فى أية لحظة ينتهبونه بأسيافهم .

كان هادىء النفس مطمئن الفؤاد فهو منذ أعلن إسلامه قد وطد العزم على أن يكون نحره قبل نحر رسوله ، وأن يفدى ابن عمه الذى اصطفاه ربه بالروح ، وهاجر الرسول — صلوات الله وسلامه عليه ولم يخلص إلى على شىء يكرهه من أعداء الإسلام ، فراح على يؤدى الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول

الله — ﷺ — ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته — ﷺ .

وهاجر إلى المدينة ونزل بقباء ليلتين ، فرأى امرأة مسلمة لا زوج لها يأتيها إنسان فى جوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئا معه فتأخذه ، فاستراب بشأنه فذهب إلى المرأة وقال لها :

— يا أمة الله من هذا الرجل الذى يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئا لا أدرى ما هو ، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟

— هذا سهل بن حنيف بن واهب قد عرف أنى امرأة لا أحد لى ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءنى بها فقال احتطبى بهذا .

وكانت صداقة بينه وبين سهل بن حنيف ، ولم يدر فى خلده فى ذلك الوقت أن سهلا سيقف إلى جانبه فى الفتنة الكبرى ، وأنه سيهلك عنده بالعراق .

وآخى رسول الله — ﷺ — بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال :

— هذا أخى .

واشتد وجيب قلب الفتى وامتلأ صدره رضا ، فإمام المتقين ورسول رب العالمين قد أعلن على الملأ أنه قد آخى بين نفسه التى لا نظير لها فى العباد وبين ابن عمه الذى شبَّ فى حجره يغترف من نبع الحكمة ، ويروى ذاته المتعطشة إلى العلم من أنهار المعرفة المتدفقة من لدن العليم الخبير إلى صدر رسوله المصطفى الأمين .

وكان الفتى رفيق عمار بن ياسر فى غزوة العشيرة ، فلما نزلها رسول الله — ﷺ — وأقام بها رأيا أناسا من بنى مدلج يعملون فى عين لهم وفى نخل ، فقال على ابن أبى طالب لعمار :

— يا أبا اليقظان هل لك فى أن نأتى هؤلاء القوم فننظر كيف يعملون ؟

— إن شئت .

فجاءاهم فنظرا فى عملهم ساعة ، ثم غشيهما النوم فانطلقا حتى اضطجعا فى صفار النخل وفى تراب لين فناما ، فوالله ما أيقظهما إلا رسول الله — ﷺ — يحركهما برجله وقد تتربا من ذلك التراب اللين الذى ناما فيه ، فيومئذ قال رسول الله — ﷺ — لعلى :

— مالك يا أبا تراب ؟

لما يرى عليه من التراب ، ثم قال :

— ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين ؟

— بلى يا رسول الله .

— أحيْمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا على على هذه — ووضع يده على قرنه — حتى يبلل منها هذه — وأخذ بلحيته .

وكانت كنية أبى تراب أحب كناه إلى نفسه .

وخرج المسلمون إلى بدر وكانت إبل أصحاب رسول الله — ﷺ — يومئذ سبعين بعيرا فاعتقبوها ، فكان رسول الله — ﷺ — وعلى بن أبى طالب ومرثد ابن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا ، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله — ﷺ — يعتقبون بعيرا ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا ، أين ذلك اليوم من يوم حنين ؟ كانوا يوم بدر قلة ولكن قلوبهم عامرة باليقين ، وكانوا يوم حنين يقولون فى غرور لن نغلب اليوم عن قلة ، بينما كان فيهم منافقون يترصدون الأحداث لينفثوا سموم الهزيمة فى قلوبهم .

وقتل على بن أبى طالب يوم بدر الوليد بن عتبة فبذر بذرة الكراهية فى قلب أخته هند بنت عتبة ، فكانت تربى ابنها معاوية بن أبى سفيان على كراهية ابن أبى

طالب . ولم ينج بيت من بيوت قريش من سيف على بن أبى طالب البتار ، فقد قتل منهم سبعة وثلاثين رجلا ، فكانت قريش كلها تتحرق شوقا للثأر من ربيب محمد وفارسه . وقد دخلت قريش كلها فى الإسلام بعد فتح مكة ولم تخمد نار العداوة لفتى الإسلام بل ظلت ذمنة تحت الرماد ، حتى إذا ما هبت رياح الفتنة بعد مقتل عثمان تأججت نيران الثأر القديم والحقد الدفين ليكتوى بها الإمام .

وكان يوم أحد ، فراح مصعب بن عمير يقاتل دون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يحمل لواء المهاجرين ، وقتل مصعب فأعطى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اللواء علىّ بن أبى طالب فتقدم على فقال :

— أنا أبو الفُصم[1] .

فناداه أبو سعد بن أبى طلحة وهو صاحب لواء المشركين ، قال فى سخرية :

— هل لك يا أبا الفصم فى البراز من حاجة ؟

— نعم .

فبرزا بين الصفين ، فاختلفا ضربتين فضربه على فصرعه ، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه فقال له أصحابه :

— أفلا أجهزت عليه ؟

— إنه استقبلنى بعورته فعطفتْنى عنه الرحم ، وعرفت أن الله عز وجل قد قتله .

كانت ضربة فتى الإسلام وترا فما كان فى حاجة إلى أن يجهز على الرجل فضربته قاتلة ليس لها دواء .

وعصى الرماة أوامر النبى — صلى الله عليه وسلم — فكانت الهزيمة ، ولما انصرف أبو سفيان

---

(١) الفصم : كسر بغير بينونة ، ككسر القضيب الرطب ونحوه .

ومن معه نادى :

ــ إن موعدكم بدر للعام القابل .

فقال رسول الله ــ ﷺ ــ لرجل من أصحابه :

ــ قل نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسول الله ــ ﷺ ــ على بن أبى طالب فقال :

ــ اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثم لأناجزنهم .

فخرج على فى آثارهم وقد امتلأ شفقة على المسلمين ، فعبد الرحمن بن عوف أصيب فوه فهُتم ، وجُرح عشرين جراحة أو أكثر أصابه بعضها فى رجله فعرج ، وترس دون رسول الله ــ ﷺ ــ أبو دجانة بنفسه يقع النبل فى ظهره وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبل ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته ، وكسرت رباعية النبى ــ ﷺ ــ وشج فى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه ، وقتل « أسد الله » حمزة بن عبد المطلب ، وقتل رجال من الأنصار والمهاجرين ، وأصاب الجهد المسلمين .

وجنب أبو سفيان ومن معه الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة ، فاستشعر على راحة وتنفس الصعداء فلن يكون قتال فى المدينة بين المسلمين المثخنين بالجراح وبين أعدائهم الذين فضلوا أن يعودوا إلى مكة وفى ركابهم نصر ، وإن لم يكن نصرا حاسما ولكنه نصر على أى حال .

وعاد رسول الله ــ ﷺ ــ إلى داره ومعه ربيبه وحبيبه وأخوه على بن أبى طالب ، وناول عليه السلام سيفه ابنته فاطمة فقال :

ــ اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

وناولها على بن أبى طالب سيفه فقال :

ـــ وهذا أيضا فاغسلى عنه دمه ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهيل بن حنيف وأبو دجانة .

وساد الصمت برهة ، ثم قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لعلى :

ـــ لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا .

وصدق رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فما أصاب المشركون منهم مثلها حتى فتح الله عليهم مكة .

وجاءت قريش بزهوها يوم الخندق إلى المدينة وهى تحرض القبائل على المسير معها ، فعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن عبدود وهبيرة بن أبى وهب المخزوميون ، وضرار بن الخطاب الشاعرابن مرداس تلبسوا للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا :

ـــ تهيئوا يا بنى كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم .

ثم أقبلوا تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا :

ـــ والله إن هذا لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع ، وخرج على بن أبى طالب عليه السلام فى نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تسرع نحوهم ، وكان عمرو به عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلما ليرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله قال :

ـــ من يبارز ؟

فأراد على بن أبى طالب أن يتقدم لمبارزته ولكن رسول الله ـــ ﷺ ـــ حال بينه وبين ذلك ، فقد قتل يوم بدر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه الحارث ، وقتل يوم أحد عمه حمزة بن عبد المطلب ، وهو يخشى أن يقتل فى هذه الغزوة ربيبة وحبيبه وزوج الزهراء ، ولكن عليا صمم على قتال ابن عبد ود فراح رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ يبتهل إلى الله فى حرارة أن يبقى له خير أهله الذى نشأ فى حجره ، والذى أحبه من كل قلبه .

وبرز على بن أبى طالب لعمرو بن عبد ود فقال له :

ـــ يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

ـــ أجل .

ـــ إنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام .

ـــ لا حاجة لى بذلك .

إن ربيب محمد ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ قد حفظ الدرس الذى لقنه رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ للمسلمين : أن يعرضوا السلام قبل القتال ، فالله لا يحب المعتدين ، وقد دعا ابن أبى طالب عدوه إلى الله فأبى ، فقال له على بعد أن يئس من سلمه :

ـــ فإنى أدعوك إلى النزال .

ـــ لم يا بن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

ـــ لكنى والله أحب أن أقتلك .

فاشتد غضب عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علىّ فتنازلا وتجاولا ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يبتهل فى حرارة ويدعو ربه أن ينصر ابن عمه ولا يفجعه فيه ، وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ، وأعلنت

أصواتهم فى فرح أن عليا قتل ابن عبد ود ، فالتفت رسول الله — ﷺ — وقد امتلأ قلبه بالشكر لله ، فرأى خيل المشركين منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة .

وخان بنو قريظة عهد رسول الله — ﷺ — واتفقوا مع قريش على أن يخذلوا رسول الله عليه السلام وأن يفتحوا لهم الطريق الذى كان عليهم أن يدافعوا عنه ، ليطوقوا المسلمين فى الخندق ، ولولا لطف الله وهبوب الرياح التى اقتلعت خيام قريش وكفأت قدورهم فاضطروا للرحيل لتمت المؤامرة وقضى قضاء مبرما على الإسلام والمسلمين ، إنها خيانة عظمى للدولة ليس لها جزاء إلا القتل ، فأمر رسول الله — ﷺ — مؤذنا فأذن فى الناس :

— من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة .

وقدم رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة ، وابتدرها الناس . فسار على بن أبى طالب حتى إذا دنا من الحصن سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله — ﷺ — وضايق ابن أبى طالب أن يسمع رسول الله — ﷺ — السباب من أفواه اليهود ، فرجع حتى لقى رسول الله — ﷺ — بالطريق فقال :

— يا رسول الله لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث .

— لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى .

— نعم يا رسول الله .

وكان رسول الله — ﷺ — أعلم بأخلاق اليهود من ربيبه وحبيبه فقال :

— لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .

فلما دنا رسول الله — ﷺ — من حصونهم قال :

— يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟

— يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

وكان جزاؤهم جزاء من يرتكبون جريمة الخيانة العظمى للدولة التى

يعيشون فيها أثناء حرب تنذر بالقضاء على الدولة و معتقداتها ، فضربت أعناقهم .

وكانت غزوة بنى المصطلق وسقوط عقد عائشة وتخلفها للبحث عنه ، ومرور ابن المعطل بها واحتماله إياها على بعيره وحديث الإفك وخطبة الرسول فى الناس بذكر إيذاء قوم له فى عرضه ، ثم دعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى على عائشة خيرا وقالة ، ثم قال :

— يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .

وأما على فإنه قال :

— يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها ستصدقك .

ولم يكن على يريد النيل من عائشة ، كان هدفه أن يقطع دابر ذلك القلق الذى استولى على حبيبه ، فدعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بريرة ليسألها ، فقام إليها على بن أبى طالب فضربها ضربا شديدا ويقول :

— اصدقى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

— والله ما أعلم إلا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئا إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله .

ونزلت براءة عائشة من فوق سبع سماوات ، واطمأن قلب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وفرح على لبراءة عائشة فقد كان على يقين من أنها أحب زوجات رسول الله عليه السلام إليه ، ولكن قول ابن أبى طالب وفعله جرح كبرياء عائشة جرحا عميقا لم تقو الأيام على برئه ، فلما قتل عثمان نكأت الأحداث جرح النفس فخرجت عائشة تطالب بدم عثمان ، وكانت وقعة الجمل ، وكان أن قُتل صحابة الرسول بأسياف صحابة الرسول بعد أن كانوا سيوف الله المسلولة فى وجه أعداء الإسلام .

وكان صلح الحديبية ، ثم نقض قريش لذلك الصلح بأن تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم من أصابوا وكانوا فى عقد رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ، وكان أن خافت قريش أن يصل أمر ذلك إلى رسول الله عليه السلام فينهض لنصرة حلفائه ، فبعثت أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة ، ولكن أبا سفيان قدم على رسول الله — ﷺ — المدينة بعد أن خرج عمرو بن سالم الخزاعى إلى رسول الله — ﷺ — فاستنصره فنصره .

ودخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين ، إنها كانت من أوائل المسلمات وقد هاجرت إلى الحبشة وتنصر هناك زوجها وبقيت هى على دينها ، وتزوجها النبى — ﷺ — لعل هذه المصاهرة تخفف من عداوة بنى أمية عامة وأبى سفيان خاصة ، ولكن هذه الزيجة لم تحقق هدفها السياسى ، فقد بقى أبو سفيان بن حرب على عداوته للإسلام والمسلمين .

إن أم حبيبة مسلمة مؤمنة بالدين الذى اعتنقته وإن أباها ليعلم ذلك ، ولكن زعامته مهددة إذا ما أخفقت سفارته ، بل إن مكانة مكة كلها قد أصبحت فى الميزان ، ولا بد أن أم حبيبة ستفطن إلى كل ذلك وإلى حرج موقف أبيها فتمد يد العون إلى سيد قريش وتشفع له عند زوجها الذى صار مفتاح الموقف فى يده :

وذهب ليجلس على فراش رسول الله — ﷺ — فطوته عنه ، فلاح الدهش فى وجهه وقال وهو يتفرس فيها فى عجب :

— يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى .

— بل هو فراش رسول الله — ﷺ — وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله — ﷺ — .

وتقاصرت نفس شيخ قريش فما دار فى خلده أن يأتى يوم يطوى عنه فراش ،

وهو الذى قدمت إليه النمارق فى قصر كسرى وكانت الأبواب تفتح له فى قصور الشام. ومن ذا الذى طوى عنه الفراش؟ إنها أم حبيبة ابنته التى كانت أطوع له من بنانه قبل أن يفرق محمد بن عبد الله بتعاليمه بينه وبينها.

وهب غاضبا وقال:

— والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فلم يرد عليه شيئا، فاستشعر مذلة وراودته فكرة أن يعود من حيث جاء؛ ولكنه وجد فى رجوعه خائبا نهايته فعزم على أن يسير إلى آخر الشوط وأن يقرع كل الأبواب وإن كان فى ذلك إراقة لماء وجهه، فالمهانة التى قد تلحقه فى المدينة أهون من أن يعود إلى مكة دون أن يشد العقد ويزيد فى المدة.

ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله — ﷺ — فقال:

— ما أنا بفاعل.

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال:

— أأنا أشفع لكم إلى رسول الله — ﷺ؟ — فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به.

ثم خرج فدخل على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله — ﷺ — وعندها حسن بن على غلام يدب بين يديها، فقال:

— يا علىّ إنك أمس القوم بى رحما، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا، فاشفع لى إلى رسول الله.

— ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله — ﷺ — على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة فقال:

ـــ يابنة محمد هل لك أن تأمرى بنيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

قالت :

ـــ والله ما بلغ بُنىَّ ذاك أن يُجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ فالتفت إلى علىّ وقال فى هوان :

ـــ يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى .

ـــ والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك .

ـــ أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟

ـــ لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان فى المسجد فقال :

ـــ أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس .

ثم ركب بعيره فانطلق ، فلما قدم على قريش قالوا :

ـــ ما وراءك ؟

ـــ جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد على شيئا ، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم وقد أشار على بشىء صنعته فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئا أم لا ؟

ـــ وبم أمرك ؟

ـــ أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت .

ـــ فهل أجاز ذلك محمد ؟

ـــ لا .

— ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك فما يغنى عنك ما قلت .

— لا والله ما وجدت غير ذلك .

كان على بن أبى طالب لينا ولكنه كان داهية ، ولولا التقى والدين لكان أدهى العرب ، فالدهاة يفجرون وربيب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لا يفجر بل يتقى الله فيما يفعل وفيما يقول .

وكان رسول الله — ﷺ — يحب عليا وكان ذلك الحب يثير غيرة المنافقين ، فلما خلف رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم عندما خرج لغزوة تبوك وجد المنافقون فى ذلك فرصة لإ يغار صدر علىّ على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقالوا :

— ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه .

فلما بلغ القول مسامع على أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — وهو نازل بالجرف فقال :

— يا نبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى أنك — استثقلتنى وتخففت منى .

— كذبوا ولكننى خلفتك لما تركتُ ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ؟

كان عبد الله بن أبى بن سلول كبير المنافقين فى المدينة لم يخرج مع المسلمين للغزو ، وقد قعد المنافقون عن الجهاد ، فكان من الحكمة أن يبقى رجل قوى الشكيمة من أهل بيت الرسول يقطع رأس الفتنة إذا ما زينت لها أطماعها أن تتحرك ، فرجع على إلى المدينة ليخلف رسول الله — ﷺ — لما ترك وراءه من أهله ومن أعداء الله وأعداء رسوله .

ونزل صدر سورة براءة على رسول الله — ﷺ — وقد كان بعث أبا بكر

الصديق ليقيم للناس الحج ، قيل له :

— يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟

— لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى .

ثم دعا على بن أبى طالب فقال له :

— اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله — ﷺ — عهد فهو له إلى مدته .

فخرج على بن أبى طالب على ناقة رسول الله — ﷺ — العضباء حتى أدرك أبا بكر فى الطريق ، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال :

— أأمير أم مأمور ؟

إن أبا بكر يقبل بقلب سليم كل ما يأتى من عند رسول الله — ﷺ — فسواء عنده أن يكون أميرا أو مأمورا فقد جبل على الطاعة منذ إشراق قلبه بنور الإسلام ، فقال على :

— بل مأمور .

ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله — ﷺ — فقال :

— أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله — ﷺ — عهدا فهو له إلى مدته .

وأجلّ الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله — ﷺ — عهد إلى مدة فهو له إلى مدته .

ولو رفعت الأسجاف عن الغيب القريب لرأى الناس أن ذلك كان تدبير العزيز الحكيم لآخر حجة يحجها رسوله الأمين ليضع آخر اللمسات فى الدين القيم ، وليكمل الله للناس دينهم ويتم عليهم نعمته ويرضى لهم الإسلام دينا .

* * *

وفتح دار فى السنح فخرج منه شيخ جليل فى الثامنة والخمسين من عمره ، نحيف قد انحنى ظهره قليلا ، وديع كالحمل ، مستقيم الضمير سهل لين ، متواضع يألفه الناس؛ ذهنه متفتح للفهم والتفكير ، مطبوع على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصلاح ؛ وراح يوسع من خطوه فى عماية الصبح ليصلى الفجر خلف صاحبه الذى لم يفارقه فى طفولته وشبابه وشهد معه المشاهد كلها ، إنه أبو بكر الصديق ثانى اثنين إذ هما فى الغار .

تأثر بصاحبه منذ نعومة أظفاره فتعلم منه قبل أن يبعث الكفر بالأصنام والاستخفاف بعبادة قومه ، فلما ناهز الحلم أخذ أبو قحافة بيده فانطلق به إلى مخدع فيه الأصنام فقال :

— هذه آلهتك الشم العوالى .

وخلاه وذهب ، فدنا من الصنم وقال :

— إنى جائع فأطعمنى .

فلم يجبه فقال :

— إنى عار فاكسنى .

فلم يجبه ، فألقى عليه صخرة فخر لوجهه ، وفى تلك اللحظة انهارت جميع الحواجز والسدود التى قد تقف فى سبيل اعتناقه دينا جديدا يقبله عقله المتفتح للفهم وقلبه الذى خلا من التعصب للدين الذى وجد آباءه عليه عاكفين .

وبعث الله محمدا — ﷺ — بشيرا ونذيرا فعرض الإسلام على رفيق صباه ،

فأسلم أبو بكر بن أبى قحافة ولم يتردد بعد أن وجد أن ما يعرضه عليه رسول الله — ﷺ — يستقيم مع الفطرة ويتساوق مع منطق الوجود ، ولما كان شجاعا يجهر بالحق فقد أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله ؛ فأسلم بدعائه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة المخزومى والأرقم بن أبى الأرقم وعثمان ابن مظعون وأخواه .

وكان عثمان بن مظعون أحد من حرم الخمر فى الجاهلية وقال :

— لا أشرب شرابا يذهب عقلى ، ويضحك بى من هو أدنى منى ، ويحملنى على أن أنكح كريمتى .

فلما حرمت الخمر أتى وهو بالعوالى فقيل له :

— لقد حرمت .

— تبا لها ، قد كان بصرى فيها ثاقبا .

أقبل أبو بكر على الإسلام بكل كيانه وحماسه ، ودخل فى الإسلام من بعده خلق كثير ، ولكن إسلام أبى بكر كان شيئا هاما فى الإسلام ترك أثرا عميقا فى وجدان رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، حتى إنه كان يقول :

— ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة[1] ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما عكم[2] عنه حين ذكرته له وما تردد فيه .

وكان أبو بكر مذ أول يوم دخل فيه فى الدين الجديد عونا للإسلام ونبى الإسلام عليه السلام ، فقد كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه يطوف

(١) الكبوة : التأخير وقلة الإجابة . وهو من قولهم كبا الزند : إذا لم يور نارا .

(٢) عكم : تلبث .

بالبيت فوثب إليه أشراف قريش وثبة رجل واحد وأحاطوا به ، وأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول :

— أتقتلون رجلا أن يقول ربِّيَ الله ؟

وفهم أبو بكر روح الإسلام فهما عميقا ، إنه جاء ليحرر الأرواح ويفك الرقاب ، فما أتيحت له فرصة ليعتق عبدا إلا اهتبلها ، إنه أعتق مولاه عامر بن فهيرة وأم عبيس وزنِّيرة ، وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش :

— ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى .

فقالت :

— كذبوا وبيت الله ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان .

وأعتق النهدية وبنتها وكانتا لامرأة من بني عبد الدار ، فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول :

— والله لا أعتقكما أبدا !

— حِلِ[1] يا أم فلان .

— حِل ، أنت أفسدتهما فأعتقهما .

— فبكم هما ؟

— بكذا وكذا .

— قد أخذتهما وهما حرتان ، أرجعا إليها طحينها .

قالتا وقد أرهف الإسلام إحساسهما بالمسئولية :

— أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟

— وذلك إن شئتما .

---

(١) حل : يريد تحللي من يمينك واستثنى فيها .

ومر بجارية بنى مؤمل — حى من بنى عدى بن كعب — وكانت مسلمة ، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ مشرك ، وهو يضربها حتى إذا مل قال :

— إنى أعتذر إليك ؛ إنى لم أتركك إلا ملالة .

— كذلك فعل الله بك .

فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

ومر أبو بكر ببلال وهو يعذب وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح ، فقال لأمية ابن خلف :

— ألا تتقي الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟

— أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى .

— أفعل . عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به .

— قد قبلت .

— هو لك .

فأعطاه أبو بكر الصديق غلامه ذلك ، وأخذ بلالا وأعتقه .

وكان أبو قحافة يرى ما يفعل ابنه فيعجب فى نفسه ، كان أبو قحافة على دين قومه ولم يكن قد أسلم فلم يتشرب روح الإسلام بعد ، فكان عسيرا عليه أن يفهم صنيع ابنه فهو يقيس أفعال أبى بكر بمقاييس مادية لا تصلح لقياس الأفعال فى الدين الجديد .

قال أبو قحافة لأبى بكر :

— يا بنى إنى أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جُلْدا يمنعونك ويقومون دونك ؟

— يا أبت إنى إنما أريد ما أريد لله عز وجل .

فأنزل الله فيهما : « فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يغنى عنه ماله إذا تردى . إن علينا للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى »(١) .

واضطهد كفار قريش المسلمين فضاقت على أبى بكر مكة وأصابه فيها الأذى ، فاستأذن رسول الله — ﷺ — فى الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين لقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش فقال :

— أين يا أبا بكر ؟

— أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىّ .

— ولم ؟ والله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم . ارجع فأنت فى جوارى .

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش إنى قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرضن له أحد إلا بخير .

فكفوا عنه . وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جمح فكان يصلى فيه ، وكان رجلا رقيقا إذا قرأ القرآن استبكى ، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة فقالوا له :

---

(١) الليل ٥ — ١٢

— يا ابن الدغنة إنك لم تُجر هذا الرجل ليؤذينا ! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى وكانت له هيئة ونحو ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء .

فمشي ابن الدغنة إليه فقال له :

— يا أبا بكر إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

— أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

— فاردد على جوارى .

— قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش إن ابن أبى قحافة قد رد علىَّ جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .

ولقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة فحثا على رأسه ترابا ، فمر بأبى بكر الوليد بن المغيرة فقال أبو بكر :

— ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟

— أنت فعلت ذلك بنفسك .

فرفع أبو بكر عينيه إلى السماء وقال :

— أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! .

وأسرى برسول الله — ﷺ — فغدا رسول الله عليه السلام على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس :

— هذا والله الإمر (العجب) البين ، والله إن العير لتُطرد شهرا من مكة إلى الشام مُدبرة وشهرا مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟

فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا له :

ـ هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة .

ـ إنكم تكذبون عليه .

ـ بلى ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس .

فقال أبو بكر فى إيمان عميق :

ـ والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

إنه يؤمن برسالة محمد عليه السلام ويصدق كل ما جاء به ، فهو الصدّيق ، ولو وزن إيمان الأمة ووزن إيمان أبى بكر لرجح إيمان أبى بكر .

وهاجر المسلمون إلى المدينة وأقام رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة . ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق .

وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله ـ ﷺ ـ فى الهجرة فيقول له رسول الله ـ ﷺ ـ :

ـ لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا .

فيطمع أبو بكر أن يكونه ، فلما أذن الله تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ بالهجرة انطلق إلى دار أبى بكر فقال :

ـ إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .

ـ الصحبة يا رسول الله .

ـ الصحبة .

وبكى أبو بكر من الفرح ثم قال :

— يا نبى الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا .

فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمد إلى غار بثور فانتهيا إليه ليلا . فدخل أبو بكر قبل رسول الله — ﷺ — فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية ، يقى رسول الله — ﷺ بنفسه .

ومضت ثلاثة أيام وسكن عنهما الناس ، فأتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيريهما وبعير له ، فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله — ﷺ — قدم له أفضلها ثم قال :

— اركب فداك أبى وأمى .

— إنى لا أركب بعيرا ليس لى .

— فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى .

— لا ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟

— كذا وكذا .

— قد أخذتها به .

— هى لك يا رسول الله .

فركبا وانطلقا ؛ رسول الله — ﷺ — مطمئن الفؤاد تنكشف له الحقائق بكشف إلـهى وتنسكب فى قلبه الأنوار ويرى ببصيرته النافذة عالم الملكوت فيشاهد ما وراء حواسه ويستشعر شعورا صادقا لا ريب فيه أنه مع الله وأن الله معه ، وأبو بكر الصديق متفرح فى الله يعيش بكل كيانه فى اللحظة الخالدة التى تحتويه . إنه اختار الطريق وإنه يتحمل راضيا ما يقاسيه من آلام فراق الأهل والأحباب والأوطان ، فإرادته الحرة قد غمرته بسعادة طاغية يهون فى سبيلها أى ألم ، إنه قطع كل علائقه بالدنيا وأقبل بكنه الهمة على الله فأشرقت ذاته بأنوار تبهر ما

فى النفس من آمال زائغة وأطماع زائلة . إنه ذاق حلاوة الإيمان فملئ شوقا إلى ما عند الله .

كانت قافلة صغيرة تسرى فى معبد الكون ؛ رسول الله ـ ﷺ ـ قد رطب لسانه بذكر الله ، وأبو بكر الصديق يفكر فى جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه فأنساه ذلك الخطر المتربص بهما فى الطريق ، كان عميق الإيمان بأن الله ناصر رسوله ومبلغه مأمنه ، فهو سبحانه الذى أشار على عبده بالهجرة ولن يضيعه ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يخدمهما فى الطريق ، وكان الدليل ينطلق بهم فى شعاب غير مطروقة ليبتعد بهم عن الأنظار !

كان الركب صغيرا ولكن الحدث كان أعظم حدث فى تاريخ البشرية ، كان سوس الفساد ينخر فى شجرة الحضارة ، اتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا ، الرعية يعبدون ملوكهم بعد أن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم،والأقوياء يستعبدون الضعفاء ، والأغنياء يعيثون فى الأرض فسادا بأموالهم ، والوجود قد رانت عليه الظلمات ، حياة بلا أمل وضياع بلا نهاية . الدولة الرومانية غائبة فى غيبوبة الخمر واللذات الحسية قد صمت أذنيها عن أنات الشعب الذى طحنته المظالم والضرائب الجائرة ، وقيصر قد صار إلـٰها ، والكنيسة أعرضت عن السماء وصار القصر الإمبراطورى مصدر وحيها ونبع بركاتها ، والمترفون يتخذون الرجال شهوة من دون النساء ، والدولة الإيرانية ساجدة أمام بيوت النار قد سرى فى جنباتها الفساد بعد أن أنهكتها الحروب وخوت خزائن الأموال ، فراح الأقوياء يهضمون حقوق الضعفاء ، وصارت الحياة بلا هدف كأنما كان خلق الكون باطلا وعبثا ، وفى ذلك الوقت الذى وصل فيه العفن إلى قلب البشرية ، كان الركب الصغير الذى خرج من مكة ، فرارا من الاضطهاد متجها إلى المدينة هو النور والأمل والبلسم الشافى لكل أمراض الإنسانية .

إنه إعلان أن لا عبودية بعد اليوم إلا لله وحده ، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وأن الإنسان خليفة الله فى أرضه ، وأنه حر رقبته حرة وإرادته حرة ، له أن يعتقد ما يشاء وأن يفكر كيف يشاء وأن يحتمل مسئولية حرية إرادته وحرية فعله وتفكيره ، ولم تعد الحياة عبثا تنتهى بخمود الأنفاس بل هى بداية لحياة أخرى خالدة ، حياة توفى فيها كل نفس ما عملت ولا يظلم ربك أحدا .

أصبح العمل عبادة ، وطلب العلم عبادة ، وطهارة النفس والبدن عبادة ، وإنفاق المال فيما أمر به الله عبادة ، والصدق فى القول والعمل عبادة ، وبر الوالدين عبادة ، ومحاربة الظلم عبادة ، وكف الأذى عن الناس عبادة ، وبذل المعروف لأهله ولغير أهله عبادة ، وحب الخير للبشرية جمعاء عبادة ، والصبر على المكروه عبادة ، وإماطة الأذى من الطريق صدقة ، وابتسامتك فى وجه أخيك صدقة .

خرج محمد — صلى الله عليه وسلم — من مكة ليس معه إلا صاحبه أبو بكر الصديق ، ولم تمض إلا سنوات حتى عاد إلى مكة فى عشرة آلاف من الأبرار ليحطم الأصنام ويطهر منارة التوحيد من الشرك ويعيد للبشرية كرامتها ، وقد فاضت النهضة التى سعدت بها الجزيرة العربية على الرومان والفرس فجددت شباب الحضارة المتداعية وزينتها بمكارم الأخلاق ، فهرقل إمبراطور الروم لما بلغه نبأ تحطيم الأصنام فى البلاد العربية قام ينادى بإزالة التماثيل والصور من الكنائس فكانت حرب الصور ، ولم ينجح هرقل فى أن يحقق بعض ما حقق رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وظل الاستبداد الطبقى مسيطرا على الدولة الرومانية والدولة الفارسية ، فكان على العرب حملة مشعل الحرية أن يغزوا دولتى الفرس والروم لتمكين الحرية والمساواة فى الأرض ، والقضاء على الطبقة المستبدة العاملة على استعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

وسمع المسلمون فى يثرب بخروج رسول الله — ﷺ — من مكة فانتظروا قدومه ، فكانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر حرّتهم ينتظرون رسول الله — ﷺ — وأكثرهم لم يكونوا رأوا رسول الله — ﷺ — إنهم سمعوا ما أنزل عليه من القرآن فانشرحت صدورهم للإسلام ، كانوا يلقون أسماعهم إلى شعراء الأوس والخزرج يصيخون إلى ما يلقى فى الأسواق من حكم وأشعار فكانوا يتذوقون البيان . فلما أنصتوا إلى آيات الله البينات أشرقت أفئدتهم بالأنوار ، فتلقفت يثرب وحى السماء فى شوق وإكبار ، وفتح القرآن العظيم أبواب يثرب على مصاريعها للوافد الكريم .

وقدم رسول الله — ﷺ — فخرجوا إليه وهو فى ظل نخلة ومعه أبو بكر ، فازدحم الناس عليه وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله — ﷺ — فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفوه عند ذلك .

لم يعرفوه يوم مقدمه ، أما الآن فهو أبو الجميع والروح السارى فى جنبات المدينة والأسوة الحسنة والأمل المشرق قد نزل حبه فى سويداء القلوب ، إذا رآه الصغار هرعوا إليه فرحين فهو يغمرهم بعطفه ، ويداعبهم ويلاعبهم وما ينهر أحدا منهم بل يزجى إليهم النصح فى حب غامر وحدب شديد ، وإذا مرّ بحى فسرعان ما تحل البهجة بالدور وتنشرح صدور الرجال والنساء والولدان ، فهو يفشى السلام ويعود المرضى ويواسى المكروبين ، وإذا دعاه عبد أن ينطلق معه إلى السوق أو إلى أى مكان فإنه ينطلق معه يحدثه فى ود فهو على خلق عظيم .

وآخى — ﷺ — بين المهاجرين والأنصار ، فكان أبو بكر الصديق وخارجة بن زهير أخوين بلحارث بن الخزرج أخوين ، وبلال مؤذن الرسول وأبو رويحة أخوين ، وقد ظل المهاجرون يذكرون هذه المؤاخاة حتى إنه لما دون عمر

ابن الخطاب الدواوين[1] بالشام ، وكان بلال قد خرج إلى الشام فأقام بها مجاهدا ، قال عمر لبلال :

ـ إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟

ـ مع أبى رويحة لا أفارقه أبدا ، للأخوة التى كان رسول الله ـ ﷺ ـ عقد بينه وبينى .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يدخل مجامع اليهود يجادلهم بالتى هى أحسن ، وكان أبو بكر الصديق يذهب إلى حيث كان اليهود يتدارسون كتابهم ويعرض عليهم الإسلام . وذات يوم دخل بيت المدارس على يهود فوجد منهم ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر من أحبارهم يقال له أشيع ، فقال أبو بكر لفنحاص :

ـ ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، والله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل .

فقال فنحاص لأبى بكر :

ـ والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم .

وثارت الدماء فى عروق أبى بكر وغضب لله غضبا شديدا ، فضرب وجه فنحاص ضربا أليما وقال :

ـ والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله .

---

(١) ديوان : نصيب فى العطاء .

إن الرجل الحليم قد ثار لله، وإنه وهو الرجل السهل اللين إذا ثار لله لا يبقى ولا يذر، فبين جنبى جسمه النحيل قلب جسور وعزم من حديد.

وذهب فنحاص إلى رسول الله — ﷺ — فقال:

— يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك.

فقال رسول الله — ﷺ — لأبى بكر:

— ما حملك على ما صنعت ؟

— يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء. فلما قال ذلك غضبت لله مما قال وضربت وجهه.

فجحد ذلك فنحاص وقال:

— ما قلت ذلك.

وضايق أبا بكر كذب عالم اليهود وحبرهم، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقا لأبى بكر: «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق»(١).

ونزل فى أبى بكر الصديق وما بلغه فى ذلك من الغضب: «ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور»(٢)، ثم قال سبحانه وتعالى فيما قال فنحاص والأحبار معه من يهود: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون. لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم»(٣).

---

(١) آل عمران ١٨١ (٢) آل عمران ١٨٦ (٣) آل عمران ١٨٧، ١٨٨

غضب أبو بكر وكان قويا فى غضبته ، وقد وضحت شخصيته القوية منذ ذلك اليوم ، فهو ليس بخوار وإنه لكفء لقتال الذين ارتدوا بعد موت رسول الله — ﷺ — ومنعوا أداء الزكاة ، ولم يكن بين صحابة رسول الله — ﷺ — غيره من يقول ما قال : « والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها لرسول الله — ﷺ — لحاربتهم عليه » .

وكان أبو بكر قليل الكلام يتكلم بخير أو يصمت ، وكان يرى نعيمان وهو يداعب رسول الله — ﷺ — أو يداعب أصحابه عليه السلام فيبتسم . وقد حدث أن خرج أبو بكر فى تجارة إلى بصرى بعد أن استقر الإسلام فى مكة ومعه نعيمان وسويبط بن سعد بن حرملة — وكان مزاحا يفرط فى الدعابة — وكان نعيمان على الزاد فقال له سويبط :

— أطعمنى .

— لا ، حتى يجيء أبو بكر .

— أما والله لأغيظنك .

فمروا بقوم فقال لهم سويبط :

— تشترون منى عبدا ؟

— نعم .

— إنه عبد له كلام ، وهو قائل لكم إنى حر ، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه فلا تفسدوا علىَّ عبدى .

— بل نشتريه منك .

فاشتروه منه بعشر قلائص ، فجاءوا فوضعوا فى عنقه حبلا ، فقال نعيمان الذى طالما أضحك النبى — ﷺ — :

— إن هذا يستهزئ بكم وإنى حر لست بعبد .

فقالوا له فى استخفاف :

— قد أخبرنا خبرك .

فانطلقوا به ، فجاء أبو بكر فأخبره سويبط ، فاتبعهم فرد عليهم القلائص وأخذه .

وبلغ أبو بكر مسجد رسول الله — ﷺ — وصوت بلال يتردد فى جنبات المدينة ، فدخل وهو يتلو بعض آيات الذكر الحكيم ، وكانت عيناه قد اعتادتا على الظلام فرأى عمر بن الخطاب فذهب ليجلس إلى جواره خلف محراب الرسول — صلوات الله وسلامه عليه .

كان عمر جبارا فى الجاهلية ينزل أقسى العذاب بمن تنكر لدين الآباء ، فكان يضطهد عامر بن ربيعة وزوجه أم عبد الله بنت أبى حثمة فيمن يضطهد من جيرانه الذين شرح الله صدورهم للإسلام ، فلما ضاق المسلمون باضطهاد قريش واستأذنوا رسول الله — ﷺ — فى الهجرة إلى الحبشة ، راحت أم عبد الله بنت أبى حثمة تتأهب للرحيل ، وذهب زوجها عامر فى بعض حاجاتها ، وأقبل عمر بن الخطاب ورأى أم عبد الله وقد عزمت على فراق الأهل والوطن ، فإذا برقة تغمر قلب الرجل الجبار فيقول فى صوت قد خلا من كل غلظة :

— إنه للانطلاق يا أم عبد الله .

— نعم والله لنخرجن فى أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجا .

— صحبكم الله .

ورأت له رقة لم تكن تراها ، ثم انصرف وقد أحزنه خروجهما فجاء عامر بحاجته تلك فقالت له :

— يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا .

— أطمعت فى إسلامه ؟

— نعم .

— فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب .

وكانت أم عبد الله أكثر فراسة من زوجها ؛ إنها لمست نفاسة معدن ابن الخطاب ، فلو أن صدأ الجاهلية قد جلى عن قلب عمر ، ولو أن عمر قد فقه فى الدين لكان من خير رجال الإسلام ، إنه لو أسلم لكان إسلامه فتحا ، فهو رجل ذو شكيمة لا يرام ما وراء ظهره .

وقد أثر خروج أم عبد الله وزوجها عامر فى نفس عمر تأثيرا عميقا : كان يفكر فى ذلك الدين الذى هان فى سبيله العذاب والاضطهاد وفراق الأهل والصحاب وهجرة الأوطان ، وكان يلقى سمعه أحيانا إلى صوت عقله ولكن شبابه الثائر كان يصده عن أن يصغى إلى ما يهمس فى وجدانه من تدبر وتفكير ، فكان يدفعه إلى الحانات ليرتمى فى أحضان الغيبوبة التى تريحه من آلام أفكاره ، وإلى حلقات المصارعة فى الأسواق ليفتن بقوته النساء .

وفى لحظات صحوه كان فكره يؤرقه ، كان الدين الذى جاء به محمد بن عبد الله يعكر عليه صفو حياته ، إنه يتذكر المعذبين والمهاجرين وذلك الفراق الذى وقع بين الأب وبنيه والزوج وزوجته . إنها فتنة أصابت كل بيت ، ولن يخمد الثورة التى اندلعت فى مكة إلا قتل الصابئ الذى سفه أحلام الآباء وأثار الأبناء على الآباء وجرأ العبيد على السادة .

وخرج عمر متوشحا سيفه يريد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ورهط من أصحابه قد ذكروا له أنهم اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام رجل من

قومه من بنى عدى ابن كعب قد أسلم وكان يستخفى إسلامه فرقا من قومه ، فقال نعيم لعمر :

— أين تريد يا عمر ؟

— أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله .

وخفق قلب نعيم خوفا ؛ إنه يعلم جبروت عمر ، وأراد أن يكسر حدته وأن يخوفه إنقاذا لحياة رسوله الذى أخرجه من الظلمات إلى النور ، فقال له نعيم :

— والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر . أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا !

وأراد أن يوجه عمر وجهة غير وجهته إلى رسول الله — ﷺ — ليبعد عنه أذاه ، فقال :

— أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

— وأى أهل بيتى ؟

— ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

لم يخن نعيم بن عبد الله سر سعيد بن زيد وفاطمة بنت الخطاب فقد كان هدفه أسمى من أن يشى بهما . إنه يريد إنقاذ حياة رسول الله — ﷺ — وإن كل شىء دون حياة الرسول عليه السلام يهون ، وإن صلة الرحم التى بين عمر وأخته فاطمة قد يكون لها أطيب الأثر فى ثورة ابن الخطاب ، فلن يصل به غضبه إلى أن يقتل أخته بينما كان عازما عزما أكيدا على قتل من فرق أمر قريش وسفه أحلامها .

ودخل عمر بيت أخته وبطش بسعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها . فلما رأى ما بأخته من الدم ندم على

ما صنع فارعوى وقال لأخته :

— أعطيني هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد !

قرأ عمر القرآن بقلبه فإذا بالغشاوة تنزاح عن عين بصيرته ، وطاب فؤاده فإذا بأنوار تنسكب فيه لتشع بالهداية فى أرجاء وجدانه ، وإذا بنسائم الألطاف تهب عليه ففاضت عليه الرحمة حتى دمعت عيناه فسالت عبراته لتغسل كل أدران ماضيه ، واستشعر كأنما قد خلق من جديد فرفع بصره عن الصحيفة وقال :

— ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

وأسلم عمر فكان إسلامه فتحا ، وأراد أن يعلن إسلامه على الملأ فقال :

— أى قريش أنقل للحديث ؟

— جميل بن معمر الجمحى .

فغدا عليه حتى جاءه فقال له :

— أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد ؟.

فقام جميل يجر رداءه واتبعه عمر ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته :

— يا معشر قريش ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .

ويقول عمر من خلفه :

— كذب ولكن قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

كانوا فى أنديتهم حول الكعبة فثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم وبلغ به الإعياء فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول :

— افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها

لكم أو تركتموها لنا .

كان المسلمون قد صاروا أربعين بعد إسلام عمر ، ولو كانوا ثلاثمائة رجل لما سكتوا على اضطهاد قريش . فبينا هم يوسعونه ضربا إذ أقبل العاص بن وائل عليه حلة حِبْرة حتى وقف عليهم فقال :

ــ ما شأنكم ؟

ــ صبأ عمر .

ــ فمه ! رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أتريدون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هكذا ؟ خلُّوا عن الرجل .

فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه ، وخرج عمر من الكعبة وانطلق إلى دار أبى جهل وكان يعلم أنه أشد أهل مكة عداوة لرسول الله ــ ﷺ ــ ليخبره أنه قد أسلم ، وراح يضرب عليه بابه فخرج إليه أبو جهل فقال :

ــ مرحبا وأهلا بابن أختى . ما جاء بك ؟

ــ جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به .

فضرب الباب فى وجهه وقال :

ــ قبحك الله وقبح ما جئت به .

وفزعت قريش لإسلام عمر بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب ، فهما لا يهابان أحدا ويصران على أن يعلنا إسلامهما فى الكعبة وأن يمارس المسلمون شعائر دينهم فى بيت الله الحرام . ففشا أمر محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فى قبائل قريش كلها ، وتأرجحت هيبة سادات البيت العتيق ، بل أصبح الخطر يهدد مكانة الكعبة قبلة قبائل العرب كلها والعروة الوثقى التى تربط العدنانيين والقحطانيين على السواء .

وبلغ الذين هاجروا إلى الحبشة نبأ إسلام عمر فأفعموا بالسرور وكانت أم

عبد الله بن أبى حثمة أكثرهم فرحا فقد رأت بعين بصيرتها جوهر عمر النفيس على الرغم مما كان يبدو عليه من غلظة ، وكانت تطمع فى إسلامه وإن سخر منها زوجها وقال : « فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب » . وها هو ذا عمر يهتدى إلى الطريق ويشرح الله صدره للإسلام فيصدق حدسها ، وقد شجع إسلام عمر كثيرا من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة على أن يعودوا إلى مكة ليقفوا إلى جوار إخوانهم فى وجه الطغيان .

وكانت هجرة عمر إلى المدينة نصرا ، فقد اتَّعد لما أراد الهجرة هو وعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص بن وائل أن يتقابلوا عند التناضب على بعد عشرة أميال من المدينة وقالوا :

— أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه .

كان عمر لا يخشى أن يحبسه قومه فقد عزم على أن يخرج على رءوس الأشهاد ، ولكنه كان يخشى أن يحبس أحد صاحبيه . فلو علم أبو جهل بخروج عياش فلن يتردد فى حبسه ، ولو علم العاص بن وائل بخروج ابنه فسيرغمه على البقاء فى مكة قسرا . وخرج عمر وقد توشح سيفه وقال قولته المشهورة : «من يريد أن تثكله أمه فليقابلنى خلف هذا الجبل » . وسار ولم يجرؤ أحد على أن يعترض سبيله ، وأصبح هو وعياش بن أبى ربيعة عند التناضب وحبس عنهما هشام وفتن فافتتن .

وقدما المدينة فنزلا فى بنى عمرو بن عوف فى قباء . وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبى ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما عليه المدينة ، ولم يحاول أبو جهل أن يجادل ابن أخته عمر بن الخطاب أو أن يغريه بالعودة إلى مكة ، بل تقدم هو والحارث بن هشام إلى عياش فكلماه وقالا :

— إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فَرِقَّ لها .

فقال عمر لعياش :

ـــ يا عياش إنه والله إن يردك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت .

ـــ أبر قسم أمي ولى هنالك مال فآخذه .

فقال عمّر فى صدق :

ـــ والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى عليه إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلا ذلك قال له :

ـــ أما إذ فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم فانج عليها .

فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل :

ـــ يا بن أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟

ـــ بلى .

فأناخ وأناخوا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عَدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة نهارا موثقا وقالا :

ـــ يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا .

وفتناه فافتتن ، فكان المسلمون فى المدينة يقولون :

ـــ ما الله قابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم !

وكان الذين افتتنوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفى قول المسلمين وقول الذين افتتنوا فى أنفسهم : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب

جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون »(١) .

فكتبها عمر بيده في صحيفة وبعث بها إلى هشام بن العاص ، فلما أتته جعل يقرؤها بذى طوى(٢) ويعيد قراءتها ولا يفهمها حتى قال :

ـــ اللهم فهمنيها .

فألقى الله تعالى في قلبه أنها أنزلت فيهم وفيما كانوا يقولون في أنفسهم ويقال فيهم ، فرجع إلى بعيره فجلس عليه فلحق برسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو بالمدينة .

وكان الناس يجتمعون إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، فهمَّ رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يجعل بوقا كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم ثم كرهه ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس إذ رأى في المنام : لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا للصلاة .

فذهب عمر إلى النبي ـــ ﷺ ـــ ليخبره بالذى رأى ، فما راعه إلا بلال يؤذن فقال له رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ قد سبقك بذلك الوحى .

وكان بلال يؤذن على أطول بيت حول المسجد وكان لامرأة من بني النجار ، وكان يأتي بسَحر فيجلس على البيت ينتظر الفجر ، فإذا رآه تمطى ثم قال :

---

(١) الزمر : ٥٣ ـــ ٥٥ (٢) طوى : مكان بأسفل مكة .

— اللهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك .

وما كان يتركها ليلة واحدة حتى جاء نصر الله والفتح .

وكانت غزوة بدر وكان رجال من بنى هاشم فى صفوف المشركين قد خرجوا مع قريش مستكرهين وهم يخفون إسلامهم حتى لا ينكشف أمرهم ، فهم مخابرات الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وكان العباس بن عبد المطلب كبيرهم وما كان من الحكمة أن يكشف النبى عليه السلام أمرهم ، فقال لأصحابه :

— إنى قد عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كَرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى ابن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها .

فقال أبو حذيفة :

— أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ! والله لئن لقيته لألجمنه[1] السيف .

فبلغت رسول الله — ﷺ — فقال لعمر بن الخطاب :

— يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله — ﷺ — بالسيف ؟

إنه لأول يوم كنى فيه رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب بأبى حفص ، فقال عمر :

— يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .

وانبلجت الحقيقة لعينى أبى حذيفة فكان يقول :

---

(١) لألجمنه : لأطعنن لحمه بالسيف ولأخالطنه به .

— ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عنى الشهادة .

فقتل يوم اليمامة شهيدا .

وانقضت غزوة بدر ولكن لم تنقض أحقادها ، فقد مر سعيد بن العاص بعمر ابن الخطاب فقال له عمر :

— إنى أراك كأن فى نفسك شيئا : أراك تظن أنى قتلت أباك ، إنى لو قتلته لم أعتذر إليك عن قتله ، ولكنى قتلت خالى العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فإنى مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه (بقرنه) فحدت عنه ، وقصد له ابن عمه علىّ فقتله .

فذهب أبو الحسن بأحقاد بدر كلها .

وبينما عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف فقال :

— هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذى حرش بيننا وحزرنا (قدّر عددنا تخمينا) للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا نبى الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه .

— فأدخله علىّ .

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبّبه بها وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :

— ادخلوا على رسول الله — ﷺ — فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله — ﷺ — فلما رآه رسول الله — ﷺ — وعمر آخذ حمالة سيفه فى عنقه قال :

— أرسله يا عمر ؛ ادن يا عمير .

فدنا ثم قال :

— أنعموا صباحا .

— قد أمرنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة .

— أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

— فما جاء بك يا عمير ؟

— جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه .

كان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر ، فقال عليه السلام :

— فما بال السيف فى عنقك ؟

— قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئا ؟

— أصدقنى ما الذى جئت له ؟

— ما جئت إلا لذلك .

— بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت : لولا دَيْن علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا . فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك .

فظهر الدهش فى وجه عمير ثم قال :

— أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فوالله إنى لا أعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا

المساق .

ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره .

وراح عمر ينظر إلى عمير فى دهش ، فالرجل الذى كان جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، قد أشرق قلبه بالأنوار وأصبح يلتمس من رسول الله أن يأذن له أن يقدم مكة فيدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ـ ﷺ ـ وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذاهم فى دينهم كما كان يؤذى أصحاب رسول الله ـ ﷺ .

* * *

وكانت غزوة أحد وقتل وحشى حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، فلما فتح رسول الله ـ ﷺ ـ مكة هرب وحشى إلى الطائف فمكث بها ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ليسلموا سدت فى وجهه السبل فقال :

ـ ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد .

وإنه لفى ذلك من همة إذ قال له رجل :

ـ ويحك ! إنه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل فى دينه وتشهد بشهادته .

فلما قال له ذلك خرج حتى قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة ، فلم يرُعه عليه السلام إلا به قائما على رأسه يشهد بشهادة الحق ، فلما رآه قال :

ـ أوحشى ؟

ـ نعم يا رسول الله .

ـ اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة .

ـ كنت غلاما لجبير بن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم

بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق ، فخرجت مع الناس وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئا ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عُرض الناس مثل الجمل الأورق(١) ، يهد الناس بسيفه هدا ما يقوم له شيء ، فوالله إنى لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى ، إذ تقدمنى إليه سِباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له :

— هلم إلى يا بن مقطعة البُظور .

فضربه ضربة كان ما أخطأ رأسه ، وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، فوقعت فى ثُنَّته حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوى فغُلب ، وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته فأخذت حربتى ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق .

— ويحك ! غيب عنى وجهك فلا أرينك .

فكان يتنكب رسول الله — ﷺ — فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرج وحشى معهم وأخذ حربته التى قتل بها حمزة ، فلما التقى الناس رأى مسيلمة الكذاب قائما فى يده سيفه وما يعرفه ، فتهيأ له وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى كلاهما يريده ، فهز حربته حتى إذا رضى منها دفعها عليه فوقعت فيه ، وشد عليه الأنصارى فضربه بالسيف فربك أعلم أيهما قتله ، فإن كان قتله فقد قتل خير الناس بعد رسول الله — ﷺ — وقد قتل شر الناس .

ولم يستطع وحشى أن يمتنع عن الشراب فلم يزل يُحد فى الخمر حتى خُلع من

---

(١) الجمل الأورق : الذى لونه بين الغبرة والسواد ، سماه كذلك لما عليه من الغبار .

الديوان ولم يعد له عطاء مثل غيره من المسلمين ، فكان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يقول :

ـ وقد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة .

ورمى عتبة بن أبي وقاص رسول الله ـ ﷺ ـ يوم أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى ، وشجه عبد الله بن شهاب الزهرى فى جبهته ، وجرح ابن قمئة وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، ووقع رسول الله ـ ﷺ ـ فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون . وأوسع ابن قمئة الأرض إذاعة أن محمدا قتل فقعد المسلمون عن القتال ، وانتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال :

ـ ما يُجلسكم ؟

ـ قتل رسول الله ـ ﷺ .

ـ فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ـ ﷺ .

ثم استقبل القوم يقاتل قتال الأسود الكواسر ، يتلقى الطعنات فى صبر ، ولم يسقط شهيدا إلا بعد أن ضرب بسيوف المشركين سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته عرفته ببنانه .

وكان أول من عرف رسول الله ـ ﷺ ـ بعد الهزيمة ، وقول الناس قتل رسول الله ـ ﷺ ـ كعب بن مالك ، عرف عينيه تضيئان من تحت المغفر فنادى بأعلى صوته :

ـ يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ـ ﷺ .

فأشار إليه رسول الله ـ ﷺ ـ أن أنصت ، فلما عرف المسلمون رسول الله

— صلى الله عليه وسلم — أخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ورفعه طلحة بن عبد الله حتى استوى قائما . ومص مالك بن سنان ، أبو أبى سعيد الخدرى الدم عن وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وانطلق رسول الله عليه السلام نحو الشعب معه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصمة ورهط من المسلمين ، وجاء أبو عبيدة بن الجراح ونزع إحدى الحلقتين من وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فسقطت ثنيته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين .

ثم إن أبا سفيان بن حرب لما أراد الانصراف أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته فقال :

— إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، اعلُ هبل .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

— قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل لا سواه ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان :

— هلم إلى يا عمر .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لعمر :

— ائته فانظر ما شأنه .

فجاءه فقال له أبو سفيان :

— أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟

— اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن .

— أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر .

عرف أبو سفيان قائد قريش أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم يقتل ، فلماذا لم يأمر

باستئناف القتال حتى يقضى على المسلمين ونبى الإسلام ويستأصل ذلك الخطر الذى بات يهدد قريش فى المدينة ؟ إن كان الجهد قد نال من المسلمين ، وإن كان قد مسهم جراح فقد مس الكافرين جراح مثلها ، وما كانت نتائج المعركة إذا ما استؤنفت مضمونة ، فآثر أبو سفيان أن يعود ظافرا منتصرا وإن لم يكن نصرا حاسما من أن يخاطر مخاطرة قد تكون نتائجها وبالا عليه وعلى قومه .

وبعد ست سنوات من الهجرة خرج رسول الله — ﷺ — عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالا ، وساق معه الهدى سبعين بدنة ، وكان الناس سبعمائة رجل فكانت كل بدنة عن عشرة نفر . وانطلق المسلمون معتمرين حتى إذا بلغوا الحديبية أمر رسول الله — ﷺ — الناس بالنزول فنزلوا ، ومشت السفارات بين رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وبين قريش فقالت قريش :

— والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تحدث بذلك عنا العرب .

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال :

— يا رسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان .

فدعا رسول الله — ﷺ — عثمان بن عفان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته .

وكان صلح الحديبية ، وثار عمر بن الخطاب ثورة عارمة ، إنه ينكر الصلح ولا يقره فأتى أبا بكر فقال :

— يا أبا بكر أليس برسول الله ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

— بلى .

— فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

— يا عمر الزم غَرْزة ، فإنى أشهد أنه رسول الله .

— وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله ألست برسول الله ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

— بلى .

— فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

— أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

وفى أثناء العودة إلى المدينة نزلت سورة الفتح : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما »(١) . وعلم عمر أنه تسرع لما أنكر على رسول الله — ﷺ — الصلح ، ثم جاء فتح مكة فتقاصرت نفس عمر وأرهقه ضميره المرهف ، فما زال يتصدق

(١) الفتح ١ ، ٢

ويصوم ويصلى ويعتق من الذى صنع يوم الحديبية ، مخافة كلامه الذى تكلم به .

وأجمع رسول الله — ﷺ — المسير إلى مكة فكتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله — ﷺ — من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب وجعل لها جُعلا على أن تبلغه قريشا ، فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به .

وأتى رسول الله الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال :

— أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم .

فخرجا حتى أدركاها بالخليقة خليقة بنى أحمد فاستنزلاها فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها على ابن أبى طالب :

— إنى أحلف بالله ما كُذِب رسول الله — ﷺ — ولا كُذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك .

فلما رأت الجد منه قالت :

— أعرض .

فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأتى به رسول الله — ﷺ — فدعا رسول الله — ﷺ — حاطبا فقال :

— يا حاطب ما حملك على هذا ؟

— يا رسول الله أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيَّرت وما بدَّلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة وكان لى بين أظهُرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب :

— يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق .

— وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطَّلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

فأنزل الله تعالى فى حاطب : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تُسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد »(١) .

وذات يوم استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله — ﷺ — وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن بالحجاب ، فأذن له رسول الله — ﷺ — فدخل عمر ورسول الله — ﷺ — يضحك ، فقال عمر :

---

(١) الممتحنة ١ — ٦

— أضحك الله سنك يا رسول الله .

— عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى فلما سمعن صوتك ابتدرن بالحجاب .

— فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله .

ثم قال عمر :

— يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ؟

— نعم ، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إيها يا بن الخطاب ، والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك .

* * *

ودخل مسجد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — عثمان بن عفان ذو النورين تعلوه السكينة والوقار ؛ إنه رجل تستحى منه الملائكة ، وكان عثمان جسرا من الجسور التى تربط بنى هاشم ببنى أمية ، فأمه أروى بنت عامر بن كريز وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب ، وكانت البيضاء وعبد الله أبو رسول الله — ﷺ — توأمين ، وكان أبوه أبا العاص بن أمية فهو هاشمى من جهة أمه وأموى من جهة أبيه .

وكان عثمان يألف أبا بكر ، فلما أسلم أبو بكر دعا عثمان إلى الإسلام فدخل فيه ، وكان عثمان فى الرابعة والثلاثين لما اعتنق الدين الجديد ، وقد تزوج رقية بنت رسول الله — ﷺ — وقد اضطهده عمه الحكم بن العاص وأنزل به سوط عذاب ، فكان عثمان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية إلى الحبشة معه امرأته رقية ، وتوطدت الصداقة بينه وبين النجاشى ولكنه لما سمع بأن الله أعز الإسلام

بعمر بن الخطاب عاد إلى مكة ليكون إلى جوار رسول الله — ﷺ — ثم هاجر عثمان إلى المدينة فنزل على أوس بن ثابت بن المنذر أخى حسان بن ثابت. ولما آخى رسول الله ﷺ — بين المهاجرين والأنصار آخى بين عثمان بن عفان لكماله وحسن خلقه وأوس بن ثابت. وقد آخى رسول الله — ﷺ — بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة، أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾(١). فلم يعد من آخى بينهما الرسول يرث أحدهما الآخر، بل أصبح الميراث من حق أولى الأرحام، ثم جعل الله المؤمنين كلهم إخوة فى التوادد وشمول الدعوة، فقال جل من قائل: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾(٢).

وكانت غزوة بدر وتخلف عنها عثمان بن عفان، فقد كان إلى جوار زوجه رقية التى كانت تجود بأنفاسها. وجاء خبر النصر وعثمان يسوى التراب على ابنة رسول الله — ﷺ — فقد ماتت ذات الهجرتين قبل أن تسعد روحها الطاهرة بالبشرى. وأقبل رسول الله — ﷺ — على المدينة وقد شاع فيها السرور بنصر الله، ودخل مسجده وصلى فيه ركعتين شكرا لله، ثم دخل على فاطمة الزهراء فوجدها تسح الدموع على رقية الحبيبة فاعتصر الحزن قلبه وجعل يمسح دموع الزهراء بطرف ثوبه.

وضرب رسول الله — ﷺ — لعثمان بسهمه فقال عثمان:

— وأجرى يا رسول الله؟

— وأجرك.

---

(١) الأنفال ٧٥ (٢) الحجرات ٦٠.

وفر عثمان فيمن فر يوم أحد وعفا الله عنه وغفر له ، وقد أمره رسول الله — ﷺ — أن يضرب عنق الحارث بن سويد . وكان الحارث منافقا فخرج يوم أحد مع المسلمين ، فلما التقى الناس عدا على المجذر بن ذياد البلوى وقيس بن زيد فقتلهما ، ثم لحق بمكة بقريش ، وكان رسول الله — ﷺ — قد أمر عمر بن الخطاب بقتله إن ظفر به ففاته فكان بمكة ، ثم بعث إلى أخيه الجُلاس بن سويد يطلب التوبة ليرجع إلى قومه ، فبينا رسول الله — ﷺ — فى نفر من أصحابه إذ خرج الحارث بن سويد من بعض حدائق المدينة وعليه ثوبان فى لون الدم ، فأمر به رسول الله — ﷺ — عثمان فضرب عنقه .

وبعث رسول الله — ﷺ — عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش يوم الحديبية يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته ، فخرج عثمان إلى مكة فلقيه إبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله — ﷺ — فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله — ﷺ — ما أرسله به ، فقالوا له حين فرغ من رسالة رسول الله — ﷺ — إليهم :

— إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

— ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله — ﷺ —

واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله — ﷺ — والمسلمين أن عثمان قتل ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— لا نبرح حتى نناجز القوم .

فدعا رسول الله — ﷺ — الناس للبيعة ، فكانتَ بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وكانت البيعة على ألا يفروا ، ثم أتى رسول الله — ﷺ — أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل .

وفتحت مكة ثم تأهب المسلمون للخروج إلى تبوك ، وحض رسول الله — ﷺ — أهل الغنى على النفقة والحملان فأنفق عثمان فى ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض .

وتوضأ أبو موسى الأشعرى فى بيته ذات يوم ثم خرج فقال :

— لألزمن رسول الله — ﷺ — ولأكونن معه يومى هذا .

فجاء المسجد فسأل عن النبى — ﷺ — فقالوا :

— خرج ووجّه ههنا .

فخرج على أثره يسأل عنه حتى دخل بئر أريس ، فجلس عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله — ﷺ — حاجته فتوضأ ، فقام أبو موسى إليه فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط حافة البئر وكشف عن ساقيه ودلاهما فى البئر ، فسلم أبو موسى عليه ثم انصرف ، فجلس عند الباب فقال :

— لأكونن بواب رسول الله — ﷺ .

فجاء أبو بكر فدفع الباب فقال أبو موسى :

— من هذا ؟

— أبو بكر .

— على رسلك .

ثم ذهب أبو موسى فقال :

— يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن .

— ائذن له وبشره بالجنة .

فأقبل أبو موسى حتى قال لأبى بكر :

— ادخل ورسول الله — ﷺ — يبشرك بالجنة .

فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله — ﷺ — ودلى رجليه فى البئر كما صنع النبى — ﷺ — وكشف عن ساقيه .

ثم رجع أبو موسى فجلس فإذا إنسان يحرك الباب فقال :

— من هذا ؟

— عمر بن الخطاب .

— على رسلك .

ثم جاء أبو موسى إلى رسول الله — فسلم عليه فقال :

— هذا عمر بن الخطاب يستأذن .

— ائذن له وبشره بالجنة .

فجاء أبو موسى فقال له :

— ادخل وبشرك رسول الله — ﷺ — بالجنة .

فدخل فجلس مع رسول الله عن يساره ودلى رجليه فى البئر .

ثم رجع أبو موسى فجلس فجاء إنسان يحرك الباب فقال :

— من هذا ؟

— عثمان بن عفان .

— على رسلك .

فجاء أبو موسى إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره فقال :

— ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه .

فجاء أبو موسى فقال له :

— ادخل وبشرك رسول الله — ﷺ — بالجنة على بلوى تصيبك .

ودخل عثمان بن عفان فغطى رسول الله — ﷺ ما انكشف عن ركبتيه .

بشر رسول الله — ﷺ — عثمان بالجنة ، فلم يمش عثمان فى الأرض مرحا بل

كان يرتجف من خشية الله ، وكان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له :

ــ تذكر الجنة والنار ولا تبكى وتبكى من هذا ؟

ــ إن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه .

كان عثمان بن عفان ورعا تقيا حليما أواها دمث الخلق ، زوجه رسول الله ــ ﷺ ــ ابنتين ؛ فلما ماتت أم كلثوم قال له ﷺ :

ــ لو كان عندنا ثالثة لزوجناكها .

وبشره رسول الله ــ ﷺ ــ بالجنة ، ولكن لما كثر ظلم الناس له أرادوا أن يبخسوه فضله وأن يسلبوه محاسنه ، فقد جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوسا فقال :

ــ من هؤلاء القوم ؟

ــ هؤلاء قريش .

ــ فمن الشيخ فيهم ؟

ــ عبد الله بن عمر .

ــ يا بن عمر إنى سائلك عن شيء فحدثنى عنه . هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟

ــ نعم .

ــ هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟

ــ نعم .

ــ هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟

ــ نعم .

ــ الله أكبر !

— تعال أبين لك . أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله — ﷺ — وكانت مريضة ، فقال له رسول الله — ﷺ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه ، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله — ﷺ — عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول الله — ﷺ — بيده اليمنى : هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان .

* * *

وهبط بلال بعد أن أذن بالفجر من فوق أعلى بيت بجوار مسجد الرسول ، وخرج رسول الله — ﷺ — أطيب رائحة من المسك فقام أقرب الناس منه فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم . وتقدم عليه السلام إلى المحراب وقد تواضع لله ووقف يصلى وقد اصطف خلفه أصحابه قد ملئت أفئدتهم تقوى وازدادوا علما فازدادوا من ربهم قربا ، تجنبوا محارم الله وأدوا فرائض الله وعملوا بالصالحات من الأعمال ، ووقر فى وجدانهم أن الأجل دون الأمل ، فبادروا الأجل بالعمل ليزدادوا فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة ، وينالوا فى آجل العقبى بصالح أعمالهم من ربهم القرب والعز والفوز الأكبر .

كانوا رعاة أو تجارا وكان من المفروغ منه أن يمروا كأجدادهم فى قافلة الحياة دون أن تستشعر بهم البشرية ، ولكن القرآن العظيم وأسوة رسول الله — ﷺ — الحسنة جعلت منهم أعظم حكام وأعدل قضاة وأشهر قواد ، وقد دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه وأطهره ، فقد أصبحوا على يقين من أنهم لم يخلقوا عبثا ولن يتركوا سدى ، وأن الله سائلهم عما هم فيه وعما عملوا به ، فقد قال لهم رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ومعلمهم الأكبر : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن علمه ما عمل به ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين

اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسده فيم أبلاه » .

أرهفت حواسهم فلم يكن شيء أحب إليهم من الإصلاح ولا أبغض إليهم من الفساد ، فكانوا يحاسبون أنفسهم قبل أن تنكشف أقنعتهم فيما بينهم وبين الله فى مجمع الأشهاد ، فجعل الله لهم نورا يمشون به فى الناس ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

كانوا يعملون بالحق ليوم لا يقضى فيه إلا بالحق ، فكان حكامهم حكماء ، وأموالهم فى أيدى السمحاء ، يأمرون بتقوى الله ويخلصون العمل لله ، ويخلطون الرغبة بالرهبة ، يأمرون بما أمر الله به ، وينهون عما نهى الله عنه ، يعلمون أن الطمع فقر ، وأن اليأس غنى ، وأن فى العزلة راحة من خلطاء السوء ، الحياة عليهم نعمة ، والموت لهم كرامة ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »(١) .

---

(١) آل عمران ١١٠

٢

كان طسم وجديس من ساكنى اليمامة ، وهى إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيرا وثمارا وحدائق وقصورا . وكان ملك طسم غشوما لا ينهاه شيء عن هواه ويقال له عُمْلوق ، وكان مضرا لجديس مستذلا لهم حتى كانت البكر من جديس لا تهدى إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفترعَها ، وكان السبب فى ذلك أن امرأة منهم كان اسمها هُزيلة طلقها زوجها وأخذ ولده منها ، فأمر عملوق ببيعها وأخذ زوجها الخمس من ثمنها، فقالت شعرا تتظلم منه فأمر ألا تتزوج منهم امرأة حتى يفترعها ، فقاموا كذلك حتى تزوجت الشموس وهى غفيرة ابنة غفار بن جديس أخت الأسود ، فافتضها عملوق فقال الأسود بن غفار لرؤساء جديس :

ــ قد ترون ما نحن فيه من الذل والعار الذى ينبغى للكلاب أن تعافه فأطيعونى ، فإنى أدعوكم إلى عز الدهر .

ــ وما ذاك ؟

ــ أصنع للملك وقومه دعوة ، فإذا جاءوا نهضنا إليهم بأسيافنا فنقتلهم .

فأجمعوا على ذلك ودفنوا سيوفهم فى الرمل ، ودعوا عملوقا وقومه فلما حضروا قتلوهم فأفنوهم . وقتل الأسود عملوقا وقد حسب أنه قد استراح من طسم وظلمهم، ولكن رباح بن مرة بن طسم أفلت فأتى حسان بن تبع مستغيثا ، فنهض حسان فى حمير لإغاثته حتى كان من اليمامة على ثلاث مراحل ، قال لهم رباح :

ــ إن لى أختا مزوجة فى جديس اسمها اليمامة ليس على وجه الأرض أبصر

منها ، وإنها لتبصر الراكب على ثلاث مراحل وأخاف أن تنذر القوم .

فأمر كل رجل أن يقلع شجرة فيجعلها فى يده ويسير كل كأنه خلفها ، ففعلوا وبصرت بهم اليمامة فقالت لجديس :

ـــ لقد سارت إليكم حمير ، وإنى أرى رجلا من وراء شجرة بيده كتف يتعرقها أو نعل يخصفها .

فاستبعدوا ذلك ولم يحفلوا به ، وصحبهم حسان وجنوده من حمير فأبادهم وضرب حصونهم وبلادهم ، وهرب الأسود بن غفار إلى جبلى طىء فأقام بها ودعا تبع باليمامة أخت رباح التى أبصرتهم فقلع عينها ، وكانت تلك البلد جَوّ فسميت باليمامة اسم تلك المرأة .

وبقيت اليمامة بعد طسم يبابا لا يأكل ثمرها إلا عوافى الطير والسباع ، حتى نزلها بنو حنيفة وكانوا بعثوا رائدهم عبيد بن ثعلبة الحنفى يرتاد لهم فى البلاد ، فلما أكل من ذلك الثمر قال :

ـــ إن هذا لطعام .

وانتشرت النصرانية فى الحبشة بعد أن ازدهرت فى الشام ، فأراد قيصر أن يتصل نصارى الشمال بنصارى الجنوب عبر جزيرة العرب وأن يقوض البيت العتيق الذى يجمع قبائل العرب لعل راية النصرانية ترفرف على طول الطريق من الحبشة إلى روما ، فأمر قيصر النجاشى أن يغزو جزيرة العرب وأعانه على ذلك ، فاستولت الحبشة على اليمن ، ثم خرج أبرهة وأصحاب الفيل ليهدموا الكعبة فجعل الله كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

وانسحبت فلول جيش أبرهة إلى اليمن وظل الاحتلال الحبشى جاثما على أرض اليمن ، فخرج سيف بن ذى يزن الحميرى حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا

إليه ما هم فيه وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم هو ويبعث إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن ، فأعرض عنه قيصر ولم يجد عنده شيئا مما يريد .

وانطلق سيف بن ذى يزن إلى كسرى وكانت العداوة ناشبة بين الفرس والروم ، فأمد كسرى سيف بن ذى يزن بالمقاتلين فانتصر سيف والفرس على الحبشة وصارت اليمن منطقة نفوذ للفرس ، فكان الأكاسرة يبعثون قوافل التجارة من فارس إلى اليمن فى حماية ملوك اليمن .

وقد أجار هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة قافلة لكسرى ، فلما وفد هوذة عليه توجّه وملّكه فأصبح هوذة ملكا على اليمامة .

وكانت اليمن أكثر بلاد العرب حضارة للصلة الوثيقة التى كانت بينها وبين فارس ، فلما بعث الله رسوله — ﷺ — قال أعداؤه :

— إنما يعلمه رجل من اليمامة .

وسمعت اليمن بالدين الجديد ورسول الله — ﷺ — بمكة ، فقد جاء الطفيل ابن عمرو الدوسى إلى الحرم وسمع القرآن من النبى — صلوات الله وسلامه عليه — فشرح الله صدره إلى الإسلام ، فلما عاد إلى قومه أسلمت دوس وأسلم أبو هريرة ، وألقى الناس أسماعهم إلى قرآن محمد ، وكان مسيلمة يصغى إلى ما يتلى عليه فكان الحسد ينهش فؤاده ويتمنى لو أن ذلك النور قد نزل عليه ، وبقيت اليمن فى ظلمات الجاهلية فخورا بما أتاها من فارس ، حتى إذا ما كان صلح الحديبية أرسل عليه السلام الرسل إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام .

وخرج سليط بن عمرو أخو سهيل بن عمرو من المدينة يحمل كتاب رسول الله — ﷺ — إلى هوذة بن على ملك اليمامة الذى توجّه كسرى ، فلما مثل بين يديه قدم إليه الكتاب ففضه هوذة وراح يقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام على

من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر . فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يدك » .

وكان عند هوذة عظيم من النصارى فقدم إليه الكتاب ، فلما انتهى من قراءته رفع رأسه إلى الملك وقال له :

ـــ لم لا تجيبه ؟

ـــ أنا ملك قومى ولئن اتبعته لم أملك .

ـــ بلى والله لئن اتبعته يملكنك وإن الخيرة لك فى اتباعه ، وإنه للنبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل .

وأطرق الملك ونظر إليه سليط طويلا ، إنه يخاف على ملكه وإن سليط ليعرفه جيدا فلطالما جاء إلى اليمامة ودخل عليه ، وسادت فترة صمت ثم قال له سليط :

ـــ تسويد كسرى إياك هو أعظم حائل بينك وبين الإسلام ، إنما السيد من متع بالإيمان ثم تزود بالتقوى . وإن قوما سعدوا برأيك فلا تشقين به ، وأنا آمرك بخير مأمور به وأنهاك عن شر منهى عنه . آمرك بعبادة الله وأنهاك عن عبادة الشيطان فإن فى عبادة الله الجنة وفى عبادة الشيطان النار . فإن قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت . وإن أبيت فبيننا كشف الغطاء وهول المطلع .

فقال هوذة فى حيرة :

ـــ سودنى من لو سودك تشرفت به ، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور فقدته ، فاجعل لى فسحة ليرجع إلىّ رأيى فأجيبك .

لم يكن يخطر على قلب هوذة أن أتباع ذلك الدين الجديد سيقوضون ملك من توجه ، وما كان بقادر على أن يتصور أن جزيرة العرب تستطيع أن تنجب رجلا فى مكانة كسرى ، فقد كانت نظرته دنيوية وما قدر الروح الجديدة التى نفخها

الإسلام فى أتباعه حق قدرها .

وأراد هوذة أن يكسب مكاسب دنيوية فرد على كتاب الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ردا دون رد ، فكتب إلى النبى — ﷺ — : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى ، فاجعل إلىّ بعض الأمر أتبعك » .

وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبى — ﷺ — فأخبره ، وقرأ النبى — ﷺ — كتابه وقال :

— لو سألنى سبابة[1] ما فعلت . باد وباد ما فى يديه .

وسمع مسيلمة بما كان فراح يحلم أنه بعث رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى دينه !

وجاء نصر الله والفتح ، فلما انصرف رسول الله — ﷺ — من فتح مكة جاءه جبريل عليه السلام فأخبره بأن هوذة قد مات .

ورأى رسول الله — ﷺ — فى المنام أن فى يده سوراين من ذهب ، فأهمه شأنهما فأوحى الله إليه فى المنام أن ينفخهما ، فنفخهما فطارا ، فأولهما كذابين يخرجان من بعده .

وراحت الوفود ترد إلى المدينة بعد أن تم فتح مكة واعتنقت الإسلام ، فجاء وفد بنى حنيفة ومعهم مسيلمة وجعلوه فى رحالهم ، فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا :

— يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحبنا فى رحالنا يحفظها لنا .

فأمر له — ﷺ — بمثل ما أمر به لواحد من القوم — خمس أواق من فضة —

---

(١) سبابة : قطعة من الأرض .

وقال :

— أما إنه ليس بشركم مكانا .

وكان نهار الرجَّال بن عُنفوة قد هاجر إلى النبى ﷺ — وقرأ القرآن وفقه فى الدين ، فبعثه — ﷺ — معلما لأهل اليمامة ، وما كان نهار الرجال صادق الإيمان فقد كان يحب الدنيا ، وما كان بقادر على زجر نفسه الأمارة بالسوء .

وعاد بنو حنيفة إلى اليمامة فراح مسيلمة يزعم أن رسول الله — ﷺ — أشركه معه فى الأمر ، وقال لمن وفد معه :

— ألم يقل لكم حين ذكرتمونى له : أما إنه ليس بشركم مكانا ، ما ذاك إلا لما كان يعلم أنى أشركت معه فى الأمر .

وعاد مسيلمة إلى المدينة مع وفد من قومه ، فلما انتهى إلى رسول الله — ﷺ — وهم يسترونه بالثياب كلمه وسأله أن يشركه معه فى النبوة ، وكان فى يد رسول الله — ﷺ — قطعة من جريد ، فقال له رسول الله — ﷺ — :

— لو سألتنى هذا العسيب ما أعطيتك ، وإنى لأراك الذى منه رأيت .

تذكر رسول الله ما رأى فى المنام من أمر السوارين ، إن مسيلمة أحد الكذابين وإنه لا يستحق أن يطيل رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الوقوف معه ، وكان قد خرج معه ثابت بن قيس بن شماس فقال عليه السلام :

— وهذا ثابت بن قيس يجيبك عنى .

ثم انصرف — صلوات الله وسلامه عليه .

وانضم نهار الرجَّال إلى مسيلمة فقد آثر الدنيا على الآخرة ، فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة . شهد له أنه سمع محمدا — ﷺ — يقول إنه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له .

وضرب حرما باليمامة فنهى عنه وأخذ الناس به فكان محرما ، فوقع فى ذلك

الحرم قرى الأحالف أفخاذ من بنى أسيد ، وكانت دارهم باليمامة فصار مكان دارهم فى الحرم .

والأحالف سيحان ونمارة ونمر والحارث ، فإن أحصبوا أغاروا على ثمار أهل اليمامة واتخذوا الحرم ملجأ ، فإن اقتفوا أثرهم دخلوا الحرم فيحجم عنهم الطلب ، وإن أحجموا عن مطاردتهم فذلك ما يريدون ، فكثر ذلك منهم ، فرفع الناس الأمر إلى مسيلمة فقال :

ـــ أنتظر الذى يأتى من السماء فيكم وفيهم .

ثم قال لهم :

ـــ « والليل الأطحم . والذئب الأدلم . والجذع الأزلم . ما انتهكت أسيد من محرم » .

ـــ أما مَحرمٌ استحلال الحرم وفساد الأموال ؟

وشجع ذلك بنى أسيد فعادوا للغارة وعادوا للعدوان ، فرفع الأمر إلى مسيلمة فقال :

ـــ أنتظر الذى يأتينى .

فقال : « والليل الدامس . والذئب الهامس . ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس » .

ـــ أما النخيل المرطبة فقد جدُّوها ، وأما الجدران اليابسة فقد هدموها .

ـــ اذهبوا وارجعوا فلا حق لكم .

وكان يحب أن يتألف بنى تميم فكان يقرأ لأتباعه : « إن بنى تميم قوم طهر لقاح ، لا مكروه عليهم ولا إتاوة ، نجاورهم ما حيينا بإحسان . نمنعهم من كل إنسان . فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمن » .

وكان أصحابه يتلون فى دورهم قرآنه : « والمبذرات زرعا . والحاصدات

حصدا . والذاريات قمحا . والطاحنات طحنا . والخابزات خبزا . والثاردات ثردا . واللاقمات لقما . إهالة وسمنا . لقد فضلتم على أهل الوبر . وما سبقكم أهل المدر . ريفكم فامنعوه . والمعتز فآووه . والباغى فناوئوه » .

وجاء طلحة النمرى اليمامة فقال :

— أين مسيلمة ؟

— مه ، رسول الله .

— لا حتى أراه .

فلما جاءه قال :

— أنت مسيلمة ؟

— نعم .

— من يأتيك ؟.

— رحمن .

— أفى نور أو فى ظلمة ؟

— فى ظلمة .

— أشهد أنك كذاب وأن محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .

والتف حول مسيلمة الذين غرتهم الدنيا فأرادوا إيهام الناس أن الصلات طيبة بين رسول الله — ﷺ — وبينه فأشار على الكذاب أن يكاتب رسول الله — ﷺ — فبعث إلى المدينة رسولين يحملان كتابه ، فدخلا على الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وقدما إليه الكتاب ، فدفعه عليه السلام إلى من يقرأه فقرأ :

— من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ؛ سلام عليك ، أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن

قريشا قوم يعتدون .

فالتفت عليه السلام إلى الرجلين وقال :

— فما تقولان أنتما ؟

— نقول كما قال .

— أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

وكتب رسول الله — ﷺ — كتابا إلى مسيلمة بعث به حبيب بن زيد ، وأم حبيب نسيبة بنت كعب أم عمارة وقد شهدت بدرا هى وزوجها ، وابناها حبيب وعبد الله ، فانطلق حبيب إلى اليمامة فرأى عجبا : رأى عبد الله بن النواحة يؤذن للنبى — ﷺ — ويشهد فى الأذان أن محمدا رسول الله ويشهد لمسيلمة ، ورأى الناس يترنحون من الشرب فقد أباح لهم مسيلمة الخمر ، وانتشر فى أرجاء اليمامة الفسق بعد أن أحل لهم الزنا .

ودخل حبيب على مسيلمة وقد أحاط به أنصاره ، فقدم إليه كتاب رسول الله — ﷺ — فراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

واكفهر وجه مسيلمة ، والتفت إلى حبيب وقد ملىء غضبا وقال له :

— أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

— نعم .

— أفتشهد أنى رسول الله ؟

— لا أسمع .

فراح يقطع يده ويقول :

ـــ أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

ـــ نعم .

ـــ أفتشهد أنى رسول الله ؟

ـــ لا أسمع .

فجعل يقطعه عضوا عضوا حتى مات فى يده لا يزيده على ذلك ، إذا ذكر له رسول الله ـــ ﷺ ـــ آمن به وصلى عليه ، وإذا ذكر له مسيلمة قال : لا أسمع .

وبلغ نُسيبة ما فعل مسيلمة بابنها فراحت تتأهب للخروج مع المسلمين لمحاربة الكذاب .

٣

صلى أبو بكر العصر ثم خرج يمشي وعلى يمشي إلى جانبه ، فرأى الحسن يلعب مع الصبيان فحمله على عاتقه وقال :

ــ بأبى[١] شبيه بالنبى لا شبيه بعلى .

وعلى يضحك ، فما من أحد رأى الحسن إلا وقال إن الحسن يشبه جده عليه السلام ، وكان الحسن إذا نادى أباه يقول :

ــ يا أبا الحسن .

وكان الحسين ينادى أباه بقوله :

ــ يا أبا الحسن .

وكانا يقولان لرسول الله ــ ﷺ :

ــ يا أبتاه .

وأتم الحسن لعبه فذهب إلى المسجد فوجد رسول الله ــ ﷺ ــ يحدث أصحابه ، فلما رأى عليه السلام الحسن استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وفتح له ذراعيه فارتمى الحسن فى أحضانه ، فجعل رسول الله ــ ﷺ ــ يقبله ثم قال :

ــ اللهم إنى أحبه فأحبه .

وقام رسول الله ــ ﷺ ــ والحسن يسير إلى جواره حتى دخل على ابنته فاطمة الزهراء ، فأشرق وجهه بابتسامة وخفق قلبه فى حب ، فالزهراء تذكره بخديجة وزينب ورقية وأم كلثوم ، بالأحبة الذين رحلوا وخلفوا فى القلب الأحزان .

---

(١) أى أفديه بأبى

ومال رسول الله — ﷺ — وقبل زينب بنت فاطمة ، الصغيرة التى حملت اسم خالتها الراحلة فاستشعر عواطف جياشة تمور فى صدره . عواطف من الحب والأسى ، من الشفقة والحنان ، فابتسامته التى ترتسم على شفتيه كلما وقعت عيناه على زينب الصغيرة وأم كلثوم تمتزج بالدموع ، فهو وإن كان رسول الله الذى يعد نفسه للموت وما بعد الموت فهو إنسان .

وجاء الحسين فلما رأى جده فى الدار نادى فى فرح فياض :

— أبتاه .

فأقبل عليه رسول الله — ﷺ — وقبله ثم حمله على عاتقه وجعل يداعبه ، وفاطمة الزهراء تنظر فى سرور تكاد الدموع أن تبلل عينيها من الفرح . كانت الزهراء كأبيها حليفة الأحزان ، وما كانت تحس سعادة حقه إلا فى تلك الأوقات التى يمضيها أبوها العظيم فى دارها ، فالسرور كان يشيع فى كل من فى البيت المتواضع الذى كان يخلو من أى أثاث وقد خلا من كل ترف .

لم يكونوا فقراء بعد أن فتح الله عليهم خيبر والطائف ، ولكنهم كانوا كرماء ينفقون على الفقراء والمساكين كل ما يصل إليهم ، فقد كانوا أكثر ثقة بما فى يد الله مما فى أيديهم ، وكانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

كانت فاطمة بضعة منه وكانت قلبه وروحه التى بين جنبيه ، فكان إذا قدم من سفر يصلى ركعتين لله ثم يبدأ بزيارتها قبل أن يعود إلى داره ، وكان كل صباح يطرق باب دارها ويقول :

— السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، الصلاة رحمكم الله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

وكان بكاء طفل من أطفالها فى الليل يطير النوم من عينيه ، فكان إذا سمع بكاء الحسن أو الحسين يهرع إلى دار الزهراء ويحمل الصغير بين يديه فى حنان دافق

وهو يقول للزهراء فى عتاب لطيف :

ــ ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى !

وأقبلت أمامة بنت زينب ، فهفا قلب رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ إليها . إنه يحبها بكل جوارحه وقد أعلن أكثر من مرة أنها أحب أهل بيته إلى فؤاده ، وكان يحملها فى الصلاة على عاتقه فإذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها ، وكان قلبه الكبير يسع حب أبنائه وحب بناته وحب أحفاده وحب أصحابه وحب المسلمين وحب المؤمنين بل وحب البشر أجمعين ، فما بعث إلا رحمة للعالمين .

وأذن بلال المغرب فخرج رسول الله ــ ﷺ ــ إلى المسجد فرأى أبا الدرداء يمشى أمام أبى بكر فقال :

ــ يا أبا الدرداء أتمشى أمام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة ؟! ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبى بكر .

وكان رسول الله ــ ﷺ ــ يقول :

ــ ما أحد عندى أعظم من أبى بكر ، واسانى بنفسه وماله وأنكحنى ابنته .

ويقول :

ــ لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام .

ويقول :

ــ أبو بكر وعمر بمنزلة السمع والبصر .

كان أبو بكر ملكا فى زى مسكين ، وكان إذا مُدح قال :

ــ أنت أعلم بى من نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون .

وقدم عمر بن الخطاب أبيض اللون يعلوه حمرة، أصلع شديد حمرة العينين فى عارضيه خفة، وقد قال رسول الله — ﷺ — فيه :

— عمر معى وأنا مع عمر، والحق مع عمر حيث كان .

وقال عليه السلام :

— يا عمر إنك لذو رأى رشيد فى الإسلام .

— وقال — صلوات الله وسلامه عليه :

— قال لى جبريل ليبكين الإسلام على موت عمر .

وقال :

— أبو بكر وعمر منى بمنزلة هارون من موسى .

وكان عمر يقول :

— لولا خوف الحساب لأمرت بكبش يشوى لنا فى التنور .

وجلس عثمان فى المسجد لسانه رطب بذكر الله لا يرفع عينيه فى الناس، وقد قال رسول الله فيه :

— عثمان أشد أمتى حياء .

وقال لابنته أم كلثوم لما زوجها لعثمان بن عفان :

— إن بعلك أشبه الناس بجدك إبراهيم عليه السلام وأبيك محمد .

إنه يطعم الناس أطيب الطعام ويدخل بيته يأكل الخل والزيت وهو الغنى الذى يوسع على الناس، فقد أصاب الناس قحط فى خلافة أبى بكر الصديق، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبى بكر وقالوا :

— يا خليفة رسول الله، السماء لم تمطر والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك فما نصنع ؟

— انصرفوا واصبروا فإنى أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرج عنكم .

فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيرا لعثمان جاءت من الشام وتصبح بالمدينة ، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هى ألف بعير موسوقة برا وزيتا وزبيبا . فلما جعلها فى داره جاء التجار فقال لهم :

— ما تريدون ؟

— إنك تعلم ما نريد ، بعنا من هذا الذى وصل إليك فإنك تعلم ضرورة الناس .

— حبا وكرامة ، كم تربحونى على شرائى ؟

— الدرهم درهمين .

— أعطيت زيادة على هذا .

— أربعة .

— أعطيت زيادة على هذا .

— خمسة .

— أعطيت أكثر من هذا .

— يا أبا عمرو ما بقى فى المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذى أعطاك ؟

— إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟

— لا .

— فإنى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين .

وقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

ـــ يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصا ، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى يوم القيامة .

* * *

وسار على بن أبى طالب ناحية المحراب . إنه آدم شديد الأدمة ثقيل العينين عظيمهما . أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، ذو بطن ، كثير الشعر ، عريض اللحية ، أصلع أبيض الرأس ، عريض ما بين المنكبين ، لا تبين عضده من ساعده .

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ إذا غضب لم يجترئ أحد أن يكلمه إلا على ، فقد كان يحبه ويقول :

ـــ من آذى عليا فقد آذانى .

ويقول :

ـــ على مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض .

وكان على لا يترك فرصة يتعلم فيها من رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فهو يبجل العلم ويقول :

ـــ العلم يرفع الوضيع ، والجهل يضع الرفيع ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه .

ومن حكمه :

ـــ لا تكون غنيا حتى تكون عفيفا ، ولا تكون زاهدا حتى تكون متواضعا ، ولا تكون متواضعا حتى تكون حليما ، ولا يسلم قلبك حتى تحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، وكفى بالمرء جهلا أن يرتكب ما عنه نهى ، وكفى به عقلا أن يسلم الناس من شره ، وأعرض عن الجهل وأهله .

كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من لسانه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل

ووحشته ، إنه غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما خشن يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

* * *

وصلى رسول الله — ﷺ — بالناس المغرب والعشاء ثم دخل يدور على نسائه ، فدخل على سودة بنت زمعة ولم يكن بها يوم تزوجها بعد موت خديجة أم المؤمنين على الأزواج من حرص ، ولكنها أحبت أن يبعثها الله يوم القيامة زوجا للرسول .

إنه — صلوات الله وسلامه عليه — تزوجها عزاء لها بعد أن مات زوجها وابن عمها السكران بن عمرو هناك فى الحبشة ، ولم تكن جميلة ولم تكن شابة ولكنها كانت وحيدة ، وما كان المسلمون يدعون مسلمة مؤمنة بلا زوج بل لا بد أن تكون فى كنف رجل ، وما أكثر الزيجات التى تمت بين الأرامل وكبار الصحابة صيانة للنساء .

وكانت سودة تحاول جاهدة أن تسعد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فكانت تنشرح إذا ما رأته يبتسم ، وكانت تسارع بفعل كل ما تظن أن رضاه فيه ، فلما فطنت إلى أن عائشة بنت أبى بكر أحب نساء النبى — ﷺ — إلى قلبه ، ووجدت أن الشيخوخة قد دبت فيها قالت لزوجها العظيم :

— إنى أهب ليلتى لعائشة ، وإنى لا أريد ما تريد النساء .

* * *

وذهب إلى غرفة عائشة فإذا بالزوجة الحبيبة ترحب به فى ود صادق وحب عميق ، إنه ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، إنها لو كانت قد تزوجت من جبير بن المطعم بن عدى لما ارتفع شأنها عن أى زوجة من زوجات المؤمنين ، ولكنها

بزواجها من رسول رب العالمين أصبحت أم المؤمنين وحب نبى الإسلام ، عليه السلام ، الكبير .

إنها لا تستطيع أن تنسى ذلك اليوم الذى ماتت فيه أمها أم رومان ، فقد واساها عليه السلام أجمل مواساة وغمر بعطفه أباها الصديق ، ولم يكتف بذلك بل نزل قبر أمها واستغفر لها وقال :

ــ اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفى رسولك .

إنها لا تفتأ تذكر يوم عرسها كلما خلت بنفسها ، فقد جاء رسول الله بيتهم فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتها أمها وهى فى أرجوحة بين عذقين فأنزلتها ثم سوت شعرها ومسحت وجهها بشىء من ماء ثم أقبلت تقودها حتى إذا كانت عند الباب وقفت بها حتى ذهب بعض نفسها ، ثم أدخلتها ورسول الله جالس على سرير فى بيتها فأجلستها فى حجره وقالت :

ــ هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك .

ومنذ ذلك اليوم ورسول الله يصنعها على عينه ليأخذ عنها المسلمون نصف دينهم ، وقد علم المسلمون حب الرسول لبنت أبى بكر فكانوا يبعثون إليه الهدايا وهو فى بيتها ، فدفعت الغيرة زوجاته إلى أن يلتمسن من الزهراء أن تخاطب أباها فى الأمر فذهبت إليه وقالت :

ــ يا أبى إن نساءك أرسلننى إليك وهن ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة .

ــ أى بنية أتحبيننى ؟

ــ نعم يا أبى .

ــ فأحبيها .

ولم تحاول فاطمة أن تؤذى أباها بعد ذلك فى عائشة .

وظل الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، فاجتمع نساء النبى إلى أم سلمة

فقلن :

— يا أم سلمة والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة ، فمرى رسول الله — ﷺ — أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان وحيث ما دار .

فذكرت ذلك أم سلمة للنبى — ﷺ — فأعرض عنها ، فلما عاد إليها ذكرت ذاك فأعرض عنها ، فلما كان فى الثالثة ذكرت له فقال :

— يا أم سلمة لا تؤذينى فى عائشة ، فإنه ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها .

* * *

ودخل رسول الله — ﷺ — حجرة حفصة بنت عمر ، إنه تزوجها بعد أن مات زوجها خنيس بن حذافة يوم أحد ليشد الأواصر بينه وبين عمر كما شد الأواصر بينه وبين الصديق من قبل بزواجه من عائشة ، إنه تزوج ابنتى وزيريه .

لم تكن حفصة فى رقة عائشة ولم تكن جميلة وكان فيها حدة ، وكان عمر يحس أن النبى — ﷺ — يتحملها إكراما له ، ولقد قال لها ذات يوم :

— والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولاى لطلقك !

* * *

ودلف رسول الله — ﷺ — إلى أم سلمة بنت زاد الركب ، إنها كانت زوجة لعبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومى ، ابن عمة الرسول برة بنت عبد المطلب ، وأخوه — ﷺ — من الرضاعة أرضعتهما ثوبية مولاة أبى لهب .

وكان ممن هاجر إلى الحبشة وهناك أنجبا ابنهما سلمة ، وهاجر إلى المدينة وفى غزوة أحد جرح أبو سلمة جرحا خطيرا ثم التأم ، فبعثه رسول الله — ﷺ — لقتال بنى أسد فعاد الجرح فنغر وحمل أبو سلمة إلى المدينة حيث قضى نحبه وترك

أم سلمة أرملة .

ولما مات أبو سلمة قال لها — ﷺ :

— سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك ويخلفك خيرا .

— ومن يكون خيرا من أبى سلمة ؟

ولما اعتدت أم سلمة أرسل إليها النبى — ﷺ — يخطبها مع حاطب بن أبى بلتعة ، فلما جاءها حاطب قالت :

— مرحبا برسول الله — ﷺ — تقول له إنى امرأة مسنة ، وأنى أم أيتام ، وأنى شديدة الغيرة .

فبعث إليها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يقول :

— أما أنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله .

وشبت زينب بنت أم سلمة فى رعاية الرسول — ﷺ — فكانت من أفقه نساء أهل زمانها ، واختار لربيبه سلمة ابنة حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء .

إن ابن أم سلمة زوَّج أم سلمة رسول الله — ﷺ — على متاع منه رحى وجفنة وفراش حشوه ليف ، وقيمة ذلك المتاع عشرة دراهم ، فتزوجها رسول الله — ﷺ — وأدخلها بيت زينب أم المساكين بعد أن ماتت ، فإذا جرة فيها شىء من شعير وإذا رحى وبرمة وقدر وأدم ، فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته فى البرمة ، فكان ذلك طعام رسول الله — ﷺ — وطعام أهله ليلة عرسه .

إن أم سلمة بنت زاد الركب كانت تعيش عيشة مترفة فى بيت أبيها ، فلما اعتنقت الإسلام ضحت بكل راحة فى سبيل راحة ضميرها وإحساسها الصادق بحريتها ، وقد هاجرت إلى الحبشة ثم هاجرت إلى المدينة وهى راضية كل

الرضا . ثم أصبحت زوجة لرسول الله ـ ﷺ ـ تعيش فى حجرة متواضعة كل ما بها لا يساوى أكثر من عشرة دراهم ، ولكنها كانت تستشعر فى أعماقها سعادة مَن ملك الدنيا بأسرها والآخرة بنعيمها .

* * *

ودخل على زينب بنت جحش فإذا بها غارقة فى الصلاة فهى حميدة متعبدة مفزع اليتامى والأرامل . كانت زوجة لزيد بن حارثة وكان الأشراف يأنفون أن يزوجوا بناتهم من الموالى . وقد أراد الإسلام أن يقضى على هذه النعرة الجاهلية فكان زواج زيد من زينب سليلة المجد والشرف .

وكان أشراف العرب يتعففون عمن تزوجن من الموالى ، وأراد الإسلام أن يقضى على تلك العادة المتأصلة فيهم وأن يعلن أن الناس سواسية وأنهم من آدم وأن لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، فكان زواج محمد ـ ﷺ ـ من ابنة عمته زينب بنت جحش بعد أن قضى زيد منها وطرا .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ قد أرسل زيد بن حارثة يخطبها له ـ ﷺ ـ فذهب زيد إليها فجعل ظهره إلى الباب فقال :

ـ يا زينب بعث رسول الله ـ ﷺ ـ يذكرك .

ـ ما كنت لأحدث شيئا حتى أؤامر ربى عز وجل .

فأنزل الله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها »(١) . فكانت تفتخر على نسائه ـ ﷺ ـ وتقول :

ـ إن الله أنكحنى إياه من فوق سبع سماوات .

ونزلت فى ذلك اليوم الذى لا تنساه زينب آية الحجاب فإنه ـ ﷺ ـ دعا

---

(١) الأحزاب ٣٧

القوم وطعموا وتهيأ — ﷺ — للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي — ﷺ — ليدخل فإذا القوم جلوس فلم يدخل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما . إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما . لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا ﴾(١) .

وكان الرسول — ﷺ — قد تبنى زيد بن حارثة وكان يقال له زيد بن محمد ، فتكلم في ذلك المنافقون وقالوا :

— محمد حرم نساء الأولاد وقد تزوج امرأة ابنه .

فأنزل الله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما »(٢) . وأنزل سبحانه وتعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما »(٣) .

---

(١) الأحزاب ٥٣ — ٥٥ (٢) الأحزاب ٤٠ .
(٣) الأحزاب ٥

وكان رسول الله — ﷺ — يقول عنها :

— إنها لأواهة .

فقال رجل :

— يا رسول الله ما الأواه ؟

— الخاشع المتضرع .

وكانت عائشة تقول فى حقها :

— هى التى كانت تساوينى فى المنزلة عند رسول الله — ﷺ — وما رأيت قط خيرا فى الدين وأتقى لله وأصدق فى الحديث وأوصل للرحم وأعظم صدقة من زينب .

* * *

وذهب إلى دار جويرية بنت الحارث وكانت جويرية عليها ملاحة وحلاوة لا يكاد يراها أحد إلا وقعت بنفسه ، كانت من سبايا بنى المصطلق وقد وقعت فى السهم لثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسها ورأت أن تستعين برسول الله صلوات الله وسلامه عليه فجاءت إليه وهو فى حجرة عائشة وقالت :

— يا رسول الله أنا بنت الحارث بن ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على أمرى .

— فهل لك فى خير من ذلك ؟

— وما هو يا رسول الله ؟

— أقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

— نعم يا رسول الله .

— قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس فأطلقوا ما كان بأيديهم من الأسرى وقالوا :
— أصهار رسول الله .

ودخلت بيت النبى — صلوات الله وسلامه عليه — وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها ، أعتق بزواجها من الرسول أهل مائة بيت من بيوت بنى المصطلق .

* * *

وطاف بريحانة بنت يزيد من بنى النضير وكانت قبل رسول الله — ﷺ — عند رجل من بنى قريظة يقال له الحكم ، وكانت جميلة وسيمة وقعت فى سبى بنى قريظة فكانت صفى رسول الله — ﷺ — فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام فأعتقها وتزوجها وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا .

ودخل بها عليه السلام فى بيت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية ، وغارت عليه — ﷺ — غيرة شديدة فطلقها فأكثرت البكاء فراجعها عليه السلام .

* * *

ودخل على أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب وهى بنت عمة عثمان بن عفان هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، فولدت له حبيبة ربيبة رسول الله وهى فى حجره عليه السلام .

وتنصر عبيد الله بن جحش هناك وثبتت هى على الإسلام ، وبعث رسول الله — ﷺ — عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فزوجه إياها ، وأصدقها النجاشى عن رسول الله — ﷺ — أربعمائة دينار وجهزها النجاشى من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة .

وكانت أم حبيبة راضية النفس مطمئنة الفؤاد لا تفتأ تشكر الله على أن هدى أبا سفيان وأهل بيته إلى الإسلام ، فقد كانت قبل فتح مكة ترتجف فرقا أن يموت

شيخ بني أمية على الكفر كما مات شيوخ بنى مخزوم وبنى وائل وبنى عبد شمس .

* * *

وزار صفية فى حجرتها ؛ إنها بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير قتل مع قريظة ، وكانت عند سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن أبى الحقيق وقتل عنها يوم خيبر ، فلما جمع سبى خيبر جاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دحية الكلبى فقال :

— يا رسول الله أعطنى جارية من السبى .

— اذهب وخذ جارية .

فأخذ صفية فقيل :

— يا رسول الله إنها سيدة بنى قريظة والنضير ، لا تصلح إلا لك .

فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — :

— خذ جارية من السبى غيرها .

فحجبها وجهزتها له أم سليم وأهدتها له من الليل ، فأولم — صلى الله عليه وسلم — عليها بتمر وسويق .

ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أثرا فى وجهها فسألها عن ذلك فقالت :

— رأيت كأن القمر وقع فى حجرى فذكرت ذلك لزوجى كنانة ، فضرب وجهى ضربة أثرت فىّ هذا الأثر وقالِ : إنك لتمدين عنقك إلى أن تكونى عند ملك العرب .

وكانت صفية عاقلة فاضلة ، ودخل عليها — صلى الله عليه وسلم — يوما وهى تبكى فقال لها فى ذلك فقالت :

— بلغنى أن عائشة وحفصة ينالان منى ويقولان نحن خير من صفية ، نحن بنات عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .

ـ قولى لهن : كيف تكن خيرا منى وأبى هارون وعمى موسى عليهما الصلاة والسلام وزوجى محمد ؟

* * *

وطاف ـ ﷺ ـ بميمونة بنت الحارث وكان اسمها برة فسماها ـ ﷺ ـ ميمونة ، وهى خالة عبد الله بن العباس وأختها أسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس وزينب بنت خزيمة أم المؤمنين ، وخالة خالد بن الوليد ، وكانت فى الجاهلية عند مسعود بن عمر ففارقها فخلف عليها أبو رهم فتوفى عنها ، وقد وهبت نفسها للنبى ـ ﷺ ـ عندما كان فى مكة يؤدى العمرة بعد صلح الحديبية وبنى بها بسرف ، وقد ظلت سرف أحب أرض الله إلى قلبها حتى إنها أوصت أن تدفن بسرف .

* * *

وترك ـ ﷺ ـ دور نسائه وانطلق إلى مشربة أم إبراهيم . كانت مارية المصرية تنتظره وكان معجبا بها لأنها كانت بيضاء جميلة ، وكانت تذكره بأبيه إبراهيم وهاجر المصرية وإسماعيل الذى كان جسرا بين مصر والعرب .

وكان إبراهيم الحبيب هناك ؛ إن قلبه الشريف يهفو إليه ويخفق بحبه ، وذهنه يسترجع صور الماضى التى تشرق فى وجدانه فتبدد أحزانه . إنه يرى أبا رافع مولاه وقد جاء إلى المسجد بإبراهيم فيهرع إليه أسامة بن زيد والحسن والحسين وحبيبة وأميمة ابنة زينب يحاول كل منهم أن يختطفه لنفسه . هذا يداعبه وذاك يقبله والجميع يناجونه فى حب صادق لا تشوبه غيرة . إنها صور إنسانية تمس وترا حساسا فى قلبه الكبير وتفجر ينابيع الحنان من كنز فؤاده بأنبل المشاعر وأرق الإحساسات .

ورأى فى ظلام الليل أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وكبار الصحابة وقد فتحوا

قلوبهم لإبراهيم وغمروه بحبهم فاستشعر سعادة عارمة ، ولم يكدر صفوه أنه تذكر فى تلك اللحظة ما كان من عائشة بنت أبى بكر ؛ إنه جاء به إلى عائشة ذات يوم وقال لها :

— انظرى إلى شبهه .

— ما أرى شيئا .

— ألا ترين إلى بياضه ولحمه ؟

أنكرت عائشة كل شبه بينه وبين إبراهيم بوحى من غيرتها ، وإنه ليغفر لبنت الصديق غيرتها . إنه — صلوات الله وسلامه عليه — دفعه لأم بردة خولة بنت المنذر بن زيد الأنصارى زوجة البراء بن أوس لترضعه وأعطاها قطعة نخل ، فكانت ترضعه فى بنى مازن وترجع به المدينة ، وكان — ﷺ — ينطلق إليها فيدخل البيت ويأخذه فيقبله ثم يرجع .

إن مارية تعلم مقدار حب رسول الله — ﷺ — لابنه إبراهيم فكانت تحرص على أن يكون عندها كلما جاء — ﷺ — لزيارتها فهو قرة عينه ومصدر سعادته ، وإنه لمما يبهجها أن ترى رسول الله — ﷺ — سعيدا .

ولم تعد مارية جارية فقد حررها ولدها ، فالإسلام دين الحرية يلتمس أى سبب لتحرير الرقاب ، فما أن تضع الجارية ما فى بطنها حتى تصبح حرة لها حقوق كل الأحرار ، وقد أمسى لمارية ليلة يخصها بها رسول الله — ﷺ — أسوة بأمهات المؤمنين .

ودخل رسول الله — ﷺ — على المصرية بنت الصعيد فألفى إبراهيم فى حجرها فامتد إليه فؤاده قبل أن تمتد إليه يداه ، ثم رفعه وراح يقبله فى حب وهو يفكر فى إسماعيل الجديد الذى سيكون جسر الحب بين مصر والعرب .

٤

كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل فيمن شهد العقبة الأخيرة ، وقد بايعاه — ﷺ — مع من بايعوه من الأنصار على حرب الأحمر والأسود . وكان عمرو بن الجموح من بنى حرام بن كعب بن غانم بن كعب بن سلمة ، وكان معاذ بن جبل من بنى جشم وقد ادعته بنو سلمة لأنه كان أخا سهل السلمى لأمه ، وقد توطدت الصداقة بين معاذ بن عمرو بن الجموح وبين معاذ بن جبل الذى كان فى بنى سلمة .

فلما قدم الذين بايعوا رسول الله — ﷺ — بالمدينة أظهروا الإسلام بها ، وفى قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك منهم عمرو بن الجموح بن سلمة — وكان ابنه معاذ بن عمرو قد أسلم — وكان عمرو بن الجموح سيدا من سادات بنى سلمة وشريفا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ فى داره صنما من خشب يقال له مناة ، وكان الأوس والخزرج يعبدون مناة قبل أن يشرح الله صدورهم للإسلام ، فلما أسلم فتيان بنى سلمة معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح فى فتيان منهم ، كانوا يُدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة وفيها فضلات الناس منكسا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال :

— ويلكم ! من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال :

— أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه .

فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده فى مثل

ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوما فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال :

— إنى والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة ، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه الذى كان به فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه وكلمه من أسلم من رجال قومه فشرح الله صدره للإسلام ، فأسلم ليسير فى موكب النور .

وآخى رسول الله — ﷺ — بين جعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل ، فكان معاذ فى شوق إلى أن يلقى أخاه الذى كان هناك فى الحبشة ، وكان يتتبع أخباره فى شغف ويرقب ذلك اليوم الذى يهاجر فيه إلى المدينة فى لهفة ، فلطالما سمع أن جعفر كان أقرب بنى هاشم شبها برسول الله — ﷺ .

وكان معاذ بن جبل يحسب أن اليهود سيسارعون بالتصديق برسول الله عليه السلام ، فقد كانوا إذا ما نشب قتال بينهم وبين الأوس والخزرج يستفتحون عليهم برسول الله — ﷺ — قبل مبعثه ، فلما رأى معاذ بن جبل أنهم قد جحدوا ما كانوا يقولون فيه ، سار إليهم هو وبشر بن البراء بن معرور وقالا لهم :

— يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته .

فقال سلام بن مشكم أحد بنى النضير :

— ما جاءنا بشىء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكره لكم .

فأنزل الله فى ذلك من قولهم : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾(١)

وعاد معاذ بن جبل إلى نفر من أحبار يهود يسألهم عن بعض ما فى التوراة فكتموه إياه وأبوا أن يخبروه عنه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾(٢) .

ودعا رسول الله — ﷺ — يهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم الله وعقوبته فأبوا عليه وكفروا بما جاءهم به ، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب :

— يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته .

فقال يهود :

— ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير ﴾(٣) .

وكانت غزوة بدر فشهدها معاذ بن جبل ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله — ﷺ ، ولم يكتف أن يكون رجل سيف بل أراد أن يكون رجل علم ، فكان

---

(١) البقرة ٨٩ (٢) البقرة ١٥٩

(٢) المائدة ١٩

يلزم مسجد الرسول يتلقى منه الحكمة ويقرأ عليه القرآن العظيم ويتفقه فى الدين . فلما عاد رسول الله — ﷺ — إلى مكة بعد حرب الطائف استخلف عتاب بن أسيد على مكة وكان عمره إذ ذاك نحو عشرين سنة ، وخلف معه معاذ ابن جبل يفقه الناس .

وقدم على رسول الله فى عام الوفود رسول ملوك حمير ، فكتب — ﷺ — إليهم كتابا جاء فيه : « ... أما بعد فإن رسول الله محمدا النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن أن إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرا : معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك ابن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلى ، وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيا . أما بعد فإن محمدا يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأنه عبده ورسوله . ثم إن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيرا ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم وأن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته وإنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل .

وأن مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيرا ، وإنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم وآمركم بهم خيرا فإنهم منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وراح — صلوات الله وسلامه عليه — يوصى معاذا ويعهد إليه ثم قال له :

— يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر ، وأنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة فقل : شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له .

فخرج معاذ حتى إذا قدم اليمن قام بما أمره به رسول الله — ﷺ — وكان عُناهر بن التوأم الحميرى كاهنا وكان قد أوتى بسطة فى الجسم وسعة المال وكان

عاتيا ، فلما وفدت وفود اليمن على النبى — صلى الله عليه وسلم — وظهر الإسلام أغار على إبل حراء فاكتسحها وخرج بأهله وماله ولحق بالشّحر ونزل بواد من أودية الشحر مخصبا كثير الشجر من الأيك والعرين ، وكان يحاول أن يصم أذنيه عن القرآن الذى فتح أفئدة اليمنيين ، ولكن القرآن كان على كل لسان فألقى إليه السمع فإذا به ليس بالشعر ولا بالسجع المتكلف ، وإذا به فرقان بين الكفر والإيمان ، فلما برق له النور امتطى راحلته وأعلم أعبده واحتمل أهله حتى ورد الجدف فرد الإبل على أربابها وأقبل يريد صنعاء ، فأصاب بها معاذ بن جبل أمير الرسول — صلى الله عليه وسلم — فألقى إليه سمعه فإذا بقلبه يتحرك ، وإذا بالدمع يفيض ، وإذا به يتعرض لنفحات ربه فتشرق أنوار المعارف فى عين ذاته ، وإذا به يستشعر أن عالمه أوسع من العالم الأرضى ، وأن ملكه أعظم من أعظم ملك بعد أن سلم قلبه من غير الله ، فأقبل على معاذ بن جبل يبايعه على الإسلام بعد أن ارتفعت الحجب بين فؤاده والملكوت .

٥

كانت وفود اليمن ترد إلى المدينة وتلقى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يحملون إسلامهم وإسلام من وراءهم ، وكان رسول الله يبعث إليهم من يفقههم فى الدين ، فقد أرسل إلى الكورة العليا من جهة عدن معاذ بن جبل ، وبعث أبو موسى الأشعرى إلى الكورة السفلى وقال له يوصيه :

ـــ يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر ، إنك ستأتى قوما أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن أطاعوا بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب .

وانطلق أبو موسى الأشعرى إلى اليمن فراح يذكر تلك الأيام التى سبقت هجرته إلى المدينة ، فقد بلغه وهو فى اليمن مخرج النبى ـــ ﷺ ـــ إلى يثرب ، فخرجوا مهاجرين إليه هو وأخوان له هو أصغرهم ، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم فى ثلاثة وخمسين رجلا من قومه ، فركبوا سفينة فألقتهم سفينتهم إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقوا جعفر بن أبى طالب فأقاموا معه حتى قدموا جميعا فوافقوا النبى ـــ ﷺ ـــ حين افتتح خيبر .

وكان أناس من الناس يقولون لهم :

ـــ سبقناكم إلى الهجرة .

ودخلت أسماء بنت عميس وكانت تحت جعفر بن أبى طالب وهى ممن قدم

معهم على حفصة زوج النبى ـ ﷺ ـ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى الحبشة فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء :

ـ من هذه ؟

ـ أسماء بنت عميس .

ـ الحبشية ؟ هذه البحرية هذه ؟

قالت أسماء :

ـ نعم .

ـ سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ـ ﷺ ـ منكم .

فغضبت وقالت :

ـ كلا والله، كنتم مع رسول الله ـ ﷺ ـ يُطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا فى دار البُعداء البُغضاء فى الحبشة وذلك فى الله وفى رسول الله ـ ﷺ ـ وايم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ـ ﷺ ـ ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبى وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه .

وانصرف عمر وبقيت أسماء بنت عميس تنتظر رسول الله ـ ﷺ ـ فلما جاء قالت :

ـ يا نبى الله إن عمر قال كذا وكذا .

ـ فما قلت له ؟

ـ قلت له كذا وكذا .

ـ ليس بأحق بى منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

وذاع خبر ذلك الحديث فكان أبو موسى وأصحاب السفينة يأتون أسماء بنت

عميس أرسالا يسألونها عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي — ﷺ — .

وتوجت شفتي أبي موسى بسمة رقيقة وراح يجري وراء أفكاره ، إنه يذكر ما قاله رسول الله — ﷺ — ليلة أن نزلوا المدينة ، قال صلوات الله وسلامه عليه :

— إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار .

وبعث — ﷺ — جرير بن عبد الله البجلي إلى تخريب ذي الخلصة ، إنه قدم على رسول الله — ﷺ — سنة عشر من الهجرة في شهر رمضان فبايعه وأسلم ، وكان جرير صبيح الوجه جميلا وقد قال — ﷺ — لما رآه :

— كأن على وجهه مسحة ملك .

وكان عمر بن الخطاب يقول :

— جرير يوسف هذه الأمة .

وكان طوالا وقد بعثه — ﷺ — ليهدم صنم قومه ، فانطلق جرير والأفكار تنثال على رأسه . إنه يرى ما كان منه في الجاهلية يوم نافر خالد بن أرطأة الكلبي ، إن كلبا أصابت رجلا من بجيلة يقال له ملك بن عتبة من بني عادية فوافوا به عكاظ ، فمر العادي بابن عم له يقال له القاسم يأكل تمرا ، فتناول من ذلك التمر ليتحرم به فجذبه الكلبي فقال له القاسم :

— إنه رجل من عشيرتي .

— لو كانت له عشيرة منعته .

فانطلق القاسم إلى بني عمه بني زيد بن الغوث ليستعين بهم على بني كلب فقالوا :

ـــ نحن منقطعون فى العرب وليست لنا جماعة نقوى بها .

فانطلق إلى آخر يستعين بهم فقالوا :

ـــ كلما طارت ورقة من بنى زيد فى أيدى العرب أردنا أن نتبعها ؟!

فانطلق عند ذلك إلى جرير فكلمه والدهش فى عينيه ، فذاك كان أول يوم يرى فيه القاسم الثياب المصبغة والقباب الحمر . كان جرير سيد بنى مالك بن سعد بن زيد بن قسر وهم بنو أبيه ، فدعاهم فى انتزاع العادى من كلب فتبعوه فخرج يمشى بهم حتى هجم على منازل كلب بعكاظ فانتزع منهم مالك بن عتبة العادى وقامت كلب دونه ، فقال جرير :

ـــ زعمتم أن قومه يمنعونه .

ـــ إن رجالنا خلوف .

ـــ لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئا .

ـــ كأنك تستطيل على قضاعة ، إن شئت قايسناكم المجد .

ثم قال زعيم قضاعة خالد بن أرطأة بن خشين بن شبت :

ـــ ميعادنا من قابل سوق عكاظ .

فجمعت كلب وجمعت قسر ووافوا عكاظا من قابل وصاحب أمر كلب خالد بن أرطأة ، فحكموا الأقرع بن حابس وكان عالم العرب فى زمانه ووضعوا الرهون على يد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس من أشراف قريش ، وكان فى الرهن من قشر الأصرم بن عوف ، ومن بنى زيد الغوث بن أنمار ، ثم قام خالد بن أرطأة فقال لجرير :

ـــ ما تجعل ؟

ـــ الخطر (الرهان) فى يدك .

ـــ ألف ناقة حمراء فى ألف ناقة حمراء .

فقال جرير :

— ألف قينة عذراء فى ألف قينة عذراء ، وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء .

— من لى بالوفاء ؟

— كفيلك اللات والعزى وإساف ونائلة ويعوق وذو الخلصة ونسر . فمن عليك بالوفاء ؟

— ود ومناة وفلس ورضا .

فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب على أيدى عتبة بن ربيعة ، فقال الأقرع :

— ما عندك يا خالد ؟

فقال خالد فى فخر :

— ننزل البراح ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح .

فقال الأقرع :

— ما عندك يا جرير ؟

— نحن أهل الذهب الأصفر والأحمر المعتصر . نخيف ولا نخاف : ونطعم ولا نستطعم ، ونحن حى لقاح ، نطعم ما هبت الرياح ، نطعم الشهر ، ونضمن الدهر ، ونحن الملوك لقسر .

أيام مضت بجهالتها . إن عتبة بن ربيعة قتل يوم بدر وبات بالقليب وقد ذهب عنه كل مجد ، والأقرع بن حابس عالم العرب فى زمانه قد شرح الله صدره للإسلام لا فضل له على أحد إلا بالتقوى ، واللات والعزى وإساف ونائلة ويعوق ونسر وود ومناة وفلس ورضا قد تحطمت ، وإنه لذاهب لتحطيم ذى الخلصة فقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

وانتهى جرير من تقويض ذى الخلصة فبعثه رسول الله — ﷺ — إلى ذى

الكلاع . إنه منشرح الصدر راضى النفس ، فى صحبة رسول الله — ﷺ — منذ أسلم ، ولا رآه إلا تبسم ، ولا غرو فرسول الله — ﷺ — يقول :

— ابتسامتك لصاحبك صدقة .

وبعث رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب إلى اليمن وعقد له لواء وعممه بيده وقال :

— امض لا تلتفت ، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك .

وبعث خالد بن الوليد فى جند آخر وقال :

— إن التقيتما فالأمير على بن أبى طالب .

فخرج على فى ثلاثمائة فارس وكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد وهى بلاد مذحج ، ففرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء ، وجعل على الغنائم بريدة بن الحصيب الأسلمى فجمع إليه ما أصابوا ، ثم لقى جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل ، ثم حمل عليهم على كرم الله وجهه وأصحابه فقتل منهم عشرين رجلا فتفرقوا وانهزموا ، فكف عن طلبهم ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا ، وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وقالوا :

— نحن على من وراءنا من قومنا ، من قومنا ، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله .

وأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، فكتب على بذلك إلى رسول الله — ﷺ — فلما قرأ كتابه خر ساجدا ثم جلس فقال :

— السلام على همدان . السلام على همدان .

٦

كان الظلام يخيم على المدينة ولم يكن فى السماء نجم يتلألأ ولكن الدور كانت كخلايا النحل الرجال والنساء والولدان يرتلون القرآن فى هجعة الليل وقد أضاءت قلوبهم بأنوار اليقين ، ورسول الله ـ ﷺ ـ يصلى فى جوف الليل فهو أشد الناس خشية وخوفا من الله ، وصلى ما شاء الله أن يصلى ثم أتى ـ ﷺ ـ عائشة فدخل معها فى لحافها وقلبه مشغول بربه ، فقال لبنت الصديق :

ـ ذرينى أتعبد لربى .

فقام ـ ﷺ ـ فتوضأ ثم قام فصلى فبكى حتى سال دمعه على صدره ، ثم رجع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاءه بلال فآذنه بالصلاة فقالت عائشة :

ـ يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

ـ أفلا أكون عبدا شكورا ؟ ولم لا أفعل وقد أنزل الله تعالى علىّ فى هذه الليلة : ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾[1] . أواه من عذاب الله قبل أن لا ينفع أواه .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يعمل عمل البيت وأكثر ما كان يعمل الخياطة ،

---

(١) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١

ما يرى فارغا قط فى بيته إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخيط ثوبا لأرملة وإنه لم يذق طعاما منذ يومين ، وكانت عائشة ترثى له من الجوع وتقول :

ـــ نفسي لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنع عنك الجوع !

فيقول عليه السلام :

ـــ يا عائشة إن إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرمهم وأجزل ثوابهم ، أخشى إن ترفعت فى معيشتى أن يقصر بى دونهم ، فأصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حقى غدا فى الأخرى ، وما من شيء أحب إلى من اللحوق بإخوانى . يا عائشة إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر وقال : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . والله لأصبرن جهدى ولا قوة إلا بالله .

ودخلت امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ـــ ﷺ ـــ عباءة مثنية . فانطلقت فبعثت إليه بفراش حشوه صوف ، فدخل ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ على عائشة فقال :

ـــ ما هذا ؟

ـــ يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك ، فذهبت فبعثت هذا .

ـــ رديه .

فلم ترده وأعجبها أن يكون فى بيتها حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال :

ـــ والله يا عائشة لو شئت لأجرى الله على جبال الذهب والفضة .

وخرج ـــ ﷺ ـــ ليصلى بالناس فإذا برجل من العرب يرنو إليه فى حب شديد . إن الرجل زحم رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوم حنين وفى رجله نعل كثيفة

فوطئ بها على رجل رسول الله — ﷺ — فبعجه عليه السلام بعجة بسوط فى يده وقال :

— بسم الله أوجعتنى .

فبات الرجل لنفسه لائما يقول أوجعت رسول الله ﷺ ، فلما أصبح إذا رجل يقول أين فلان ؟ فانطلق الرجل وهو متخوف فقال له النبى — ﷺ :

— إنك وطئت بنعلك على رجلى بالأمس فأوجعتنى فبعجتك بالسوط ، فهذه ثمانون نعجة فخذها بها .

كان يمر هلال ثم هلال لا يوقد فى بيت من بيوت رسول الله — ﷺ — نار لا لخبز ولا لطبيخ . كانوا يعيشون بالأسودين الماء والتمر ، وكان — ﷺ — يعطى ثمانين نعجة لأنه بعج بالسوط رجلا وطئ قدمه . إنه كان يحرم نفسه وأهله لتتأسى به أمته ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

وكان للنبى — ﷺ — مهابة ، فكان يبسط الناس بالدعابة يضحك مما يضحكون . وكان يحب نعيمان وكان رجلا مضحاكا مزاحا ، فقد جاء أعرابى إلى رسول الله — ﷺ — فدخل المسجد فأناخ راحلته بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان :

— لو نحرتها فأكلناها فإنا قد اشتقنا إلى اللحم ويغرم النبى — ﷺ — حقها .

فنحرها نعيمان . فخرج الأعرابى فرأى راحلته فصاح :

— واعقراه يا محمد .

فخرج النبى — ﷺ — فقال :

— من فعل هذا ؟

— نعيمان .

فأتبعه النبى — ﷺ — يسأل عنه فوجده فى دار ضباعة بنت الزبير بن

عبد المطلب قد اختفى فى خندق وجعل عليه الجريد ، فأشار إليه رجل ورفع صوته :

— ما رأيته يا رسول الله .

وأشار بأصبعه حيث هو فأخرجه رسول الله — ﷺ — وقد تعفر وجهه بالتراب ، فقال — ﷺ — :

— ما حملك على ما صنعت ؟

— الذين دلوك علي يا رسول الله هم الذين أمرونى .

فجعل رسول الله — ﷺ — يمسح عن وجهه التراب ويضحك ، ثم غرم — ﷺ — ثمنها .

وكان نعيمان إذا دخل المدينة طرفة اشتراها فى ذمته ثم جاء بها إلى النبى عليه الصلاة والسلام ويقول :

— يا رسول الله هذه هدية .

فإذا جاء صاحبها يطلب ثمنها جاء به إلى النبى عليه الصلاة والسلام وقال له :

— أعط هذا ثمن ما جئت به إليك .

— أولم تهد ذلك لى ؟

— يا رسول الله لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن يكون لك .

فيضحك النبى — ﷺ — ويأمر لصاحبه بثمنه .

وقضيت الصلاة فالتف المسلمون حول النبى — ﷺ . كان المسجد جامعتهم وكان — صلوات الله وسلامه عليه — معلمهم الأكبر الذى لا ينضب علمه ، ولا جرم فعلمه من لدن العليم الحكيم . فراح عليه السلام يقول :

— قال الله تبارك وتعالى : يا بن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما كان منك ولا أبالى . يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت

لك ولا أبالى . يا بن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة .

وقال عليه السلام :

ـــ النادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها . والليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا السير عليها إلى الآخرة واحذروا التسويف ، فإن الموت يأتى بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله .

ثم قرأ رسول الله ـــ ﷺ : «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(١) .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان يصغون إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وكان المسلمون يعرفون مكانتهم فى الإسلام فرسول الله ـــ ﷺ ـــ قال :

ـــ أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى أمر الله عمر ، وأشدهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبى بن كعب ؛ ولكل قوم أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح ، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر ، أشبه عيسى فى ورعه .

وقام الناس إلى الأسواق لما ارتفعت الشمس ، ودخل رسول الله ـــ ﷺ ـــ داره ، فجاءت إليه امرأة فقالت :

---

(١) الزلزلة ٧ ، ٨

— يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال فإن يصيبوا أجروا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم عليهم فما لنا فى ذلك ؟

— أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله .

وخرج رسول الله — ﷺ — يمشى مع أبى ذر الغفارى ، فقال له فيما قال :

— إنكم ستفتحون مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما .

٧

جاء البراء بن أنس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضعة إبراهيم إلى مسجد رسول الله باسر الوجه ثقيل الخطو تكاد نفسه أن تذهب شعاعا، يتلفت دون أن تستقر عيناه على شيء، يحس كأنما يحمل أثقال الدنيا، فعلى لسانه يتراقص خبر مفجع أليم، خبر يود أن لو قدره قد أعفاه من حمله .

ورأى بعينين زائغتين رسول الله ـ ﷺ ـ جالسا عند المحراب وعنده عبد الرحمن بن عوف، فاشتد وجيب قلبه واضطربت أنفاسه وشحب لونه وتقدم يترنح من الألم حتى إذا ما بلغ رسول الله ـ ﷺ ـ استمسك حتى لا ينهار، ثم قال فى صوت تخنقه العبرات :

ـ يا رسول الله إبراهيم يموت .

وأجهش الرجل بالبكاء، وأحس رسول الله ـ ﷺ ـ أن قلبه يكاد أن يتصدع أسى على ابنه الحبيب، ونزل بصدره حزن عميق فلم يستطع أن يقوم، فاعتمد على يد عبد الرحمن بن عوف حتى نهض، ثم انطلق معتمدا على يد صديقه من شدة ما به من الألم .

وجاء إلى فاطمة الزهراء نبأ احتضار أخيها وأن أباها ـ ﷺ ـ قد ذهب إلى بنى مازن فأحست نارا تتلظى فى أحشائها وغصة فى حلقها، فإبراهيم كان سلوى أبيها وعزاءه عن الأحبة الذين دسهم فى التراب : زينب ورقية وأم كلثوم . إنها فاجعة تنقض الظهر وتمزق نياط القلب وتشعل الوجدان بنيران الأحزان .

وراحت تغدو وتروح فى الدار وهى فريسة الآلام والأفكار، فعلى بن أبى

طالب هناك فى اليمن وليس معها إلا الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم . وهى تريد أن تبعث إلى أبى بكر وعمر وصحابة أبيها ليخففوا عنه لوعة المصاب ، ورأت أنس بن مالك فنادته وأخبرته الخبر والتمست منه أن يبلغ الرجال ، فإذا أسامة بن زيد يعدو إلى مشربة أم إبراهيم ، وإذا بالفضل بن العباس يوسع من خطوه ليلحق بابن عمه ، وإذا بأبى بكر وعمر وكبار الصحابة يشتدون إلى العالية وفى قلوبهم حزن وفى حلوقهم غصة وقد لاذوا بالصمت وكان صمتا أفصح من البيان ، فالأسى الذى ارتسم على الوجوه كان يعكس ما يعتمل فى صدورهم من ألم وما يمور فى نفوسهم من أحزان .

وبلغ سيرين أخت مارية وزوج حسان بن ثابت أن ابن أختها يجود بأنفاسه فلفها خوف واستولى عليها ذهول ، حتى إذا ما استبان لعقلها هول الفاجعة ندت عنها صرخة عبرت عما تكابد من آلام ، ثم راحت تهرول إلى دار أختها وبين ضلوعها نار .

ولحق أنس بن مالك برسول الله — ﷺ — وعبد الرحمن بن عوف والبراء بن أنس وهم يقتربون من دار البراء ، وكان إلى جوار الدار حداد ينفخ الكور فيملأ المكان بالدخان ، فتقدم أنس وهو يقول : رسول الله .. رسول الله .

ودخل رسول الله — ﷺ — على أم بردة فإذا الحجرة قد امتلأت بدخان الحداد ، وإذا بأم بردة قد وضعت إبراهيم فى حجرها . فمال رسول الله — ﷺ — على فلذة كبده ونظر فى وجهه فألفاه ذابلا ذبول الموت ، فنزل به حزن لو نزل على جبل لتصدع ، ثم قبله قبلة أودعها حبه وذوب نفس والهة حزينة لا تملك إلا الامتثال لأمر الله .

وخرجت أم بردة تحمل إبراهيم وخلفها رسول الله — ﷺ — فمد إليه عبد الرحمن يده فاعتمد عليها ، وسار الركب الحزين إلى مشربة أم إبراهيم وأنس

والبراء وعبد الرحمن بن عوف يغالبون دموعهم حتى لا يزيدوا أحزان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

ودخلت أم بردة على مارية فهرعت إليها ملهوفة وأخذته منها وقلبها يرف كجناح حمامة بين ضلوعها ، ونظرت فى وجهه فإذا بها تنوء بآلامها تكاد أن تموت كمدا ، فابنها بين ذراعيها يموت . وأى ابن؟ إنه من رسول رب العالمين ، من الطاهر الأمين ، الأمل الحلو المرجو الذى أحال حياتها إلى فردوس طوال السنتين اللتين عاشهما فى دارها .

ووضعته فى حجرها ، وجاءت سيرين تمد إليه عينيها ولكنها لم تقو على أن ترى الزهرة ذابلة فأشاحت بوجهها تسح دموعها ، واستمرت مارية ترنو إلى نور حياتها وهو يخبو فسفحت الدمع السخين . وأحس رسول الله — ﷺ — ما تعانى مارية من عذاب أليم فما بها بعض ما به ، فأخذه — ﷺ — ووضعه فى حجره .

وراح إبراهيم يلتقط أنفاسا واهية ثم حشرج حشرجة الموت ، فتأججت النيران فى صدر رسول الله — ﷺ — وغص حلقه واغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال :

— يا إبراهيم ، إنا لن نغنى عنك من الله شيئا .

وفاضت الروح الطاهرة فذرفت عينا الرسول ، وصاحت مارية وسيرين فنهاهما — ﷺ — عن الصياح ، ثم التفت إلى إبراهيم المسجى فى حجره وقال :

— إنا بك يا إبراهيم لمحزونون . تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب . ولولا أنه وعد صادق وموعود جامع فإن الآخر منا يتبع الأول ، وجدنا عليك يا إبراهيم وجدا شديدا ما وجدناه .

وخرج ﷺ — على أصحابه منكس الرأس يذرف الدمع ، فهرع إليه أبو

بكر وعمر وقالا له :

ـــ أنت أحق من علم لله حقه .

ـــ تدمع العين .

وقال له عبد الرحمن بن عوف :

ـــ أولم تكن نهيت عن البكاء ؟

ـــ لا . ولكن نهيت عن صوتين أحمقين آخرين : صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان ، وصوت عند نغمة لهو ، وهذه رحمة . من لا يرحم لا يُرحم .

وصرخ أسامة بن زيد.فنهاه رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال له :

ـــ رأيتك تبكى .

ـــ البكاء من الرحمة ، والصراخ من الشيطان .

إنه ـــ ﷺ ـــ يجد فى كبده جمرة لا يطفئها إلا عبرة ، فسكبها ، ولم يتحرك لسانه بما يسخط الرب . وإن مارية تفيض عيناها من الدمع حزنا على إبراهيم ، وقد استولى عليها جزع فلا جرم فسراج حياتها قد انطفأ ، وحلم يقظتها ومنامها قد أصبح سرابا . كانت ترجو أن يكون إبراهيم للعرب كما كان إسماعيل ، وأن تصبح أما للعرب كما صارت هاجر المصرية أما لهم . ولكن الزكى الطاهر ابن النبى المصطفى قد مات .

مات ! يا لها من كلمة موحشة تجلل بالسواد وجدانها وتقوض كل الأمانى والآمال ، وأجهشت مارية بالبكاء حتى كادت كبدها تنفطر وروحها تفر من ذلك الأتون الذى تلظى بين الضلوع . وانكفأت سيرين على أختها تضمها إليها لتخفف عنها وقع المصاب والدمع مسفوح والقلب مجروح ، والصوت قد حبس خشية غضب رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه .

ولم تذهب الدموع بلوعة مارية ، ولم تخفف وطأة الأسى عن رسول الله ـ ﷺ ـ فإن إبراهيم لما مات كان ـ ﷺ ـ مستقبلا للجبل فقال :

ـ يا جبل لو كان بك مثل ما بى لهدك ، ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون .

وراح الفضل بن العباس يغسل إبراهيم وقد ساد الصمت الحزين، حتى إذا ما خرج الناس به مادت الأرض تحت قدمى مارية فانهارت تبكى وتنتحب . ولولا امتثالها لأوامر رسول الله ـ ﷺ ـ لصرخت وخمشت وجهها وشقت جيبها ؛ فقد خرج بلا عودة من كان وجودها فى وجوده ومكانتها مستمدة من مكانته وعزها من عزه ، ولا غرو فلم يكن ابنها وحسب ولكنه كان ابنها وابن رسول الله الذى بعثه ربه رحمة للعباد .

وسارت الجنازة إلى البقيع ، رسول الله ـ ﷺ ـ بين أبى بكر وعمر ، والناس يذرفون الدمع حزنا على حزن نبى الإسلام عليه السلام ، وما أكثر ما قطع رسول الله عليه السلام ذلك الطريق ، فما من جنازة خرجت من المدينة إلا خرج فيها عليه الصلاة والسلام ، وإن جنازات بناته رقية وزينب وأم كلثوم لتعود إلى ذاكرته لتزيد فى آلام حليف الأحزان . وطافت بذهنه جنازة خديجة أم المؤمنين وحاضنة الإسلام ؛ إنه ليذكر ذلك اليوم الذى قبرها هناك فى مكة إلى جوار ولديه القاسم وعبد الله . كان يوما فاجعا مثل ذلك اليوم الذى يقبر فيه آخر أولاده الذكور الذى اكتحلت به زمنا يسيرا عيناه .

وبلغ الجثمان الطاهر البقيع فصلى رسول الله ـ ﷺ ـ على فلذة الفؤاد وكبر أربعا ، ثم نزل فى قبره هو وأسامة بن زيد . وجلس رسول الله على شفير القبر ثم قال :

ـ الحق بسلفنا الصالح وعثمان بن مظعون .

وكسفت الشمس فقال قائل :

ـــ كسفت لموت إبراهيم .

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ صادقا مع ربه صادقا مع نفسه ومع المؤمنين ، فلم يمنعه حزنه من أن يحتج على ذلك القول الذى يجافى الحقيقة . فقال ـــ ﷺ :

ـــ إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله فلا ينكسفان لموت أحد .

وسوى التراب فرش عليه السلام على القبر ماء وعلم عليه بعلامة ، ووقف يلقن ولده الحبيب فى صوت حزين قال :

ـــ يا بنى إن القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب . إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا بنى قل الله ربى ، والإسلام دينى ، ورسول الله أبى .

فبكت الصحابة ومنهم عمر بكى حتى ارتفع صوته ، فالتفت إليه النبى ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ ما يبكيك يا عمر ؟

ـــ يا رسول الله هذا ولدك وما بلغ الحلم ، ولا جرى عليه القلم ، ويحتاج إلى تلقين مثلك يلقنه التوحيد فى مثل هذا الوقت ، فما حال عمر وقد بلغ الحلم وجرى عليه القلم وليس له ملقن مثلك .

فبكى النبى ـــ ﷺ ـــ وبكت الصحابة معه ، ونزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾[1] . فتلا النبى ـــ ﷺ ـــ الآية فطابت الأنفس وسكنت القلوب وشكروا الله .

---

(١) إبراهيم ٢٧ .

وقفل الناس راجعين بعد أن قبروا إبراهيم ، وقال — ﷺ :

— لو عاش ما رق له خال .

لوضعت الجزية عن كل قبطى ، وإن الحسن بن على كلم معاوية فى أيام خلافته فى أن يضع الخراج عن أهل بلدة مارية ، وهى حفنة من أنصتا فى صعيد مصر ، ففعل معاوية ذلك رعاية لحرمتهم . ولو عاش إبراهيم لكان فتنة . فسلام على إبراهيم وسلام على أبى إبراهيم — صلوات الله وسلامه عليه .

٨

كانت قوافل التجارة تخرج من مكة والطائف والمدينة ، وكان بعض الذين يحبون أن يكون لهم نصيب فى التجارة ولا مال عندهم يقترضون من الموسرين ، وكان العباس بن عبد المطلب من أثرياء مكة فكان يقرض الناس على أن يأخذ ربا يقدره على القرض كل شهر ، فإذا كان القرض لعام فعلى المدين أن يسدد القرض كله كاملا فى نهاية العام دون أن يقتطع منه ما كان العباس يتقاضاه كل شهر . فإذا كان المدين معسرا وطلب تجديد عقد القرض سنة أخرى فعلى المدين أن يدفع فى نهاية السنة التالية ضعف القرض وأن يستمر فى دفع الفوائد الشهرية المتفق عليها ، فإذا لم يتمكن المدين من سداد الدين الجديد فى نهاية السنة الثالثة فعليه أن يدفع ضعف المبلغ الذى بلغه القرض فى نهاية السنة الثانية إذا أراد أن يؤجل الدين سنة أخرى .

وما كان العباس وحده الذى يقرض الناس بالربا . فخالد بن الوليد وأثرياء بنى مخزوم وسادات الطائف وسادات يثرب الأغنياء كانوا يعيشون على الربا ، بل إن بعض متوسطى الحال كانوا إذا أقرضوا مقترضا ناقة عمرها عامان ، فإذا طلب مهلة ثانية فعليه أن يعيد ناقة تجاوزت عامها الثالث ولكنها لم تبلغ الرابع بعد .

وكانت القاعدة ذاتها تطبق على الذهب والفضة ، فإذا اقترض المدين مائة دينار فعليه أن يدفع فى العام الثانى إذا طلب مد الأجل مائتى دينار ، وإذا عجز عن الوفاء وطلب مهلة سنة أخرى فعليه أن يدفع فى نهاية السنة الثالثة أربعمائة دينار ، وهكذا إلى أن يسدد المدين دينه كاملا . فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا

تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾(١) .

وهاجر خالد بن الوليد إلى المدينة وكان له أموال عظيمة فى الربا ، فلما نزلت آية تحريم التعامل بالفوائد المركبة راح هو والمسلمون يقرضون الناس بفوائد بسيطة ، فكان العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان يقرضون الناس وكانا قد أسلفا فى التمر ، فلما حضر الحصاد قال لهما صاحب التمر :

— لا يبقى لى ما يكفى عيالى إذا أنتما أخذتما حظكما كله ، فهل لكما أن تأخذا النصف وأضعف لكما ؟

ففعلا .

إن ابتزاز الأغنياء أموال الفقراء لا يتفق مع المجتمع الجديد الذى يكونه الإسلام على المحبة والإخاء والإيثار ونجدة الملهوف ، وإن السماح بوجود طبقة غنية لا عمل لها إلا إقراض الناس مال الله الذى آتاهم سيكوّن طبقة من العاطلين لا عمل لهم ، مع أن الإسلام يقدس العمل حتى جعله عبادة ، وإنه يبارك الكسب الحلال دون عبادة المال أو تأليه المادة .

إن الربا من الخبائث فهو يقتلع جذور الروح الإنسانية ويحرك فى النفوس الطمع ؛ وما جاء الإسلام إلا للقضاء على الجشع واستئناس الوحش الرابض فى صدر الإنسان ، وتقوية الروابط بين الطبقات الاجتماعية وعدم إثارة أسباب الصراع بينها ، فإن سمح الإسلام بالربا فلكأنما قد ضم الحيات التى ستقضى عليه إلى صدره ، ولكن الإسلام ما دام يقصد الانسجام التام بين طمع الفرد وسلامة الجماعة فما كان أمامه إلا أن يحرم الربا الذى يقوض الروابط الاجتماعية الإنسانية من أساسها .

---

(١) آل عمران ١٢٠

إن السماح بالربا ليس له من هدف سوى تكوين رأسمالية مستغلة بغيضة تشيع الفوضى الاجتماعية لتحقيق مآربها من استيلاء على السلطة وتسلط على المجتمع لتحقيق مطامعها . فالإسلام بتحريمه الربا إنما يحكم فى أنانية الموسرين التى لا ترحم ، وفى جوعهم الدائم للذهب الذى يفسد القلوب ويدنس طهارتها ويهدر الكرامة الإنسانية .

كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله . فكيف يسمح لشخص أن يبتز شخصا آخر لمجرد أن عنده مالا يفيض عن حاجته ؟ وأين التكافل فى مجتمع تستغل فيه فئة قليلة بيدها مال الله فئة كثيرة فى حاجة إلى ذلك المال ؟ إن هدف الإسلام بناء جماعة متوازنة متحابة قد برئت من أمراض القلوب والأنانية ، جماعة نبيلة تحيا حياة مادية روحية ، تعبد الله وتسعى فى مناكب الأرض ، تغذى الروح بغذاء الروح وتغذى الجسد بالطيبات الحلال ، تحب للأغيار ما تحب لنفسها ، وتبارك مكارم الأخلاق وتنطلق فى طريق الخير شاكرة لأنعم الله ، سعيدة بما تقدم للآخرين من خير . « وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » ، فما دام هذا بعض أهداف الإسلام ، فلا مكان للربا والاستغلال ولا للبغض والحقد والصراع بين الطبقات .

وحرم الإسلام الربا وارتسمت على بعض الوجوه دهشة ، وقال أناس :

ــ إنما البيع مثل الربا .

وفتح الله على رسوله ــ ﷺ ــ مكة فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف

وأمره إلى الله ومن عاد فأولٰئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾[١] .

وحاصر — ﷺ — الطائف ولم يفتحها ، ثم رفع الحصار عنها وعاد إلى مكة واستعمل عليها عتاب بن أسيد بن أبى العيص ورزقه كل يوم درهما ، فقام فخطب الناس فقال :

— أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله — ﷺ — درهما كل يوم ، فليست بى حاجة إلى أحد .

ووفد على رسول الله — ﷺ — فى رمضان وفد ثقيف فأعلنوا إسلامهم ، ثم أسلمت ثقيف كلها وكان سادات ثقيف مسعود بن عبد ياليل وحبيب وعمرو ابن عمر الثقفى ، وكانوا يقرضون بنى المغيرة أموالا بربا الجاهلية ، فلما أسلموا شدوا الرحال إلى مكة وطالبوا بنى المغيرة بأصل الدين والربا ، فرفض بنو المغيرة السداد لأن الإسلام حرم الربا .

ونشب خلاف بين بنى ثقيف وبين بنى المغيرة فاختصموا إلى عتاب بن أسيد ، وأبرز بنو ثقيف ما كان فى حوزتهم من عقود فكتب عتاب بن أسيد بالنزاع إلى رسول الله — ﷺ — فراح رسول الله — ﷺ — يتدبر الأمر ، وفيما هو فى تفكيره إذ أوحى إليه : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »[٢] .

وبلغ بنى ثقيف ما أنزل الله فى الربا فقالوا لبنى المغيرة :

— هاتوا رءوس أموالنا ولكم الربا ندعه لكم .

---

(١) البقرة ٢٧٥ ، ٢٧٦ (٢) البقرة ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

— نحن اليوم أهل عسرة فأخرونا إلى أن ندرك الثمرة .

ورفع الأمر مرة أخرى إلى رسول الله — ﷺ — لو كان ذلك فى الجاهلية لكان على بنى المغيرة أن يدفعوا ضعف الدين إذا أمهلوا سنة ، ولكن ذلك كان فى الإسلام فى دين الإنسانية دين الرحمة ، فأوحى الله إلى رسوله — ﷺ — : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون »[١] .

---

(١) البقرة ٢٨٠ .

٩

كان أهل الجاهلية يؤخرون الحج فى كل عام أحد عشر يوما، فكان لا يعود إلى وقته إلا بعد ثلاث وثلاثين سنة، وجاءت سنة عشر من الهجرة وكان الزمان قد استدار فعاد الحج إلى وقته الصحيح، فلما دخل على رسول الله – ﷺ – ذو القعدة، تجهز للحج وأمر الناس بالجهاز له.

إنه – ﷺ – كان يحج أيام أن كان فى مكة، وكان قبل النبوة يقف بعرفات ويفيض منها إلى مزدلفة مخالفا لقريش توفيقا له من الله، فإنهم كانوا لا يخرجون من الحرم فإنهم قالوا غرورا:

– نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت وعاكفو مكة، فليس لأحد من العرب منزلتنا، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم وقالوا عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فليس لنا أن نخرج من الحرم نحن الحمس.

وطاف – ﷺ – ليلة خروجه للحج على نسائه، ثم اغتسل ثم صلى الصبح والظهر، ثم طيبته عائشة بطيب فيه مسك، ثم اغتسل لإحرامه وصلى ركعتين، ثم أحرم فى رداء وإزار، واستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدى، ووضعت أمهات المؤمنين فى هوادجهن وركب – ﷺ – ناقته القصواء، وكان على راحلته رحل رث يساوى أربعة دراهم.

وأهل – ﷺ – بالحج وسار وسار معه تسعون ألفا من المسلمين لا يذكر ولا يذكّر الناس إلا الحج، حتى إذا كان بالعقيق وقد ساق رسول الله – ﷺ –

الهدى أتاه آت من ربه فقال له :

ـــ صل بهذا الوادى المبارك وقل لبيك بحجة وعمرة معا .

فصار قارنا بعد أن كان منفردا ، وراح يقول :

ـــ لبيك عمرة وحجا .

وولدت أسماء بنت عميس زوج أبى بكر الصديق ولدها محمد بن أبى بكر فى ذى الحليفة ، وأرسلت إليه ـــ ﷺ ـــ فأمرها أن تغتسل وأن تستثفر بخرقة عريضة بعد أن تحشو بنحو قطن وتربط طرفى تلك الخرقة فى شىء تشده فى وسطها تمنع بذلك سيلان الدم كما تفعل الحائض ، وتحرم .

ودخل رسول الله ـــ ﷺ ـــ على عائشة وهى تبكى ، فقال :

ـــ ما يبكيك يا عائشة ؟ لعلك نُفست .

ـــ نعم والله لوددت أنى لم أخرج معكم عامى هذا .

ـــ لا تقولن ، فإنك تقضين كل ما يقضى الحاج إلا أنك لا تطوفين البيت .

وكان جمل أم المؤمنين عائشة سريع المشى مع خفة حمل عائشة ، وكان جمل أم المؤمنين صفية بطىء المشى مع ثقل حملها فصار يتأخر الركب بسبب ذلك . فأمر ـــ ﷺ ـــ أن يجعل حمل صفية على جمل عائشة وأن يجعل حمل عائشة على جمل صفية ، فجاء ـــ ﷺ ـــ لعائشة رضى الله عنها يستعطف خاطرها فقال لها :

ـــ يا أم عبد الله حملك خفيف وجملك سريع المشى ، وحمل صفية ثقيل وجملها بطىء فأبطأ ذلك بالركب ، فنقلنا حملك على جملها وحملها على جملك ليسير الركب .

فقالت عائشة فى غيرة :

ـــ إنك تزعم أنك رسول الله .

ـــ أفى شك أنى رسول الله أنت يا أم عبد الله ؟!

ـــ فما بالك لا تعدل .

فكان أبو بكر فيه حدة فلطمها على وجهها . فلامه رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال أبو بكر :

ـــ أما سمعت ما قالت ؟

ـــ دعها فإن المرأة الغيراء لا تعرف أعلى الوادى من أسفله .

ونزلوا بمحل يقال له العرج ، فقد البعير الذى عليه زاملته (زاده) ـــ ﷺ ـــ وزاملة أبى بكر ، وكان ذلك البعير مع غلام لابى بكر فقال أبو بكر للغلام :

ـــ أين بعيرك ؟

ـــ ضللته البارحة .

فقال أبو بكر وقد اعترته حدة :

ـــ بعير واحد تضله !

وأخذ يضربه بالسوط ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول :

ـــ انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع .

ويبتسم ولا يزيد على ذلك ، فكف أبو بكر عن ضرب الغلام والغيظ يعتمل فى صدره .

وبلغ بعض الصحابة أن زاملة رسول الله ـــ ﷺ ـــ ضلت ، فجاء بحيس ووضعه بين يديه ، فقال ـــ ﷺ ـــ لأبى بكر وهو يغتاظ على الغلام :

ـــ هون عليك يا أبا بكر فإن الأمر ليس لك ولا إلينا ، وقد كان الغلام حريصا على ألا يضل بعيره وهذا غذاء طيب قد جاء الله به .

فأكل ـــ ﷺ ـــ وأبو بكر وأمهات المؤمنين وأهل الصفة ومن كان يأكل مع النبى ـــ ﷺ ـــ وأبى بكر حتى شبعوا . فأقبل صفوان بن المعطل وكان على ساقة القوم والبعير معه وعليه الزاد حتى أناخه على باب منزله ـــ ﷺ ـــ فقال رسول

الله — ﷺ — لأبى بكر :

— انظر هل تفقد شيئا من متاعك ؟

— ما فقدت شيئا إلا قعبا كنا نشرب فيه .

فقال الغلام :

— هذا القعب معى .

ولما بلغ سعد بن عبادة وابنه قيس أن زاملته — ﷺ — قد ضلت جاءا بزاملة وقالا :

— يا رسول الله بلغنا أن زاملتك ضلت الغداة وهذه زاملة مكانها .

— قد جاء الله بزاملتنا ، فارجعا بزاملتكما بارك الله لكما .

ثم نزل بذى طوى فبات بها تلك الليلة وصلى بها الصبح وخلفه تسعون ألفا من الأبرار ثم سار ، فلما استقبل القبلة لبى — ﷺ — فقال :

— لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك .

والتفت — ﷺ — إلى أصحابه وقال :

— أتانى جبريل عليه السلام فقال : مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها من شعائر الحج .

ورجّع الكون النداء فامتلأت صدور المؤمنين نشوة ورجاء ، وترقرقت الأعين بالدموع وأشرقت فى الأفئدة أنوار ، فإذا بالألسنة تلبى فى حماس خلف رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه :

— لبيك إلٰه الخلق لبيك . لبيك حقا . تعبدا ورقا .

وسار المسلمون فى ملابس الإحرام لا فرق بين غنى وفقير ولا سيد ومسود ، كلهم فى الإزار مثلما يوم يبعثون . ونزل — ﷺ — بالمسلمين ظاهر مكة ،

ودخل مكة نهارا والوقت ضحى من ثنية كداء وهى التى ينزل منها إلى المعلاة مقبرة مكة حيث ترقد خديجة أم المؤمنين ، الطاهرة سيدة نساء قريش وحاضنة الإسلام . إنه ليذكرها بالخير ، وما من امرأة من نسائه استطاعت أن تنسيه أيام خديجة النابضة بالكفاح والأمل والحب .

ودخل — ﷺ — المسجد الحرام من باب عبد مناف باب السلام ، فلما أبصر البيت قال :

— اللهم أنت السلام ومنك السلام ، فحينا ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ومهابة وبرا ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفا وتكريما وتعظيما .

وتقدم — ﷺ — فى خشوع فبدأ بالحجر الأسود فاستلمه وفاضت عيناه بالبكاء ، ثم رمل ثلاثا ومشى أربعا ، فلما فرغ — ﷺ — قبل الحجر ووضع يديه عليه ومسح بهما وجهه .

ورأى — ﷺ — عمر بن الخطاب يزاحم لتقبيل الحجر الأسود أسوة برسول الله — ﷺ — فقال له :

— إنك رجل قوى لا تزاحم على الحجر تؤذى الضعيف ، إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فاستقبله وهلل وكبر .

وراح عمر يفعل ما فعل رسول الله — ﷺ — قال عندما استلم الحجر الأسود :

— بسم الله والله أكبر .

وقال عندما كان بين الركن اليمانى والحجر كما قال — ﷺ — :

— ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .

ولم يستلم الركنين المقابلين للحجر ، فرسول الله — ﷺ — لم يستلمهما

لأنهما ليسا على قواعد جده إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .

وصلى النبى — ﷺ — بعد الطواف ركعتين عند مقام إبراهيم وجعل المقام بينه وبين الكعبة ، قرأ فيهما مع أم القرآن : قل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد . ودخل — ﷺ — زمزم فنزع له دلو فشرب منه ، ثم رجع — ﷺ — إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم انطلق إلى الصفا .

كان الأنصار فى الجاهلية يهلون لمناة ، وكان من أحرم بمناة لا يطوف بين الصفا والمروة . وإنهم سألوا رسول الله — ﷺ — عن ذلك حين أسلموا فأنزل الله تعالى : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾[1] .

وارتقى — ﷺ — الصفا وقرأ :

— إن الصفا والمروة من شعائر الله . ابدءوا بما بدأ الله به .

فسعى بين الصفا والمروة يمشى فكثر عليه الناس يقولون :

— هذا محمد .. هذا محمد .

حتى خرجت النسوة من البيوت . وكان رسول الله — ﷺ — لا يُضرب الناس بين يديه ، فلما كثر عليه الناس ركب وصار فى السعى يخب ثلاثا ويمشى أربعا ويرقى الصفا ويستقبل الكعبة ويوحد الله ويكبره ويقول :

— لا إلـٰه إلا الله . الله أكبر . لا إلـٰه إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ويرقى المروة ثم يفعل على المروة مثل ما فعل على الصفا ، فلما انتهى من السعى والحلق ، أمر — ﷺ — من لا هدى معه بالإحلال ؛ ولم يكن ساق الهدى معه من

---

(١) البقرة ١٥٨

أصحابه إلا طلحة بن عبد الله وأبو بكر وعمر والزبير ، وأمر من معه الهدى أن يبقى على إحرامه .

وضاق جمع من الصحابة بهذا الأمر فقد أهلوا بالحج فكيف يجعلونها عمرة ، فدخل — صلى الله عليه وسلم — على عائشة وهو غضبان ، فقالت :

— من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار .

— أو ما شعرت أنى أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون .

كان يريد أن يخفف على أصحابه ، فالإحرام بالحج أشق عليهم لأن المتمتع بالعمرة يحل له كل ما حرم على المحرم من وطء النساء والطيب ولبس المخيط ، ويبقى كذلك إلى يوم التروية الذى هو اليوم الثامن من ذى الحجة فيحرم بالحج ، وقيل له يوم التروية لأنهم كانوا يتروون فيه بالماء ويحملونه معهم فى ذهابهم من مكة إلى عرفات لعدم وجدان الماء بها .

وخرج — صلى الله عليه وسلم — إلى الناس فقام خطيبا فحمد الله تعالى فقال :

— أما بعد ، فتعلمون أيها الناس لأنا والله أعلمكم بالله وأتقاكم له ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت هديا ولأحللت .

— كيف نجعلها عمرة وقد سمينا الحج ؟

— اقبلوا ما أمرتكم به واجعلوا إهلالكم بالحج عمرة ، فلولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم به .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعث عليا إلى نجران ، فلما بلغ عليا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد خرج للحج خرج إلى مكة ، فدخل على فاطمة الزهراء فوجدها قد حلت وتهيأت فقال :

— ما لك يا بنت رسول الله ؟

— أمرنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن نحل بعمرة فحللنا .

ثم أتى رسول الله — ﷺ — فلما فرغ من الخبر عن سفره ، وقال له رسول الله — ﷺ — :

— انطلق فطف بالبيت وحلّ كما حل أصحابك .

— يا رسول الله إنى أهللت كما أهللت .

— ارجع فاحلل كما حل أصحابك .

— يا رسول الله إنى قلت حين أحرمت : اللهم إنى أهل بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك محمد — ﷺ — :

— فهل معك من هدى ؟

— لا .

فأشركه رسول الله — ﷺ — فى هديه ، وثبت على إحرامه مع رسول الله — ﷺ — .

وقدم أبو موسى الأشعرى من اليمن ، فقال له — ﷺ — :

— بم أهللت ؟

— لبيت بإهلال كإهلال النبى — ﷺ —

— هل معك من هدى ؟

— لا .

— فطف بالبيت وبالصفا والمروة وأحل .

وجوز لأبى موسى الفسخ من الحج إلى العمرة كما فعل ذلك مع غيره من الصحابة الذين أحرموا بالحج ولا هدى معهم .

ولم يسق أمهات المؤمنين معهن الهدى فأحللن إلا عائشة فإنها لم تحل لأنها أدخلت الحج على العمرة ، وأحلت فاطمة الزهراء وأسماء بنت أبى بكر ، ووجد علىّ أن فاطمة لبست صبيغا واكتحلت فأنكر عليها فقالت :

— أمرني أبي بذلك .

فذهب إلى النبى — ﷺ — محرشا له عليها ، فقال — ﷺ :

— صدقت صدقت صدقت . أنا أمرتها بذلك يا على .

وسأله سراقة بن مالك الرجل الذى خرج فى أثره لما هاجر — عليه السلام — من مكة إلى المدينة ، فقال :

— يا رسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟

فشبك — ﷺ — أصابعه فقال :

— دخلت العمرة فى الحج هكذا إلى يوم القيامة .

تعجل على بن أبى طالب إلى رسول الله — ﷺ — واستخلف على جنده الذين معه رجلا من أصحابه ، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حلة من البز الذى كان مع على رضى الله عنه ، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل قال :

— ويلك ! ما هذا ؟

— كسوت القوم ليتجملوا به إذا ما قدموا فى الناس .

إن البز كان للمسلمين جميعا ولم يكن للجيش وحدهم ، فقال على فى غضب لصاحبه الذى خلفه على جنده :

— ويلك انزع قبل أن تنتهى به إلى رسول الله — ﷺ .

فانتزع الحلل من الناس فردها فى البز ، وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم ، فاشتكى الناس عليا ، فقام رسول الله — ﷺ — فى الناس خطيبا ، قال :

— أيها الناس ، لا تشكو عليا ، فوالله إنه لأخشن فى ذات الله من أن يُشكى .

ثم نهض رسول الله — ﷺ — ونهض معه الناس يوم التروية وقد تزودوا بالماء ، وكان اليوم الثامن من ذى الحجة . إلى منى وأحرم بالحج كل من كان

أحل ، فصلى رسول الله ـ ﷺ ـ الظهر بمنى والعصر والمغرب والعشاء ، وبات بها تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة وصلى بها الصبح ، ثم نهض بعد طلوع الشمس إلى عرفة ، وأمر ـ ﷺ ـ أن تضرب له قبة من شعر بنمرة ، فأتى ـ ﷺ ـ عرفة ونزل فى تلك القبة حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت ، ثم أتى بطن الوادى فخطب على راحلته ، وأمر ربيعة بن أمية بن خلف أخا صفوان بن أمية وكان صيتا أن ينادى بكل ما يقول ، فوقف ربيعة تحت صدر ناقته يردد فى صوت جهورى ما يقول ـ ﷺ ـ ليسمعه الناس الذين ملأوا وادى عرفة .

حمد عليه السلام الله وأثنى عليه ، ثم راح يعلن حقوق الإنسان :

ـ أيها الناس اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع . ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل ـ فهو أول من أبدأ به من دماء الجاهلية . أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . أيها الناس ، إن النسىء زيادة فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب

مضر (١) الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فراشكم أحدا تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبيِّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرِّح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بلغت ؟

— اللهم نعم .

— اللهم اشهد . أيها الناس ، إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه ، وإنه لا تجوز وصية لوارث . والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا . اللهم هل بلغت ؟

— اللهم نعم .

— اللهم اشهد .

---

(١) ورجب مضر : إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجبا فبين عليه السلام أنه رجب مضر لا رجب ربيعة وأنه الذى بين جمادى وشعبان .

وبعثت إليه أم الفضل زوجة العباس لبنا فى قدح شربه أمام الناس، فعلموا أنه — صلى الله عليه وسلم — لم يكن صائما ذلك اليوم يوم عرفة . وأمر عليه السلام بلالا فأذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا، فصلاهما مجموعتين فى وقت الظهر بأذان واحد وإقامتين، لأنه لم يقم بمكة إقامة تقطع السفر، لأنه دخلها فى اليوم الرابع وخرج يوم الثامن فقد صلى بها إحدى وعشرين صلاة من أول ظهر يوم الرابع إلى عصر الثامن يقصر تلك الصلوات، فالجمع للسفر .

ثم ركب — صلى الله عليه وسلم — راحلته إلى أن أتى الموقف فاستقبل القبلة، ولم يزل واقفا للدعاء من الزوال إلى الغروب :

— لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ومن وسوسة الشيطان ومن وسوسة الصدر ومن شتات الأمر ومن شر ذى شر .

اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى، وتعلم سرى وعلانيتى، ولا يخفى عليك شىء من أمرى، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، والوجل المشفق، المقر المعترف بذنبه . أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضريع، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسده، ورغم لك أنفه . اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا، وكن لى رءوفا رحيما، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين .

وجاءه — صلى الله عليه وسلم — جماعة من نجد فسألوه :

— كيف الحج ؟

فأمر مناديا ينادى :

— الحج عرفة . من جاء ليلة جمع (أى المزدلفة) قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج . أيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه .

وقال — صلى الله عليه وسلم — :

— وقفت هٰهنا وعرفة كلها موقف .

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واقفا على جبل النور ، وخشى أن يتزاحم الناس فى الحج على ذلك الجبل فأعلن أن عرفة كلها موقف . ونزل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو على ناقته فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »[1] .

فلما قرأها — صلى الله عليه وسلم — على الناس بكى عمر ، فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم — :

— ما يبكيك يا عمر ؟

— أبكانى أنا كنا فى زيادة . أما إذا كمل فإنه لا يكمل شىء إلا نقص .

— صدقت .

وساد الناس وجوم ، ترى أنزلت هذه الآية لتنعى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟!

ثم أردف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أسامة بن زيد خلفه ودفع إلى مزدلفة وهو يأمر الناس بالسكينة فى السير ، فلما كان فى الطريق عند الشعب الأبتر نزل فيه فتوضأ وضوءا خفيفا ، ثم ركب حتى أتى المزدلفة .

وصلى المغرب والعشاء مجموعتين فى وقت العشاء بأذان واحد وإقامتين ، ثم اضطجع وأذن للنساء والصبيان أن يرموا ليلا . فذهبوا من المزدلفة إلى منى بعد نصف الليل بساعة ليرموا جمرة العقبة قبل الزحمة ، فأفاضت سودة وأم حبيبة فى النصف الأخير من مزدلفة بإذن النبى — صلى الله عليه وسلم — وقدم عليه السلام عبد الله بن عباس فى ضعفة أهله فقد كان غلاما ، ولم يأذن — صلى الله عليه وسلم — للرجال فى ذلك لا لضعفائهم ولا لغير ضعفائهم . وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر

---

(١) المائدة ٣

فقام — صلى الله عليه وسلم — وصلى بالناس الصبح مغلسا ، ثم أتى المشعر الحرام فوقف به وهو راكب ناقته واستقبل القبلة ودعا الله وكبر وهلل ووحد ، ولم يزل واقفا حتى أسفر جدا . ثم إنه — صلى الله عليه وسلم — دفع من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس وأردف خلفه الفضل بن العباس ، وجاءته امرأة تسأله فقالت له :

— يا رسول الله إن فريضة الله على عباده الحج ، أدركت أبى شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة فأحج عنه ؟

— نعم .

فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل — صلى الله عليه وسلم — يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر فقال العباس :

— يا رسول الله لويت عنق ابن عمك .

— رأيت شابا وشابة فلم آمن عليهما الشيطان .

فلما وصل — صلى الله عليه وسلم — إلى وادى محسر وهو أول منى قال :

— عليكم بحصى الخزف الذى نرمى به الجمرة .

وسلك — صلى الله عليه وسلم — الطريق التى تسلك على جمرة العقبة ، فرمى بها من أسفل سبع حصيات وبلال وأسامة أحدهما آخذ بخطام ناقته والآخر يظله بثوبه . وقطع عليه السلام التلبية عند رمى كل حصاة وهو راكب ناقته .

وخطب — صلى الله عليه وسلم — بمنى خطبة قرر فيها تحريم الزنا والأموال والأعراض ، وذكر حرمة يوم النحر وحرمة مكة على جميع البلاد فقال :

— يأيها الناس أى يوم هذا ؟

— يوم حرام .

— فأى بلد هذا ؟

— بلد حرام .

ـــ فأى شهر هذا ؟

ـــ شهر حرام .

ـــ فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا .

ثم رفع رأسه وقال :

ـــ اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .

ثم انصرف ـــ ﷺ ـــ إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثة وستين بدنة وهى التى قدم بها من المدينة ، لكل سنة بدنة . فقد كان عمره ـــ ﷺ ـــ فى ذلك اليوم ثلاثا وستين سنة ، ثم أمر عليا فنحر ما بقى وهو تمام المائة وهو ما أتى به على من اليمن ، جاء بعده مع جيشه الذى لحق به .

وقال ـــ ﷺ ـــ لعلى :

ـــ اقسم لحومها وجلودها وجلالها بين الناس ولا تعط جزارا منها شيئا ، وخذ لنا من كل بعير جذبة من لحم واجعلها فى قدر واحدة حتى نأكل من لحمها ونحسو من مرقها .

إن الزاهد الكريم الذى كان يمر هلال ثم هلال ولا يوقد فى دار من دوره نار لطبيخ قد نحر مائة بدنة ووزع لحومها على الناس ، إنه غنى ولكنه يتعفف ليكون أسوة لأمته ، فليس بالخبز وحده يحيا الناس .

وأخبر ـــ ﷺ ـــ أن مِنى كلها منحر ، وأن فجاج مكة كلها منحر . ثم راح معمر بن عبد الله يحلق رأسه عليه السلام ، فطاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا فى يد رجل .

ثم تطيب ـــ ﷺ ـــ طيبته عائشة بطيب فيه مسك قبل أن يطوف طواف

الإفاضة ، ثم نهض — صلى الله عليه وسلم — راكبا إلى مكة فطاف فى يومه ذلك طواف الإفاضة قبل الظهر . ومر على راحلته وخلفه أسامة بن زيد فاستسقى فهرع إليه آل العباس بإناء من سقاية العباس وكانوا يضعون فى السقاية التمر والزبيب ، فشرب — صلى الله عليه وسلم — وسقى فضله لأسامة وقال :

— أحسنتم وأجملتم ، كذا فاصنعوا .

ثم شرب من ماء زمزم بالدلو وقد نزع له الدلو عمه العباس بن عبد المطلب ، فقد كانت له السقاية فى الجاهلية والإسلام ، ثم رجع — صلى الله عليه وسلم — إلى منى فصلى بها الظهر وبقى فى منى وإن كان يزور البيت كل ليلة ، وكان أزواجه — صلى الله عليه وسلم — يرمين بالليل ، ثم نهض — صلى الله عليه وسلم — من منى فى اليوم الثالث الذى هو يوم النفر الآخر ، ونفر معه المسلمون بعد الزوال . واستأذنه عمه العباس فى عدم المبيت بمنى فى الليالى الثلاث من أجل السقاية فرخص له فى ذلك ، وضرب له — صلى الله عليه وسلم — أبو رافع قبة فى الأبطح فجاء فنزل ، وكان عليه السلام قال لأسامة :

— غدا ننزل بالمحصب .

وهو المحل الذى تحالف فيه قريش وكنانة على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب حتى يسلموا إليهم النبى — صلى الله عليه وسلم — ليقتلوه ، وكان ذلك سببا لكتابة صحيفة المقاطعة . ولما نزل — صلى الله عليه وسلم — بالمحصب صلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ورقد رقدة ثم أن عائشة قالت :

— يا رسول الله ، أرجع بحجة ليس معها عمرة ؟

فدعا عبد الرحمن بن أبى بكر فقال :

— اخرج بأختك من الحرم ثم افرغا من طوافكما حتى تأتيانى هٰهنا بالمحصب .

فاعتمرا من التنعيم مكان عمرة عائشة التى فاتتها ، وفرغا من طوافهما فى

جوف الليل فأتياه — ﷺ — بالمحصب فقال :

— فرغتما من طوافكما ؟

— نعم .

فأذن فى الناس بالرحيل ، وأمر — ﷺ — الناس ألا ينصرفوا إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت ، وقالت له صفية أم المؤمنين :

— ما أرانى إلا حابستكم لانتظار طهرى وطواف الوداع .

كانت قد حاضت بعد طواف الإقامة ليلة النفر من منى ، فقال لها — ﷺ — :

— أو ما كنت طفت طواف الإفاضة يوم النحر ؟

— بلى .

— يكفيك ذلك .

وجاء بريدة إلى رسول الله — ﷺ — وكان مع على بن أبى طالب فى اليمن وجعل يشكو عليا له — ﷺ — لأنه حصل له منه جفوة ، فجعل يتغير وجه رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا بريدة لا تقع على علىّ ، فإن عليا منى وأنا منه . ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟·

— نعم يا رسول الله .

— من كنت مولاه فعلى مولاه .

ودخل — ﷺ — مكة فى تلك الليلة وطاف طواف الوداع سحرا قبل صلاة الصبح ، فوقف فى الملتزم بين ركن الحجر وبين باب الكعبة ، فدعا الله وألزق جسده ووجهه بالملتزم وطاف سبعا ثم خرج من الثنية السفلى ثنية كدى ، فلما وصل — ﷺ — إلى محل بين مكة والمدينة يقال له غدير خم بقرب رابغ جمع الصحابة فقال — ﷺ — :

— أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب ، وإنى مسئول وإنكم مسئولون فما أنتم قائلون ؟

— نشهد أنك قد بلغت وجهدت ونصحت فجزاك الله خيرا .

— أليس تشهدون أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن جنته حق ، وناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق بعد الموت ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ؟

— بلى نشهد بذلك .

— اللهم اشهد .

— إنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى أهل بيتى ، ولن تتفرقا حتى تردا على الحوض . ألست أولى بكم من أنفسكم ؟

— نعم .

— ألست أولى بكم من أنفسكم ؟

— نعم .

— ألست أولى بكم من أنفسكم ؟

— نعم .

ورفع — ﷺ — يد على كرم الله وجهه وقال :

— من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وأحب من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، وأعن من أعانه ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار .

ووصل — ﷺ — إلى ذى الحليفة فبات بها . لأنه — ﷺ — كره أن يدخل المدينة ليلا . ولما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال :

— لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء

قدير . آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم دخل عليه الصلاة والسلام المدينة نهارا .

وكان أصاب الناس عند خروجه — ﷺ — للحج جدرى منعت كثيرا من الناس من الحج معه ، فلما قابل أم سنان الأنصارية بعد عودته قال لها :

— ما منعك أن تكونى حججت معنا ؟

— لنا ناضحان ، حج أبو فلان (زوجها) وولدى على أحدهما ، وكان الآخر نسقى عليه أرضنا .

فقال تطييبا لخواطر من تخلف بسبب المرض أو لعدم وجود راحلة :

— عمرة فى رمضان تعدل حجة معى .

التذييـل

قال الله تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾(١) .

خلق الله آدم ليكون خليفته فى الأرض ، وكان أمر هذه الخلافة مقررا قبل خلق آدم ، ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾(٢) . ثم خلق الله زوجه فكانا يأكلان من الجنة رغدا ، ونهاهما ربهما عن شجرة الخلد فوسوس الشيطان لآدم ﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾(٣) . ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾(٤) .

وهبط آدم وحواء إلى الأرض ليكون آدم خليفة لله فيها ، فكانت الأسباب موصولة بينه وبين السماء وإن راح يهيم فى وادى الدموع ، فكانا يأكلان من طيبات ما رزقهما الله ويشكران الله ويلتمسان التوبة . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه .

وجعل الله لهما بنين وحفدة فكان الخير للجميع ، وما كان فيهم غنى أو فقير فقد كانت الحياة بسيطة والقلوب عامرة بالإيمان ، فكانت السعادة الحقة ترفرف عليهم . كانوا يمضون بعض الوقت فى السعى وراء القوت لإشباع جوع البطون ، وجل الوقت فى الابتهال إلى الله والتمسك بمبادئ الخير لإشباع جوع النفس .

---

(١) الحجرات ١٢ (٢) البقرة ٣٠
(٣) طـه ١٢٠ (٤) طـه ١٢١

واستأنس الإنسان بعض الحيوان فكان بعض أفراد الأسرة يعملون فى الرعى وبعضهم فى الصيد وبعضهم فى صنع السهام والحراب وأدوات القتل ، وأصبح لكل أب أسرة فقبيلة ، وعرفت كل قبيلة نوعا من التخصص وتعددت حاجاتها فى نفس الوقت فكان لا بد من وجود سوق لتبادل الطيبات ، فقد ظهرت حاجة كل فريق إلى ما عند الفريق الآخر ، فكان نشأة نظام المقايضة .

وقامت فى وجه المقايضة صعوبات ، فتبادل الطيبات يتوقف على توافق الرغبات ، وإن توافقت الرغبات فقد تتفاوت القيمة بين الطيبات التى يرغب فى تبادلها ، وقد يصعب تجزئة كثير منها . فكان لا بد من وجود وسيط ثابت تنسب إليه الطيبات ، وقد اختلف ذلك الوسيط باختلاف البلاد ، ففى بعض البلاد كانت المواشى هى الوسيط الذى ينسب إليه باقى الطيبات ، وفى بلاد أخرى كان التبغ أو القماش أو السكر أو الصوف .

ذللت هذه الطريقة بعض الصعوبات ولكنها كانت لا تتمتع بالدقة التى يستريح إليها الطرفان ، فاتخذت المعادن وسيطا تقوم به الطيبات . وقد استخدم الحديد فى أول الأمر ولكن نظرا الثقل وزنه وصعوبة حمله اتخذ بعض كبار التجار والصيارفة سبائك من النحاس والبرنز تحمل أسماءهم أو ما يدل عليهم ، فكانت تلك النقود بضمان أصحابها .

وانتشرت التجارة واتسعت رقعة التبادل وتنوعت الطيبات واشتد الطلب عليها ، فاستعمل الذهب والفضة ، وكانت الفضة أكثر النقود استخداما ، ففى بابل استخدمت شواقل الفضة فيسرت حركة التبادل وانتشرت الأسواق بين نهرى دجلة والفرات .

واستعمل الإغريق والرومان العملة الذهبية والفضية ، فكانت على شكل أقراص مستديرة ، وعرفت فارس النقود منذ تاريخها البعيد ، ففى عهد الساسانيين ضربت نقود عليها صورة أردشير الأول محفوظة بمتحف

كوبنهاجن .

وكانت إيران تنتج الذهب والفضة والنحاس والبلور الصخرى والجواهر النادرة والمواد الثمينة المختلفة ، وقد قامت فيها صناعة الحرير البرية تتبع طرق القوافل ، فمن المدائن العاصمة على شاطئ دجلة كان الطريق الكبير يؤدى إلى همدان عن طريق حلوان وكنجاور ، وقد تفرعت منه طرق عديدة : طريق ناحية الجنوب يخترق خوزستان وفارس وينتهى عند الخليج الفارسى ، وطريق يذهب إلى الرى قرب طهران الحالية يبلغ به السائر بحر قزوين مخترقا منحدرات جبال جيلان وسلسلة البرز ، أو يسير منه إلى خراسان ليستمر فى رحلته حتى الهند عن طريق وادى كابل ، أو حتى الصين عن طريق تركستان وحوض طارم .

وكانت إيران على صلة بالدولة الرومانية ، فقد كانت مدينة نصيبين مركزا هاما ونقطة الاتصال بين الإمبراطورية الرومانية والدولة الإيرانية . ولم يقتصر الأمر على الطرق البرية فقد اهتم الأكاسرة والأباطرة بالتجارة البحرية ، فحينما أصبح أردشير الأول إمبراطورا على إيران وسع المرافئ البحرية القديمة ، ولما ازدهرت الدولة الرومانية الشرقية كانت الأساطيل البحرية تخرج من القسطنطينية بالطيبات وتعود إليها بألوان الترف من الشرق ، فكانت القسطنطينية رمزا للثروة ، ومدينة لم يكن لكنوزها نهاية تنتهى إليها ولا معيار تقاس به .

وكانت العرب فى الجاهلية يشتغلون بالتجارة ويتهادحون بكسب المال ، ولا سيما قريش . وكان لقريش فى السنة رحل أربع ؛ فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم بنو عبد مناف : أحدهم هاشم وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلا فأمن به تجارته إلى الشام ، والثانى عبد شمس وكان يؤالف إلى الحبشة ، والثالث المطلب وكان يرحل إلى اليمن ، والرابع نوفل وكان يرحل إلى فارس . وكان هؤلاء يسمون المتجرين ، فيختلف تجر قريش بخيل هؤلاء الإخوة

فلا يتعرض لهم أحد.

هذا ما كان من أمر قريش وسائر أهل الحجاز ، وأما أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجارتهم كثيرة ومعايشهم وافرة لما فى بلادهم من الخصب والرخاء والذخائر المتنوعة والمعادن الجيدة ، ونحو ذلك من أسباب الثروة والغنى .

وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم فى الثروة والتجارة لما أن الغالب على أرضهم الرمال . فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب فى رفاهية العيش ورواج التجارة .

وكان للعرب أسواق يقيمونها شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر ، منها « دومة الجندل » كانوا ينزلونها أول يوم من ربيع الأول يجتمعون فى أسواقها للبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكانت المبايعة فيه ببيع الحصاة وهو من بيوع الجاهلية التى أبطلها الإسلام ، وفسر بأن يقول أحد المتبايعين للآخر : ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم ، وفسر بأن يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، وفسر بأن يقبض على كف من حصى ويقول : لى بعدد ما خرج فى القبضة من الشىء المبيع ، أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لى بكل حصاة درهم ، وفسر بأن يمسك أحدهما حصاه فى يده ويقول : أى وقت سقطت الحصاة وجب البيع ، وفسر بأن يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول : أى شاة أصابتها فهى لك بكذا .

وهذه الصور كلها فاسدة لما تتضمن من أكل المال بالباطل ، ومن الغرر والخطر الذى هو شبيه بالقمار ، ولذلك أبطلتها الشريعة ، وكان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم إلى نصف

الشهر ، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشوهم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بنى كلب ، فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر .

ومنها « سوق هجَر » اسم لجميع أرض البحرين ، وكانوا ينتقلون إليها فى شهر ربيع الآخر فتقوم سوقهم بها ، وكان يعشوهم ويتولى أمرهم المنذر بن ساوى أحد بنى عبد الله بن دارم ، وقد أرسل إليه رسول الله — ﷺ — كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، وقد دخل فى دين الله .

ومنها سوق عمان وكانوا يرتحلون من سوق هجر فتقوم بها سوقهم إلى أواخر جمادى الأولى .

ومنها « سوق المُشقَّر » حصن بالبحرين كان فيه سوق للعرب تقوم من أول يوم من جمادى الآخرة ، وكان بيعهم بالملامسة والإيماء والهمهمة خوف الحلف الكذب ، وبيع الملامسة على أوجه ، وهى أن يأتى بثوب مطوى أو فى ظلمة فيلمسه المشترى فيقول له صاحب الثوب : بعتكه بكذا ، بشرط أن يقوم لمسك مقام نظرك ولا خيار لك إذا رأيته . الوجه الثانى أن يجعلا نفس اللمس بيعا بغير صيغة زائدة ، الوجه الثالث أن يجعلا اللمس شرطا فى قطع خيار المجلس وغيره ؛ وهو أيضا من البيوع التى أبطلها الإسلام .

ومنها « الشَّحْر » ساحل البحر بين عُمان وعدن ، تقوم فى النصف من شعبان ، وكان بيعهم فى هذه السوق أيضا برمى الحصاة وإلقاء الحجارة كما فى سوق دومة الجندل .

ومنها « سوق عدن » كانوا يرتحلون من الشحر فينزلون هذا الموضع ، فتقوم سوقهم بها إلى أيام من رمضان ، فتشترى التجارات وأنواع الطيب .

ومنها « سوق صنعاء » كانوا إذا ارتحلوا من عدن والشحر تقوم سوقهم بصنعاء فى النصف من شهر رمضان إلى آخره . وصنعاء من أطيب بلاد اليمن ،

ومنها كان يجلب الأدم (الجلد المدبوغ) والبرود ، وكانت تجلب إليها من معافر وهو بلد كان فى اليمن .

ومنها « سوق ذى المجاز » كانت بناحية عرفة إلى جانبها .

ومنها « سوق مجنة » وهى التى عناها بلال مؤذن الرسول بقوله متشوقا إليها بعد الهجرة :

وهل أردن يوما مياه مجنة ... وهل يبدون لى شامة وطفيل

وكانت تقوم سوقهم فيها قرب أيام موسم الحج ويحضرها كثير من قبائل العرب .

ومنها « سوق حُباشة » كانت فى ديار بارق نحو قنونا من مكة إلى جهة اليمين ، ولم تكن من مواسم الحج وإنما كانت تقام فى شهر رجب .

ومنها « سوق عُكاظ »، وهو موسم معروف للعرب ، بل كان من أعظم مواسمهم وأسواقهم ، وهو نخل فى واد بين نخلة والطائف وهو إلى الطائف أقرب بينهما عشرة أميال ، وهو وراءه « قرن المنازل » بمرحلة من طريق صنعاء ، وكان المكان الذى يجتمعون فيه منه يقال له الابتداء ، وكانت هناك صخور يطوفون حولها وكانوا يتبايعون فيها ويتفاخرون ويتحاجون وتنشد الشعراء ما تجدد لهم .

وفيها كان يخطب كل خطيب مِصْقع ، وفيها علقت القصائد السبع الشهيرة افتخارا بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل ، وكان كل شريف إنما يحضر سوق بلده إلا سوق عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون بها من كل جهة ، فكان يأتيها قريش وهوازن وسليم والأحابيش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب .

وكانت الفوائد على القروض معترفا بها فى بابل وفى الإمبراطورية الرومانية فى أيام وثنيتها وأيام اعتناقها للمسيحية ، وفى إيران وفى بلاد العرب فى الجاهلية ..

وإن الأستاذ أنور إقبال قرشي فى كتابه الإسلام ونظرية الفائدة يقول : « لقد كان إقراض النقود بفائدة عملا ممنوعا عند الإغريق ، فأرسطو الذى كانت لأحكامه الفعالة أثرها العظيم على الأجيال التالية ذم الفائدة بكلمات بالغة القوة ، فقد شبه المال بدجاجة عاقر لا تبيض ، والغرض الأوحد من استخدام المال عند أرسطو هو تسهيل التبادل وإشباع الاحتياجات البشرية ، لقد كان هذا عنده هو الغرض الطبيعي الأسمى للمال . فالمال لا يمكن استخدامه مصدرا للتزايد ، أى الازدياد بالفائدة ، أى أن تزايد المالك بالفائدة كان أغرب وسائل اكتساب المال ، إن قطعة من النقود لا يمكن أن تلد قطعة أخرى ، تلك كانت عقدة أرسطو ، والنتيجة الواضحة أن الفائدة جائرة ، وقد ذم أفلاطون أيضا الفائدة » .

ويقول : « حرمت الإمبراطورية الرومانية فى عهودها الأولى تقاضى أية فائدة ، لكن الفائدة جعلت تظهر تدريجيا مع إتساع رقعة الإمبراطورية ونشوء فئات التجار ، غير أن قيودا شديدة فرضت على معدلات الفائدة وكان تنفيذها يراقب بدقة ، ولقد كان الرومان هم أول أمة شرعتْ قوانين لحماية المدينين »(١) .

إن أرسطو قد انتقد الفائدة ، وكذلك فعل أفلاطون ، وليس معنى ذلك أنها كانت محرمة عند الإغريق ، فلو كانت محرمة لما كان هناك من سبب لانتقادها . أما القول بأن الإمبراطورية الرومانية حرمت الفائدة فى عهودها الأولى فقول مردود ، فالفائدة كانت سائدة منذ نشأة الدولة الرومانية ؛ وكذلك القول بأن الرومان هم أول أمة شرعت قوانين لحماية المدينين يجافى الحقيقة ، فالدولة البابلية هى أول دولة فى التاريخ نظمت الفائدة وعملت على حماية المدينين قدر المستطاع

---

(١) الإسلام والربا ــ تأليف إقبال قرشي ــ ترجمة فاروق حلمي . (مكتبة مصر) .

من المرابين ، وإن قانون حمورابى حدد سعر الفائدة قبل أن تنشأ الدولة الرومانية .

أما فى جزيرة العرب فى الجاهلية فقد كانت الفوائد مركبة ، وكانت تتضاعف كل سنة ، وإن الإسلام هو الدين الذى حرم الربا تحريما قاطعاً ، وسنناقش هذا الموضوع فى هذا البحث عندما نتحدث عن المال فى الإسلام .

لم يكن للعرب نقود خاصة بهم قبل الإسلام ، ولا فى زمن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — والخلفاء الراشدين . فقد كانت العملة الرومانية والعملة الفارسية هى العملة السائدة فى مكة والمدينة والطائف وأسواق العرب ، وكان عبد الله بن الزبير أول من استعمل الدراهم المنقوشة أيام منافسته لمعاوية بن أبى سفيان على الخلافة ، فكتب على أحد وجهى الدرهم « محمد رسول الله » وعلى الوجه الآخر « أمر الله بالوفاء والعدل » .

وكان هم الأكاسرة والأباطرة ملء خزائنهم بالذهب والفضة للإنفاق على الجيوش وأبهة الملك وعظمته ، فكانت الضرائب الجائرة التى تنقض ظهر الشعب ، فوزير المالية فى فارس يتولى رئاسة الضريبة العقارية ، ويقع عبء هذه الضريبة على الزراعة ، ولما كانت الضريبة تفرض حسب الخصوبة وجودة زراعة القرى أو رداءتها ، فقد أصبح عليه أن يسهر على زراعة الأرض وريها وغير ذلك .

ولم يكن اختصاصه يشمل الضريبة العقارية وحدها ، بل وسع الضريبة الشخصية أيضا ، فكان رئيس كل من يمتهن حرفة يدوية — عبيدا أو حرائين أو تجارا . وكانت المصادر الرئيسية للدخل فى الدولة تتكون من الضريبتين العقارية والشخصية ، وكانت الضريبة الشخصية تحدد مرة واحدة بمبلغ محدد ، وعلى السلطات المختصة أن توزعه بقدر استطاعتها بين دافعى الضرائب . وكذلك كانت الضريبة العقارية تجبى بنفس الطريقة ، فإن التقدير يتم حسب ما تنتجه الأرض من غلات ، وعلى كل قرية أن تدفع من السدس إلى الثلث حسب خصوبة

الأرض .

وكان تحصيل الضرائب وتوزيعها سببا فى الجور وسوء الحصيلة من ناحية الموظفين ، ولأنه تبعا لهذه الطريقة كانت مبالغ الدخل تتفاوت كثيرا من سنة لأخرى ، فإنه كان من غير الممكن عمل حساب تقريبى مقدما للحالة المالية واستخدام ما يجبى منها ، ومن ناحية أخرى كانت الرقابة على ذلك غاية فى الصعوبة وكان ينتج عن ذلك غالبا أن تفاجئ الحرب الدولة فيعوزها المال ، وفى هذه الحالة كان ينبغى فرض ضرائب استثنائية ، وكان عبئها الفادح يقع غالبا على الأقاليم الغربية الغنية ، وخاصة العراق (بلاد بابل) .

ويضاف إلى الضرائب المنظمة الهبات العادية ، والتى يحسب منها التحف التى تقدم للملك — جبرا — فى عيدى النوروز والمهرجان ، وكذلك كان دخل الجمارك موردا من موارد الدخل .

وكانت نفقات الدولة أول ما تنصب على الحرب ومصاريف البلاط ورواتب الموظفين ، فإذا قامت الدولة بمشروع عام فالجهة التى ستستفيد منه تتحمل عبء التمويل ، فكانت تفرض ضرائب استثنائية حتى يتيسر التنفيذ .

وكان الأمر فى الإمبراطورية الرومانية لا يختلف فى كثير أو قليل عن الأمر فى إيران ، فالضرائب الباهظة تكاد تدفع بالولايات إلى هاوية الإفلاس ، وقيصر يحتكر صناعة الحرير ليملأ خزائنه بالذهب النضار ، والحرب المشبوبة بين إيران والرومان تلتهم ما فى الخزائن ، فتقوم الكنيسة لتمويل الحملات بقروض مقابل فوائد يتفق عليها ، ولا يجد قيصر أمامه إلا الشعب فى إمبراطوريته المترامية الأطراف يبتز منه عرق الجبين وما يدخر للأيام .

وجاء الإسلام ولم ينظر إلى المال نظرة الأباطرة والأكاسرة ، فلم يجعله الإلـٰه المعبود الذى تعنو له الجباه ، بل جعل له وظيفة اجتماعية هدفها إسعاد الناس .

والإسلام أول نظام فى الوجود وضع المال فى خدمة الجماهير وأنصف بحق الفقراء من الأغنياء ، وأرهف حس الجباة فكانوا أمناء رحماء ، فقد بعث الله رسوله — ﷺ — هاديا ولم يبعثه جابيا .

وذاع أمر الإسلام وعدله وسماحته فى الولايات الرومانية والولايات الفارسية ، فيسر ذلك لجيوش الإسلام فتح الشام ومصر والعراق وشمال أفريقية ، فأهالى تلك البلاد كانوا يرحبون بالفاتحين طلبا للعدل وإن كانوا على دين الرومان أو الفرس .

واستمر النظام المالى فى الإسلام فريدا فى بابه تسعد به الدول الإسلامية ، بينما سارت الدول الأخرى فى طريقها ؛ الشعوب تتعارف ، وطرق المواصلات تعبد ، والتجارة تنشط ، ومعدلات الفوائد تتأرجح بين الزيادة والنقصان حسب الأحوال الاقتصادية فى العالم ، والمدينون يئنون تحت وطأة النظم الجائرة التى تشرع لخدمة الأقوياء ، وعبادة المال تتأصل فى النفوس ، وجهود تبذل لجمع المال وانتهاز الفرص واستغلالها استغلالا أنانيا ، فيشتد عود الرأسمالية ويتكون نظام رأسمالى يستغل الطبيعة والإنسانية ، ويزعزع الاستقرار الاجتماعى ، ثم تنطلق نزعاتها المخربة من عقالها لتفتك بالمجتمع .

وقام بعض الاقتصاديين فى القرن الثامن عشر يباركون الرأسمالية ويشرعون أقلامهم للدفاع عنها ، وفلسفوا النظام الرأسمالى الحر فقالوا بوجوب ترك الأفراد أحرارا لتحقيق مصالحهم الشخصية ؛ فهم يختارون حرفتهم أو نشاطهم ولهم حرية التملك وحرية العمل . ولا يحد من هذه الحرية إلا شرط واحد هو عدم تعارض سلوكهم مع تحقيق الأفراد الآخرين لمصالحهم الذاتية .

فالتدخل الحكومى يجب أن يكون فى أضيق نظام ممكن سواء فى ميدان الإنتاج أو فى ميدان التوزيع ، فالإنتاج فى نظرهم ينظم نفسه بنفسه ولا يجب أن

تتدخل الحكومة إلا إذا كان هذا التدخل فى صالح المجموع .

والفردية هى أحد أركان هذا النظام الرأسمالى الحر ، فينبغى السعى إلى تحقيق أقصى سعادة ممكنة للفرد .

ونظريتهم فى التوافق تقول : ليس هناك تعارض بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ؛ فالمجتمع فى نظرهم أسرة كبيرة ذات هدف موحد ، وأنه ما دام الفرد يحقق سعادته فإن سعادة المجموع سوف تتحقق ، فالمنفعة الكلية للجميع تتمشى مع المنفعة القصوى للفرد ، فالمصلحة العامة يمكن تحقيقها بفحص دقيق للمصالح الفردية ، ويؤمن أصحاب هذه النظرية بأن هذا التوافق يحدث تلقائيا .

ويؤمنون بأن الثقة فى المنافسة الحرة ، وجهاز الثمن قوة حقيقية موجهة للحياة الاقتصادية ، وأن الربح هو خير حافز على الإنتاج والتقدم الاقتصادى .

والقوانين التى تحكم هذا النظام إنما تشتق فى نظرهم من نظام طبيعى خير ، فالإنسان لو ترك وشأنه لن يحقق منفعته ومصلحته الشخصية فحسب ، بل سوف يعمل على تحقيق الصالح العام ، فحوافز الإنسان على التصرف لا تجعل مصلحة الفرد تتعارض مع مصلحة المجموع ، فسلوك الإنسان فيه نزعات طبيعية كحب النفس والأثرة والعطف على الغير والرغبة فى العمل والشعور بالفضيلة والرغبة فى أن يكون حرا . وهذه الدوافع من التوازن بحيث تجعل الفرد وهو بسبيل تحقيق مصلحة نفسه إنما يحقق مصلحة الغير ، فالأثرة وشهوة حب النفس يقابلها الشعور بالعطف . فالنظام الطبيعى بالرغم من بساطته إلا أنه يحقق مصلحة المجتمع ، فهو صادر عن الميول الطبيعية للإنسان ، وإن تدخل الأنظمة الوضعية مع النظام الطبيعى تعوق إيجاب هذا النظام لآثاره الحميدة ، وهذا النظام الطبيعى يفوق أى نظام آخر من عمل الإنسان .

ومن ثم نجد أن الحكومات تخدم المجتمعات على نطاق أكبر لو أنها لم تتدخل فى

حرية الأفراد ، فهذه النظرية لا ترى خيرا فى تدخل الدولة فى ميادين الأعمال ، وهى لا توافق على القيود والتنظيمات الموضوعة للأجور ، وهى تنادى بالقضاء على جميع مظاهر الاحتكار فى شئون العمال أو غيرها ، فالمنافسة غير المقيدة أو المشوبة بأى شائبة هى وحدها القوة الاجتماعية المنظمة للحياة الاقتصادية وتحقيق المنافسة الحرة ، وإعلاء شأنها هو الشرط الرئيسى للتقدم الاقتصادى .

وجاءت الاشتراكية تحاول تضميد ما خلفته الرأسمالية من جراح ، فنادى رسل الاشتراكية بتقويض النظام من الجدران ، وقالوا إن « الأمة » فكرة اخترعها الرأسماليون ، وإن « الوطن » مجرد وسيلة يستغلها البرجوازيون لاستغلال العمال ، أما القانون فهو سلاح يفرض على الطبقة العاملة أن تظل فى بؤسها ، والدين مجرد مخدر للجماهير ، والمدارس حقول لتربية العبيد ؛ فألفت الاشتراكية المادية الملكية الفردية وجعلت العنف قانونها الثورى ! وقد قال مستر تشرشل عن الرأسمالية والاشتراكية : « الرأسمالية توزيع الخير على الناس دون مساواة ، وأما الاشتراكية فتوزيع البؤس على الناس بالتساوى ، فلنحاول إذن أن نتخذ نظاما يحقق أكبر خير لأكبر عدد من الناس » .

فهل المسيحية تستطيع أن تحقق هذا النظام المنشود ؟ فلنصغ إلى ما قال ماركس وأنجلز عن ذلك : « لقد كان أمام المبادئ المسيحية الاجتماعية فرصة ثمانية عشر قرنا للتطور ، ولن تحتاج إلى تطور آخر على يد القسس والمبشرين . وقد أباحت هذه المبادئ الرق فى العالم القديم ، وغطت عبودية الإنسان فى الأرض فى العصور الوسطى ، وهى على استعداد إذا لزم الأمر للدفاع عن ظلم الطبقات العاملة مهما أطرقت جباهها ، وتعاليم المسيحية الاجتماعية لا تعارض فى وجود طبقة حاكمة ذات سلطان ظالم ، وكل ما تقدمه للناس هو أمل المتقين فى أن يتحول الحاكمون إلى الخير . والمبادئ الاجتماعية المسيحية تنقل مشكلة علاج

أمراض المجتمع إلى العالم الآخر وتبرر بذلك دوام هذه الأمراض على الأرض ، والمبادئ الاجتماعية المسيحية تعلن أن شرور الظالمين التى تقع على المظلومين إنما هى عقاب لهم عن ذنب أتوه أو متاعب اختارت حكمة الله التى لا نعرفها أن تقع على المختارين من عباده ، والمبادئ الاجتماعية المسيحية تبشر بالجبن والانحطاط بالنفس وقبول الأمر الواقع والخضوع والذلة وبالاختصار كل الصفات الدنيا ، وطبقة العمال لا ترضى أن تعامل هذه المعاملة .

إننا نحتاج إلى الشجاعة والثقة والكبرياء والاستقلال أكثر مما نحتاج إلى الخبز ، والمبادئ الخلقية المسيحية ملتوية وغير صريحة ، ولكن طبقة العمال ثورية » .

وجد ماركس وأنجلز وزعماء الشيوعية هذه المثالب فى المسيحية فكفروا بها ، فهل يدافع الإسلام عن ظلم الطبقات العاملة ؟ وهل إذا وجد السلطان الظالم يأمر الإسلام أتباعه أن يقفوا مكتوفى الأيدى دون أن يخلعوا طاعته من أعناقهم ؟ وهل ينقل الإسلام مشاكل علاج أمراض المجتمع إلى يوم الحساب ؟ هل يرى فى شرور الظالمين للمظلومين عقابا للمظلومين عن ذنب اقترفوه ؟ إن الإسلام يعالج شئون الدنيا مثلما يعالج شئون الآخرة ، فهو دنيا ودين ، يساوى بين الخاضعين لأحكامه فى الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والملك والسوقة ، والغنى والفقير ، والقوى والضعيف . الناس لآدم والمؤمنون إخوة والناس سواسية أمام الشريعة العادلة ، لصاحب العمل حقوق وعليه واجبات ، وللعمال حقوق وعليهم واجبات ، لا تملق لطبقة على حساب طبقة ، بل العدل المطلق للجميع . لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . لا المال يرفع صاحبه ولا الفقر يحط من شأن الفقير . إنه دين تلتقى فيه المثالية بالواقعية ، وتمتزج فيه الروحانية بالمادية ، ويسعى فيه المرء لخير الدنيا والآخرة ، ويحاول أن يضم فى إهابه السماء والأرض . إنه دين العقل والحكمة

والفقه، دين الفطرة؛ ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير﴾(١).

هدم المفكرون المسيحيون الدين لأنه يقف فى سبيل التقدم ويقف فى سبيل التطوير ولا يحقق الخير العام للبشرية. فلماذا يفكر بعض المسلمين فى الهجوم على الدين دون أن يحاولوا أن يفتحوا أعينهم على ما فيه من هداية وسياسة وسيادة ورفعة وما يحقق الخير العام للجميع؟ إنه التقليد والافتنان بكل ما يأتى من الغرب وإن كان فيه الدمار والشقاء والضياع والفوضى.

ترك المفكرون المسيحيون الدين ونبذوا الآلهة، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا إلـٰه معبود فقد عبدوا الذهب وساقوا الناس بأفكارهم إلى عبادة المال وتقديسه، وجعلوا الجوع القوة المحركة للنشاط البشرى، والحاجة المادية للإنسان القلم الذى يسجل به التاريخ، فانطلقت كفاءات هائلة تستغل الطبيعة دون أن تتطور التطور الخلقى والنفسى الذى يتلاءم مع الانطلاقة العظيمة، فعجزت النفس الإنسانية عن أن تلحق بالتقدم الجبار الذى حققه الاقتصاد والسياسة والعلم، فكان الضياع والشقاء والدموع والقلق والخوف الدائم من المستقبل المجهول.

وصل الإنسان إلى القمر ولم يكتشف بعد كيف يقاوم الزكام، وصنع قنابل ذرية كافية لدمار العالم ولم يحاول أن يزيد فى رقعة الأرض المنزرعة ليوفر القوت للذين يموتون جوعا كل يوم فى أرض البؤس والشقاء، وتعددت سبل الاتصال بين الشعوب وقربت المسافات ولم تتآلف القلوب بل زادت نفورا، ولم يصبح البشر أمة واحدة، بنعمة الله إخوانا، بل شعوبا متعادية متصارعة على الحياة، وقد خلق الله الأرض وجعلها تكفى الناس جميعا أحياء وأمواتا، ولكن الناس أبوا

---

(١) الملك ١٠

إلا الضياع فلا حرية ولا إخاء ولا مساواة .

إن الرأسمالية ظلم للفقراء وعدوان صارخ على الإنسانية واضطهاد لها وتهديد للسلام الاجتماعى ، وإن الاشتراكية العلمية قد جعلت السعادة المادية هدف الحياة الأوحد فحولت هى والرأسمالية الناس جميعا إلى عبيد للمال . وقد قال نيتشة فى كتاب إرادة القوة : « إننا نحتاج لكى نحل عقدة المال إلى ثورة وتجديد كامل للمجتمع ، وقبل أن توضع الحياة الاقتصادية فى مكانها المتواضع الذى يناسبها يجب أن تخضع للحياة الخلقية والروحية فى الجماعة ، ويجب أن تكون العدالة لا الثروة مقياس المنفعة ، العدالة ؟ إنها على النقيض من روح الرأسمالية السائدة ، والاشتراكية ليست سوى تقليد العمال لساداتهم تقليد القردة ، وإذا أردنا أن نعالج العمال من داء الاشتراكية فلا بد أن تعالج الطبقات الراقية نفسها من داء الرأسمالية » .

هذا ما قاله نيتشه ، وأنا أقول إن الأمر لا يحتاج إلى ثورة بل عودة إلى النظام المالى فى الإسلام ، ففيه محاسن الرأسمالية دون عيوبها ومحاسن الاشتراكية دون عيوبها ، والمال فى الإسلام ليس معبودا بل إنه فتنة ، ولا يقوم بوظيفة اقتصادية وحسب بل إن وظيفته فى المقام الأول وظيفة اجتماعية تستهدف الخير العام للجميع .

إذا تركنا تعريف « المال » الاقتصادى أو القانونى يمكننا أن نقول إن المال هو ما يستحوذ عليه الإنسان من طيبات الله ، فالهواء وإن كان ذا قيمة لا تقدر لأنه بدونه تتوقف الحياة ، فقد قضت حكمة الله أن يكون لمخلوقاته جميعا ، أن يكون للخير العام وأن يستحيل على الإنسان أن يستحوذ عليه ، فهو ليس مالا ، أما الأرض وما عليها من نباتات وحيوانات ، وما فى بطنها من زيوت ومعادن وأحجار كريمة ، وكل الطيبات ، فهى مال : ﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم

واشكروا الله ﴾(١). ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾(٢). فالله قد أحل لنا الطيبات وحرم الخبائث ، نكسب طيبا وننفق طيبا فتطيب أنفسنا وتتآلف قلوبنا ونصبح بنعمة الله إخوانا .

والمال فى الإسلام ليس مال أحد من البشر ولكنه مال الله والناس مستخلفون فيه ؛ فلا ينبغى كسب المال إلا من السبل التى يحددها صاحب المال وأن ينفق فى السبل التى يحددها للإنفاق ، فإن أساء المستخلف فى مال الله ولم يوفه حقه فللحاكم أن ينزع ذلك المال منه وأن يوجهه للخير العام . فالحكومة هى الساهرة على تنفيذ أوامر الله ونواهيه ، فإن لم تقم بواجبها فعلى الشعب أن ينحيها عن الحكم ، فإن قصر الشعب فإن الله يذهب الجميع ويأتى بخلق جديد .

﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾(٣) .

﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾(٤) .

قضى الإسلام على عبادة المال وحد من طغيان الثروة ، فالمال فتنة وزينة فى الحياة الدنيا واختبار . ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾(٥) ، ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا

---

(١) البقرة ١٧٢ — (٢) البقرة ٢٦٧

(٣) النور ٣٣ — (٤) الحديد ٧

(٥) الكهف — (٦) المؤمنون ٥٥ — ٦١

وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾(١) . ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾(٢) . ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ﴾(٣) . ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ﴾(٤) . ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾(٥) .

إن الإسلام لا يحرم الطيبات : ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾(٦) . ولكنه يخضد شوكة المال ويحاول أن يقضى على غروره وأن يقاوم اتجاهه العام للصد عن الحق والخير : « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾(٧) . ﴿ ويل لكل همزة لمزة . الذى جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده ﴾(٨) . ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴾(٩) .

كان الظلم الاقتصادى هو السم الذى قضى على جميع الحضارات منذ حضارة بابل ومصر القديمة إلى اليوم ، وكان طغيان المال وغروره هو المعول الذى قوض الإمبراطوريات القديمة والحديثة على السواء ، فالدولة المصرية القديمة والإغريق والفرس والرومان قد وصلوا إلى قمة النظام الرأسمالى التى وصلنا إليها وإلى الديمقراطية التى نتشدق بها ، وقد اندثرت تلك الحضارات كما ستندثر حضارات الإمبراطوريات الحديثة ، فالمشكلة قديما وحديثا واحدة : انعدام

---

(١) المؤمنون ٥٥ — ٦١
(٢) الأنفال ٢٨
(٣) سبأ ٣٧
(٤) آل عمران ١٨٦
(٥) آل عمران ١٤
(٦) الأعراف ٣٢
(٧) العلق ٦ ، ٧
(٨) الهمزة ١ — ٣
(٩) الأنفال ٣٦

الاستقرار الداخلى وطغيان إلـٰه الذهب. إن الكارثة التى تنتظرنا لا مفر منها ما دام الناس يشيحون بأوجههم عن الدين، إنهم كالأطفال الذين يعرضون عن الدواء الذى فيه شفاء أسقامهم، أو كالظمآن الذى ينطلق فى إثر سراب.

إن المادية قد تحدث المسيحية فلم تستطع المسيحية أن تقف فى سبيل ذلك التحدى، فانهار الحاجز الدينى الذى كان يقف فى وجه الجشع والطمع والأثرة وقتل الإنسان لأخيه الإنسان لتحقيق منفعة موقوتة زائلة، فهل فى الإسلام القوة التى تواجه ذلك التحدى وتلوى ذراع المادية لتعيدها إلى الصراط المستقيم ؟

إن الإسلام يمدح المال فهو من نعم الله، ولكنه يذم طغيانه والبخل به والغطرسة لامتلاكه والرياء فى إنفاقه، فالله يقول فى مدح المال: ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا. ﴾(١). ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾(١).

فجزاء اتباع هداية الدين فى الإسلام الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها: ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ﴾(١). ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا، لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صَعَدا ﴾(١). ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء الله(١).

---

(١) نوح ١٠ — ١٢ (٢) طه ١٢٣، ١٢٤
(٣) الجن ١٣ (٤) الجن ١٦، ١٧ (٥) التوبة ١٢٨

والإسلام يعرف جيدا ضرورة دوران المال وأنه كالدم لا بد أن يدور دورته الكاملة فى الجسم ليظل معافى يؤدى كل عضو فيه وظيفته على خير وجه ، لذلك ذم البخل وحرم الكنز وحض على الإنفاق : ﴿ ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾(١) . ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب إليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى به جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون . ﴾(٢) . ﴿ ها أنتم هؤلاء تُدعَون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾(٣) . ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير . أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها

(١) آل عمران ١٨٠ — (٢) التوبة ٣٤ ، ٣٥
(٣) محمد ٣٨

الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون . يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون . ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾[١] .

ولا يقبل الإسلام أن يكون المال فى أيدى قلة من الناس لا ينفقونه فى الخير العام : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم »[٢] .

ولا يثير طبقة على طبقة ولا يرضى عن حمامات الدم ، فالمؤمنون إخوة : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم »[٣] . وهم إخوان فى الدين قد ألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا ، يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ، لا يشترون الحياة الدنيا بالآخرة ولا يسفكون دماءهم ودماء الناس بغير حق فى سبيل ثورة عارمة قد تكون ظالمة ، ثورة تحركها شهوات الانتقام ونزوات أحقاد قلوب مريضة أعماها الغرض .

والإسلام لا يرضى عن الطغيان فسواء عنده طغيان الرأسماليين أو طغيان العمال ، فهو يقدس العدل ويعطى كل ذى حق حقه ، ويضرب على أيدى العابثين بلا تفريق ، فيقدم للناس حياة أكثر خصبا وغنى ، ويشبع كل نهم الإنسان إلى العدل المطلق والحياة الحرة الكريمة للناس ، كل الناس : ﴿ اعدلوا هو أقرب

---

(١) البقرة ٢٦١ — ٢٦٨ (٢) الحشر

(٣) الحجرات ١٠

للتقوى ﴾(١) . ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾(٢) . ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ﴾(٣) . ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾(٤) . ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾(٥) .

والمال فى الإسلام عقيم لا يلد وحده ، بل لا بد من أن يتزوج العمل ليأتى بثمرة ، وله أن يشترك فى هذه الثمرة سواء أكانت حلوة أم مرة . فإذا كانت الثمرة كسبا شارك فى الكسب ، وإذا كانت خسارة تحمل نصيبه منها ، وحكمة ذلك أننا لو وضعنا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فوق سطح قطعة أرض بور مثلا ، فستظل الأرض بورا مادامت يد البشر لم تتعهدها بالإصلاح . وكذلك الحال إذا وضعناها فى مصنع أو متجر فالمال وحده عاجز عن أن يؤدى وظيفة منتجة ، بينما العمل وحده يستطيع أن يثمر فيستحق مكافأة ، يستحق أجرا . أما المال فهو لا يستحق ربا ، بل يستحق نصيبه من المكسب أو الخسارة إذا ما اشترك مع العمل فى الإنتاج .

والربا لغة الزيادة ، وشرعا عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل فى معيار الشرع حالة العقد ، أو مع تأخير فى البدلين أو أحدهما وهو ثلاثة أنواع :

النوع الأول ربا الفضل ، وهو البيع مع زيادة أحد العوضين المتفقى الجنس على الآخر ، كمثقال فضة مثلا بمثقال وربع منها .

والثانى ربا اليد ، وهو البيع مع تأخير قبضهما أو قبض أحدهما عند التفرق من المجلس ، أو عند تخاير لزوم العقد فيه ولكن بشرط اتحاد العوضين علة بأن يكون

---

(١) المائدة ٨ — (٢) النساء ١٣٥

(٣) المائدة ٨ — (٤) النساء ٥٨

(٥) النحل ٩٠

كل منهما مطعوما أو نقدا ، وإن اختلف جنسا كذهب بفضة وبر بشعير .

والثالث ربا النَّساء ، وهو البيع للمطعومين أو للنقدين المتفقى الجنس أو المختلفين لأجل كشهر أو لحظة ، وإن استويا وتقايضا فى المجلس كبيع صاع بر بصاع بر أو درهم فضة بدرهم فضة ، لكن مع تأجيل أحد العوضين ولو إلى لحظة وإن تساويا وتقايضا فى المجلس .

وحرم الفلاسفة الأقدمون الربا ولكن ذلك لم يمنع تغلغله فى الحياة الاقتصادية لكل الشعوب . وكان اليهود فرسان الحلبة على الرغم من أن التوراة قد حرمت الربا ، وكما هى عادتهم فقد لعبوا بالألفاظ فأطلقوا على الربا اسم الفائدة وحسبوا أنهم بذلك قد فروا من العقاب فى الدنيا ، فما كانت الآخرة تعنيهم فى قليل أو كثير .

لا تؤدى الفائدة أى منفعة عامة ولا تحقق رخاء فى الدنيا ، بل إنها تنهش بمخالبها القاتلة أفئدة المدينين ، ومع ذلك وجدت من يدافع عنها ، فقد قال آدم سميث وريكاردو وهما من أبرز من وضعوا علم الاقتصاد : « الفائدة هى التعويض الذى يدفعه المقترض عن الربح الذى كان يمكن أن يحققه باستثماره ماله » . وهذان الكاتبان لا يفصلان بوضوح بين الفائدة والربح الفاحش لرأس المال . ولننظر ما يعنون برأس المال :

لقد استخدم آدم سميث عبارة (رأس المال العامل) وهو يعنى بها ذلك الجزء من ثروة الفرد الذى يستخدم لا للاستهلاك وإنما لمزيد من الإنتاج ليعود عليه بالمال كمكافأة أو كربح . وهو يشمل الآلات والمواد الخام والمبانى والطعام والكساء . ويمكن تفسيره بأنه بالرغم من الطعام والكساء ، وليسا برأس مال من وجهة نظر المجتمع إلا أنهما رأس مال من وجهة نظر الفرد . ما دام فى وسعه إعطاؤه سلفا للعاملين فى الإنتاج وتحقيق ربح من ذلك .

وآراء ريكاردو أيضا هى عين هذه الآراء من الوجهة العلمية .

إن تزايد المال العامل أو رأس المال كان نتيجة للبخل . وما كان البخل يمارس لولا توقع مكافأة عن التضحية . لذلك كانت الفائدة حسب رأى هذين الكاتبين هى المكافأة أو الإغراء الذى يُدْفع عن المدخرات . وأصل الأرباح عند سميث هو أن تشغيل رأس المال فى الإنتاج يؤدى إلى قيمة زائدة للمنتج علاوة على قيمة العمل ، ولذلك ليس هناك استغلال للعمل . وقد اعتبر ريكاردو كل رأس المال عملا مختزنا ونسب كل قيمة إلى العمل . ولقد كان هذا هو الأساس الذى بنى عليه كارل ماركس نظرية استغلال العمل فى الاقتصاد الرأسمالى . ويفسر آدم سميث وريكاردو معدل الفائدة ببساطة فى تعليقهما بأنه : وقتما يمكن عمل الكثير باستخدام المال يمكن إعطاء الكثير من أجل استخدامه ﴾(١) .

وحرم الإسلام الربا ، قال الله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾(٢) . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون ﴾(٣) . وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾(٤) . ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربو عند الله

---

(١) الإسلام والربا ـــ تأليف أ. د إقبال قرشى ـــ ترجمة فاروق حلمى . (مكتبة مصر) .

(٢) البقرة ٢٧٥ ، ٢٧٦ (٣) البقرة ٢٧٨

(٤) آل عمران ١٣٠ ، ١٣١ .

وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾[١] .

وقال النبى — ﷺ — : « الربا سبعون حربا أيسرها أن ينكح الرجل أمه » . وقال — عليه الصلاة والسلام : « إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله » ، « وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أخذوا بالرعب » .

وخطب رسول الله — ﷺ — أصحابه قال : « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وإن أربى الربا عِرض الرجل المسلم . ومن نبت لحمُه من سحت فالنار أولى به » . وقال رسول الله — ﷺ — : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله ما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . وقال — صلوات الله وسلامه عليه : « رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد الرجل أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فردّه حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فيرجع كما كان . فقلت ما هذا ؟ فقال الذى رأيت فى النهر آكل الربا » .

وقال — ﷺ — : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم ، أشد من ست وثلاثين زنية » . ولعن رسول الله — ﷺ — آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده وقال : هم سواء .

إن الإسلام حرم الربا لأنه ابتزاز لأموال المدينين ، ولأنه لا يتفق مع فلسفة الإسلام التى تنادى بالمحبة والعدل وتحريم الظلم ، ولأن الربا يشجع على إيجاد

---

(١) الروم ١٣٩

طبقة من العاطلين الذين يعيشون على إقراض الناس فائض أموالهم أو ما ورثوه عن آبائهم ، بينا الإسلام يقدس العمل ويحترم العاملين ولا يرضى عن أن يكون فى مجتمعه مصاصو دماء ، إلى أن الدّين همّ بالليل ومذلة بالنهار ، وما جاء الإسلام إلا ليحافظ على كرامة الإنسان ، والربا يشجع الناس على الإقراض والاقتراض ولا يرحب الإسلام بأن يزداد عدد المدينين من المسلمين لأن الدّين يقضى على شرف الإنسان ويهدر كرامته ويريق ماء وجهه ، والإسلام يريد لأتباعه العزة والكرامة والشرف .

ولا صلة بين تحريم الربا وذم المال ، فالله تعالى قد سمى المال خيرا ، وقد قال ـ ﷺ : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . وقال ـ عليه السلام : « كاد الفقر أن يكون كفرا » . والمال فى الإسلام خادم ولا خادم له ، فهو ضرورة بقاء البدن الذى هو ضرورة كمال النفس ؛ فالمال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، أما الربا فهو مفسدة ، فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر . ولما كان الربا هو أيسر سبيل لكسب المال فهو غالبا ما يصرف فى الشهوات وتحصيل اللذات ، ومن كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلا بد أن ينافقهم ويعصى الله فى طلب رضاهم فينطلق فى طريق الهلاك .

وأخذ الربا يملأ قلوب المدينين بالعداوة للمرابين والحقد والحسد ، مما يفسد العلائق الطيبة بين أفراد المجتمع الواحد ، بينا أسمى أهداف الإسلام سلامة المجتمع من الحقد والكراهية والبغضاء وسريان الحب والود بين الناس : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

والربا لا يعكر الانسجام الاجتماعى وحسب ، وهو ليس بدخل غير مكتسب فقط ، بل إنه يفضى إلى العدوان الاقتصادى بزيادة ثروة المرابى على

حساب المدين ؛ لذلك قال الله تعالى فى كتابه العزيز : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم »[1] . ولم يقتصر ضرر الربا على سيطرة أفراد على أفراد بل تجاوز ذلك إلى سيطرة دول دائنة على دول مدينة مما يؤدى إلى شعور بالمرارة بين المدينين ، الأمر الذى قد يفضى إلى عداوة مستترة سرعان ما تكشف عن وجهها .

والإقراض فى الإسلام معونة وليس عملية تجارية لأن الإسلام دين الأخلاق قبل كل شىء ، ولأن رسول الإسلام عليه السلام قد بعث ليتمم مكارم الأخلاق . وإنه من مكارم الأخلاق مد يد العون إلى أخ فى البشرية فى ضيق مالى ، وإنه ليس من الأخلاق فى شىء استغلال ضيقه لتحقيق كسب دون مجهود .

ويقول ميرزا محمد حسين فى كتابه « الإسلام والاشتراكية » : « وقبل انحدار الرأسمالية وما وصلت إليه من تدهور ، كان يعتقد أن الربا هو مفتاح الرخاء الاقتصادى ، ولذا قال الجاهلون : إن الإسلام بتحريم الربا بدائى ومتخلف يمنع تابعيه من سلوك الطريق إلى الرخاء ، ونسبوا تخلف الدول الإسلامية فى ميادين الصناعة إلى هذه الثغرة فى النظرية الاجتماعية الإسلامية ، ولكن منطق الإنسان المتهافت لن يصل إلى مستوى القوانين القرآنية فى علاج المشاكل الاجتماعية الاقتصادية ، والعارفين بتعاليم القرآن الكريم حقيقة لن ينخدعوا بالثروات الطائلة والسيطرة الاقتصادية التى للغرب لأن هذا لن يخفى عن الأنظار الفقر والعوز الذى تعانيه الجماهير الضخمة هناك .

والاستعمار وتشييد الإمبراطوريات بدورها مظهر آخر للفساد والفراغ فى

---

(١) البقرة ٢٧٦

الحضارة الأوروبية ، والإسلام الذى لا يستأنس غريزة الجشع لن يقبل بأى ثمن مثل هذا الأمر الذى يسعد قلة من الناس على حساب الملايين . وقد حاول بعض الناس أن يفرق بين « الربح » و« الربا » وقالوا بأن الربح كسب مباح نظير استعمال المال وحرمان الشخص لنفسه من ذلك أمر لا مبرر له . وهذا نوع من اللجاجة . سمه كما شئت — ربحا أو ربا — فهو عمل ضار بالجماعة تحت أى اسم كان . وكلمة « ربا » العربية تعنى الزيادة التى تعطى عن المال المقترض ؛ وسواء كان « الربح » يعطى نظير خطر ضياع المال المقترض أو نظير حرمان صاحبه منه إلى أن يرد فهو حرام . ولن يغير هذا الاسم المقبول من طبيعة هذا العمل الذى لعنه الإسلام . ويروى فضالة عن النبى — ﷺ — أنه قال بأن كل دين يعطى ربحا فهو ربا (البيهقى الجزء الخامس) ، وفى هذا ما يقطع الجدل ويهدم كل حجة للإبقاء على « الربا » تحت اسم أو آخر »[١] .

وأحاديث النبى — ﷺ — توضح أنواع الربا ، فقد قال — صلوات الله وسلامه عليه — ينهى عن بيع صاعين من أنواع متفرقة من التمر بصاع من تمر جيد فى حديث عن أبى سعيد الخدرى : « كنا نرزق تمر الجمع وهو الخلط من التمر ، وكنا نبيع صاعين بصاع فقال النبى — ﷺ : لا صاعين بصاع ولا درهمين بدرهم » .

وقال عليه الصلاة والسلام فى بيع التمر بالتمر والشعير بالشعير والبُر بالبُر : « البر بالبر ربا إلا هاء وهاء[٢] ، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء » . وقد نهى — عليه السلام — عن بيع الرطب بالتمر وبيع الكرم بالزبيب ،

---

(١) الإسلام والاشتراكية — تأليف ميرزا محمد حسين — ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب .

(٢) هاء وهاء معناها خذ وهات يعنى مناولة .

ويسمى هذا البيع مزابنة ، والمزابنة أن يبيع التمر بكيل إن زاد فلى وإن نقص فعلىّ .

والتمس مالك بن أوس صرفا بمائة دينار فدعاه طلحة ابن عبيد الله فتراوضا حتى اصطرف منه ، فأخذ الذهب يقلبها فى يده ثم قال حتى يأتى خازنى من الغابة . وعمر يسمع ذلك فقال : « والله لا تفارقه حتى تأخذ منه . قال رسول الله — ﷺ : الذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء ، والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء ، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء » .

وسبب اعتبار الذهب والبر والشعير ربا إذا أجل التسليم أن لهذه الطيبات أسعارا وقت الأخذ قد تتعرض للارتفاع أو الانخفاض وقت العطاء مما يعود بالضرر على أحد طرفى الصفقة ، وهذا يتعارض مع المبدأ الإسلامى القائل : لا ضرر ولا ضرار ، فالإسلام يحافظ على مصالح الناس ويأبى أن يفرط فيها .

وقال — ﷺ — فى بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا سواء بسواء ، والفضة بالفضة إلا سواء بسواء ، وبيعوا الذهب بالفضة كيف شئتم » . ونهى — ﷺ — أن تباع بضاعة حاضرة ببضاعة مؤخرة ، فللبضاعة الحاضرة سعر معلوم بينا البضاعة المؤخرة لا يعلم سعرها ، فقد ترتفع الأسعار أو تنخفض فيضر أحد طرفى الصفقة : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل وتشفُوا (تفضلوا) بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورِق (الفضة) بالورق إلا مثلا بمثل ولا تشفُّوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منها غائبا بناجز » .

وقال — ﷺ — إن بيع الورق بالذهب دينا نسيئة ، وأنه لا بد من بيع الذهب بالورق يدا بيد . ونهى عن بيع الثمر حتى يبدو صلاحه : « لا تبيعوا الثمر حتى يبدو صلاحه » .

كان الناس فى عهد رسول الله — ﷺ — يتبايعون الثمار ، فإذا جذَّ الناس (قطعوا الثمار) وحضر تقاضيهم قال المبتاع : إنه أصاب الثمر الدُّماه (فساد

الطلع) ، أصابه مراض ، أصابه قُشام (انتفاض تمر النخل) ، عاهات يحتجون بها ، فقال رسول الله — ﷺ — لما كثرت عنده الخصومة فى ذلك : فإما لا ، فلا تبايعوا حتى يبدو صلاح الثمر » . وقال جابر بن عبد الله : « نهى النبى — ﷺ — أن تباع الثمرة حتى تُشقِّح . فقيل : وما تشقح ؟ قال : تحمارُّ وتصفارُّ ويؤكل منها .

واستعمل رسول الله — ﷺ — رجلا على خيبر فجاءه بتمر جنيب (طيب) ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— أكل تمر خيبر هكذا ؟

— لا والله يا رسول الله ، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة .

كان الرجل يقصد أنه يأخذ صاعا من تمر جيد مقابل صاعين أو ثلاثة من تمر الجمع ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— لا تفعل ، بع الجمع بالدراهم ، ثم ابتع بالدراهم جنيبا .

وروى أنس أن النبى — ﷺ — نهى عن بيع ثمر التمر حتى تزهو ، فقالوا لأنس :

— ما زهوها ؟

— تحمر وتصفر ، أرأيت إن منع الله الثمرة بم تستحل مال أخيك ؟!

أحل الله البيع وحرم الربا ، فلا غنى لمجتمع عن البيع والتجارة ، وقد نظم الإسلام التجارة فلم يترك للتجار الحبل على الغارب ، بل وضع من الأصول وحض على حسن المعاملة وحسن النية مما جعل المجتمع الإسلامى فى العهود التى ساد فيها الإسلام المثل الأعلى للعلاقات الطيبة فى المعاملات التجارية ؛ فقد كانوا يدعون تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام حتى قال بعضهم : « من أنفق الحرام فى الطاعة فهو كمن طهر الثوب بالبول » . وقال : « لأن أردّ درهما من شبهة

أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ومائة ألف » . وقال ﷺ : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » .

لما قدم النبى — ﷺ — المدينة كان بها رجل يقال له أبو جهينة ، له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأنزل الله تعالى : « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين »(١) .

كان أهل المدينة أبخس الناس كيلا ، فلما نزلت حرمة التطفيف أحسنوه وأصبحوا إذا كالوا الناس أو وزنوهم يستوفون .

وأقبل رسول الله — ﷺ — على المهاجرين فقال :

— يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا . ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم . ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم ، ولم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم .

وقد أمر القرآن الكريم بتأدية الأمانة : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »(٢) . وقال — ﷺ — :

---

(١) المطففين ١ — ٦ (٢) النساء ٥٨

ـــ الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشد ذلك الودائع .

وكان ابن عمر يمر بالبائع يقول :

ـــ اتق الله وأوف الكيل والوزن ، فإن المطففين يوقفون حتى إن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم .

ونهى الإسلام عن الغش وحرمه ، فقد قال ـــ ﷺ : « من حمل السلاح علينا فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » .

ومر عليه السلام على كومة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا ، فقال :

ـــ ما هذا يا صاحب الطعام ؟

ـــ أصابته السماء يا رسول الله .

ـــ أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا .

ونهى عن خلط اللبن بالماء : « لا تشوبوا اللبن للبيع » . وزين إظهار ما فى البضاعة من عيب : « المسلم أخو المسلم ، ولا يحل لمسلم إذا باع من أخيه بيعا فيه عيب أن لا يبينه » . وقال : « المؤمنون بعضهم لبعض نصَحة ، وادُّون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم ، والفجرة بعضهم لبعض غششة ، متخاونون وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم » .

أحل الله التجارة لتعارف القبائل والشعوب ولقضاء حاجات الناس لتستمر الحياة ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال إن ما عنده خير من اللهو والتجارة حتى لا ينغمس الناس فى طلب الماديات ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من

اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين »(١) .

كان القوم يتبايعون ويتجرون ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله . إنهم كانوا يعيشون للدنيا والآخرة وما كانت الدنيا تطغى على الآخرة وما كانت الآخرة تطغى على الدنيا ، وإن كان العقلاء يدخرون الطيبات فى الدنيا للآخرة . وقد جعل الإسلام طلب الحلال فريضة فقال نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » . وقد مر رسول الله — ﷺ — بابنته الأثيرة عنده فاطمة الزهراء وهى مضطجعة متصبحة ، فحركها برجله ثم قال :

— يا بنية قومى فاشهدى رزق ربك ولا تكونى من الغافلين ، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

إن طلب كسب الرزق الحلال فى الإسلام فريضة بعد الفريضة ، فالإسلام يعمل على إيجاد المجتمع المتوازن ، المجتمع الذى يسلم وجهه لله فى الأرض بحثا عن رزقه امتثالا لأوامر الله . إنه الدين والمذهب الاقتصادى الذى يحقق الانسجام بين أطماع الفرد وسلامة الجماعة : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »(٢) . « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث »(٣) .

والإسلام يبارك العمل ، فرسول الله — ﷺ — يقول : ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .

ويفضل العمل عن سؤال الناس مهما كان نوع العمل : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه » . ويحض على السهولة والسماحة فى الشراء والبيع : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا

---

(١) الجمعة ١٠ ، ١١ (٢) البقرة ١٦٨ (٣) الأعراف ١٥٧

اقتضى » ، ولم يكتف بأن يعلم الناس طلب الحق فى عفاف بل إنه يأمر بأن ييسر على الموسر ويتجاوز عن المعسر . قال — ﷺ — : « كان تاجر يداين الناس ، فلما رأى معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا » .

والإسلام لا يحل لامرىء يبيع سلعة يعلم أن بها داء إلا أخبره ، فقد كتب رسول الله ﷺ — للعداء بن خالد : « هذا ما اشترى محمد رسول الله — ﷺ — من العداء بن خالد بيع المسلم المسلّم لا داء ولا خِبْثة ولا غالة » . أى أن المسلم لا يبيع من طيبات الله إلا الطيب الذى لا عيب فيه ولا سرقة ولا زنا .

وقال — ﷺ : « البيعان بالخيار حتى يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

إن الإسلام ينشد الطهارة فى البدن والنفس وطهارة المعاملات ، فلا غش ولا تدليس ولا تطفيف فى الميزان ، ولا إخفاء ما فى البضاعة من عيوب ، وقد حض على طلب الحلال وترك الخبائث فأصبح المسلمون يتنزهون من الشبهات حتى إن رسول الله — ﷺ — مر بتمرة مسَقَّطة فقال : « لولا أن تكون صدقة لأكلتها » . وكانت صفة المؤمنين البارزة التحرز والخوف من المحرمات ، وقد قال رسول الله — ﷺ : « ليأتين على الناس زمان لا يبالى المرء بما أخذ المال أمن حرام أم من حلال » .

ويكره الإسلام الحلف فى البيع ، فقد روَّج رجل سلعة وهو فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بما لم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم »(١) .

---

(١) آل عمران ٧٧

والإسلام يكره أن يخرج المشترون للقاء قوافل التجارة قبل أن تصل الطيبات إلى الأسواق ، لأن ذلك لا يتيح للجميع تكافؤ الفرص ، فالأقوياء قد يحصلون على حاجاتهم بينما الضعفاء ينتظرون فى الأسواق ورود الطيبات . وقد كان الناس على عهد رسول الله — ﷺ — يشترون الطعام من الركبان فكان — عليه السلام — يبعث عليهم من يمنعهم أن يبيعوه حيث اشتروه حتى ينقلوه حيث يباع الطعام ، فتتاح للناس جميعا فرصة الشراء .

والإسلام يحرم الاحتكار ويعده من الكبائر ، وقد قال — ﷺ — : « من احتكر طعاما فهو خاطئ لله » ، وقال — عليه السلام : « من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برىء من الله وبرىء الله منه . وأيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » .

وقال — ﷺ : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » . وقال — ﷺ : « بئس العبد المحتكر ، إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح » .

التطفيف حرام ، والغش فى البيع والشراء ، والاحتكار ؛ وإن التاجر الأمين مع النبيين . قال — ﷺ : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » . وقال : « إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا ، وإذا كان عليهم لم يمطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا » .

وقال — ﷺ — لأبى ذر :

— ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

— خابوا وخسروا ! من هم يا رسول الله ؟

— المُسبل إزاره ، والمنان عطاءه ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب .

أرهف الإسلام حس المسلمين فكانوا يتبعون أوامر الله ويتجنبون نواهيه ،

وكانوا ينفذون ما عهدوا عليه رسول الله — ﷺ . أتى جرير بن عبد الله البجلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— أبايعك على الإسلام .

فشرط — ﷺ — عليه :

— والنصح لكل مسلم .

فبايعه على ذلك . وحدث أن أمر جرير مولاه أن يشترى له فرسا فاشترى له فرسا بثلاثمائة درهم وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس :

— فرسك خير من ذلك ، أتبيعه بخمسمائة درهم ؟

— ذلك إليك يا أبا عبد الله .

— فرسك خير من ذلك ، أتبيعه بستمائة درهم ؟

ثم لم يزل يزيده مائة مائة وصاحبه يرضى وجرير يقول : « فرسك خير » إلى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها ، فقيل له فى ذلك فقال :

— إنى بايعت رسول الله — ﷺ — على النصح لكل مسلم .

ونهى الإسلام أن يبيع الرجل على بيع أخيه ، أو أن يزيد فى الثمن بلا رغبة فى الشراء بل ليغر غيره ، أو أن يبيع حاضر الباد ، فقد نهى — ﷺ — أن يبيع حاضر الباد وقال : لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ، ولا تناجشوا(١) .

ولا بأس فى الإسلام ببيع المزايدة فقد كان الناس لا يرون بأسا ببيع المغانم فيمن يزيد .

ولا يقبل فى الإسلام اشتراط شروط لا تحل : جاءت بريرة إلى عائشة

---

(١) المناجشة ، من النجش ، وهو أن يزيد فى الثمن بلا رغبة بل يغر غيره .

أم المؤمنين فقالت :

ــــ كاتبت أهلى على تسع أواق فى كل عام أوقية فأعينينى .

ــــ إن أحب أهلك أعُدَّها لهم ، ويكون ولاؤك لى فعلت .

فذهبت بريرة إلى أهلها فقالت لهم فأبوا عليها ، فجاءت من عندهم ورسول الله ــــ ﷺ ــــ جالس عند عائشة فقالت :

ــــ إنى قد عرضت ذلك عليهم فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم .

فسمع النبى ــــ ﷺ ــــ فأخبرت عائشة النبى ــــ عليه السلام ــــ فقال :

ــــ خذيها واشترطى لهم الولاء فإنما الولاء لمن أعتق .

ففعلت عائشة ، ثم قام رسول الله ــــ ﷺ ــــ فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ــــ أما بعد . ما بال رجال يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط . قضاء الله أحق وشروط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق .

وقضى النبى ــــ ﷺ ــــ بالشفعة فى كل مال لم يُقسم . فإذا وقعت الحدود وصُرِّفت الطرق فلا شفعة ، والشفعة فى بيع الأرض والدور والعروض . وصرح بالشراء والبيع مع المشركين ، وبجلود الميتة قبل أن تدبغ ، فقد مر رسول الله ــــ ﷺ ــــ بشاة ميتة فقال :

ــــ هلا استمتعتم باهابها ؟

ــــ إنها ميتة .

ــــ إنما حُرم أكلها .

وحرم الإسلام بيع الحر وجعله إثما كبيرا ، قال رسول الله ــــ ﷺ ــــ :

ــــ قال الله ثلاثة أنا خصمُهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل

باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا ، فاستوفى منه ولم يعطه أجره .

يأمر الإسلام أن يعطى أجر الأجير قبل أن يجف عرقه ، ليسعد بالأجر ويستشعر أنه مكافأة عن العمل والجهد والعرق . وكان صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ تجارا وزراعا وصناعا ، فأبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد والعباس بن عبد المطلب كانوا يشتغلون بالتجارة ، وكان الزبير ابن العوام وسلمان الفارسى وكثير من الأنصار يشتغلون بالزراعة ، وكان خباب ابن الأرت حدادا ، وكان كثير من الرجال والنساء يشتغلون بالنجارة ، فقد بعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى امرأة من الأنصار أن مرى غلامك النجار يعمل لى أعوادا أجلس عليهن إذا كلمت الناس ، فعمل له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد النبى ـ ﷺ ـ على المنبر الذى صنع .

« لا ينظر الإسلام كالاشتراكية بعين الرضا إلى جمع الثروات دون مراعاة لصالح المجتمع لما لذلك من نتائج مزعجة تلحق بالجماعة ، ولكنه يتخذ لنفسه أسلوبا آخر ، ونظامه هو التدرج الاقتصادى الاجتماعى الذى لا يتجاهل خير المجموع .

قال تعالى : ﴿ والله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾(١) .

وهو يبيح للإنسان كسب المال وتملكه ، ولا يعتبر المشاريع الاقتصادية الفردية حراما ينبغى أن يتجنبه الناس ولكنها إذا ما اتخذت دورا عدوانيا يلحق الضرر بالجماعة أو يحرم أبناءها من وسيلة كسب العيش فإنه لا يوافق عليها ، وقد سد الإسلام الطريق فى وجه كل ما قد تتجه إليه التجارات والأعمال من تطورات ضارة .

---

(١) سورة الرعد ٢٦ .

وقد سمح الإسلام بالملكية الفردية من أجل تشجيع الابتكار الفردى وإنقاذ الفرد من أن يصبح مجرد آلة مسيرة، كما أعطاه الحق فى أن يتسع نشاطه المالى كما يشاء ما دام غير متجاوز الحدود التى تخل بالتوازن الاجتماعى . ومن أجل ضمان نمو التجارة والصناعة نموا صحيحا سليما وضع الإسلام قيودا لحرية النشاط الشخصى ، ذلك لما بين الملكية الخاصة والمصلحة العامة من علاقة حيوية تحتم ضرورة الاحتفاظ بالانسجام فيما بينهما »[١] .

« لن تستطيع الدولة المسلمة تحقيق الرسالة الإلٰهية التى ألقيت على عاتقها إلا إذا جرد أفرادها أنفسهم من الطمع والبخل وخلصوا عقولهم من الرغبة فى العدوان على بعضهم البعض . والآيات القرآنية تسد الطريق على هؤلاء الذين يكنزون المال ويستغلون الظروف لتحقيق الكسب وتضخيم الثروات بحيث يصبح خطرا على الجماعة ، كما نرى أمام أعيننا فى ظل الرأسمالية الفاسدة ، هذا النظام الذى أفسد نشاط الدولة لتحقيق مصالح الناس بشعاره المزيف « حرية العمل وحرية الانتقال » ، والذى يغرى الفرد بالتنافس لتحقيق الربح ولو أصبح جيرانه شحاذين .

ولقد لعن الإسلام كل نظام يقوم على المبدأ الهدام القائل « كل فرد لنفسه وليذهب الآخرون إلى الجحيم » . وحرم أساليب التنافس الخسيس الذى يشبه تنافس الكلاب على أكل بعضها البعض ، والإسلام لا يسمح بمثل هذا التنافس الاجتماعى الهدام لأن وجود فرد مفرط الغنى يعنى عبودية اقتصادية للكثيرين ، والكسب المفرط الزائد على حاجة الأفراد مزرعة خصبة ينمو فيها الصدام الطبقى . ولن تتحقق أخوة اجتماعية دائبة إذا فصلت بين الطبقات هوات

---

(١) الاشتراكية والإسلام — ميرزا محمد حسين .

اقتصادية عميقة ، بل سيكون هناك طائفة من السادة فى ناحية وطائفة من المستعبدين فى ناحية أخرى ، وحرصا من الإسلام على القضاء على هذه التفرقة التى تفضى إلى تحكم طبقة فى أخرى ، نهى عن الربح الجشع والتهوس فى طلب الثروة ، والآية الكريمة : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ﴾ . — سورة البقرة — مليئة بالدلالة فهى تؤيد أن ما خلقه الله من خير ملك للجماعة الإنسانية فى عمومها ، وليس لإنسان كائنا من كان أن يحتفظ لنفسه بنصيب الأسد من هذا الخير المشترك »(١) .

إن الثروة الزائدة أو « العفو » لا يصح أن تبقى فى يد مالكها بل عليه أن يتخلى عنها بطريقة تحقق الخير العام : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾(٢) . ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾(٣) .

والإسلام يعمل على إعادة توزيع الثروة تحقيقا للخير العام وذلك بفرض الزكاة على القادرين ، ثم حض الأغنياء على إنفاق فضول أموالهم لما فيه مصلحة الجميع : ﴿ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾(٤) .

ويروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » . قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل .

وقال د. د. سانتيلانا فى كتابه تراث الإسلام : « لكل إنسان الحق فى ملكية أى

---

(١) المصدر السابق . (٢) البقرة ٢١٩
(٣) الأعراف ١٩٩ (٤) البينة ٥

شيء لأن خيرات الدنيا قد خلقت من أجل نفع الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالى بإباحة الملكية قد وضع حدودا تبين لكل فرد نصيبه الذى منحه إياه من هذه الثروة المشتركة ، فوضع بذلك أساسا لتأمين النظام الاجتماعى . ومن الخطأ أن يظن الفرد أنه لا حدود لحق الملكية ، لأن تقرير هذا الحق والغاية التى من أجلها تقرر أن يكون له حدود يقف عندها . وقد منح الله خيرات الأرض للإنسان ليتمكن من الحياة ، أى ليستعملها استعمالا نافعا لا ليبعثرها هنا وهناك دون هدف خضوعا لنزوات تافهة ، ويعتبر القرآن والحديث الشريف استهلاك المال فى غير حاجة حقيقية استعمالا سيئا غير مباح . والتبذير نوع من الهوس فى نظر الإسلام الذى يصر على التوسط فى إنفاق المال لأن التوسط أمر يتفق مع طبيعة الأشياء ، ومع الغرض الذى من أجله أسبغ الله على الإنسان نعمه » .

والزكاة نقيض الربا ، فالربا جشع وطمع واستغلال وضرر بالخير العام ، بينا الزكاة سماحة وجود وإنفاق فى سبيل الخير العام استجابة لأمر الله صاحب المال : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات »(١) .

جعل الله الزكاة أساسا للدين وإحدى مبانى الإسلام وقرنها بالصلاة : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾(٢) . ﴿ وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾(٣) ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾(٤) ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ﴾(٥) ، ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾(٦) .

---

(١) البقرة ٢٧٦ (٢) البقرة ٤٣

(٣) البقرة ٨٣ (٤) البقرة ١١٠

(٥) البقرة ٢٧٧ (٦) النساء ١٦٢

وقال ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : « بنى الإسلام على خمس » : شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وشدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ . ومعنى الإنفاق فى سبيل الله إخراج حق الزكاة .

وقال أبو ذر : « انتهيت إلى رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآنى قال : هم الأخسرون ورب الكعبة . فقلت : ومن هم ؟ قال : الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم . ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت إليه أولاها حتى يقضى بين الناس .

ولا تجب[1] الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم ، ولا يشترط البلوغ بل تجب فى مال الصبى والمجنون . هذا شرط من عليه ، وأما المال فشروطه خمسة :

١ ـــ أن يكون نعما فلا زكاة إلا فى الإبل والبقر والغنم أما الخيل والبغال والحمير والمتوالد من بين الظباء والغنم فلا زكاة فيها ، وقد وضعت الزكاة عن الخيل لأنها عدة القتال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »[2] .

٢ ـــ سائمة ، فلا زكاة فى معلوفة ، وإذا أسيمت[3] فى وقت وعلفت فى وقت تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها .

٣ ـــ حال عليها الحول ، قال ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه

(١) كتاب أسرار الزكاة ، إحياء علوم الدين للغزالى .

(٢) الأنفال ٦٠

(٣) السوم : الرعى بالنفس . أسيمت : رعت بنفسها .

الحول ، ويستثنى من هذا نتاج المال فإنه ينسحب عليه حكم المال وتجب الزكاة فيه لأول الأصول ، ومهما باع المال فى أثناء الحول أو وهبه انقطع الحول » .

٤ — كمال الملك والتصرف : فتجب فى الماشية المرهونة لأن صاحبها هو الذى حجر على نفسه فى ملكيته ، ولا تجب فى الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع نمائه فتجب زكاة ما مضى عند عوده ، ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنيا به ، إذ الغنى ما يفضل عن الحاجة .

٥ — كمال النصاب : أما الإبل فلا شىء فيها حتى تبلغ خمسا ففيها جذعة من الضأن — والجذعة هى التى تكون فى السنة الثانية — أو ثنية من المعز — وهى التى تكون فى السنة الثانية — وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمس وعشرين بنت مخاض — وهى التى فى السنة الثانية ، فإن لم يكن فى ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر — وهو الذى فى السنة الثانية — يؤخذ وإن كان قادرا على شرائها . وفى ست وثلاثين : ابنة لبون ، ثم إذا بلغت ستا وأربعين ففيها حقة — وهى التى فى السنة الرابعة ، فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة — وهى التى فى السنة الخامسة ، فإذا صارت ستا وستين ففيها بنتا لبون — فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان ، فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون ، فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ففى كل خمسين حقة وفى كل أربعين بنت لبون .

أما البقر فلا شىء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع — وهو الذى فى السنة الثانية ، ثم فى أربعين مسنة — وهى التى فى السنة الثالثة ، ثم فى ستين تبيعان ، واستقر الحساب بعد ذلك ففى كل أربعين مسنة وفى كل ثلاثين تبيع .

وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز ، ثم لا شىء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان ، إلى مائتى شاة

وواحدة ففيها ثلاث شياه ، إلى أربعمائة ففيها أربع شياه ، ثم استقر الحساب فى كل مائة شاة .

وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد فى النصاب ، فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة ، وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة على جميعهم ، وخلطة الجوار كخلطة الشيوع ولكن يشترط أن يريحا معا ويسقيا معا ويحلبا معا ويسرحا معا ويكون المرعى معا ويكون إنزاء الفحل معا وأن يكونا جميعا من أهل الزكاة ، ولا حكم للخلطة مع الذمى والمكاتب .

ويجب العشر فى كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة مَنْ ، ولا شيء فيما دونها ولا فى الفواكه والقطن ، ولكن فى الحبوب التى تقتات وفى التمر والزبيب ، ويعتبر أن تكون ثمانمائة مَنّ تمرا أو زبيبا لا رطبا وعنبا ، ويخرج ذلك بعد التجفيف .

ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر فى خلطة الشيوع ، كالبستان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة مَنّ من زبيب ، فيجب على جميعهم ثمانون منًّا من زبيب بقدر حصصهم . ولا يعتبر خلطة الجوار فيه ، ولا يكمل نصاب الحنطة بالشعير ، ويكمل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه .

هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسيح أو قناة ، فإن كان يسقى بنضح (جمل السقيا) أو دالية (دلو) فيجب نصف العشر ، ذلك لأن الإسلام لا يحرم العمل من نصيبه ، فإن اجتمع السقاية بالمطر أو القنوات والسقاية بالدلاء أو جمال السقى فالأغلب يعتبر .

أما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية . ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة فى قطعها قبل تمام الإدراك ، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح فى الثمار وأن يشتد الحب ، ووقت الأداء بعد الجفاف .

وفرضت الزكاة على النقدين ، فإذا تم الحول على وزن مائتى درهم نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم وهو ربع العشر ، ولو زاد فبحسابه ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصا ففيها ربع العشر ، وما زاد فبحسابه وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة . وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . وتجب الزكاة فى التبر وفى الحلى المحظور كأوانى الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال ولا تجب فى الحلى المباح ، وتجب فى الدين الذى هو على ملىء ولكن تجب عند الاستيفاء ، وإن كان مؤجلا فلا تجب إلا عند حلول الأجل .

وفرضت الزكاة على التجارة ، وهى كزكاة النقدين وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقدين الذى بها اشترى البضاعة إن كان النقد نصابا ، فإن كان ناقصا أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء ، وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوم ، فإن كان ما به الشراء نقدا وكان نصابا كاملا كان التقديم به أولى من نقد البلد . ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشترى به شيئا ، ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة ، والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة ، وما كان من ربح فى السلعة فى آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولا كما فى النتاج . وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات .

وتجب الزكاة فى الركاز والمعادن ؛ والركاز مال دفن فى الجاهلية ووجد فى أرض لم يجر عليها فى الإسلام ملك . فعلى واجده فى الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر ، والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضا ، لأن إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغنيمة ، واعتباره أيضا ليس ببعيد لأن مصرفه مصرف الزكاة ، لذلك يخصص على الصحيح بالنقدين .

وأما المعادن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين، وعلى هذا يعتبر النصاب، وفى الحول قولان، وفى قول يجب الخمس، فعلى هذا لا يعتبر، وفى النصاب قولان، والأشبه والعلم عند الله تعالى أن يلحق فى قدر الواجب بزكاة التجارة فإنه نوع اكتساب، وفى الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق، ويعتبر النصاب كالمعشرات. والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ومن عين النقدين أيضا خروجا عن شبهة هذه الاختلافات، فإنها ظنون قريبة من التعارض، وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه.

وصدقة الفطر واجبة على لسان رسول الله ـــ ﷺ : « على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات »، بصاع رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو منوان وثلثا منّ يخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه. فإن اقتات بالحنطة لم يجز الشعير، وإن اقتات حبوبا مختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجزأه. وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف، ولا يجوز إخراج الدقيق والسويق.

ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده وكل قريب هو فى نفقته، أعنى من تجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد، قال ـــ ﷺ : « أدوا صدقة الفطر عمن تمونون ». وتجب صدقة العبد المشترك على الشريكين ولا تجب صدقة العبد الكافر. وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجزأها، وللزوج الإخراج عنها دون إذنها، وإن فضل عنه ما يؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم.

ولأداء الزكاة شروط باطنة وظاهرة، فيجب على مؤدى الزكاة مراعاة خمسة أمور :

١ ــ النية ، وهو أن ينوى بقلبه زكاة الفرض ، ويسن عليه تعيين الأموال . فإن كان له مال غائب فقال هذا عن مالى الغائب إن كان سالما وإلا فهو نافلة جاز ، لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه . ونية الولى تقوم مقام نية المجنون والصبى ، ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة ، ولكن فى ظاهر حكم الدنيا أعنى قطع المطالبة عنه ، أما فى الآخرة فلا ، بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة .

وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه ، لأن توكيله بالنية نية .

٢ ــ البدار عقيب الحول ، وفى زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر ، ويدخل يوم وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان ، ووقت تعجيلها وقت رمضان كله . ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق ، وإن أخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه .

وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانعقاد الحول ، ويجوز تعجيل زكاة حولين . ومهما عجل فمات المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنيا بغير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات فالمدفوع ليس بزكاة واسترجاعه غير ممكن ، إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع ، فليكن المعجل مراقبا آخر الأمور وسلامة العافية .

٣ ــ ألا يخرج بدلا باعتبار القيمة ، بل يخرج المنصوص عليه ، فلا يجزئ ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه فى القيمة . ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعى رضى الله عنه يتساهل فى ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبعده عن التحصيل ، فإن سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود ، بل

واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه ، وذلك كرمي الجمرات مثلا إذ لا حظ للجمرة فى وصول الحصى إليها ، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى ، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمعنى آخر ، وأكثر أعمال الحج كذلك ، ولذلك قال ـــ ﷺ ـــ فى إحرامه : لبيك بحجة حقا ، تعبدا ورقا . تنبيها على أن ذلك إظهار للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتثاله ، كما أمر من غير استئناس العقل بما يميل إليه ويحث عليه .

القسم الثانى : من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول وليس يقصد منه التعبد ، كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب ، فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته ، ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو ببدل عنه عند رضاه تأدى للوجوب وسقط خطاب الشرع ، فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك فى دركهما جميع الناس .

والقسم الثالث : هو المركب الذى يقصد منه الأمران جميعا ، وهو حظ العباد والامتحان المكلف بالاستعباد . فيجتمع فيه تعبد رمى الجمار وحظ رد الحقوق ، فهذا قسم فى نفسه معقول ، فإن ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ، ولا ينبغى أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلاهما ، ولعل الأدق هو الأهم ؛ والزكاة من هذا القبيل . ولم ينتبه له غير الشافعى رضى الله عنه ، فحظ الفقير مقصود فى سد الخلة وهو جلى سابق إلى الأفهام ، وحق التعبد فى اتباع التفاصيل مقصود للشرع وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج فى كونها من مبادئ الإسلام . ولا شك فى أن على المكلف تعبا فى تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته ، ثم

توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتى ، والتساهل فيه غير قادح فى حظ الفقير ولكنه قادح فى التعبد ، ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أن الشرع أوجب فى خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النقدين والتقويم ، وإن قدر أن ذلك لقلة النقد فى أيدى العرب بطل بذكره عشرين درهما فى الجبران مع الشاتين ، فلمَ لم يذكر فى الجبران قدر النقصان من القيمة ؟ ولِمَ قدر بعشرين درهما وشاتين ، وإن كانت الثياب والأمتعة كلها فى معناها ؟ فهذا وأمثاله من التخصيصات تدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما فى الحج ، ولكن جمع بين المعنيين ، والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه .

الرابع : ألا ينقل الصدقة إلى بلد آخر ، فإن أعين المساكين فى كل بلدة تمتد إلى أموالها وفى النقل تخييب للظنون ، فإن فعل ذلك أجزأه فى قول ، ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى ؛ فليخرج زكاة كل مال فى تلك البلدة ، ثم لا بأس أن يصرف على الغرباء فى تلك البلدة .

الخامس : أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين فى بلده ، فإن استيعاب الأصناف واجب ، وعليه يدل ظاهر قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾(١) . فإنه يشبه قول المريض إنما ثلث للفقراء والمساكين وذلك يقتضى التشريك فى التمليك ، والعبادات ينبغى أن يتوقى عن الهجوم فيها على الظواهر ، وقد عدم من الثمانية صنفان فى أغلب البلاد وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة ، ويوجد فى جميع البلاد أربعة أصناف :

---

(١) التوبة ٦٠ .

الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون — أعنى أبناء السبيل ، وصنفان يوجدان فى بعض البلاد دون البعض وهم الغزاة والمكاتبون ، فإن وجد خمسة أصناف مثلا قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسما ، ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فما فوقه إما متساوية أو متقاربة ، وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد ، وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان ، فلا ينبغى أن ينقص فى كل صنف عن ثلاثة إن وجد ثَمَّ أو لم يجب إلا صاع للفطرة ، ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفرا ، ولو نقص منهم واحد مع الإمكان غرم نصيب ذلك الواحد ، فإن عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتساهموا فيه ، فإن ذلك لا بد منه .

ولبيان دقائق الآداب الباطنة فى الزكاة اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف :

الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها وجه الامتحان فيها وأنها لمَ جعلت من مبادئ الإسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان ، وفيه ثلاثة معان : الأول أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ، وشرط تمام الوفاء به ألا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فإن المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقته المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾(١) وذلك بالجهاد وهو مساحة بالمهجة شوقا إلى لقاء الله عز وجل ، والمسامحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى فى بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدخروا دينارا ولا درهما فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا البذل ، ولهذا تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضى الله عنه بشطر ماله ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال : مثله ، وقال لأبى بكر رضى الله عنه : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : الله ورسوله . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بينكما ما بين كلمتيكما ، فالصديق وفّى بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده ، وهو الله ورسوله .

القسم الثانى : درجتهم دون درجة هذا ، وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم فى الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر ، مهما ظهر وجودها .

وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة ، وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعى والشعبى وعطاء ومجاهد . قال الشعبى بعد أن قيل له : هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم ، أما سمعت قوله عز وجل : ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى ﴾(٢) . واستدلوا بقوله عز وجل : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٣) . وبقوله تعالى : ﴿ أنفقوا مما رزقناكم ﴾(٤) . وزعموا أن

---

(١) التوبة ١١١ (٢) البقرة ١٧٧

(٣) البقرة ٣ المنافقون ١٠

ذلك غير منسوخ بآية الزكاة ، بل هو داخل فى حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجا أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة ، والذى يصح فى الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية ، إذ لا يجوز تضييع مسلم ، ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا بتسليم ما يزيل الحاجة قرضا ، ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتمل أن يقال يلزمه بذله فى الحال ولا يجوز له الاقتراض ، أى لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف . والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهى درجة القسم الثالث : الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهى أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة ؛ قال تعالى : ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾[1] . يحفكم أى يستقصى عليكم ، فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة ، وبين عبد لا يستقصى عليه لبخله ، فهذا أحد معانى أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال .

المعنى الثانى : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات ، قال ـــ ﷺ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » . وقال تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولٰئك هم المفلحون ﴾[1] . وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال ، فحب الشىء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا ، فالزكاة بهذا المعنى طهرة ، أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك ، وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى .

---

(١) محمد ٣٧ (٢) الحشر ٩

المعنى الثالث : شكر النعمة فإن لله عز وجل على عبده نعمة فى نفسه وفى ماله ، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن ، والمالية شكر لنعمة المال ، وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه ، بربع العشر أو العشر من ماله .

الوظيفة الثانية : فى وقت الأداء ، ومن آداب ذوى الدين التعجيل عن وقت الوجوب إظهارا للرغبة فى الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات ، وعلما بأن فى التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب . ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغى أن يغتنم ، وليعين لزكاتها إن كان يؤديها جميعا شهرا معلوما ، وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لنماء قربته وتضاعف زكاته ، وذلك كشهر المحرم فإنه أول السنة وهو من الأشهر الحرم ، أو رمضان فقد كان ـ ﷺ ـ أجود الخلق وكان فى رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئا ، ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن ، وكان مجاهد يقول : لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان . وذو الحجة أيضا من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام وفيه الحج الأكبر ، وفيه الأيام المعلومات وهى العشر الأول ، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق . وأفضل أيام رمضان العشر الأواخر ، وأفضل أيام ذى الحجة العشر الأول .

الوظيفة الثالثة : الإسرار ، فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة ، قال ـ ﷺ : أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير معسر . وقال بعض العلماء : ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة ، وقد روى أيضا مسندا .

وقال ـ ﷺ : « إن العبد ليعمل عملا فى السر فيكتبه الله له سرا ، فإن أظهره

نقل من السر وكتب فى العلانية ، فإن تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء » وفى الحديث المشهور : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه ، وفى الخبر : « صدقة السر تطفئ غضب الرب » . وقال تعالى : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾(١) . وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة ، فقد قال ـ ﷺ : « لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان » . والمتحدث بصدقته يطلب السمعة ، والمعطى فى ملأ من الناس يبغى الرياء ، والإخفاء والسكوت هو المخلص منه ، وقد بالغ فى فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى ، فكان بعضهم يلقيه فى يد أعمى ، وبعضهم يلقيه فى طريق الفقير وفى موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى ، وبعضهم كان يصره فى ثوب الفقير وهو نائم ، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه . كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازا من الرياء والسمعة ، ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى ، إذ فى معرفة المسكين الرياء والمنة جميعا وليس فى معرفة المتوسط إلا الرياء .

ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله ، لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال ، وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال ، وكل واحد منهما مهلك فى الآخرة .

الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن فى إظهاره ترغيبا للناس فى الاقتداء ، ويحرس سره من داعية الرياء . فقد قال الله عز وجل : « إن تبدوا الصدقات فنعما

---

(١) البقرة ٢٧١

هى »(١) . وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس ، فلا ينبغى أن يترك التصدق خيفة من الرياء فى الإظهار ، بل ينبغى أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان . وهذا لأن فى الإظهار محذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بأن يرى فى صورة المحتاج . فمن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى فى إظهاره ، وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محظور ، والتجسس فيه والاعتياد بذكره منهى عنه ، فأما من أظهره فإقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها ، وبمثل هذا المعنى قال — ﷺ — : « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾(٢) . ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب ، فليكن العبد دقيق التأمل فى وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه ، فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فقد يكون الإعلان فى بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل ، ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

الوظيفة الخامسة : ألا يفسد صدقته بالمن والأذى . قال الله تعالى : ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾(٣) . واختلفوا فى حقيقة المن والأذى فقيل : المن أن يذكرها ، والأذى أن يظهرها ، وقال سفيان : من منّ فسدت صدقته ، فقيل له : كيف المن ؟ قال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل المن أن يستخدمه بالعطاء ، والأذى أن يعيره بالفقر ، وقيل : المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة ، وقد قال — ﷺ — : « لا يقبل الله صدقة منان » .

---

(١) البقرة ٢٧١ (٢) الرعد ٢٢

(٣) البقرة ٢٦٤

وعندى أن المنّ له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته ، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح ، فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعما عليه . وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار ، وأنه لو لم يقبله لبقى مرتهنا به ؛ فحقه أن يتقلد منه الفقير إذ جعل كفه نائبا عن الله عز وجل فى قبض حق الله عز وجل . قال رسول الله ـــ ﷺ : « إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل » . فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه ، والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل . ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفها وجهلا ، فإن المحسن إليه متكفل برزقه ، أما هو فإنما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه ، فهو ساع فى حق نفسه ، فلم يمن به على غيره ؟! ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا فى نفسه ، إما ببذل ماله إظهارا لحب الله تعالى ، أو تطهير النفسه عن رذيلة البخل ، أو شكرا على نعمة المال طلبا للمزيد ، وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه ، مهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه تفرع منه على ظاهره ما ذكر فى معنى المن ، وهو التحدث به وإظهاره ، وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم فى المجالس والمتابعة فى الأمور ، فهذه كلها ثمرات المنة ، ومعنى المنة فى الباطن ما ذكرناه .

أما الأذى فظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك السر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه وهو منبعه أمران : أحدهما كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه ، فإن ذلك يضيق الخلق لا محالة ، والثانى رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشأ

الجهل . أما كراهيته تسليم المال فهو حمق ، لأن من كره بذل درهم فى مقابلة ما يساوى ألفا فهو شديد الحمق ، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب فى الدار الآخرة وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكرا الطلب المزيد ، وكيفما فرض فالكراهية لا وجه لها . وأما الثانى فهو أيضا جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته ، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام ، ولذلك قال — ﷺ : « هم الأخسرون ورب الكعبة . فقال أبو ذر : من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا » . ثم كيف يستحقر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له ، إذ يكتسب المال بجهده ويستكثر منه ويجتهد فى حفظه بمقدار الحاجة . وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذى يضره لو سلم إليه . فالغنى مستخدم للسعى فى رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فإذن مهما انتقلت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له فى أداء الواجب وتقبيضه الفقير حتى يخلصه عن عهدته بقبوله منه انتفى الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه ، وتبدل بالاستبشار والثناء والقبول والمنة .

فهذا منشأ المن والأذى ، فإن قلت فرؤيته نفسه فى درجة المحسن أمر غامض ، فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا ؟ فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة ، وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالا عدوا له عليه مثلا ، هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق ؟ فإن زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنة ، لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك .

فإن قلت فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه ؟ فاعلم أن له دواء باطنا ودواء ظاهرا . أما الباطن فالمعرفة بالحقائق التى ذكرناها فى فهم

الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه فى تطهيره بالقبول ، وأما الظاهر فالأعمال التى يتعاطاها متقلد المنة ، فإن الأفعال التى تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق .

ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدى الفقير ويتمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية رده ، وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هى العليا . وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعو به . ثم كانتا تردان عليه مثل قوله وتقولان : هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء بمثله . وهذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة . ومن حيث الباطن المعارف التى ذكرناها ، هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم ، ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل ، وهذه الشريطة من الزكوات تجرى مجرى الخشوع من الصلاة . وثبت ذلك بقوله — ﷺ : « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها » . وهذا كقوله — ﷺ : « لا يقبل الله صدقة منان » . وكقوله عز وجل : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى »[١] .

الوظيفة السادسة : أن يستصغر العطية ، فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال . قال تعالى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ﴾[٢] . ويقال إن الطاعة كلما استصغرت

---

(١) البقرة ٢٦٤ التوبة ٢٥

عظمت عند الله عز وجل ، والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل : لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره ، وتعجيله ، وستره .

وليس الاستعظام هو المن والأذى فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى ، بل العجب والاستعظام يجرى فى جميع العبادات ودواؤه علم وعمل . أما العلم فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير ، وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل كما ذكرنا فى فهم الوجوب ، فهو جدير بأن يستحى منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله ، فلم يستعظم فى حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه ، وإن كان مقامه يقتضى أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه ؟! وأما العمل فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كله لله عز وجل ، وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه ، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال عز وجل : فيحفكم تبخلوا .

الوظيفة السابعة : أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه ، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإذا كان المخرج من شبهة فربما لا يكون ملكا له مطلقا فلا يقع الموقع ، وفى حديث إبان عن أنس بن مالك : « طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية » . وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره . ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام فى بيته لأوغر بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل . وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه فى الآخرة فليس بعاقل من

يؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقي أو أكل فأفنى ، والذى يأكله قضاء وطر فى الحال ، فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾(١) ، أى لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض ، فلا تؤثروا به ربكم .

وفى الخبر : « سبق درهم مائة ألف درهم » . وذلك بأن يخرجه الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل ، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشىء مما يحبه ، وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا لله ما يكرهون . فقال تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار »(٢) .

الوظيفة الثامنة : أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة ، ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن فى عمومهم خصوص صفات ، فليراع خصوص تلك الصفات وهى ستة :

الأولى : أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة ، قال ـــ ﷺ : « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » . وهذا لأن التقى يستعين به على التقوى فتكون شريكا له فى طاعته بإعانتك إياه . وقال ـــ ﷺ : ﴿ أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين ﴾ . وفى لفظ آخر : « أضف إلى طعامك من تحبه فى الله تعالى » . وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له : « لو عممت بمعروفك جميع الفقراء

---

(١) البقرة ٢٦٧ (٢) النحل ٦٢

فقال : « لا ، هؤلاء قوم هممهم لله سبحانه فإذا طرقتهم فاقة تشتت هم أحدهم ، فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلىّ من أن أعطى ألفا ممن همته الدنيا » . فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه وقال : « هذا ولى من أولياء الله تعالى » وقال : « ما سمعت منذ زمان كلاما أحسن من هذا » . ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال : « اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت ، فإن التجارة لا تضر مثلك » . وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه .

الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة ، فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية ، وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له : « لو عممت » ، فقال : « إنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء ، فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم ، فتفريغهم للعلم أفضل .

الصفة الثالثة : أن يكون صادقا فى تقواه وعلمه بالتوحيد ، وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطته ، فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه ، وفى وصية لقمان لابنه : « لا تجعل بينك وبين الله منعما ، واعدد نعمة غيره عليك مغرما ، ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ، ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل ، إذا سلط الله تعالى عليه دواعى الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل فى قلبه أن صلاح دينه ودنياه فى فعله ، فمهما قوى الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ، ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذى لا تردد فيه ، والله عز وجل خالق للبواعث ومهيجها ومزيل للضعف والتردد عنها

ومسخر القدر للانتهاض بمقتضى البواعث ، فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب .

وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطى من ثناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل فى الأكثر جدواه ، وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تضيع ، وأما الذى يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة . وقد روى أنه — ﷺ — بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول : « احفظ ما يقول » . فلما أخذ قال : « الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ، ولا يضيع من شكره » ، ثم قال : « اللهم إنك لم تنس فلانا — يعنى نفسه — فاجعل فلانا لا ينساك » . يعنى بفلان نفسه ، فأخبر رسول الله — ﷺ — بذلك فسر ، وقال — ﷺ — : « علمت أنه يقول ذلك » . فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده .

وقال — ﷺ — لرجل : « تب » . فقال : « أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد » . فقال — ﷺ — : « عرف الحق لأهله » ، ولما نزلت براءة عائشة رضى الله عنها فى قصة الإفك قال أبو بكر رضى الله عنه : « قومى فقبلى رأس رسول الله — ﷺ — » . فقالت : « لا والله لا أفعل ولا أحمد إلا الله » . فقال — ﷺ — : « دعها يا أبا بكر » ، وفى لفظ آخر أنها رضى الله عنها قالت لأبى بكر رضى الله عنه : « بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » . فلم ينكر رسول الله — ﷺ — عليها ذلك ، مع أن الوحى وصل إليها على لسان رسول الله — ﷺ — .

ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين ، قال الله تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه

إذا هم يستبشرون »[١] . ومن لم يصفُ باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث أنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشر الخفى سره ، فليتق الله سبحانه فى تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه .

الصفة الرابعة : أن يكون مستقرا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى ، أو أن يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته ، فهو يتعيش فى جلباب التجمل . قال الله تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا »[٢] أى لا يلحون فى السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم ، أعزة بصبرهم ، وهذا ينبغى أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين فى كل محله ، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل ، فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال .

الصفة الخامسة : أن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو سبب من الأسباب ، فيوجد فيه معنى قوله عز وجل : « الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله »[٣] ، أى حبسوا فى طريق الآخرة بعلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب : « لا يستطيعون ضربا فى الأرض »[٤] لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف ، فبهذه الأسباب كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها ، وكان ـ ﷺ ـ يعطى العطاء على مقدار العيلة . وسئل عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال : « كثرة العيال وقلة المال » .

الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم ، وفى صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى . قال على رضى الله عنه :

(١) الزمر ٤٥ (٢) البقرة ٢٧٣

(٣) البقرة ٢٧٣ (٤) البقرة ٢٧٣

«لأن أصل أخا من إخوانى بدرهم أحب إلىّ من أن أتصدق بعشرين درهما، ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلىّ من أن أعتق رقبة» .

والأصدقاء وإخوان الخير أيضا يتقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب ، فليراع هذه الدقائق فهذه هى الصفات المطلوبة ، وفى كل صفة درجات فينبغى أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهى الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى ، ومهما اجتهد فى ذلك وأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ، فإنّ أحدَ أجريه فى الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل ، وتأكيد حب الله عز وجل فى قلبه واجتهاده فى طاعته ، وهذه الصفات هى التى تقوى فى قلبه فتشوقه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثانى ما يعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته ، فإن قلوب الأبرار لها آثار فى الحال والمآل ، فإن أصاب حصل الأجران ، وإن أخطأ حصل الأول دون الثانى ، فبهذا يضاعف أجر المصيب فى الاجتهاد ههنا وفى سائر المواضع والله أعلم .

وقال الغزالى فى القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضته : اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا حر مسلم ليس بهاشمى ولا مطلبى ، اتصف صفة الأصناف الثمانية[1] المذكورين فى كتاب الله عز وجل ، ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمى ولا إلى مطلبى . أما الصبى والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما ، فلتذكر صفات الأصناف الثمانية :

الصنف الأول : الفقراء . والفقير هو الذى ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين ،

---

(١) «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل» .

وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير ، وإن كان معه قميص وليس معه منديل ولا خف ولا سروال ولم تكن قيمة القميص بحيث تفى بجميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير ، لأنه فى المال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه ، فلا ينبغى أن يشترط فى الفقير أن لا يكون له كسوة سوى ساتر العورة فإن هذا غلو ، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرجه عن الفقر كونه معتادا للسؤال ، فلا يجعل السؤال كسبا بخلاف ما لو قدر على كسب فإن ذلك يخرجه عن الفقر ، فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشترى له آلة ، وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير ، وإن كان متفقها ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته ، وإن كان متعبدا يمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب ، لأن الكسب أولى من ذلك . قال ﷺ : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » . وأراد به السعى فى الاكتساب . وقال عمر رضى الله عنه : « كسب فى شبهة خير من مسألة » . وإن كان مكتفيا بنفقة أبيه أو تجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب ، فليس بفقير .

الصنف الثانى : المساكين . والمسكين هو الذى لا يفى دخله بخرجه ، فقد يملك ألف درهم وهو مسكين ، وقد لا يملك إلا فأسا وحبلا وهو غنى . والدويرة التى يسكنها والثوب الذى يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين ، وكذا أثاث البيت أعنى ما يحتاج إليه وذلك ما يليق به ، وكذا كتب الفقه لا تخرجه عن المسكنة ، وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه بالكتاب ، فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض ، التعليم والاستفادة والتفرج بالمطالعة ، أما حاجة التفرج فلا تعتبر كاقتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع فى الآخرة ولا يجرى إلا مجرى التفرج والاستئناس ، فهذا يباع فى الكفارة وزكاة الفطر وتمنع اسم المسكنة ، وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم

والمدرس بأجرة فهذه آلته فلا تباع فى الفطرة كأدوات الخياط وسائر المحترفين ، وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة . وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخار كتب طب ليعالج بها نفسه ، أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به ، فإن كان فى البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه ، وإن لم يكن فهو محتاج إليه ، ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة ، فينبغى أن يضبط مدة الحاجة ، والأقرب أن يقال ما لا يحتاج إليه فى السنة فهو مستغنى عنه ، فإن من فضل من قوت يومه شىء لزمته الفطرة ، فإذا قدرنا القوت باليوم فحاجة أثاث البيت وثياب البدن ينبغى أن تقدر بالسنة ، فلا تباع ثياب الصيف فى الشتاء ، والكتب بالثياب والأثاث أشبه ، وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداهما ، فإن قال : إحداهما أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما . قلنا : اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفه ، وإن كان نسختان من علم واحد إحداهما بسيطة والأخرى وجيزة ، فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيط ، وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ فى كل واحدة فائدة ليست فى الأخرى ، وأمثال هذه الصور لا تنحصر ولم يتعرض له فى فن الفقه ، وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبيه بحسن هذا النظر على غيره ، فإن استقصاء هذه الصور غير ممكن ، إذ يتعدى مثل هذا النظر فى أثاث البيت فى مقدارها وعددها ونوعها ، وفى ثياب البدن وفى الدار وسعتها وضيقها ، وليس لهذه الأمور حدود محدودة ، ولكن الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب فى التحديدات بما يراه ويقتحم به فيه خطر الشبهات ، والمتورع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، والدرجات المتوسطة المشكلة بين الأطراف المتقاربة الجلية كثيرة ولا ينجى منها إلا الاحتياط والله أعلم .

الصنف الثالث : العاملون . وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى

الخليفة والقاضى ، ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوفى والحافظ والنقال . ولا يزاد واحد منهم على أجرة المثل ، فإن فضل شىء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف ، وإن نقص كمل من مال المصالح .

الصنف الرابع : المؤلفة قلوبهم على الإسلام . وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون فى قومهم ، وفى إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترغيب نظائرهم وأتباعهم .

الصنف الخامس : المكاتبون . فيدفع إلى السيد سهم المكاتب ، وإن دفع إلى المكاتب جاز ؛ ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعد عبدا له .

الصنف السادس : الغارمون . والغارم هو الذى استقرض فى طاعة أو مباح وهو فقير ، فإن استقرض فى معصية فلا يعطى إلا إذا تاب ، وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنة .

الصنف السابع : الغزاة . الذين ليس لهم مرسوم فى ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء ، إعانة لهم على الغزو .

الصنف الثامن : ابن السبيل . وهو الذى شخص من بلده ليسافر فى غير معصية أو اجتاز بها ، فيعطى إن كان فقيرا وإن كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته . فإن قلت فيم تعرف هذه الصفات ؟ قلنا أما الفقر والمسكنة فيقول الآخذ ولا يطالب ببينة ولا بحلف ، بل يجوز اعتماد قوله إذا لم يعلم كذبه ، وأما الغزو والسفر فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله إنى غاز ، فإن لم يف به استرد ، أما بقية الأصناف فلا بد فيها من البينة ، فهذه شروط الاستحقاق وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فسيأتى .

وتكلم الغزالى عن وظائف القابض وهى خمس :

١ ـــ أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكفى همه ويجعل

همومه هما واحدا ، فقد تعبد الله عز وجل الخلق بأن يكون همهم واحدا وهو الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر ، وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾(١) .

٢ ـــ أن يشكر المعطى ويدعو له ويثنى عليه ، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من جعله الله طريقا وواسطة وذلك لا ينافى رؤية النعمة من الله سبحانه وتعالى ، فقد قال ـــ ﷺ : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

٣ ـــ أن ينظر فيما يأخذه ، فإن لم يكن من حل تورع عنه ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال .

٤ ـــ أن يتوقى مواقع الريب والاشتباه فى مقدار ما يأخذه ، فلا يأخذ إلا المقدار المباح ، ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق . فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين ، وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل ، وإن أعطى زيادة أبى وامتنع إذ ليس المال للمعطى حتى يتبرع به ، وإن كان مسافرا لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده ، وإن كان غازيا لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو وخاصة من خيل وسلاح ونفقة وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حد ، وكذا زاد السفر ، والورع ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه . وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أولا إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه هل فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته فيمكنه أن يبدله بما يكفى ويفضل بعض قيمته وكل ذلك إلى اجتهاده ، وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق ، وطرف آخر مقابل

---

(١) الذاريات ٥٦

يتحقق معه أنه غير مستحق ، وبينهما أوساط مشتبهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والاعتماد فى هذا على قول الآخذ ظاهرا ، وللمحتاج فى تقدير الحاجات مقامات فى التضييق والتوسيع ولا تنحصر مراتبه . وميل الورع إلى التضييق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسع وهو ممقوت فى الشرع ، ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيرا بل ما يتمم كفايته من وقت أخذه إلى سنة ، فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل ، ومن حيث إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ادخر لعياله قوت سنة ، فهذا أقرب ما يحد به حد الفقير والمسكين ، ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى ، ومذاهب العلماء فى قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة ، فمن مبالغ فى التقليل إلى حد أوجب الاقتصار على قدر قوت يومه وليلته ، وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية أنه — صلى الله عليه وسلم — نهى عن السؤال مع الغنى ، فسئل من غناه فقال — صلى الله عليه وسلم — : « غداؤه وعشاؤه » .

وقال آخرون يأخذ إلى حد الغنى وحد الغنى نصاب الزكاة ، إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا : له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الغنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ، لما روى ابن مسعود من أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : من سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفى وجهه خموش . فسئل : وما غناه ؟ قال : خمسون درهما أو قيمتها من الذهب . وقيل راوية ليس بقوى . وقال قوم : أربعون . ولما رواه عطاء بن يسار منقطعا أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : « من سأل وله أوقية فقد ألحف فى السؤال » . وبالغ آخرون فى التوسيع فقالوا : له أن يأخذ مقدار ما يشترى به ضيعة فيستغنى به طول عمره ، أو يهيئ بضاعة ليتجر بها ويستغنى بها طول عمره ، لأن هذا هو الغنى . وقد قال عمر رضى الله عنه : « إذا أعطيتم فأغنوا » . حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ

بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم ، إلا إذا خرج عن حد الاعتدال . ولما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة . قال ـــ ﷺ : « اجعله فى قرابتك فهو خير لك » . فأعطاه حسان وأبا قتادة ، فحائط من نخل لرجلين كثير مغن . وأعطى عمر رضى الله عنه أعرابيا ناقة معها ظئر لها . فهذا ما حكى فيه .

فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد فى كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر ، بل التجويز إلى أن يشترى ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضا مائل إلى الإسراف والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة ، فما وراءه فيه خطر ، وفيما دونه فيه تضييق ، وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له ، ثم يقال للورع : استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، كما قاله ـــ ﷺ ـــ إذ الإثم حزاز القلوب ، فإذا وجد القابض فى نفسه شيئا مما يأخذ فليتق الله فيه ولا يترخص تعللا بالفتوى من علماء الظاهر ، فإذا الفتواهم قيود و مطلقات من الضرورات ، وفيها تخمينات واقتحام شبهات ، والتوقى من الشبهات من شيم قوى الدين وعادات سالكى طريق الآخرة .

الخامسة : أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه ، فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه ، فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن ، فلينقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه . وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق ، فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما لجهل وإما لتساهل ، وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم .

وقال الغزالى فى بيان فضيلة صدقة التطوع وآداب أخذها وإعطائها : (من الأخبار) قوله ـــ ﷺ : « تصدقوا ولو بتمرة ، فإنها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة

كما يطفئ الماء النار » . وقال — صلى الله عليه وسلم — : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فكلمة طيبة » . وقال — صلى الله عليه وسلم — : « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا إلا كان الله آخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فسيلة حتى تبلغ التمرة مثل أحد » . وقال — صلى الله عليه وسلم — لأبى الدرداء : « إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف » . وقال — صلى الله عليه وسلم — : « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته » . وقال — صلى الله عليه وسلم — : « كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » . وقال — صلى الله عليه وسلم — : « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر » . وقال — صلى الله عليه وسلم — : « صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل » وقال — صلى الله عليه وسلم — : « ما الذى أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة » ولعل المراد به الذى يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين ، فيكون مساويا للمعطى الذى يقصد بإعطائه عمارة دينه .

وسئل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » . وقد قال — صلى الله عليه وسلم — يوما لأصحابه : « تصدقوا » . فقال رجل : « إن عندى دينارا » . قال : « أنفقه على نفسك » . فقال : « إن عندى آخر » . قال : « أنفقه على زوجتك » . قال : « إن عندى آخر » . قال : « أنفقه على خادمك » . قال : « إن عندى آخر » . قال : « أنت أبصر به » .

وقال — صلى الله عليه وسلم — : « لا تحل الصدقة لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » . وقال : « ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » . وقال — صلى الله عليه وسلم — : « لو صدق السائل ما أفلح من رده » . وقال عيسى عليه السلام : « من رد سائلا خائبا من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام » . وكان نبينا — صلى الله عليه وسلم — لا يكل

خصلتين إلى غيره : كان يضع طهوره بالليل ويخمره ، وكان يناول المسكين بيده ، وقال ـ ﷺ : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، إنما المسكين المتعفف . اقرءوا إن شئتم : « لا يسألون الناس إلحافا » . وقال ـ ﷺ : « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله عز وجل ما دامت عليه منه رقعة » .

الإيثار) : قال عروة بن الزبير : « لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفا وإن درعها لمرقع » . وقال مجاهد : قوله عز وجل : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا »[1] . فقال : وهم يشتهونه . وكان عمر يقول : « اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على ذوى الحاجات منا » . وقال عمر ابن عبد العزيز : « الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه » . وقال ابن مسعود : « إن رجلا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط أعمله ، ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة » . وقال لقمان لابنه : « إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة . وقال يحيى بن معاذ : « ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة » . وقال عبد العزيز بن أبى رواد : « كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة : كتمان المرض ، وكتمان الصدقة ، وكتمان المصائب » . وقال عمر بن الخطاب : « إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة : أنا أفضلكن » .

وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول : « سمعت الله يقول : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . والله يعلم أنى أحب السكر » . وقال النخعى : « إذا كان الشيء لله عز وجل لا يسرنى أن يكون فيه عيب » . وقال عبيد الله ابن عمير :

---

(١) الإنسان ٨

« يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، فمن أطعم لله عز وجل أشبعه الله ، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ، ومن كسا لله عز وجل كساه الله » . وقال الحسن : « لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقراء فيكم ، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض » . وقال الشعبى : « من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته ، فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه » وقال مالك : « لا نرى بأسا بشرب الموسر من الماء الذى يتصدق به ويسقى فى المسجد ، لأنه إنما جعل للعطشان من كان ، لم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص » . ويقال إن الحسن مر به نخاس ومعه جارية فقال النخاس : « أترضى ثمنها الدرهم والدرهمين . قال : لا . قال : فاذهب فإن الله رضى فى الحور العين بالفلس واللقمة » .

وقال الغزالى فى بيان إخفاء الصدقة وإظهارها : قد اختلف طريق طلاب الإخلاص فى ذلك ، فمال قوم إلى أن الإخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل ، ونحن نشير إلى ما فى كل واحد من المعانى والآفات ، ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه .

أما الإخفاء ففيه خمسة معان :

الأول : أنه أبقى للستر على الآخذ ، فإن أخذه ظاهرا هتك لستر المروءة ، وكشف عن الحاجة ، وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذى يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف .

الثانى : أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم ، فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ، ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء ، أو ينسبونه إلى أخذ زيادة . والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى . وقال أبو أيوب السختيانى : « إنى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث فى جيرانى

حسدا » . وقال بعض الزهاد : « ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخوانى يقولون : من أين له هذا ؟ » . وعن إبراهيم التيمى أنه رؤى عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه : « من أين لك هذا ؟ فقال : كسانيه أخى خيثمة ، ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته » .

الثالث : إعانة المعطى على أسرار العمل ، فإنه فضل السر على الجهر فى الإعطاء أكثر ، والإعانة على إتمام المعروف معروف ، والكتمان لا يتم إلا باثنين فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى ، ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئا ظاهرا فرده إليه ، ودفع إليه آخر شيئا فى السر فقبله ، فقيل له فى ذلك فقال : إن هذا عمل بالأدب فى خفاء معروفه فقبلته ، وذاك أساء أدبه فى عمله فرددته عليه » . وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئا فى الملأ فرده ، فقال له : « لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك ؟ فقال : « إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ، ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك » . وقبل بعض العارفين فى السر شيئا كان رده فى العلانية فقيل له فى ذلك فقال : « عصيت الله بالجهر فلم أك عونا لك على المعصية ، وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك » . وقال الثورى : « لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلت صدقته » .

الرابع : أن فى إظهار الأخذ ذلا وامتهانا ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ فى السر ولا يأخذ فى العلانية ويقول : « إن فى إظهاره إذلالا للعلم وامتهانا لأهله ، فما كنت بالذى أرفع شيئا من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله » .

الخامس : الاحتراز عن شبهة الشركة . قال — صلى الله عليه وسلم — : « أفضل ما أهدى الرجل إلى أخيه ورِقا وبأن يكون ورقا أو ذهبا لا يخرج عن كونه هدية . وقال — صلى الله عليه وسلم — : « أفضل ما أهدى الرجل إلى أخيه ورِقا أو يطعمه خبزا » . فجعل الورق

(الفضة) هدية بانفراده ، فما يعطى فى الملأ مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخلو عن شبهة ، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة .

أما الإظهار والتحدث ففيه معان أربعة :

الأول : الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس المال والمراءاة .

الثانى : إسقاط الجاه والمنزلة وإظهار العبودية والمسكنة والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : « أظهر الأخذ على كل حال إن كنت آخذا ، فإنك لا تخلو عن أحد رجلين : رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك ، فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك ، أو رجل تزداد فى قلبه بإظهارك الصدق ، فذلك الذى يريده أخوك لأنه يزداد ثوابا بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتؤجر أنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه » .

الثالث : هو أن العارف لا نظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والعلانية فى حقه واحدة ، فاختلاف الحال شرك فى التوحيد ، قال بعضهم : « كنا لا نعبأ بدعاء من يأخذ فى السر ويرد فى العلانية ، والالتفات للخلق حضروا أم غابوا نقصان فى الحال ، بل ينبغى أن يكون النظر مقصورا على الواحد الفرد » .

حكى أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين ، فشق على الآخرين ، فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال : « لينفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه أحد » ، فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد ، فإنه رد الدجاجة فسألهم فقالوا : « فعلنا ما أمرنا به الشيخ » . فقال الشيخ للمريد : « مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ » . فقال ذلك المريد : « لم أقدر على مكان لا يرانى فيه أحد ، فإن الله يرانى فى كل موضع » . فقال الشيخ : « لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل » .

الرابع : أن الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى : « وأما بنعمة ربك

فحدث »(١) . والكتمان كفران النعمة . وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل . فقال تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله »(٢) . وقال ـــ ﷺ : « إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن يرى نعمته عليه » . وأعطى رجل بعض الصالحين شيئا فى السر فرفع به يده وقال : « هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر فى أمور الآخرة أفضل » ، ولذلك قال بعضهم : « إذا أعطيت فى الملأ فخذ ثم اردد فى السر » . والشكر فيه محثوث عليه . قال ـــ ﷺ : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل » . والشكر قائم مقام المكافأة ، حتى قال ـــ ﷺ : « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فأثنوا عليه به خيرا وادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » . ولما قال المهاجرون فى الشكر : « يا رسول الله ما رأينا خيرا من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله » . فقال ـــ ﷺ : « كل ما شكرتم لهم وأثنيتم عليهم به فهو مكافأة » .

فالآن إذا عرفت هذه المعانى ، فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافا فى المسألة ، بل هو اختلاف حال ، فكشف الغطاء فى هذا أنا لا نحكم حكما باتا بأن الإخفاء أفضل فى كل حال أو الإظهار أفضل ، بل يختلف ذلك باختلاف النيات ، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص . فينبغى أن يكون المخلص مراقبا لنفسه حتى لا يتدلى بحبل الغرور ، ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان . والمكر والخداع أغلب فى معانى الإخفاء منه فى الإظهار ، مع أن له دخلا فى كل واحد منهما ، فأما مدخل الخداع فى الإسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من حفظ الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس ، ونظر الخلق إليه بعين

---

(١) الضحى ١١ . (٢) النساء ٣٧

الازدراء وإلى المعطى بعين المنعم المحسن . فهذا هو الداء الدفين ويستكن فى النفس ، والشيطان بواسطته يظهر معانى الخير حتى يتعلل بالمعانى الخمسة التى ذكرناها . ومعيار كل ذلك ومحكه أمر واحد وهو أن يكون تألمه بانكشاف أخذه الصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله ، فإنه إن كان يبغى صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن ، أو يتقى انتهاك الستر ، أو إعانة المعطى على الأسرار ، أو صيانة العلم عن الابتذال ، فكل ذلك يحصل بانكشاف صدقة أخيه ، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعانى أغاليط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن إذلال العلم محذور من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو ، والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها لعرض زيد على الخصوص ، ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ .

وأما جانب الإظهار فميل الطبع إليه من حيث إنه تطييب لقلب المعطى واستحثاث له على مثله ، وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين فى الشكر حتى يرغبوا فى إكرامه وتفقده ، وهذا داء دفين فى الباطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث فى معرض السنة ويقول له : الشكر من السنة ، والإخفاء من الرياء . ويورد عليه المعانى التى ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ما ذكرناه ، ومعيار ذلك ومحكه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا ينتهى الخير إلى المعطى ولا إلى من يرغب فى عطائه ، وبين يدى جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون فى إخفائها ، وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفى ولا يشكر . فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعثه هو إقامة السنة فى الشكر ، والتحدث بالنعمة ، وإلا فهو مغرور . ثم إذا علم أن باعثه السنة فى

الشكر فلا ينبغى أن يغفل عن قضاء حق المعطى ، فينظر فإن كان هو ممن يحب الشكر والنشر فينبغى أن يخفى ولا يشكر ، لأن قضاء حقه أن لا ينصره على الظلم ، وطلبه الشكر ظلم . وإذا علم من حاله أنه لا يحب الشكر ولا يقصده فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته ، ولذلك قال — ﷺ — للرجل الذى مدح بين يديه : « ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح » . مع أنه — ﷺ — كان يثنى على قوم فى وجوههم لثقته وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يزيد فى رغبتهم للخير ، فقال لواحد : « إنه سيد أهل الوبر » . وقال — ﷺ فى آخر : « إذا جاء كم كريم قوم فأكرموه » . وسمع كلام رجل فأعجبه فقال — ﷺ : « إن من البيان لسحرا » . وقال — ﷺ : « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يزداد رغبة فى الخير » ، وقال — ﷺ : « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان فى قلبه » . وقال الثورى : « من عرف نفسه لم يضره مدح الناس » . وقال أيضا ليوسف بن أسباط : « إذا أوليتك معروفا كنت أنا أسر به منك ، ورأيت فى ذلك نعمة من الله عز وجل علىّ . واشكر وإلا فلا تشكر » .

ودقائق هذه المعانى ينبغى أن يلحظها من يراعى قلبه فإن إعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع . ومثل هذا العلم هو الذى يقال فيه : إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة ، إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمر ، وبالجهل به تموت عبادة العمر كله وتتعطل . وعلى الجملة فالأخذ فى الملأ والرد فى السر أحسن المسالك وأسلمها ، فلا ينبغى أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة بحيث يستوى السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الذى يتحدث به ولا يرى ، نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق .

وقال الإمام الغزالى فى بيان الأفضل ، من أخذ الصدقة أو الزكاة : كان إبراهيم

الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل ، فإن فى أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقا عليهم ، ولأنه ربما لا يكمل فى أخذه صفة الاستحقاق كما وصف فى الكتاب العزيز . وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع . وقال قائلون بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب ، ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا ، ولأن الزكاة لا منة فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه وتعالى رزقا لعباده المحتاجين ، ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعا ، وأخذ الصدقة أخذ بالدين ، فإن الغالب أن المتصدق يعطى من يعتقد فيه خيرا ، ولأن مرافقة المساكين أدخل فى الذل والمسكنة وأبعد من التكبر ، إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة فى معرض الهدية فلا تتميز عنه ، وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته . والقول الحق فى هذا أن هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية . فإن كان فى شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغى أن يأخذ الزكاة ، فإذا علم أنه مستحق قطعا كما إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه فى قضائه ، فهو مستحق قطعا ، فإذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة ، فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة ، فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ، ففى ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين . وإن كان المال معرضا للصدقة ولم يكن فى أخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير ، والأمر فيها يتفاوت ، وأخذ الزكاة أشد فى كسر النفس وإذلالها فى أغلب الأحوال والله أعلم (١) .

* * *

---

(١) انتهى كتاب الزكاة من كتاب إحياء الدين للغزالى .

كانت الدولة قبل الإسلام وبعده مجرد رجل شرطة سلبى كما يقول هربرت سبنسر ، فالدولة الإيرانية كانت تفرض ضرائب عقارية وضرائب شخصية ، وكانت الضريبة الشخصية تحدد مرة واحدة فى السنة . والإمبراطورية الرومانية كانت تعيش على الضرائب ، وقد اتبعت نظاما عجيبا يربط بين المقاطعات الغنية والفقيرة ، فكانت الأولى تسدد بعض ما على الثانية من ضرائب ، فكانت الضرائب فى حقيقة الأمر « أجرا ملكيا » ليقوم الملك بحماية الشعب من المجرمين فى الداخل والغازين القادمين من الخارج ؛ فلم تكن الضرائب سوى نظام سياسى تدخل فى الدراسات السياسية أكثر مما تدخل فى دراسات الاقتصاد .

وجاء الإسلام بنظام مالى فريد فى بابه ، فلم يجعل هم الحاكم تكديس الأموال فى بيت المال بل شرع له ما يحقق الخير العام للجميع . فوظيفة المال فيه اجتماعية للناس جميعا حق فيه ، فلم تعد الدولة مجرد رجل شرطة سلبى ، ولم تعد الضرائب أجرا ملكيا ، بل سار الحاكم والمحكوم فى مال الله سواء ، يأكل الحاكم بالمعروف ، ويشكر الغنى الله على أن جعله مستخلفا فى ماله ، ويعطى للدولة والفقراء والمساكين ما أمر الله به ، فأرهف حس المؤمنين ، فكان خروج المال من خزائنهم أحب إليهم من كسب المال ؛ فكسب المال فريضة ، وإنفاق المال فى وجوهه التى تحقق المصلحة العامة فريضة ، وكنز المال محرم ، فكان العدل والمساواة والحب النابع من قلوب طهرها الإسلام من الأنانية والأثرة والكبرياء .

نجح الإسلام فى أن يجعل أتباعه رقباء على أنفسهم فلم يتهربوا من دفع الزكاة كما يتهرب الممولون من دفع ضرائب الدولة ، فانمحى من نفوسهم الظلم ، وقضى على عدم المساواة ، وخفقت الأفئدة بمشاعر الأخوة بين الفقراء والأغنياء ، وأزيلت الفوارق الاجتماعية بنعمة الله ، فلا صراع بين الطبقات ، ولا حمامات دم ، ولا ظلم طبقة لطبقة ، بل محبة منبثقة من قلوب راضية ، فدافع الزكاة إنما

يدفع من مال الله الذى آتاه ، وآخذ الزكاة إنما يأخذ حقه من مال الله ، والمعطى والقابض مبتليان ، فعلى المعطى أن يكون عطاؤه لوجه الله ، وعلى القابض أن يكون مستحقا لمال الله .

كانت الزكاة محور نظام المالية العامة فى الإسلام ، وهى تختلف عن الضرائب فهى تسمو بالروح وتغمر دافعها بسعادة نفسية لاستجابته لأوامر الله وتطهيرها لأمواله . إنها تقيم صرح البناء الروحى الشامخ للمجتمع الإسلامى ، ذلك الصرح الذى محا الفقر والعوز من المجتمع ، حتى إنه فى أيام عمر بن عبد العزيز لم تجد الدولة مستحقا للزكاة فكانت تنفق ما تجمع من مال الأغنياء فى تحرير الرقاب .

فرضت الزكاة للتحكم فى النفس والهوى وحماية المجتمع من آفات الفقر والعوز ؛ فالغنى يورث الشح والأنانية ويشيع الكراهية بين الناس ، بل وينزل بالمستوى الخلقى لأصحابه ، وخير علاج لذلك أن ينفق الإنسان من مال الله الذى آتاه فى الخير ، فيقطع بذور البخل من نفسه ، ويدرأ كراهية الناس له ، فيصبح الأغنياء والفقراء بنعمة الله إخوانا ، فلا إنقسام ولا حقد ولا ثورات هدامة ولا أزمات اقتصادية ، فالزكاة خير منظم لدورة المال .

وإن عجزت الزكاة عن أن تنهض بالتزامات الدولة ومحو الفقر والعوز من المجتمع ، فللدولة الحق فى فرض ضرائب أخرى على الأغنياء تحقيقا للخير العام ، وليس للأغنياء الحق فى أن يتبرموا فما هم إلا مستخلفون فى مال الله ، وأخذ فضول أموالهم إنما هو استجابة لأوامر الله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »(١) . « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »(١) . والعفو هو فضل المال ، وواجب الأغنياء أن يردوا وقت الحاجة فضول أموالهم على الفقراء : « لن تنالوا

---

(١) الأعراف ١٩٩ (٢) القرة ٢١٩

البر حتى تنفقوا مما تحبون »[١] . وكان عبد الله بن عمر يقول : « فى مالك حق سوى الزكاة » ، وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه يرى أن الله فرض على مال الأغنياء ما يكفى لسد حاجة كل محتاج ، ولو وجد فى المجتمع جائع أو عار فذلك راجع إلى أن الأغنياء لم ينهضوا بما وجب عليهم .

ويقول ميرزا محمد حسين فى كتابه : « الإسلام والاشتراكية » : « ... فنجاح الزكاة مرتبط بتهيئة الجو النفسى لحب الخير ، والتنفير من الطمع والبخل ، ولعل المساواة فى درجة إلحاح الإسلام على الصلاة والزكاة تدل على قوة الرابطة النفسية بينهما ، هذه الرابطة التى تشبه رابطة الجذور بالثمر .

والزكاة أمر لا روح فيه إن لم تنبع من نفس تهتز بالصلاة وتتخلص من كل آثار الأنانية ، والصلاة بدورها لا فائدة منها إن لم تهيئ نفس المؤمن للاستجابة عن طواعية لما تفرضه المصلحة الحقيقية للمجتمع على الفرد . وإن هذا التفاعل النشيط بين نظام روحى ونظام مادى من نظم المجتمع الإسلامى لهو خير مثال على العلاقة العميقة بين الاقتصاد والدين . والدين بدون الاقتصاد كالطفيليات ترتفع على سنادة طويلة من غيرها ، والاقتصاد بغير الدين بربرية عارية . والرأسمالية هى القمة فى النشاط الاقتصادى الذى لا يخضع للمقاييس الخلقية التى تفرضها الأديان . ولما كان الحافز الخلقى من وراء الزكاة مستمدا من مصدر روحى دائم هو الصلاة ، فإن آثارها الاجتماعية والاقتصادية لا بد أن تكون سليمة ، كما أنه لا بد أن يكون النظام الاجتماعى الناتج منها نقيا من مساوئ الرأسمالية من ناحية ، وغير متورط فى روح القسر وفرض أنموذج عام معين على الفرد كما يحدث فى المجتمع الشيوعى . وقد كان هذا الانسجام الشامل سببا فيما لاحظه هـ . ج . ويلز

---

(١) آل عمران ٩٢

من أن : « الإسلام قد خلق مجتمعا أكثر تحررا من القسوة والظلم الاجتماعى فى روسيا أسوأ ما فيه أنه مفروض من الدولة وبقوة القانون . ومن هنا فإن إحساس الفرد وملكاته العقلية والخلقية تهبط حتى تصبح مجرد آلات اجتماعية . وليس للفرد حرية الحكم والتصرف باعتباره عنصرا مفكرا يستجيب لنزعات الخير فى نفسه .

ويدعى الشيوعيون أن هذا ليس إخضاع « الفردية الفظة » لخلق الظروف التى تكفل نمو الشخصية الجماعية بمعانيها الكبيرة ، ومن المفهوم أن يفرض على الفرد أن يتنازل عن بعض حريته من أجل مصلحة المجتمع الكبرى ، ولكن هذا التنازل لا بد أن يكون عن طوع واختيار إذا أردنا به أن يحقق ما نرجوه من خير .

ويتحقق عنصر الاختيار إذا ما كان الفرد قادرا على تقدير ظروف غيره من الناس ، متأثرا بحب العدالة والرحمة والرفق . وهذه النظرة الإنسانية الشاملة تتأتى بالتجديد الروحى لا بإجراء جراحة اجتماعية هى سلاح السوفييت الوحيد لتحقيق الضمان الاجتماعى .

والإسلام — فى كل برامجه للارتقاء بالمجتمع — يفترض أن كل فرد يمثل مركزا فكريا وثقافيا له قيمته ، وله كذلك كرامته الذاتية . ومن ثم فليس من المقبول أن يحرم من الفرص المختلفة لتنمية شخصيته . ووجهة النظر هذه تفترض فى بادئ الأمر أن يكون نشاط الكفايات والطاقات الطبيعية للإنسان نشاطا حرا متناسقا مع نشاط سواه ، ويلقى الإسلام على عاتق الدولة تبعة التخطيط الاجتماعى ، ولكن هذا لا يعنى أنه يؤيد فكرة فرض الانسجام فرضا . والإسلام يغرس فى نفس المرء حب جاره ويتخذ من هذا الحب رابطة اجتماعية قوية . وقد قال — ﷺ : « إن لجارك عليك حقا » . . وحب الجار وما يلقى على المرء من التزام نحوه نواة كل تخطيط اجتماعى فى المجتمع الإسلامى .

النظام الشيوعى للتأمين الاجتماعى نظام طيب من بعض النواحى فحسب ، وقد يكون نظاما ممتازا إذا ما قورن بالفوضى المتفشية فى الجماعات الرأسمالية ، ولكنه أمر تافه إذا ما قورن بالزكاة التى هى نظام يحقق الضمان الاجتماعى دون أن يتجاهل ذاتية الناس . والتخطيط الاجتماعى فى الإسلام يلغى الامتيازات التى تتعارض مع خير الجماعة ، ولكنه لا يلغى حرية الفرد بمختلف مظاهرها إذا لم تتعارض مع الخير العام ، وقد قُضى فى روسيا وفى الدول الدكتاتورية على الذاتية الفردية قضاء تاما بعد أن ضغطت ذاتيات الأفراد جميعا لتكون كلا اجتماعيا جامدا لا يتقدم » .

جاء فى القرآن العظيم : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾(١) . فلما مات رسول الله — ﷺ — وتولى أبو بكر الخلافة من بعده رأى بعض المسلمين ألا يؤدوا إليه الزكاة التى كانوا يؤدونها لرسول الله — ﷺ — بحجة أن صلاة رسول الله — ﷺ — عليهم كانت سكنا لهم . فقال أبو بكر رضى الله عنه :

— الزكاة حق المال . والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله — ﷺ — لقلتلتهم على منعها .

وكانت حروب الردة ولم تكن من أجل استرداد الخليفة مكانته ، بل من أجل حق من حقوق الله وركن من أركان الإسلام قرن بالصلاة ، ركن تقوم عليه السياسة المالية فى الدولة الإسلامية ، وترسى عليه أساسات روحية لنظام مادى تحقيقا للخير العام .

كان الناس فى عهد الرسول — ﷺ — يسارعون فى الخيرات ويدعون الله رغبا ورهبا وكانوا لله خاشعين ، فكان أناس لا يكتفون بإخراج الزكاة بل كانوا يخرجون عن كل أموالهم أو نصفها ، فلما لحق رسول الله — ﷺ — بالرفيق

الأعلى كانت حروب الزكاة بين أبي بكر الصديق والمرتدين، ثم جمع الجباة الزكاة وقسمت فى وجوهها وتولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبى بكر فكانت الفتوحات وتدفقت الأموال على المدينة، فدون عمر الدواوين ولم يقسم بالسوية بين المسلمين كما كان الحال فى عهد الرسول — ﷺ — وخليفته الصديق . فعمر وضع الناس على حسب منازلهم فى الإسلام ، فالسابقون فى الإسلام ميزهم عن الذين تأخر إسلامهم ، ولم يساو بين الذين حاربوا مع الإسلام والذين حاربوا الإسلام . فلما ولى على بن أبى طالب أمر المسلمين سوى بين الجميع . وانتقلت الخلافة فى زمن بنى أمية إلى ملك ، فكان الخلفاء يحاولون أن يتبعوا فى المال ما جاء فى القرآن والسنة واجتهادات الخلفاء الراشدين ، وانقضت الخلافة الأموية وجاء العباسيون ، فلما أصبح هارون الرشيد أمير المؤمنين سأل قاضى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبى حنيفة أن يضع له كتابا جامعا يعمل به فى جباية الخراج والعشور والصدقات ، فوضع أبو يوسف كتاب الخراج وهو أول كتاب يبين موارد الدولة فى التاريخ وسبل إنفاقها ، وأول كتاب يهتم بالمالية والاقتصاد قبل أن يهتم آدم سميث بالاقتصاد بأكثر من ألف عام . ولو أنصف الاقتصاديون لقالوا إن أبا يوسف أبو الاقتصاد وأبو المالية العامة .

وإن أروع ما كتب للحكام والملوك تلك المقدمة التى قدم بها أبو يوسف كتابه لهارون الرشيد : « ... يا أمير المؤمنين إن الله وله الحمد قد قلّدك أمرا عظيما ، ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب . قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير قد استرعاكهم وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم . وليس يلبث البنيان — إذا أسس على غير التقوى — أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه . فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة فى العمل بإذن الله ... وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر

خلفاء فى أرضه ، وجعل لهم نورا يضىء للرعية ما أظلم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم . وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود ، ورد الحقوق إلى أهلها بالتثبت والأمر البين ، وإحياء السنن التى سنها القوم الصالحون أعظم موقعا ؛ فإن إحياء السنن من الخير الذى يحيا ولا يموت . وجور الراعى هلاك للرعية ، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة ، فاستتم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها ، والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها ، فإن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز «لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد»(١) . وليس شىء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد . والعمل بالمعاصى كفر النعم ، وقلَّ من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم ، وسلط الله عليهم عدوهم . وإنى أسأل الله يا أمير المؤمنين الذى منَّ عليك بمعرفته فيما ولاك ، ألا يكلك فى شىء من أمرك إلى نفسك ، وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه ، فإنه ولى ذلك والمرغوب إليه فيه » .

واستمر أبو يوسف فى كتابة موعظته يسوق أحاديث ترغيب وترهيب ، ثم بدأ كتاب الخراج بباب فى قسمة الغنائم قال فيه :

« أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من قسمة الغنائم إذا أصيبت من العدو وكيف يقسم ذلك ، فإن الله تبارك وتعالى قد أنزل بيان ذلك فى كتابه ، فقال فيما أنزله على رسوله ـ ﷺ : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير ﴾(١) . فهذا والله

---

(١) الأنفال ٤١

أعلم فيما يصيب المسلمون من عساكر أهل الشرك ، وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع ، فإن ذلك الخمس لمن سمى الله عز وجل فى كتابه العزيز ، وأربعة أخماسه بين الجند الذين أصابوا ذلك من أهل الديوان وغيرهم ، يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم ، سهمان لفرسه وسهم له ، وللراجل سهم على ما جاء فى الأحاديث والآثار ، ولا يفضل الخيل بعضها على بعض لقوله تعالى فى كتابه : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ ولقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] . والعرب تقول : هذه الخيل وفعلت الخيل . لا يعنون بذلك الفرس دون البرذون ، ولعامة البراذين أقوى من كثير من الخيل وأوفق للفرسان ، ولا يخص منها شيء دون شيء ، ولا يفضل الفرس القوى على الفرس الضعيف ، ولا يفضل الرجل الشجاع التام السلاح على الرجل الجبان الذى لا سلاح معه إلا سيفه .

وعن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قسم غنائم بدر : للفارس سهمان وللراجل سهم . وقال أبو ذر الغفارى : « شهدت أنا وأخى مع رسول الله ـ ﷺ ـ حنينا ومعنا فرسان لنا ، فضرب لنا رسول الله ـ ﷺ ـ ستة أسهم أربعة لفرسينا وسهمين لنا ، فبعنا الستة أسهم بحنين ببكرين .

وكان الفقيه المقدم أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول : للرجل سهم وللفرس سهم . وقال : لا أفضل بهيمة على رجل مسلم ، ويحتج بأن عاملا لعمر بن الخطاب قسم فى بعض الشام للفرس سهم وللراجل سهم فرفع ذلك إلى عمر فسلمه وأجازه . فكان أبو حنيفة يأخذ بهذا الحديث ويجعل للفرس سهما وللرجل سهما . وما جاء من الأحاديث والآثار أن للفرس سهمين وللرجل سهما أكثر

---

(١) الأنفال ٦٠

من ذلك وأوثق والعامة عليه . ليس هذا على وجه التفضيل ولو كان على وجه التفضيل ما كان ينبغى أن يكون للفرس سهم وللرجل سهم ، لأنه قد سوى بهيمة برجل مسلم ، إنما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر وليرغب الناس فى ارتباط الخيل فى سبيل الله . ألا ترى أن سهم الفرس إنما يرد على صاحب الفرس فلا يكون للفرس دونه ؟ والمتطوع وصاحب الديوان فى القسمة سواء . فخذ يا أمير المؤمنين أى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين ، فإن ذلك موسع عليك إن شاء الله تعالى ، ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين . عن الحسن فى الرجل يكون فى الغزو ومعه الأفراس قال : « لا يقسم له من الغنيمة لأكثر من فرسين » .

كان الخمس فى عهد رسول الله — ﷺ — على خمسة أسهم : ﷺ وللرسول سهم ، ولذى القربى سهم ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم . ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى وقسم على الثلاثة الباقى . ثم قسمه على بن أبى طالب كرم الله وجهه على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان . وقد روى لنا عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال :

— عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيِّمنا ، ونقضى منه عن مغرمنا . فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى ذلك علينا .

وكتب الزهرى إلى ابن عباس يسأله عن سهم ذوى القربى لمن هو ؟ فكتب إليه ابن عباس : « كتبت إلىّ تسألنى عن سهم ذوى القربى لمن هو ؟ وهو لنا وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعانا إلى أن ننكح منه أيِّمنا ، ونقضى منه عن مغرمنا ، ونخدم منه عائلنا ، فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى ذلك علينا .

فما كان رأى على كرم الله وجهه فى الخمس ؟ كان رأيه فيه رأى أهل بيته ؛

ولكنه لما أصبح أميرا للمؤمنين كره أن يخالف أبا بكر وعمر . وقد قال على رضى الله عنه : « قلت يا رسول الله إن رأيت أن توليني حقنا في الخمس فأقسمه في حياتك كي لا ينازعنا أحد بعدك فافعل . ففعل فولانيه رسول الله — ﷺ — فقسمته في حياته ، ثم ولانيه أبو بكر رضى الله عنه فقسمته في حياته ، ثم ولانيه عمر رضى الله عنه فقسمته في حياته ، حتى إذا كان آخر سنة من سنى عمر فأتاه مال كثير فعزل حقنا ، ثم أرسل إلىّ فقال : خذه فاقسمه . فقلت : يا أمير المؤمنين بنا عنه العام غنى وبالمسلمين إليه حاجة ، فرده عليهم تلك السنة ، ثم لم يدعنا إليه أحد بعد عمر حتى قمت مقامى هذا ، فلقيني العباس بن عبد المطلب بعد خروجي من عند عمر رضى الله عنه فقال : يا على لقد حرمتنا الغداة شيئا لا يرد علينا أبدا إلى يوم القيامة .

وقيل : اختلف الناس بعد وفاة رسول الله — ﷺ — في هذين السهمين : سهم الرسول عليه السلام وسهم ذوى القربى ، فقال قوم : سهم الرسول للخليفة من بعده . وقالت طائفة : سهم ذوى القربى لقرابة الرسول عليه السلام . فأجمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح .

وكان أبو حنيفة رحمه الله وأكثر فقهائنا يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم .

قال أبو يوسف : فعلى هذا تقسم الغنيمة . فلما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع وغير ذلك ، وكذلك كل ما أصيب في المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فإن في ذلك الخمس — في أرض العرب كان أو في أرض العجم — وخمسه الذى يوضع فيه مواضع الصدقات .

وفيما يستخرج من البحر من حلية وعنبر ، فالخمس يوضع في مواضع الغنائم

على ما قال الله عز وجل فى كتابه : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

فى كل ما أصيب من المعادن فى قليل أو كثير الخمس . ولو أن رجلا أصاب فى معدن أقل من وزن مائتى درهم فضة أو أقل من وزن عشرين مثقالا ذهبا ، فإن فيه الخمس ؛ ليس هذا على موضع الزكاة إنما هو على موضع الغنائم ، وليس فى تراب ذلك شىء ، إنما الخمس من الذهب الخالص وفى الفضة الخالصة والحديد والنحاس والرصاص ، ولا يحسب لمن استخرج ذلك من نفقته عليه شىء . وقد تكون النفقة تستغرق ذلك كله فلا يجب إذن فيه خمس عليه ، وفيه الخمس حين يفرغ من تصفيته قليلا كان أو كثيرا ، ولا يحسب له من نفقته شىء .

وما استخرج من المعادن سوى ذلك من الحجارة مثل الياقوت والفيروزج والكحل والزئبق والكبريت والمغرة فلا خمس فى شىء من ذلك ، فإنما ذلك كله بمنزلة الطين والتراب .

ولو أن الذى أصاب شيئا من الذهب أو الفضة أو الحديد أو الرصاص أو النحاس كان عليه دين فادح لم يبطل ذلك الخمس عنه . ألا ترى لو أن جندا من الأجناد أصابوا غنيمة من أهل الحرب خمست ولم ينظر أعليهم دين أم لا ، ولو كان عليهم دين لم يمنع ذلك من الخمس .

وأما الركاز فهو الذهب والفضة الذى خلقه الله عز وجل فى الأرض يوم خلقت ، فيه أيضا الخمس . فمن أصاب كنزا عاديا فى غير ملك أحد — فيه ذهب أو فضة أو ثياب — فإن فى ذلك الخمس ، وأربعة أخماس للذى أصابه وهو بمنزلة الغنيمة يغنمها القوم فتخمس وما بقى فلهم .

ولو أن حربيا وجد فى دار الإسلام ركازا وكان قد دخل بأمان ، نزع ذلك كله منه ولا يكون له منه شىء ، وإن كان ذميا أخذ منه الخمس كما يؤخذ من المسلم

وسلم له أربعة أخماس . وكذلك المكاتب يجد ركازا فى دار الإسلام فهو له بعد الخمس ، وكذلك العبد وأم الولد والمدبر .

وإذا وجد المسلم ركازا فى دار الحرب ، فإن كان دخل بغير أمان فهو له ولا خمس فى ذلك حيثما وجد ، كان فى ملك إنسان من أهل الحرب أو لم يكن فى ملك إنسان فلا خمس فيه ، لأن المسلمين لم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب . وإن كان إنما دخل بأمان فوجده فى ملك إنسان منهم فهو لصاحب الملك ، وإن وجده فى غير ملك إنسان منهم فهو للذى وجده .

وقال أبو يوسف فى الفىء والخراج : فأما الفىء يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا ، خراج الأرض والله أعلم ، لأن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه : ﴿ وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾(١) . حتى فرغ من هؤلاء ، ثم قال عز وجل : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولٰئك هم الصادقون »(٢) . ثم قال تعالى : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولٰئك هم المفلحون ﴾(٣) . ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾(٤) . فهذا والله أعلم لمن جاء من بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة .

---

(١) الحشر ٧ — (٢) الحشر ٨

(٣) الحشر ٩ — (٤) الحشر ١٠

وقد سأل بلال وأصحابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام وقالوا :

— قسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر .

فأبى عمر ذلك عليهم وتلا عليهم هذه الآيات وقال :

— قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم فى هذا الفىء ، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شىء ، ولئن بقيت ليبلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفىء ودمه فى وجهه .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص حين افتتح العراق : «أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء . وقد كنت أمرتك أن تدعو من لقيت إلى الإسلام قبل القتال ، فمن أجاب إلى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم وله سهم فى الإسلام ، ومن أجاب بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وماله لأهل الإسلام ، لأنهم أحرزوه قبل إسلامه ، فهذا عهدى إليك» .

قال أبو يوسف : وحدثنى غير واحد من علماء أهل المدينة قالوا : لما قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيش العراق من قبل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، شاور أصحاب محمد — ﷺ — فى تدوين الدواوين . وقد كان اتبع رأى أبى بكر فى التسوية بين الناس ، فلما فتح العراق شاور الناس فى التفضيل ورأى أنه الرأى ، فأشار عليه بذلك من رآه . وشاورهم فى قسمة الأرضين التى أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم

وما فتحوا ، فقال عمر رضى الله عنه :

— فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت . ما هذا برأى .

فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه :

— فما الرأى ؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم .

فقال عمر :

— ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كَلّا على المسلمين . فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟

فأكثروا على عمر رضى الله عنه وقالوا :

— أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟

فكان عمر رضى الله عنه لا يزيد على أن يقول :

— هذا رأى .

— فاستشر .

فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رضى الله عنهم رأى عمر . فأرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم ، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

— إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فإنى

واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .

ـــ قل نسمع يا أمير المؤمنين .

ـــ سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما . لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضيهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم .

أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام ـــ كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ـــ لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟

فقالوا جميعا :

ـــ الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم .

ـــ قد بان لى الأمر ، فمن رجل له جزالة عقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟

فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا :

ـــ تبعثه إلى أهم ذلك ، فإن له بصرا وعقلا وتجربة .

فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض العراق ، فأدت جباية سواد الكوفة قبل

أن يموت عمر رضى الله تعالى عنه بعام مائة ألف ألف درهم ، والدرهم يومئذ درهم ودانقان ونصف ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال .

وقال أبو يوسف فى كيفية فرض عمر لأصحاب رسول الله — ﷺ — : قدم على أبى بكر رضى الله عنه مال فقال :

— من كان له عند النبى — ﷺ — عدة فليأت .

فجاءه جابر بن عبد الله فقال :

— قال لى رسول الله — ﷺ — : لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا .

يشير بكفيه : فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه :

— خذ .

فأخذ بكفيه ثم عده فوجده خمسمائة ، فقال :

— خذ إليها ألفا .

فأخذ ألفا ثم أعطى كل إنسان كان رسول الله — ﷺ — وعده شيئا ، وبقيت بقية من المال فقسمها بين الناس بالتسوية على الصغير والكبير والحر والمملوك والذكر والأنثى ، فخرج على سبعة دراهم وثلث لكل إنسان . فلما كان العام المقبل جاء مال كثير هو أكثر من ذلك ، فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرين درهما . فجاء ناس من المسلمين فقالوا :

— يا خليفة رسول الله إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم ، فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم .

— أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفنى بذلك ، وإنما ذلك شىء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة .

فلما جاءت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الفتوح وجاءت الأموال

قال :

— إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه رأى فى هذا المال رأيا ولى فيه رأى آخر . لا أجعل من قاتل رسول الله — ﷺ — كمن قاتل معه .

ففرض للمهاجرين والأنصار ممن شهد بدرا خمسة آلاف ، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدرا أربعة آلاف أربعة آلاف ، وفرض لأزواج النبى — ﷺ — اثنى عشر ألفا اثنى عشر ألفا ، إلا صفية وجويرية فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف ، فأبتا أن تقبلا فقال لهما :

— إنما فرضت لهن للهجرة .

فقالتا :

— لا . إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله — ﷺ — وكان لنا مثله .

فعرف ذلك عمر ففرض لهما اثنى عشر ألفا ، وفرض للعباس عم رسول الله — ﷺ — اثنى عشر ألفا ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله ابن عمر — ابنه — ثلاثة آلاف ، فقال :

— يا أبت لم زدته علىّ ألفا ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبى ، وما كان له ما لم يكن لى ؟

— إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله — ﷺ — من أبيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك .

وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف ، ألحقهما بأبيهما لمكانهما من رسول الله — ﷺ . وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين ، فمر عمر بابن أبى سلمة فقال :

— زيدوه ألفا .

فقال له عمر بن عبد الله بن جحش :

— ما كان لأبيه ما لم يكن لآبائنا ، وما كان له ما لم يكن لنا .

— إنى فرضت له بأبيه أبى سلمة ألفين ، وزدته بأمه أم سلمة ألفا ، فإن كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفا .

وفرض لأهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة ، فجاء طلحة بن عبيد الله بأخيه عثمان ففرض له ثمانمائة ، فمر به النضر بن أنس فقال عمر :

— افرضوا له ألفين .

فقال له طلحة :

— جئتك بمثله ففرضت له ثمانمائة ، وفرضت لهذا ألفين .

— إن أبا هذا لقينى يوم أحد فقال : ما فعل رسول الله ؟ فقلت : ما أراه إلا قد قتل ، فسل سيفه وكسر غمده وقال : إن كان رسول الله — ﷺ — قد قتل فإن الله حى لا يموت ، فقاتل حتى قتل ، وأبو هذا يرعى الشاة فى مكان كذا وكذا .

فعمل عمر بهذا خلافته .

لما فتح الله على عمر وفتح فارس والروم جمع أناسا من أصحاب رسول الله — ﷺ — فقال :

— ماترون ؟ فإنى أرى أن أجعل عطاء الناس فى كل سنة وأجمع المال فإنه أعظم للبركة .

— اصنع ما رأيت ، فإنك إن شاء الله موفق .

ففرض الأعطيات فدعا باللوح فقال :

— بمن أبدأ ؟

فقال له عبد الرحمن بن عوف :

— ابدأ بنفسك .

— لا والله ولكن أبدأ ببنى هاشم رهط النبى — ﷺ .

فبدأ بالأقرب من رسول الله — ﷺ — ففرض للعباس ثم لعلى رضى الله عنهما ، حتى والى بين خمس قبائل حتى انتهى إلى بنى عدى بن كعب (رهطه) .

وقال أبو يوسف عن أبى هريرة : قدمت من البحرين بخمسمائة ألف درهم ، فأتيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممسيا فقلت :

— يا أمير المؤمنين اقبض هذا المال .

— وكم هو ؟

— خمسمائة ألف درهم .

— وتدرى كم خمسمائة ألف ؟

— نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات .

— أنت ناعس ، اذهب فبت الليلة حتى تصبح .

فلما أصبحت أتيته فقلت :

— اقبض منى هذا المال .

— وكم هو ؟

— خمسمائة ألف درهم .

— أمن طيب هو ؟

— لا أعلم إلا ذاك .

فقال عمر رضى الله عنه :

— أيها الناس إنه قد جاء مال كثير ، فإن شئتم أن نكيل لكم كلنا ، وإن شئتم أن نعد لكم عددنا ، وإن شئتم أن نزن لكم وزنًا لكم .

فقال رجل من القوم :

— يا أمير المؤمنين دون للناس دواوين يعطون عليها .

فاشتهى عمر ذلك فرض للمهاجرين وللأنصار ولأزواج النبى ، فلما أتى

زينب بنت جحش مالها قالت :

ــ غفر الله لأمير المؤمنين ، لقد كان فى صويحباتى من هو أقوى على قسمة هذا المال منى .

فقيل لها :

ــ إن هذا كله لك .

فأمرت به فصب وغطته بثوب ، ثم قالت لبعض من عندها :

ــ أدخلى يدك لآل فلان وآل فلان .

فلم تزل تعطى لآل فلان وآل فلان حتى قالت لها التى تدخل يدها :

ــ لا أراك تذكرينى ولى عليك حق .

ــ لك ما تحت الثوب .

فكشفت الثوب فإذا ثم خمسة وثمانون درهما . ثم رفعت يدها فقالت :

ــ اللهم لا يدركنى عطاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد عامى هذا أبدا .

فكانت رضى الله عنها أول أزواج النبى لحوقا به عليه السلام .

وذكر لنا أنها كانت أسخى أزواج النبى ــ ﷺ ــ وأعطاهن .

وجعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى زيد بن ثابت عطاء الأنصار ، فبدأ بأهل العوالى ، فبدأ ببنى عبد الأشهل ثم الأوس لبعد منازلهم ، ثم الخزرج حتى كان هو آخر الناس وهم بنو مالك بن النجار وهم حول المسجد .

وحمل أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ألف ألف ، فقال عمر :

ــ بكم قدمت ؟

ــ بألف ألف .

فأعظم ذلك عمر وقال :

ـــ هل تدرى ما تقول ؟

ـــ نعم . قدمت بمائة ألف ومائة ألف حتى عد عشر مرات .

ـــ إن كنت صادقا ليأتين الراعى نصيبه من هذا المال وهو باليمن ودمه فى وجهه .

وقال عمر :

ـــ والله الذى لا إلـٰه إلا هو ما أحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو مُنعه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ـــ ﷺ ـــ فالرجل وتلاده فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وعناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الإسلام . والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه (يعنى فى طلبه) .

قال عمر : الرجل وحاجته ، قبل أن يقولها ماركس بأكثر من ألف عام !.

وأسهب أبو يوسف فى خراج الأرض وقال إن القطائع ما كان منها سيحا على العشر ، أى ما كانت تسقى بالمطر أو الترع أو الأنهار ، وما سقى منها بالدلو والغرب والساقية فعلى نصف العشر لمؤنة الدالية والغرب والساقية ، فالإسلام يعطى ثمن الجهد ، وليس على الخضر التى لا بقاء لها ولا على الأعلاف ولا على الحطب عشر ، والذى لا يبقى فى أيدى الناس هو مثل البطيخ والقثاء والخيار والقرع والباذنجان والجزر والفول والرياحين وأشباه هذا فليس فى هذا عشر . وأما ما يبقى فى أيدى الناس مما يكال بالقفيز ويوزن بالأرطال مثل الحنطة والشعير والذرة والأرز والحبوب والسمسم واللوز والبندق والجوز والفستق والزعفران والزيتون والقرطم والكزبرة والكراويا والكمون والبصل والثوم وما أشبه ذلك ، فإذا أخرجت الأرض من ذلك خمسة أوسق أو أكثر ففيه العشر إذا كان فى

أرض تسقى سيحا أو سقتها السماء، وإذا كانت فى أرض تسقى بغرب أو دالية أو ساقية ففيه نصف العشر ، وإذا نقص عن خمسة أوسق لم يكن فيه شيء . وإذا أخرجت الأرض نصف خمسة أوسق حنطة ونصف خمسة أوسق شعيرا كان فيها العشر ، وكذلك لو أخرجت قدر وسق من حنطة وقدر وسق من شعير وقدر وسق من أرز وقدر وسق من تمر وقدر وسق من زبيب ، وتم ذلك خمسة أوسق كان فى ذلك العشر ، وإن نقص عن خمسة أوسق وسق أو أقل أو أكثر لم يكن فيه العشر ما خلا الزعفران ، فإنه إذا كان فى أرض العشر وأخرج الله منه ما يكون قيمته قيمة خمسة أوسق من أدنى ما تخرج الأرض من الحبوب مما عليه العشر ففيه العشر إذا كان يسقى سيحا أو تسقيه السماء ، وإذا سقى بغرب أو دالية فنصف العشر ، وإذا كان فى أرض الخراج ففيه الخراج على هذه الصفة ، وإذا لم تبلغ قيمة ذلك قيمة خمسة أوسق فلا شيء فيه .

وكان أبو حنيفة يقول : إذا كان الزعفران فى أرض العشر ففيه العشر وإن لم تخرج الأرض منه إلا رطلا واحدا ، وإن كان فى أرض الخراج ففيه الخراج .

والوسق ستون صاعا بصاع النبى — صلى الله عليه وسلم — فالخمسة أوسق ثلاثمائة صاع ، والصاع خمسة أرطال وثلث .

وقال أبو يوسف فى موات الأرض فى الصلح والعنوة وغيرهما : وما سألت يا أمير المؤمنين عن الأرضين التى افتتحت عنوة أو صولح عليها أهلها ، وفى بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد ، ما الصلاح فيها ؟ فإذا لم يكن فى هذين الأرضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيئا لأهل القرية ولا مسرحا ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم وليست بملك لأحد ولا فى يد أحد ، فهى موات فمن أحياها أو أحيا منها شيئا فهى له . ولك أن تقطع ذلك من أحببت ورأيت وتؤاجره وتعمل فيه بما ترى أنه صلاح .

وكل من أحيا أرضا مواتا فهى له .

وقد كان أبو حنيفة رحمه الله يقول : من أحيا أرضا مواتا فهى له إذا أجازها الإمام ، ومن أحيا أرضا مواتا بغير إذن الإمام فليست له وللإمام أن يخرجها من يده ويصنع فيها ما رأى من الإجارة والإقطاع وغير ذلك .

وقيل لأبى يوسف : ما ينبغى لأبى حنيفة أن يكون قد قال هذا إلا من شىء ، لأن الحديث قد جاء عن النبى — صلى الله عليه وسلم — : « من أحيا أرضا مواتا فهى له » . فبين لنا ذلك الشىء فإنا نرجو أن تكون قد سمعت منه فى هذا شيئا يحتج به .

قال أبو يوسف : حجته فى ذلك أن يقول : الإحياء لا يكون إلا بإذن الإمام ، أرأيت رجلين أراد كل واحد منهما أن يختار موضعا واحدا وكل واحد منهما منع صاحبه ، أيهما أحق به ؟ أرأيت إن أراد رجل أن يحيى أرضا ميتة بفناء رجل وهو مقر أن لا حق له فيها فقال : لا تحيها فإنها بفنائى وذلك يضرنى . فإنما جعل أبو حنيفة إذن الإمام فى ذلك هاهنا فصلا بين الناس ، فإذا أذن الإمام فى ذلك لإنسان كان له أن يحييها وكان ذلك الإذن جائزا مستقيما . وإذا منع الإمام أحدا كان ذلك المنع جائزا ، ولم يكن بين الناس اتشاح فى الموضع الواحد ولا الضرار فيه مع إذن الإمام ومنعه . وليس ما قال أبو حنيفة يرد الأثر ، إنما رد الأثر أن يقول : وإن أحياها بإذن الإمام فليست له ، فأما من يقول : هى له فهذا اتباع الأثر ، ولكن بإذن الإمام ليكون إذنه فصلا فيما بينهم من خصوماتهم وإضرار بعضهم ببعض .

وقال عمر بن الخطاب على المنبر : « من أحيا أرضا ميتة فهى له ، وليس لمحتجر بعد ثلاث سنين » . وذلك لأن رجالا كانوا يحتجرون من الأرض ما لا يعلمون .

وقال أبو يوسف فى حد أرض العشر من أرض الخراج : فأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من حد أرض العشر من حد أرض الخراج ، فكل أرض أسلم أهلها عليها وهى من أرض العرب أو أرض العجم فهى لهم وهى أرض عشر ، بمنزلة

المدينة حين أسلم عليها أهلها وبمنزلة اليمن . وكذلك كل من لا تقبل منه الجزية ولا يقبل منه إلا الإسلام أو القتل ومن عبدة الأوثان من العرب فأرضهم أرض عشر وإن ظهر عليها الإمام ، لأن رسول الله — ﷺ — قد ظهر على أرضين من أرض العرب وتركها فهى أرض عشر حتى الساعة .

وأيما دار من دور الأعاجم قد ظهر عليها الإمام وتركها فى أيدى أهلها فهى أرض خراج وإن قسمها بين الذين غنموها فهى أرض عشر . ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ظهر على أرض الأعاجم وتركها فى أيديهم فهى أرض خراج ، وكل أرض من أراضى الأعاجم صالح عليها أهلها وصاروا ذمة فهى أرض خراج .

وقال أبو يوسف فيما يخرج من البحر : وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر ، فإن فيما يخرج من البحر من الحلية والعنبر الخمس ، فأما غيرهما فلا شىء فيه . وقد كان أبو حنيفة وابن أبى ليلى رحمهما الله يقولان : ليس فى شىء من ذلك شىء لأنه بمنزلة السمك ، وأما أنا فإنى أرى فى ذلك الخمس وأربعة أخماسه لمن أخرجه ، لأنه قد روينا فيه حديثا عن عمر رضى الله عنه ووافقه عليه عبد الله بن عباس ، فاتبعنا الأثر ولم نر خلافه . واستعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلى بن أمية على البحر ، فكتب إليه فى عنبرة وجدها رجل على الساحل يسأله عنها وعما فيها ، فكتب إليه عمر : « إنه سيب من سيب الله . وفيما أخرج الله جل ثناؤه من البحر الخمس » . وقال عبد الله بن العباس : « وذلك رأيى » .

وأما العسل والجوز واللوز وأشباه ذلك ، فإن فى العسل العشر إذا كان فى أرض العشر ، وإذا كان فى أرض الخراج فليس فيه شىء ، وإذا كان فى المفاوز والجبال على الأشجار أو فى الكهوف فلا شىء فيه ، وهو بمنزلة الثمار تكون فى الجبال والأودية لا خراج عليها ولا عشر .

كتب أمير الطائف إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أصحاب النحل لا يؤدون إلينا ما كانوا يؤدون إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — ويسألون مع ذلك أن نحمى لهم أوديتهم ، فاكتب إلى برأيك فى ذلك . فكتب إليه عمر : « إن أدوا إليك ما كانوا يؤدونه إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فاحم أوديتهم ، وإن لم يؤدوا إليك ما كانوا يؤدونه إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فلا تحم لهم » . وكانوا يؤدون إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — من كل عشر قرب قربة .

وأما اللوز والجوز والبندق والفستق وأشباه ذلك ففيه العشر إذا كان فى أرض العشر ، والخراج إذا كان فى أرض الخراج لأنه يكال .

وليس فى القصب ولا فى الحطب ولا فى الحشيش ولا فى التبن ولا فى السعف عشر ولا خمس ولا خراج .

وأما قصب السكر ففيه العشر إذا كان فى أرض العشر ، والخراج إذا كان فى أرض الخراج ، لأنه ثمر يؤكل .

وقال أبو يوسف فى الصدقات : وسألت يا أمير المؤمنين عما يجب فيه الصدقة فى الإبل والبقر والغنم والخيل ، وكيف ينبغى أن يعامل من وجب عليه شىء من الصدقة فى كل صنف من هذه الأصناف ؟ فمر يا أمير المؤمنين العاملين عليها بأخذ الحق وإعطائه من وجب له وعليه ، والعمل فى ذلك بما سنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم الخلفاء من بعده ، واعلم أنه من سن سنة حسنة كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شىء ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شىء . هكذا روى لنا عن نبينا — صلى الله عليه وسلم — وأنا أسأل الله أن يجعلك ممن استن بفعله ورضى عمله وأعظم عليه ثوابه ، وأن يعينك على ما ولاك ويحفظ لك ما استرعاك ، وقد ذكرت ما بلغنا أنه أوجب على كل صنف من هذه الأصناف ، وعليه أدركت فقهاءنا ، وهو المجمع

عليه عندنا ، وهو أحسن ما سمعنا فى ذلك حديثا عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله — ﷺ — كتب كتابا فى الصدقة فقرنه بسيفه أو قال بوصيته ، فلم يخرجه حتى قبض — ﷺ — فعمل به أبو بكر حتى هلك ، ثم عمل به عمر ، قال فكان فيه : « فى كل أربعين شاة شاة ، إلى مائة وعشرين ، فإذا زادت فشاتان إلى مائتين ، فإذا زادت فثلاث شياه إلى ثلاثمائة ، فإذا زادت ففى كل مائة شاة شاة ، وليس فيها شىء حتى تبلغ المائة ، وفى خمس من الإبل شاة ، وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمسة وعشرين بنت مخاض إلى خمس وثلاثين ، فإن زادت ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين ، فإن زادت ففيها حقة إلى ستين ، فإن زادت ففيها جذعة إلى خمسة وسبعين ، فإن زادت ففيها بنتا لبون إلى تسعين ، فإن زادت ففيها حقتان إلى عشرين ومائة ، فإن زادت على مائة وعشرين ففى كل خمسين حقة وفى كل أربعين بنت لبون ، ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع ، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بالسوية » .

لما بعث رسول الله — ﷺ — معاذا إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل ثلاثين من البقر تبيعا أو تبيعة ، ومن كل أربعين مسنة ، وقد بلغنا مثل ذلك عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه .

وعن على رضى الله عنه عن النبى — ﷺ — : « تجاوزت لكم عن صدقة الخيل والرقيق » .

فأما الإبل العوامل والبقر العوامل فليس فيها صدقة ، لم يأخذ معاذ منها شيئا ، وهو قول على رضى الله تعالى عنه قال : « والجواميس والبخت بمنزلة الإبل والبقر ، وهى كمعز الشاة وضأنها » .

ولا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر منع الصدقة ولا إخراجها من ملكه إلى

ملك جماعة غيره ليفرقها بذلك فتبطل الصدقة منها ، بأن يصير لكل واحد منهم من الإبل والبقر والغنم ما لا يجب فيه الصدقة ، ولا يحتال فى إبطال الصدقة بوجه ولا سبب .

ولا ينبغى أن يدخل مال الصدقة فى مال الخراج ، لأن الخراج فىء لجميع المسلمين والصدقات لمن سمى الله عز وجل فى كتابه : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل﴾(١) . فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا ، والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم ، وإن كان أقل من الثمن أو أكثر أعطى الوالى منها ما يسعه ويسع عماله من غير سرف ولا تقتير ، وقسمت بقية الصدقات بينهم فللفقراء والمساكين سهم ، وللغارمين — وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم — سهم ، وفى أبناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون ، وفى الرقاب سهم ، وسهم فى إصلاح طرق المسلمين ، ولا بأس أن تعطى الصدقة فى صنف واحد .

وسألت أمير المؤمنين عن بيع السمك فى الآجام ومواضع مستنقع الماء ، فلا يجوز بيع السمك فى الماء لأنه غرر وهو للذى يصيده ، فإن كان يؤخذ باليد من غير أن يصاد فلا بأس ببيعه . ومثله إذا كان يؤخذ بغير صيد كمثل سمك فى حُب (خابية) ، وإلا فإذا كان لا يؤخذ إلا بصيد فمثله كمثل ظبى فى البرية أو طير فى السماء ، ولا يجوز بيع ذلك لأنه غرر وهو للذى صاده ، وقد رخص فى بيع السمك فى الآجام أقوام ، فكان الصواب عندنا والله أعلم فى قول من كرهه .

قال عمر بن الخطاب : «لا تبايعوا السمك فى الماء فإنه غرر» . وكتب أبو زناد إلى عمر بن عبد العزيز فى بحيرة يجتمع فيها السمك بأرض العراق : «أنؤاجرها ؟»

---

(١) التوبة ٦٠

فكتب أن افعلوا . و كتب إلى عمر بن عبد العزيز عن بيع صيد الآجام فكتب أن لا بأس به وسماه الحسن .

وتكلم أبو يوسف فى إجارة الأرض البيضاء وذات النخل والمزارعة عنده على وجوه : منها عارية ليست فيها إجارة ، وهو الرجل يعير أخاه أرضا يزرعها ولا يشترط عليه إجارة فيزرعها المستعير ببذره وبقره ونفقته فالزرع له والخراج على رب الأرض ، فإن كانت من أرض العشر فالعشر على الزارع وبه يقول أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه .

ووجه آخر : تكون الأرض للرجل ، فيدعو الرجل إلى أن يزرعها جميعا والنفقة والبذرة عليهما نصفان ، فهذا مثل الأول الزرع بينهما والعشر فى الزرع إن كانت أرض عشر ، وإن كانت أرض خراج فالخراج على رب الأرض .

ووجه آخر : إجارة أرض بيضاء بدراهم مسماة سنة أو سنتين ، والأرض البيضاء هى التى تخلو من النخل والشجر فهذا جائز والخراج على رب الأرض فى قول أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ، وإن كانت أرض عشر فالعشر على رب الأرض .

وقال أبو يوسف : المزارعة جائزة على شروطها ، والخراج على رب الأرض ، والعشر عليهما جميعا فى الزرع ، فهذا الوجه الرابع .

ووجه آخر : أن يكون للرجل أرض وبقر وبذر فيدعو فلاحا فيدخله فيها فيعمل ذلك ويكون له السدس أو السبع . فهذا فاسد فى قول أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ومن وافقه ، والزرع فى قولهم لرب الأرض ، وللفلاح أجر مثله . والخراج على رب الأرض ، والعشر فى الطعام .

وهو عند أبى يوسف جائز على ما اشترط عليه على ما جاءت به الآثار ، قال أبو يوسف : ولو أن رجلا دفع إلى رجل رحى ماء يقوم عليها ويؤاجرها ويطحن

للناس فيها بالأجر على النصف فهذا فاسد لا يجوز ، وكذلك الرجل يدفع إلى الرجل بيوت قرية أو دار أو دواب أو سفينة يؤاجرها ويكتسب عليها فما أخرج الله من شيء فبينهما نصفان فهذا لا يجوز فى قول أبى حنيفة وفى قولى ، وليس هذا بمنزلة ما ذكرنا من المعاملة والمزارعة ، للأجير فى هذا الوجه الفاسد أجر مثله على مالك ذلك ، وما كان من غلة الرحى والسفينة فهى لصاحبها .

وقال أبو يوسف فى الجزر : وسألت يا أمير المؤمنين عن الجزائر التى تكون فى دجلة والفرات ينضب عنها الماء ، فجاء رجل وهى جزيرة أرض له فحصنها من الماء وزرع فيها ، أو إذا نضب الماء عن جزيرة دجلة أو الفرات فجاء رجل ملاصق الجزيرة بأرض له فحصنها من الماء وزرع فيها فهى له ، وهذا مثل الأرض الموات إذا كان ذلك لا يضر بأحد ، وإن كان يضر أحدا منع من ذلك ولم يترك يحصنها ولا يزرع فيها ويحدث فيها حدثا إلا بإذن الإمام .

وشرح أبو يوسف رأيه فى القنى والآبار والأنهار والشرب ، فقال إن كان النهر الذى أضر بمنازل قوم قديما فإنه يترك على حاله ، وإن كان محدثا من فعل وال أو غيره نظر فى ذلك إلى منفعته وإلى ضرره ، فإن كانت منفعته أكثر ترك على حاله ، وإن كان ضرره أكثر أمر بهدمه وطمه وتسويته بالأرض .

وكل من له عين أو بئر قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقى دابته وبعيره وغنمه منها ، وليس له أن يبيع من ذلك شيئا للشفة والشفة : الشرب لبنى آدم والبهائم والنعم والدواب ، وله أن يمنع السقى للأرض والزرع والنخل والشجر ، وليس لأحد أن يسقى شيئا من ذلك إلا بإذنه ، فإن أذن له فلا بأس بذلك ، وإن باعه ذلك لم يجز البيع ولم يحل للبائع والمشترى لأنه مجهول غرر لا يعرف . وكذلك إذا كان فى مصنعة يجتمع فيها الماء من السيول فلا خير فى بيعه أيضا ، ولو سمى كيلا معلوما أو عدد أيام

معلومة لم يجز ذلك أيضا للحديث الذى جاء فى ذلك والسنة .

ولا بأس ببيع الماء إذا كان فى الأوعية ، هذا ماء قد أحرز فإذا أحرزه فى وعائه فلا بأس ببيعه . وإن هيأ له مصنعة فاستقى فيها بأوعيته حتى جمع فيها ماء كثيرا ثم باع من ذلك فلا بأس إذا وقع فى الأوعية ، فقد أحرزه وقد طاب بيعه ، فإذا كان يجتمع من السيول فلا خير فى بيعه ، وإن كان فى بئر أو عين يزداد ويكثر أو لا يزداد ولا يكثر فلا خير فى بيعه ولو باعه لم يجز البيع . ومن استقى منه شيئا فهو له ، ولو كان يجوز بيعه ما طاب للذى يستقيه حتى يستطيب نفس صاحبه ، ألا ترى أنه لا يطيب لرجل أن يأخذ ماء من سقاء صاحبه إلا بإذنه وطيب نفسه إلا أن يكون حال ضرورة يخاف فيها على نفسه .

قال — ﷺ — : « المسلمون شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » .

وقال — ﷺ — : « لا تمنعوا كلأ ولا ماء ولا نارا ، فإنه متاع للمقوين وقوة للمستضعفين » .

والمسلمون جميعا شركاء فى كل نهر أو واد يستقون منه ويسقون الشفة والحافر والخف ، وليس لأحد أن يمنع ، ولكل قوم شرب أرضهم ونخلهم وشجرهم لا يحبس الماء عن أحد دون أحد ، وليس النهر الأعظم لعامة المسلمين كنهر خاص لقوم ليس لأحد أن يدخل عليهم ، وأصحاب هذا النهر فيه شفعاء لو باع أحدهم أرضا له ، ولهم أن يمنعوا من أن يسقى أحد من نهرهم أرضه أو شجره أو نخله ، وليس النهر العظيم كذلك فإنه يسقى منه من شاء وتمر فيه السفن ، ولا يكونون فيه شفعاء لشركتهم فى شربه .

لو أن رجلا اتخذ مشرعة فى أرضه على شاطئ النهر يستقى منها السقاءون ويأخذ منهم فيها الأجرة ، فإن ذلك لا يجوز ولا يصلح ، لأنه لم يبعهم شيئا ولم

يؤاجرهم أرضا .

وإن كانت أرض لرجل وأراد المسلمون أن يمروا فيها ليستقوا الماء فمنعهم من ذلك ، فإن الإمام ينظر فى ذلك ، فإن لم يكن لهم طريق يستقون منه الماء غيره لم يكن له أن يمنعهم ومروا فى أرضه ومشرعته بغير أجر ولا كرى ، لأنه لا يستطيع أن يمنع الشفة ؛ وإن كان لهم طريق غير ذلك كان له أن يمنعهم من الممر .

وقال أبو يوسف فى الكلأ والمروج : ولو أن أهل قرية لهم مروج يرعون فيها ويحتطبون منها قد عرف أنها لهم فهى لهم على حالها يتبايعونها ويتوارثونها ويحدثون فيها ما يحدث الرجل فى ملكه ، وليس لهم أن يمنعوا الكلأ ولا الماء ، ولأصحاب المواشى أن يرعوا فى تلك المروج ويستقوا من تلك المياه ، ولا يجوز لأحد أن يسوق ذلك الماء إلى مزرعة له إلا برضى من أهله ، وليس شرب المواشى والشفة كسقى الحرث . وليس لأحد أن يحدث مرجا فى ملك غيره ولا يتخذ فيه نهرا ولا بئرا ولا مزرعة إلا بإذن صاحبه ، ولصاحبه أن يحدث ذلك كله ، فإذا أحدثه لم يكن لأحد أن يزرع فيما زرع ولا يحتجزه ، وإذا كان مرجا فصاحبه وغيره فيه سواء مشتركون فى كلئه ومائه .

وليست الآجام كالمروج ، ليس لأحد أن يحتطب من أجمة أحد إلا بإذنه ، فإن فعل ضمن ، وإن صاد فيها شيئا من السمك أو الطير فهو له من قبل أن رب الأجمة لا يملك ذلك . ألا ترى أن رجلا لو صاد فى دار رجل أو بستانه شيئا من الوحش أو الطير أن له ذلك ، وليس لصاحب الدار ملك عليه ، وله أن يمنعه من دخول داره وبستانه ، فإن دخل بغير إذنه فقد أساء ، وما صاد فهو له أيضا ، وإذا كان السمك قد حظر عليه فإنه كان لا يؤخذ إلا بصيد فالمحظور عليه وغير المحظور سواء لا يجوز بيعه حتى يصاد ، وإن كان يؤخذ

باليد بغير صيد فهو لصاحبه الذى حظر عليه ، وإن صاده غيره ضمن الذى يصيده ، وإن باعه صاحبه قبل أن يأخذه فإن بيعه هذا بمنزلة بيع ما أحرزه فى إنائه .

ولو أن صاحب بقر رعى بقره فى أجمة غيره لم يكن له ذلك ، وضمن ما رعى وأفسد ، ألا ترى أنى أبيع قصب الأجمة وأدفعها معاملة فى قصبها ؟ هذا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عامل أهل أجمة بُرْس على أربعة آلاف درهم وكتب لهم كتابا فى قطعة أديم . والكلأ يباع ولا يدفع معاملة . ولو لم يكن لأهل هذه القرية الذين تكون لهم هذه المروج وفى ملكهم موضع مسرح ومرعى لدوابهم ومواشيهم غير هذه المروج ، كما لأهل كل قرية من قرى السهل والجبل ، فإن لكل قرية من قرى السهل والجبل موضع مسرح ومرعى ومحتطب فى أيديهم ، وينسب إليهم وترعى فيه مواشيهم ودوابهم ويحتطبون منه ، وكانوا متى أذنوا للناس فى رعى تلك المروج والاحتطاب منها وأضر ذلك بهم وبمواشيهم ودوابهم كان لهم أن يمنعوا كل من أراد أن يرعى فيها أو يحتطب منها ، وإن كان لهم مرعى وموضع احتطاب حولهم ليس له مالك فإنه لا ينبغى لهم ، ولا يحل لهم أن يمنعوا الاحتطاب والرعى من الناس .

وإذا كان الحطب فى المروج وهى ملك إنسان فليس لأحد أن يحتطب منها إلا بإذنه ، فإن احتطب منها ضمن قيمة ذلك لصاحبه ، فإن لم يكن فى تلك لأحد ملك فلا بأس أن يحتطب منه جميع الناس ، ولا بأس أن يحتطب ما لم يعلم له مالكا ، وكذلك الثمار فى الجبال والمروج والأودية من الشجر ما لم يغرسه الناس ، ولا بأس يأكل من ثمارها ويتزود ما لم يعلم أن ذلك فى ملك إنسان ، وكذلك العسل يوجد فى الجبال والغياض فلا بأس أن يأكله ، وليس العسل فى الجبال مما

لا يكون فى ملك إنسان من قبل أن الذى يتخذه الناس يكون فى الكُوَارات[1] فما لم يحرز منها فهو مباح كفراخ الصيد من الطير ، وبيضه يكون فى الغياض .

ولو أن رجلا أحرق كلأ فى أرضه فذهبت النار فأحرقت مال غيره لم يضمن رب الأرض لأن له أن يوقد فى أرضه ، وكذلك لو أحرق حصائد فى أرضه كان مثل ذلك . وكذلك صاحب الأجمة يحرق ما فيها من القصب فتحرق النار مال غيره فلا ضمان عليه ، وهما مثل الذى يسقى أرضه فيغرق الماء أرض رجل إلى جنبه أو تنز فليس عليه فى ذلك ضمان ، ولا يحل لمسلم أن يعتمد الإضرار لجاره ولا القصد لتغريق أرضه ، ولا لتحريق زرعه بشىء يحدثه فى أرض نفسه .

وقال أبو يوسف فى تقبيل[2] السواد واختيارهم الولاة لهم والتقدم إليهم : ورأيت أن لا تقبَّل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد ، فإن المتقبل (المتعاقد على توريد قيمة ثابتة محدودة عن الخراج) إذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف (ظلم) أهل الخراج وحملهم عليهم ما لا يجب عليهم : وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه . وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية . والمتقبل لا يبالى بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالته ، ولعله أن يستفضل بعد ما يتقبل به فضلا كثيرا ، وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية ، وضرب لهم شديد ، وإقامته لهم فى الشمس ، وتعليق الحجارة فى الأعناق ، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه ، إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو ، وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم .

---

(١) كوارة النحل : شىء يتخذ للنحل من القضبان أو الطين ضيق الرأس .

(٢) التقبيل : هو الالتزام بعقد بأن يلتزم أحد الولاة بدفع مبلغ معين للخراج ويطلق يده فى الخراج .

وإنما أكره القبالة لأنى لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم ، فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ، ويدعوه فينكسر الخراج ، وليس يبقى على الفساد شيء ، ولن يقل مع الصلاح شيء . إن الله قد نهى عن الفساد ، قال عز وجل : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾[1] . وقال : ﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾[2] . وإنما هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشترى منهم ، وإظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم . والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذى لا يحل ولا يسع .

وإن جاء أهل ناحية أو مصر من الأمصار ومعهم رجل من البلد المعروف موسر فقال : أنا أتضمن عن أهل هذه الناحية أو أهل هذا البلد خراجهم — ورضوا هم بذلك فقالوا : هذا أخف علينا — نظر فى ذلك ، فإن كان صلاحا لأهل هذا البلد والناحية قبل وضمن وأشهد عليه ، وصير معه أميرا من قبل الإمام يوثق بدينه وأمانته ويجرى عليه من بيت المال ، فإن أراد ظلم أحد من أهل الخراج أو الزيادة عليه أو تحميله شيئا لا يجب عليه منعه الأمير من ذلك أشد المنع .

وأمير المؤمنين أعلى عينا بما رأى من ذلك ، وما رأى أنه أصلح لأهل الخراج وأوفر على بيت المال عمل عليه من القبالة والولاية بعد الأعذار والتقدم إلى المتقبل والوالى برفع الظلم عن الرعية ، والوعيد له إن حملهم ما لا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم . فإن فعل فغدا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجرا وناهيا لغيره إن شاء الله .

ورأيت (أبقى الله أمير المؤمنين) أن تتخذ قوما من أهل الصلاح والدين

---

(١) الأعراف ٨٥ (٢) البقرة ٢٠٥

والأمانة فتوليهم الخراج . ومن وليت منهم فليكن فقيها عالما مشاورا لأهل الرأى عفيفا ، لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة ، وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت . تجوز شهادته إن شهد ولا يخاف منه جور فى حكم إن حكم . فإنك إنما توليه جباية الأموال وأخذها من حلها وتجنب ما حرم منها ، يرفع من ذلك ما يشاء ويحتجن منه ما يشاء ؛ فإذا لم يكن عدلا ثقة أمينا فلا يؤتمن على الأموال ، إنى قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج ، إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ، ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناحية ولا بعفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ، وقد يجب الاحتياط فيمن يولى شيئا من أمر الخراج والبحث عن مذاهبهم والسؤال عن طرائقهم كما يجب ذلك فيمن أريد للحكم والقضاء .

وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفا لأهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستخفا بهم ، ولكن يلبس لهم جلبابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا أو يحملوا ما لا يجب عليهم ، واللين للمسلم ، والغلظة على الفاجر ، والعدل على أهل الذمة ، وإنصاف المظلوم ، والشدة على الظالم ، والعفو عن الناس ؛ فإن ذلك يدعوهم إلى الطاعة وأن تكون جبايته للخراج كما يرسم له ، وترك الابتداع فيما يعاملهم به ، والمساواة بينهم فى مجلسه ووجهه حتى يكون القريب والبعيد والشريف والوضيع عنده فى الحق سواء ، وترك اتباع الهوى فإن الله ميز من اتقاه وآثر طاعته وأمره على من سواهما .

وإنى لأرجو إن أمرت بذلك وعلم الله من قبلك إيثارك ذلك على غيره ، ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه الله به دونك ، وأن يكتب لك أجرك وما نويت إن شاء الله .

ولتسير مع الوالى الذى وليته ، قوما من الجند من أهل الديوان فى أعناقهم بيعة على النصح لك ، فإن مِن نصحك أن لا تظلم رعيتك ، وتأمر بإجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهرا بشهر ، ولا تجرى عليهم من الخراج درهما فيما سواه ، فإن قال أهل الخراج نحن نجرى على ولينا وحده من عندنا لم يقبل ذلك منهم ولم يحملوه ؛ فإنه قد بلغنى أنه قد يكون فى حاشية العامل والوالى جماعة ؛ منهم من له به حرمة ، ومنهم من له إليه وسيلة ، ليسوا بأبرار ولا صالحين ، ويستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقضى بذلك الذمامات ، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ، ولا ينصفون من يعاملونه ، إنما مذهبهم أخذ شىء من الخراج كان أو أموال الرعية ، ثم إنهم يأخذون ذلك فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدى ، ثم لا يزال الوالى ومن معه قد نزل بقرية يأخذ أهلها من نزُله بما لا يقدرون عليه ولا يجب عليهم حتى يكلفوا ذلك فيجحف بهم ، ثم قد بعث رجلا من هؤلاء الذين وصفت لك أنهم معه إلى رجل ممن له عليه الخراج ليأتى به فيأخذ منه الخراج فيقول له : قد جعلت لك أن تأخذ منه كذا وكذا . حتى لقد بلغنى أنه ربما وظف له أكثر مما يطالب به الرجل من الخراج ، فإذا أتاه الموجه إليه قال له : أعطنى جعلى الذى جعله لى الوالى ، فإن جعلى كذا وكذا . فإن لم يعطه ضربه وعسفه وساق البقر والغنم ، ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين حتى يأخذ ذلك منهم ظلما وعدوانا ، وهذا كله ضرر على أهل الخراج ونقص للفىء مع ما فيه من الإثم ، فمره بحسم هذا وما أشبه وترك التعرض لمثله ، حتى لا يكون مع الوالى من هؤلاء الذين سميت أحد ، ويكون ما يؤخذ لك من المال من باب حله ولا يوضع إلا فى حقه . وتقدم فى اختيار هؤلاء الجند الذين تصيرهم مع الوالى وليكونوا من صالحى الجند ومن له الفهم واليسر والنعمة منهم إن شاء الله تعالى .

وتقدم فى أن يكون حصاد الطعام ودياسه[1] من الوسط ، ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس ، فإذا ما أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوما واحدا ، فإنه ما لم يحرز فى البيادر تذهب به الأكرة (الحراث) والمارة والطير والدواب ، وإنما يدخل ضرر ذلك على الخراج ، فأما على صاحب الطعام فلا لأن صاحب الطعام يأكل منه فيما بلغنى وهو سنبل قبل الحصاد إلى أن يبلغ المقاسمة ، فحبس الطعام فى الصحراء والبيادر ضرر على الخراج ، وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداسا أخذ فى دياسه .

ولا يحبس الطعام إذا صار فى البيادر الشهر والشهرين والثلاثة ولا يداس ، فإن فى حبسه فى البياذر ضررا على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحرث ، ولا يخرص عليهم ما فى البيادر ولا يحرز عليهم حرزا ثم يؤخذوا بنقائص الحرز ، فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد .

وليس ينبغى للعامل ولا يسعه أن يدعى على أهل الخراج ضياع غلة فيأخذ بذلك السبب أكثر من الشرط ، وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم ولا يكيله عليهم كيل مفرط ، ثم يدعه فى البيادر الشهر والشهرين ثم يقاسمهم فيكيله ثانية ، فإن نقص عن الكيل الأول قال : أوفونى وأخذ منهم ما ليس له ، ولكن إذا ديس الطعام ووضع فيه القفيز قاسمهم وأخذ حقه ولا يحبسه ولا يكيل للسلطان كيل بزيهار وللأكار كيل السرد ، بل يكون كيلا واحدا بين الفريقين سردا مرسلا .

ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجره ولا احتقان ولا نزلة ولا حمولة طعام لسلطان ، ولا يُدَّعى عليهم بنقيصه فتؤخذ منهم ، ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج (رسل البريد) ولا أجور الكيالين

---

(١) داس الرجل الحنطة دوسا ودياسا مثل الدراس .

ولا مؤنة عليهم فى شىء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذين وصفنا من المقاسمة ، ولا يؤخذوا بأثمان الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا ، أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت فى القطيعة فى المقاسمة .

ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجا لدراهم يؤدونها فى الخراج ، فإنه بلغنى أن الرجل منهم يأتى بالدراهم ليؤديها فى خراجه فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها .

ولا يضربن رجل فى دراهم خراج ولا يقام على رجله . فإنه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله شنيع فى الإسلام .

ورأيت أن تأمر عمال الخراج إذا أتاهم قوم من أهل خراجهم فذكروا لهم أن فى بلادهم أنهارا عادية قديمة وأرضين كثيرة غامرة ، وأنهم إن استخرجوا لهم تلك الأنهار واحتفروها وأجرى الماء فيها عمرت هذه الأرضون الغامرة وزاد فى خراجهم ، كتب بذلك إليك فأمرت رجلا من أهل الخير والصلاح يوثق بدينه وأمانته فتوجهه فى ذلك حتى ينظر فيه ويسأل عنه أهل الخبرة والبصيرة به ، ومن يوثق بدينه وأمانته من أهل ذلك البلد ، ويشاور فيه غير أهل ذلك البلد ممن له بصيرة ومعرفة ، ولا يجر إلى نفسه بذلك منفعة ولا يدفع عنها به مضرة ، فإذا اجتمعوا على أن فى ذلك صلاحا وزيادة فى الخراج أمرت بحفر تلك الأنهار وجعلت النفقة من بيت المال ، ولا تحمل النفقة على أهل البلد فإنهم إن يعمروا خيرا من أن يخربوا ، وأن يفروا[1] خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا ، وكل ما فيه مصلحة لأهل الخراج فى أرضيهم وأنهارهم وطلبوا إصلاح ذلك لهم أجيبوا إليه

---

(١) يفروا من الوفر .

إذا لم يكن فيه ضرر على غيرهم من أهل ناحية أخرى ورستاق[١] آخر مما حولهم، فإن كان فى ذلك ضرر على غيرهم وذهاب بغلاتهم وكسر للخراج لم يجابوا إليه.

وإذا احتاج أهل السواد إلى كرى أنهارهم العظام التى تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج، ولا يحمل كله على أهل الخراج، وأما الأنهار التى يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء.

فأما البثوق والمسنيات والبريدات[٢] التى تكون فى دجلة والفرات وغيرهما من الأنهار العظام، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء، لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين، فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطب الأرضين من هذا وشبيهه، وإنما يدل الضرر من ذلك على الخراج، ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله يعمل فى ذلك بما يجب عليه لله عرفت أمانته وحمد مذهبه، ولا يولى من يخونك ويعمل فى ذلك بما لا يحل ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ولمن معه، أو يدع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئا يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم.

قال أبو يوسف: وأنا أرى أن تبعث قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به فى البلاد، وكيف جبوا

---

(١) الرستاق: (معرب) ويستعمل فى الناحية التى هى طرف الإقليم.

(٢) البثوق: جمع بثق وهو ما يخرقه الماء فى جانب النهر. والمسنيات: جمع مسناة وهو السد يبنى فى وجه الماء. البريدات: مفاتيح الماء وهى فارسية.

الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال ، حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل أنه قد أمر به وقد أمر بغيره .

وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترءوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف وخيانة لك فى رعيتك واحتجان شيء من الفيء أو خبث طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئا من أمور رعيتك أو تشركه فى شيء من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإنها دعوة مجابة .

قال معاذ : « صل ونم واطعم واكتسب حلالا ولا تأثم ولا تموتن إلا وأنت مسلم ، وإياك ودعوات — أو دعوة — المظلوم » .

إن العدل وإنصاف المظلوم وتجنب الظلم مع ما فى ذلك من الأجر يزيد به الخراج وتكثر به عمارة البلاد . والبركة مع العدل تكون ، وهى تفقد مع الجور ، والخراج المأخوذ من الجور تنقص البلاد به وتخرب . هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعالى كان يجبى السواد مع عدله فى أهل الخراج وإنصافه لهم ورفعه الظلم عنهم مائة ألف ألف ، والدرهم إذ ذاك وزنه وزن مثقال . فلو تقربت إلى الله عز وجل يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيتك فى الشهر أو الشهرين مجلسا واحدا تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم ، رجوت أن لا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيته ، ولعلك لا تجلس إلا مجلسا أو مجلسين حتى يسير ذلك فى الأمصار والمدن فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترئ على الظلم ، ويأمل الضعيف

المقهور جلوسك ونظرك فى أمره فيقوى قلبه ويكثر دعاؤه ، فإن لم يمكنك الاستماع فى المجلس الذى تجلسه من كل من حضر من المتظلمين نظرت فى أمر طائفة منهم فى أول مجلس وفى أمر طائفة أخرى فى المجلس الثانى وكذلك فى المجلس الثالث ، ولا تقدم فى ذلك إنسانا على إنسان ، من خرجت قصته أو لا دعى أول ، وكذلك من بعده . مع أنه متى علم العمال والولاة أنك تجلس للنظر فى أمور الناس يوما فى السنة ليس يوما فى الشهر تناهوا بإذن الله عن الظلم وأنصفوا من أنفسهم ؛ وإنى لأرجو لك بذلك أعظم الثواب . إنه من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب الآخرة . قال ﷺ : من نفّس عن مؤمن كربة نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما فى الدنيا ستر الله زلته يوم القيامة » . وقال ﷺ : « من بعثنا على عمل فليبخ بقليله وبكثيره ، فمن خان خيطا فما سواه فإنما هو غلول يأتى به يوم القيامة » .

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أهل الكوفة يبعثون إليه رجلا من أخيرهم وأصلحهم ، وإلى أهل البصرة كذلك ، وإلى أهل الشام كذلك ، فبعث إليه أهل الكوفة عثمان بن فرقد ، وبعث إليه أهل الشام معن بن يزيد ، وبعث إليه أهل البصرة الحجاج بن علاط ، كلهم سلميون ، فاستعمل كل واحد منهم على خراج أرضه .

وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : دنست أصحاب رسول الله ﷺ فقال له عمر : يا أبا عبيدة إذا لم أستعن بأهل الدين على سلامة دينى فبمن أستعين ؟ قال : أما إن فعلت فأغنهم بالعمالة عن الخيانة .

يقول : إذا استعملتهم على شىء فأجزل لهم فى العطاء والرزق لا يحتاجون .

قال عبد الله بن العباس : « بعث إلىّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتيته فقال : يا بن عباس ، إن عامل حمص هلك وكان من أهل الخير والخير قليل ، وقد

رجوت أن تكون منهم فدعوتك لأستعملك عليها وفى نفسى منك شىء أخافه ولم أره منك وأنا أخشاه عليك . فما رأيك فى العمل ؟ قلت : فإنى لا أرى أن أعمل لك عملا حتى تخبرنى بما فى نفسك . قال : وما تريد إلى ذلك ؟ قلت : أريد إن كنت بريئا من مثله عرفت أنى لست من أهله وإن كنت ممن أخشى على نفسى خشيت عليها مثل الذى خشيت على ؛ فقلما رأيتك ظننت شيئا إلا جاء عليه الوحى . فقال : يا بن عباس إنى أطمح حالك أنك لا تجدنى إلا قريب الجد، وإنى خشيت عليك أن تأتى على الفىء الذى هو آت وأنك فى عملك ، فيقال لك هلم إلينا ولا علم إليكم دون غيركم ، إنى رأيت رسول الله — ﷺ — استعمل الناس وترككم . وقلت : والله لقد رأيت الذى رأيت ، ولم تراه فعل ذلك؟ قال : والله ما أدرى أصرفكم عن العمل وأرفعكم عنه وأنتم أهل ذلك ، أم خشى أن تعاونوا لمكانكم منه فيتبع العتاب عليكم ولا بد من عقاب ، فقد فرغت لى وفرغت لك فما رأيك ؟ قلت : لا أرى أن أعمل لك . قال : لم ؟ قلت : لأنى إن عملت لك وفى نفسك ما فى نفسك لم أبرح قذاة فى عينك . قال : فأشر علىّ . قلت : أشير عليك أن تستعمل صحيحا منك صحيحا عليك » .

وعن أبى هريرة أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه دعا أصحاب رسول الله — ﷺ — فقال : إذا لم تعينونى فمن يعيننى ؟ قالوا : نحن نعينك . فقال : يا أبا هريرة ائت البحرين وهجر أنت العام . قال : فذهبت فجئته فى آخر السنة بغرارتين فيهما خمسمائة ألف . فقال عمر رضى الله عنه ، ما رأيت مالا مجتمعا قط أكثر من هذا . فيه دعوة مظلوم أو مال يتيم أو أرملة ؟ قلت : لا والله ، بئس والله الرجل أنا إذن إن ذهبت أنت بالمهنأ وأنا أذهب بالمؤنة .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل من بقايا أهل الشام قد انقطع إلى الشام يذكر له ما وقع مما ابتلى به من أمر المسلمين وقلة الأعوان على الخير ، ويسأله

المعاونة على ما هو فيه ، فكتب إليه الرجل : بلغنى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما ابتلى به من أمور المسلمين وقلة الأعوان على الخير ، ويطلب منى المعاونة ، واعلم أنك إنما أصبحت فى خلق بال ورسم دارس ، خاف العالم فلم ينطلق ، وجهل الجاهل فلم يسأل ، وتسألنى المعاونة فيما أنعم الله على فلن أكون ظهيرا للمجرمين .

وكان عمر بن الخطاب يجبى العراق كل سنة مائة ألف ألف ثم يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه من طيب ، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد .

وكتب ميمون بن مهران إلى عمر بن عبد العزيز يشكو شدة الحكم والجبلة ، وكان قاضى الجزيرة وعلى خراجها ، فكتب إليه عمر : إنى لم أكلفك ما يعنيك ، اجتن الطيب واقض بما استبان لك من الحق ، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إلى ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا .

وضرب عمر رجلا فقال له الرجل : إنما كنت أحد رجلين ، رجلا جهل فعلم أو أخطأ فعفى عنه . فقال له عمر : صدقت ، دونك فامتثل . فعفا الرجل عنه .

وضرب عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجالا ونساء ازدحموا على حوض ، فلقيه علىّ فسأله فقال : إنى أخاف أن أكون قد هلكت . فقال على رضى الله عنه : إن كنت ضربتهم على غش وعداوة فقد هلكت . وإن كنت ضربتهم على نصح وإصلاح فلا بأس . إنما أنت راع . إنما أنت مؤدب .

وكان عمر إذا بعث عماله قال : إنى لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثتكم أئمة ، فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم فتظلموهم ، وأدروا لقحة المسلمين .

وخطب عمر بن الخطاب الناس فقال : إنى والله ما أبعث إليكم عمالى

ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا من أموالكم ؛ ولكنى أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم . فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من المسلمين واليا على رعية فأدب بعضهم أنك لتقصه منه ؟ فقال : إى والذى نفسى بيده لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوا بهم الغياض فتضيعوهم .

وكتب عمر رضى الله تعالى عنه إلى عماله أن يوافوه بالموسم فوافوه ، فقام فقال : يأيها الناس إنى بعثت عمالى هؤلاء ولاة بالحق عليكم ، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دمائكم ولا من أموالكم ، فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم ، فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد فقال : يا أمير المؤمنين عاملك ضربنى مائة سوط . فقال عمر : أتضربه مائة سوط ؟ قم فاستقد منه .

فقام إليه عمرو بن العاص فقال له : يا أمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على عمالك كبر عليهم وكانت سنة يأخذ بها من بعدك . فقال عمر : ألا أقيده منه وقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يقيد من نفسه ؟ قم فاستقد . فقال عمرو : دعنا إذا فلنرضه . فقال : دونكم .

فأرضوه بأن اشترِيَت منه بمائتى دينار ، كل سوط بدينارين .

وكان عمر رضى الله عنه إذا استعمل رجلا أشهد رهطا من الأنصار وغيرهم واشترط عليه أربعا : أن لا يركب برذونا ، ولا يلبس ثوبا رقيقا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يغلق بابا دون حوائج الناس ولا يتخذ حاجبا . فبينما هو يمشى فى بعض طرق المدينة إذ هتف به رجل : يا عمر أترى هذه الشروط تنجيك من الله تعالى وعاملك عياض بن غنم على مصر وقد لبس الرقيق واتخذ الحاجب ؟

فدعا محمد بن مسلمة ، وكان رسوله إلى العمال ، فبعثه وقال : ائتنى به على الحال التى تجده عليها . فأتاه فوجد على بابه حاجبا فإذا عليه قميص رقيق . قال : أجب أمير المؤمنين . فقال : دعنى أطرح علىّ قبائى . فقال : لا ، إلا على حالك هذه .

فقدم به عليه . فلما رآه عمر قال : انزع قميصك ، ودعا بمدرعة من صوف وبريضة من غنم وعصا فقال : البس هذه المدرعة وخذ هذه العصا وارع هذه الغنم واشرب واسق من مرّ بك واحفظ الفضل علينا . أسمعت ؟ قال : نعم والموت خير من هذا . فجعل يرددها عليه ويردد الموت خير من هذا . فقال عمر : ولم تكره هذا وإنما سمى أبوك غنما لأنه كان يرعى الغنم ؟ أترى يكون عندك خير ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : انزع . ورده إلى عمله فلم يكن له عامل يشبهه .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا بلغه أن عامله لا يعود المريض ولا يدخل عليه الضعيف نزعه ، وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعرى أن سوّ بين الناس فى مجلسك وجاهك ، حتى لا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع شريف فى حيفك .

وخطب عمر رضى الله عنه الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبى — ﷺ ، وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال : أيها الناس إنه لم يبلغ ذو حق حقه أن يطاع فى معصية الله ، وإنى لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، ويعطى فى الحق ، ويمنع من الباطل ، وإنما أنا ومالكم كولى اليتيم إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف . ولست أدع أحدا يظلم أحدا ولا يعتدى عليه ، حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق ، ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها ؛ لكم علىّ أن لا أجتبى شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم

عليّ إذا وقع في يدى أن لا يخرج منى إلا فى حقه، ولكم عليّ أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم، ولكم عليّ أن لا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم(١) فى ثغوركم، وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء، قليل الفقهاء كثير الأمل، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب. ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتق الله به وليصبر.

يأيها الناس إن الله عظم حقه فوق حق خلقه، فقال فيما عظم من حقه: « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »(٢) ألا وإنى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم، فأدرّوا على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم، ولا تجهلوا عليهم، وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم، فإذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فإن ذلك أبلغ فى جهاد عدوكم.

أيها الناس إنى أشهدكم على أمراء الأمصار أنى لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس فى دينهم، ويقسموا عليهم فيئهم، ويحكموا بينهم، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إليّ.

وكان عمر بن الخطاب يقول: لا يصلح هذا الأمر إلا بشدة فى غير تجبر، ولين فى غير وهن.

وكتب على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى كعب بن مالك وهو عامله: «أما بعد فاستخلف على عملك واخرج فى طائفة من أصحابك تمر بأرض السواد

---

(١) تجمير الجيش: جمعهم فى الثغور وحبسهم عن العودة إلى أهلهم.

آل عمران ٨٠

كورة كورة فتسألهم عن أعمالهم وتنظر فى سيرتهم ، حتى تمر بمن كان منهم فيما بين دجلة والفرات ، ثم ارجع إلى البهقباذات[1] فتول معونتها واعمل بطاعة الله فيما ولاك منها . واعلم أن الدنيا فانية ، وأن الآخرة آتية ، وأن عمل ابن آدم محفوظ عليه ، وأنك مجزى بما أسلفت ، وقادم على ما قدمت من خير ، فاصنع خيرا تجد خيرا ».

وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه إذا بعث سرية ولى أمرها رجلا وأوصاه فقال له : « أوصيك بتقوى الله الذى لا بد لك من لقائه ، وعليك بالذى يقربك إلى الله فإن ما عند الله خلف من الدنيا » .

وكان رباح بن عبيد مع عمر بن عبد العزيز فقال له : إن لى بالعراق ضيعة وولدا ، فائذن لى يا أمير المؤمنين أتعاهدهم ، قال : ليس على ولدك بأس ولا على ضيعتك ضيعة .

فلم يزل به حتى أذن له ، فلما كان يوم ودعه قال : يا أمير المؤمنين حاجتك أوصنى بها . قال : حاجتى أن تسأل عن أهل العراق وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم ؟

فلما قدم العراق سأل الرعية عنهم فأخبر بكل خير عنهم ، فلما قدم على عمر سلم عليه وأخبره بحسن سيرتهم فى العراق وثناء الناس عليهم ، فقال عمر بن عبد العزيز : « الحمد لله على ذلك ، لو أخبرتنى عنهم بغير هذا عزلتهم ولم أستعن بهم بعدها أبدا ، إن الراعى مسئول عن رعيته ، فلا بد أن يتعهد رعيته بكل ما ينفعهم الله به ، ويقربه إليه ، فإن من ابتلى بالرعية فقد ابتلى بأمر عظيم .

---

(١) بهقباذ ، اسم لثلاث كور ببغداد من أعمال سقى الفرات منسوبة إلى قباذ فيروز والد أنو شروان .

وكتب عدى بن أرطأة — عامل كان لعمر بن عبد العزيز — إليه : «أما بعد فإن أناسا قِبلَنا لا يؤدون ما عليهم من خراج حتى يمسهم شيء من العذاب» . فكتب إليه عمر : «أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب البشر كأنى جنة لك من عذاب الله ، وكأن رضاى ينجيك من سخط الله . إذا أتاك كتابى هذا فمن أعطاك ما قِبَله عفوا وإلا فأحلفه ، فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب إلىّ من أن ألقاه بعذابهم ، والسلام» .

وأتى عمر رجل فقال : يا أمير المؤمنين زرعت زرعا فمر به جيش من أهل الشام فأفسدوه فعوضه عشرة آلاف .

وقال أبو يوسف فى الجزية : والجزية واجبة على جميع أهل الذمة ممن فى السواد وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان ، من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ، ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران خاصة ، وإنما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان ، على الموسر ثمانية وأربعون درهما ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهما ، يؤخذ ذلك منهم فى كل سنة ، وإن جاءوا بعرض قُبل منهم من الدواب والمتاع وغير ذلك ، ويؤخذ منهم بالقيمة ولا يؤخذ منهم فى الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر .

وأسهب أبو يوسف فيمن تجب عليه الجزية وكيفية جبايتها والرفق فى تحصيلها : «فلا يضرب أحد من أهل الجزية فى استيدائهم الجزية ، ولا يقاموا فى الشمس ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شيء من المكاره ، ولكن يرفق بهم» .

وقال أبو يوسف فى العشور : أما العشور فرأيت أن توليها قوما من أهل الصلاح والدين وتأمرهم أن لا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به ، فلا يظلموهم ولا يأخذوا منهم أكثر مما يجب عليهم ، وأن يمتثلوا ما رسمناه لهم ، ثم

تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر بهم ، وهل يجاوزون ما قد أمروا به ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه ، وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك الأمر وأحسنت إليهم ، فإنك متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدى لما تأمر به فى الرعية ، يزيد المحسن فى إحسانه ونصحه ، وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدى ، وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض القيمة ، ثم يؤخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ، من كل ما مر به العاشر وكان للتجارة وبلغ قيمة ذلك مائتى درهم فصاعدا أخذ منه العشر ، وإن كان قيمة ذلك أقل من مائتى درهم لم يؤخذ منه شىء » .

وكذلك إذا بلغت القيمة عشرين مثقالا أخذ منها العشر ، فإن كانت قيمة ذلك أقل لم يؤخذ منها شىء ، وإذا اختلف عليه بذلك مرات كل مرة لا يساوى مائتى درهم لم يؤخذ منه شىء . وإن أضاف بعض المرات إلى بعض وكانت قيمة ذلك تبلغ ألفا فلا شىء فيه ، ولا يضاف بعض ذلك إلى بعض .

وإذا مر عليه بمائتى درهم مضروبة ، أو عشرين مثقالا مضروبة ، أخذ من ذلك ربع العشر من المسلم ، ونصف العشر من الذمى ، والعشر من الحربى ، ثم لم يؤخذ منها شىء إلى مثل ذلك الوقت من الحول ، وإن مر بها غير مرة .

وكذا إذا مر بمتاع قد اشتراه للتجارة ، فإن كان المتاع يساوى مائتى درهم أو عشرين مثقالا أخذ منه ، وإن كان لا يساوى وكانت قيمته تنقص عن مائتى درهم أو عشرين مثقالا لم يؤخذ منه شىء ، فأما الحربى خاصة فإذا أخذ منه العشر ، وعاد ودخل فى دار الحرب ثم خرج بعد شهر منذ أخذ منه العشر ، فمر على العاشر فإنه يأخذ منه إذا كان معه ما يساوى مائتى درهم أو عشرين مثقالا ،

من قِبَل أنه حيث عاد إلى دار الحرب فقد سقطت عنه أحكام الإسلام ، وإن كان معه أقل من مائتى درهم أو عشرين مثقالا لم يؤخذ منه شىء ، إنما السنة فى المائتى درهم أو عشرين مثقالا ، فعلى المسلم فى المائتين خمسة دراهم ، وعلى الذمى فى المائتين عشرة دراهم ، وعلى الحربى فى المائتين عشرون درهما ، وعلى هذا الحساب الذى وضعت لك يؤخذ فى الذهب إذا وجب : على المسلم نصف مثقال ، وعلى الذمى مثقال ، وعلى الحربى مثقالان .

وما لم يكن من مال التجارة ومروا به على العاشر فليس يؤخذ منه شىء ، وإذا مر أهل الذمة على العاشر بخمر أو خنازير قُوِّم ذلك على أهل الذمة ، يقومه أهل الذمة ثم يؤخذ منهم نصف العشر ، وكذلك أهل الحرب إذا مروا بالخنازير والخمور فإن ذلك يُقوَّم عليهم ثم يؤخذ منهم العشر ، وإذا مر المسلم على العاشر بغنم أو بقر أو إبل فقال إن هذه ليست سائمة أحلف على ذلك ، فإذا حلف كف عنه . وكذلك كل طعام يمر به عليه فقال : هو من زرعى ، وكذلك التمر يمر به فيقول : هو من تمر نخلى ، فليس عليه فى ذلك عشر ، إنما العشر فى الذى اشترى للتجارة ، وكذلك الذمى ، أما الحربى فلا يقبل منه ذلك .

وإذا مر التاجر على العاشر بمال وبمتاع وقال : قد أديت زكاته . وحلف على ذلك فإن ذلك يقبل منه ويكف عنه . ولا يقبل فى هذا من الذمى ولا من الحربى لأنه لا زكاة عليهما يقولان قد أديناها ، ومن مر بمال فادعى أنه مضاربة أو بضاعة لم يعشر بعد أن يحلف على ذلك . وكذلك العبد يمر بمال سيده وبمال نفسه فهو سواء وليس عليه عشر حتى يحضر مولاه ، وكذلك المكاتب ليس على ماله العشر .

وإذا مر عليه التاجر بالعنب أو بالرطب أو بالفاكهة الرطبة قد اشتراها للتجارة وهى تساوى مائتى درهم فصاعدا أخذ منه ربع العشر إن كان مسلما .

وإن كان ذميا فنصف العشر ، وإن كان حربيا فالعشر ، وإن كان قيمة ذلك أقل من مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء . وإن اختلف عليه بذلك مرارا ، وكل ذلك لا يساوى مائتى درهم . ولو أضاف بعض المرات إلى بعض فكانت قيمة ذلك إذا جمع تبلغ ألفا فلا زكاة فيه أيضا ، ولا ينبغى أن يضاف بعض المرار إلى بعض .

وكل ما أخذ من المسلمين من العشور فسبيله سبيل الصدقة ، وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب سبيل الخراج ، وكذلك ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا من جزية رءوسهم فإن سبيل ذلك كله سبيل الخراج . ويقسم فيما يقسم فيه الخراج . وليس هو الصدقة ، قد حكم الله فى الصدقة حكما قد قسمها عليه فهى على ذلك ، وحكم فى الخمس حكما فهو على ذلك .

قال زياد بن حدير : « أول من بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى العشور أنا ، فأمرنى أن لا أفتش أحدا ، وما مر على من شيء أخذت من حساب أربعين درهما واحدا من المسلمين ، ومن أهل الذمة من كل عشرين واحدا ، ومن لا ذمة له العشر » .

وقال أنس بن مالك : « بعثنى عمر رضى الله تعالى عنه على العشور ، وكتب لى عهدا أن آخذ من المسلمين مما اختلفوا فيه لتجاراتهم ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر » .

وكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب : « إن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر » . فكتب إليه عمر : « خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما ، وليس دون المائتين شيء ، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ، وما زاد فبحسابه » .

وكتب أهل نبيج — قوم من أهل الحرب — وراء البحر إلى عمر بن الخطاب :

« دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا » ، فشاور عمر أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فى ذلك ، فأشاروا عليه به ، فكانوا أول من عشر من أهل الحرب .

وبعث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه زياد بن حدير الأسدى على عشور العراق والشام ، وأمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ، فمر عليه رجل من بنى تغلب من نصارى العرب ومعه فرس فقوموها بعشرين ألفا ، فقال حدير : أعطنى الفرس وخذ منى تسعة عشر ألفا أو أمسك الفرس فأعطنى ألفا ، فأعطاه ألفا وأمسك الفرس .

ثم مر عليه راجعا فى سنة فقال له : أعطنى ألفا أخرى ، فقال له التغلبى : كلما مررت بك تأخذ منى ألفا ؟ قال : نعم . فرجع التغلبى إلى عمر بن الخطاب فوافاه بمكة وهو فى بيت فاستأذن عليه فقال : من أنت ؟ فقال : رجل من نصارى العرب . وقص عليه قصته فقال له عمر : كفيت ، ولم يزده على ذلك .

فرجع التغلبى إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى ، فوجد كتاب عمر قد سبق إليه : من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل ، إلا أن تجد فضلا .

وكان رزيق بن حيان على مكس مصر أيام عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه عمر : « انظر من مر عليك من المسلمين فخذ بما ظهر من أموالهم العين ، ومما ظهر من التجارات من كل أربعين دينارا دينارا ، وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينارا . فإن نقصت تلك الدنانير فدعها ولا تأخذ منها شيئا ، وإذا مر عليك أهل الذمة فخذ مما يديرون من تجاراتهم من كل عشرين دينارا دينارا فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ، ثم دعها فلا تأخذ منها شيئا . واكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم إلى مثلها من الحول » .

وإذا مر أهل الذمة بالخمر للتجارة أخذ من قيمتها نصف العشر ، ولا يقبل قول الذمي فى قيمتها حتى يؤتى برجلين من أهل الذمة يقومانها عليه فيأخذ نصف العشر من قيمتها .

قال أبو يوسف : وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من أمر أهل الدعارة والفسق والتلصص إذا أخذوا فى شيء من الجنايات وحبسوا هل يجرى عليهم ما يقوتهم فى الحبس ؟ والذى يجرى عليهم من الصدقة أو من غير الصدقة ؟ وما ينبغى أن يعمل به فيهم ؟

لا بد من كان فى مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا وجد شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال ، من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك ، وأحب إلىّ أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته ، فإنه لا يحل ولا يسع إلا ذلك .

والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه ، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب ، يترك يموت جوعا ؟ وإنما حمله على ما صار إليه القضاء أو الجهل . ولم تزل الخلفاء يا أمير المؤمنين تجرى على أهل السجون ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف ، وأول من فعل ذلك على ابن أبى طالب كرم الله وجهه بالعراق ، ثم فعله معاوية بالشام ، ثم فعل ذلك الخلفاء من بعده .

كان على بن أبى طالب إذا كان فى القبيلة أو القوم الرجل الداعر حبسه ، فإن كان له مال أنفق عليه من ماله ، وإن لم يكن له مال أنفق عليه من بيت مال المسلمين وقال : يحبس عنهم شره ، وينفق عليه من بيت مالهم .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته : « لا تدعن فى سجونكم أحدا من المسلمين فى وثاق لا يستطيع أن يصلى قائما ، ولا تبيتن فى قيد إلا رجلا مطلوبا

بدم ، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم فى طعامهم وأدمهم والسلام » .

فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم ، وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك إليهم ، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوّام والجلاوزة (الشرطة) . وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من فى السجن ممن تجرى عليهم الصدقة ، وتكون الأسماء عنده يدفع ذلك إليهم شهرا بشهر ، يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه فى يده ، فمن كان منهم قد أطلق وخلى سبيله رد ما يجرى عليه . ويكون للأجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد ، وليس كل من فى السجن يحتاج إلى أن يجرى عليه ، وكسوتهم فى الشتاء قميص وكساء ، وفى الصيف قميص وإزار . يجرى على النساء مثل ذلك ، وكسوتهن فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء ، وفى الصيف قميص وإزار ومقنعة ، وأغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس ، فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطئوا وقضى الله عليهم ما هم فيه فحبسوا ، يخرجون فى السلاسل يتصدقون . وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم ، فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الإسلام ؟ وإنما صاروا إلى الخروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع ، فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا . إن ابن آدم لم يعرَ من الذنوب ، فتفقد أمرهم ، ومر بالإجراء عليهم مثلما فسرت لك . ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن ، فإنه بلغنى وأخبرنى به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فيمكث فى السجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى فى دفنه ، وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكترون من حمله إلى المقابر فيدفن بلا غسيل ولا كفن ولا صلاة عليه ، فما أعظم هذا فى الإسلام وأهله .

ولو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس ، ولخاف الفساق وأهل الدعارة ولتناهوا عما هم عليه ، وإنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر فى أمرهم ، إنما هو حبس وليس فيه نظر . فمر ولاتك جميعا بالنظر فى أمر أهل الحبوس فى كل الأيام ، فمن كان عليه أدب أُدِّب وأطلق ، ومن لم يكن له قضية خلى عنه .

وتقدم إليهم أن لا يسرفوا فى الأدب ولا يتجاوزوا بذلك إلى ما لا يحل ولا يسع ، فإنه بلغنى أنهم يضربون الرجل — فى التهمة وفى الخيانة — الثلاثمائة والمائتين وأكثر وأقل ، وهذا مما لا يحل ولا يسع ، ظهر المؤمن حمى إلا من حق يجب بفجور أو قذف أو سكر أو تعزير لأمر أتاه لا يجب فيه حد ، وليس يضرب فى شىء من ذلك ، كما بلغنى أن ولاتك يضربون ، وأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد نهى عن ضرب المصلين .

قال أبو بكر رضى الله عنه : « نهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن ضرب المصلين » . ومعنى هذا الحديث عندنا والله أعلم أنه نهى عن ضربهم من غير أن يجب عليهم حد يستحقون به الضرب . وهذا الذى يأتينى أن ولاتك يفعلونه ليس من الحكم والحدود فى شىءٍ ، ليس يجب هذا على جانى الجناية صغيرة ولا كبيرة . من كان منهم أتى ما يجب عليه فيه قود أو حد أو تعزير أقيم عليه ذلك ، وكذلك من جرح منهم جراحة فى مثلها قصاص وقامت عليه البينة بذلك قيس جرحه واقتص منه ، إلا أن يعفو المجنى عليه . فإن لم يكن يستطاع فى مثلها قصاص حكم عليه بالأرش وعوقب وأطيل حبسه حتى يحدث توبة ثم يخلى عنه ، وكذلك من كان منهم سرق ما يجب فيه القطع قطع ، إن الأجر فى إقامة الحدود عظيم ، والصلاح فيه لأهل الأرض كثير .

قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا ثلاثين صباحا » .

ولا يحل للإمام أن يحابى فى الحد أحدا ، ولا تزيله عنه شفاعة ، ولا ينبغى له أن يخاف فى ذلك لومة لائم إلا أن يكون حدا فيه شبهة ، فإذا كان فى الحد شبهة درأه لما جاء فى ذلك من الآثار عن أصحاب رسول الله — ﷺ — والتابعين وقولهم : « ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم . والخطأ فى العفو خير من الخطأ فى العقوبة » ، ولا يحل إقامة حد على من لم يستوجبه بغير شبهة فيه ، ولا يحل لمسلم أن يشفع إلى إمام فى حد قد وجب وتبين . فأما قبل أن يرفع ذلك إلى الإمام فقد رخص فيه أكثر الفقهاء ، ولم يختلفوا فى التوقى للشفاعة فيه بعد رفعه إلى الإمام فيما علمنا والله أعلم .

مروا على الزبير بسارق فشفع فيه فقالوا له : « أتشفع فى حد ؟ » قال : « نعم ، ما لم يؤت به الإمام ، فإن أتى الإمام فلا عفا الله عنه إن عفا عنه » .

وشفع على رضى الله عنه فى سارق ، فقيل له : « أتشفع فى سارق ؟ » قال : نعم ، ما لم يبلغ به الإمام ، فإذا بلغ به الإمام فلا أعفاه الله إن عفا عنه » .

وقد رأيت غير واحد من فقهائنا يكره الشفاعة فى الحد ألبتة ، ويتوقاه ويحتج فى ذلك بما قال ابن عمر : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ، فقد حادّ الله فى خلقه » .

سرقت امرأة من قريش قطيفة من بيت رسول الله — ﷺ — فتحدث أن رسول الله — ﷺ — عزم على قطع يدها ، فأعظم الناس ذلك . فجاءوا النبى — ﷺ — يكلمونه وقالوا : نحن نفديها بأربعين أوقية . فقال : « تطهر خير لها » فلما سمعوا لين قول النبى — ﷺ — أتوا أسامة فقالوا : « كلم رسول الله — ﷺ — » فكلمه . فقام رسول الله — ﷺ — خطيبا فقال : ما إكثاركم علىّ فى حد من حدود الله وقع على أمة من إماء الله ؟ والذى نفسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد نزلت بمثل الذى نزلت به لقطع محمد يدها . يا أسامة لا تشفع فى حد » .

وتكلم أبو يوسف فى الحدود على أهل الجنايات وعن الأموال التى تصاب مع اللصوص ثم قال : وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين مما بلغك واستقر عندك وكتب به إليك صاحب البريد فى يد قاضى البصرة أرضين كثيرة فيها نخل وشجر ومزارع ، وأن غلة ذلك تبلغ شيئا كثيرا فى السنة ، وقد صيرها فى أيدى وكلاء من قبله يجر على الواحد منهم ألفا وألفين وأكثر وأقل وليس أحد يدعى فيها دعوى ، وأن القاضى ووكلاءه يأكلون ذلك ، فهذا وشبهه من الواجب عليك النظر فيه إذا استقر عندك ، فما كان فى يد القاضى مما ليس يدعى فيه أحد دعوى وقد استغله وكلاء القاضى وأخذوا غلة ذلك وطالت به المدة ولم يأت أحد يطلب فيه حقا ، وقد أمسك القاضى عن الكتابة إليك بذلك لترى فيه رأيك . فقاضى سوء صير هذا وشبهه مأكلة له ولمن معه ، وهو آثم فى ذلك . فتقدم إلى ولاتك فى محاسبة القاضى على ما جرى على يديه وأيدى وكلائه حتى يخرجوا منه ، ويصير ما كان من غلات ذلك إلى بيت مال المسلمين بعد أن لا يكون لوارث ولا لأحد فيها شيء يدعيه ، وإذا صح مثل هذا على القاضى حتى تبين امتناعه من الكتابة إلى الإمام بذلك ، فقاضى سوء غاش لنفسه وللإمام وللمسلمين ، ولا ينبغى أن يستعان به على شيء من أمور المسلمين .

وقد رأيت أن تأمر بإخراج تلك الأرضين من أيدى القضاة الذين يأكلونها ويؤكلونها ، وأن تختار لها رجلا ثقة أمينا عدلا ، وأن تأمر أن يختار لها الثقات فيتولوا أمرها ، وتأمر بأن تحمل غلاتها إلى بيت مال المسلمين إلى أن يأتى مستحق لشيء منها ، فإن كل من مات من المسلمين لا وارث له فماله لبيت المال ، إلا أن يدعى مدع منها شيئا بميراث يرثه عن بعض من مات وتركها ويأتى على ذلك ببرهان وبينة ، فيعطى منها ما يجب له ، ورأيك بعد ذلك .

وسألت من أى وجه تجرى على القضاة والعمال الأرزاق ؟ فاجعل — أعز الله

أمير المؤمنين بطاعته ــ ما يجرى على القضاة والولاة من بيت مال المسلمين : من جباية الأرض ، أو من خراج الأرض والجزية لأنهم فى عمل المسلمين ، فيجرى عليهم من بيت مالهم ، ويجرى على كل والى مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل ، وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ، ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا ، إلا والى الصدقة فإنه يجرى عليه منها كما قال الله تعالى : « والعاملين عليها » . فأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك إليك ، من رأيت أن تزيده فى رزقه منهم زدت ، ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت ، أرجو أن يكون ذلك موسعا عليك ، وكل ما رأيت أن الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره ، فإنى أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب ، وأما قولك يجرى على القاضى إذا صار إليه ميراث من مواريث الخلفاء وبنى هاشم وغيرهم ، من الذى يصير إليه ويوكل من قلبه من يقوم بضياعهم ومالهم فلا . إنما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قيما للفقير والغنى ، والصغير والكبير ، ولا يؤخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه مواريثه رزقا ، ولم تزل الخلفاء تجرى للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين ، فأما من يوكل بالقيام بتلك المواريث فى حفظها والقيام بما يجرى عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه لا يجحف بمال الوارث فيذهب به ، ويأكله الوكلاء والأمناء ، ويبقى الوارث هالكا . وما أظن كثيرا من القضاة والله أعلم يبالى بما صنع وكيفما عمل ، ولا يبالى أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث ، إلا من وفقه الله تعالى منهم .

وسألت يا أمير المؤمنين عن رجل الحرب يخرج من بلاده يريد الدخول إلى دار الإسلام فيمر على مسلحة من مسالح المسلمين عن طريق أو غير طريق فيؤخذ فيقول : خرجت وأنا أريد أن أصير إلى بلاد الإسلام أطلب أمانا على نفسى وأهلى

وولدى . أو يقول : إنى رسول . يصدق أو لا يصدق ؟ وما الذى ينبغى أن يعمل به فى أمره . فإن كان هذا الرجل الحربى إذا مر بمسلحة مر ممتنعا منهم ، لم يصدق ولم يقبل قوله ، وإن لم يكن ممتنعا منهم ، صدق وقبل قوله ، فإن قال : أنا رسول الملك بعثنى إلى ملك العرب ، وهذا كتابه معى ، وما معى من الدواب والمتاع والرقيق فهدية إليه فإنه يصدق ويقبل قوله ، إذا كان أمرا معروفا . فإن مثل ما معه لا يكون إلا على مثل ما ذكر من قوله إنها هدية من الملك إلى ملك العرب ، ولا سبيل عليه ، ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال ، إلا أن يكون معه شىء له خاصة حمله للتجارة ، فإنه إذا مر به على العاشر عشره ، ولا يؤخذ من الرسول الذى بعث به ملك الروم ولا من الذى قد أعطى أمانا عشر إلا ما كان معهما من متاع التجارة ، فأما غير ذلك من متاعهم فلا عشر عليهم فيه .

وإذا قال هذا الحربى المأخوذ إنما خرجت من بلادى وجئت مسلما ، فإن هذا لا يصدق وهو فىء للمسلمين إن لم يسلم ، والمسلمون فيه بالخيار إن شاءوا قتلوه وإن شاءوا استرقوه ، وإن قدم لتضرب عنقه فقال : آمنت بدينكم ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإن هذا إسلام يحقن به دمه ، ويكون ماله فيئا ولا يقتل ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلـه إلا الله ، فإذا قالوها منعوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . فإذا أراد هذا الرسول رسول الملك أو الذى أعطى الأمان أن يرجع إلى دار الحرب فإنهم لا يتركون أن يخرجوا معهم بسلاح ولا كراع ولا رقيق مما أسر من أهل الحرب ، فإن اشتروا من ذلك شيئا يرد على الذى باعه منهم ، ورد أولـئك الثمن إليهم . فإن كان مع هذا الرسول أو الذى أعطى الأمان سلاح جيد فأبدله بسلاح أشر منه ، أو دابة فأبدلها بأشر منها ، فذلك جائز ولا بأس بأن يترك يخرج بذلك . وإن كان أبدله بخير منه رد عليه سلاحه ودابته ، ورد ذلك على صاحبه

الذى أبدله ، ولا ينبغى للإمام أن يترك أحدا من أهل الحرب يدخل بأمان ، أو رسولا من ملكهم يخرج بشىء من الرقيق والسلاح أو بشىء مما يكون قوة لهم على المسلمين . فأما الثياب والمتاع فهذا وما أشبهه لا يمنعون منه . ولا ينبغى أن يبايع الرسول ولا الداخل معه بأمان بشىء من الخمر والخنزير ولا الربا وما أشبه ذلك ، لأن حكمه حكم الإسلام وأهله ، ولا يحل أن يبايع فى دار الإسلام ما حرم الله تعالى . ولو أن هذا الداخل إلينا بأمان أو الرسول زنى أو سرق فإن بعض فقهائنا قال : لا أقيم عليه الحد . فإن كان استهلك المتاع فى السرقة ضمنته . وقال إنه لم يدخل إلينا ليكون ذميا تجرى عليه أحكامنا ، قال : ولو قذف رجلا حددته ، وكذلك لو شتم رجلا عزرته ، لأن هذا حق من حقوق الناس .

وقال بعضهم : إن سرق قطعته ، وإن زنى حددته ، وكان أحسن ما سمعنا فى ذلك والله أعلم أن تأخذه بالحدود كلها حتى تقام عليه .

وإن أقام هذا المستأمن فأطال المقام أمر بالخروج ، فإن أقام بعد ذلك حولا وضعت عليهم الجزية ، ولو أن مركبا من مراكب المشركين من أهل الحرب حملته الريح بمن فيه حتى ألقته على ساحل مدينة من مدائن المسلمين ، فأخذوا المركب ومن فيه فقالوا : نحن رسل بعثنا الملك ، وهذا كتابه معنا إلى ملك العرب ، وهذا المتاع الذى فى المركب هدية إليه . فينبغى للوالى الذى يأخذهم أن يبعث بهم وما معهم إلى الإمام ، فإن كان الأمر على خلاف ما ذكروا كانوا فيئا لجميع المسلمين وما معهم ، والأمر فيهم إلى الإمام إن رأى أن يستبقيهم فعل ، وإن رأى قتلهم فعل ، والإمام فى ذلك موسع عليه .

وإن كان أهل المركب إنما قالوا نحن تجار حملنا معنا تجارة لندخلها بلاد كم لم يقبل ذلك منهم وصيروا ما معهم فيئا للمسلمين ، ولم يقبل قولهم إنا تجار .

وسألت يا أمير المؤمنين عن الجواسيس يوجدون وهم من أهل الذمة أو أهل

الحرب أو من المسلمين ، فإن كانوا من أهل الحرب أو من أهل الذمة ممن يؤدى الجزية من اليهود والنصارى والمجوس فاضرب أعناقهم ، وإن كانوا من أهل الإسلام معروفين فأوجعهم عقوبة وأطل حبسهم حتى يحدثوا توبة .

وينبغى للإمام أن تكون له مسالح على المواضع التى تنفذ إلى بلاد أهل الشرك من الطرق ، فيفتشون من مر بهم من التجار فمن كان معه سلاح أخذ منه ورد ، ومن كان معه رقيق رد ، ومن كانت معه كتب قرئت كتبه ، فما كان من خبر من أخبار المسلمين قد كتب به أخذ الذى أصيب معه الكتاب وبعث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه ، ولا ينبغى للإمام أن يدع أحدا ممن أسر من أهل الحرب فى أيدى المسلمين يخرج إلى دار الحرب راجعا إلا أن ينادى به ، فأما على غير الفدا فلا .

ولو أن الإمام بعث سرية فأغاروا على قرية من قرى أهل الحرب فأخذوا من فيها من الرجال والنساء والصبيان فأمر بهم الإمام إلى دار الإسلام ، فقسمهم الإمام واشتراهم من القسم وصاروا له فأعتقهم جميعا ، ثم أرادوا الرجوع إلى دار الحرب ـــ الرجال والنساء ـــ فلا ينبغى أن يتركهم وذاك ، ولا يدع أحدا منهم يعود إلى دار الحرب بعد أن يصيروا فى دار الإسلام إلا على ما وضعت لك من الفداء يفادى بهم .

قال الحسن : « لا يحل لمسلم أن يحمل إلى عدو المسلمين سلاحا يقويهم به على المسلمين ، ولا كراعا ولا ما يستعان به على السلاح والكراع » .

وقد ترجم كتاب الخراج إلى الألمانية وإلى لغات أخرى ، وعكف عليه رجال الاقتصاد ورجال القانون الأجانب وأخذوا عنه الكثير ، فهل آن الأوان ليدرسه رجال القانون ورجال الاقتصاد عندنا دراسة مقارنة مستفيضة ؟ إنهم لو فعلوا لخرجوا بحقيقة لا تقبل الجدل ، وهى أن أغلب النظريات الاقتصادية المعاصرة ، وأغلب القوانين والشروح الفقهية الأجنبية ، إنما هى بضاعتنا قد ردت إلينا .

المــراجع

القرآن الكريم ـــ الكتاب المقدس ـــ صحيح البخارى

السيرة النبوية — لابن هشام

إنسان العيون (السيرة الحلبية) — لعلى بن برهان الدين الحلبى

بلوغ الأرب — للألوسى

نهاية الأرب — للنويرى

إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينسن ـــ ترجمة د . يحيى الخشاب

نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار — للشيخ الشبلنجى

إحياء علوم الدين — للغزالى

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى

حقوق الإنسان فى الإسلام — للدكتور على عبد الواحد وافى

محمد رسول الله — مولاى محمد على

الرسول . حياة محمد — ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار

الإسلام والنظام العالمى الجديد — مولاى محمد على ـــ ترجمة أحمد جوده السحار

الدين القيم — لأبى الأعلى المودودى

المستشرقون والإسلام — للمهندس زكريا هاشم زكريا

نساء النبى — للدكتورة بنت الشاطئ

عبقرية محمد — لعباس محمود العقاد

الروض الأنف — للسهيلى

تاريخ الطبرى

مشكلة الحرية — للدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون — لعباس محمود العقاد
أسباب النزول — للواحدى
شرح نهج البلاغة — لابن أبى الحديد
الملل والنحل — للشهرستانى
فجر الضمير — جيمس هنرى برستد — ترجمة الدكتور سليم حسن
تفصيل آيات القرآن الحكيم — جول لابوم — ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى
الوحى المحمدى — السيد محمد رشيد رضا
سلم الواعظين — عبد الله بن الشيخ حسن الفارسى الكوهجى
الحضارة البيزنطية — ستيفن رنسيمان
كتاب الخراج — لأبى يوسف
الإسلام والاشتراكية — ميرزا محمد حسين
ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب
النظرية العامة لكينز بين الرأسمالية والاشتراكية
دكتور جمال الدين محمد سعيد
رأس المال — كارل ماركس — ترجمة دكتور راشد البراوى
الربا فى الإسلام — ترجمة فاروق حلمى

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحمس بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفارى — ترجم إلى الاندونيسية
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة — (مجموعة أقاصيص)
- سعد بن أبى وقاص
- همزات الشياطين — (مجموعة أقاصيص)
- أبناء أبى بكر الصديق
- فى قافلة الزمان — (رواية)
- أميرة قرطبة — (قصة)
- النقاب الأزرق — (قصة)
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله

تأليف : مولاى محمد على

ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

- قصص من الكتب المقدسة — (مجموعة أقاصيص)
- صدى السنين — (مجموعة أقاصيص)

ترجمت إلى الإندونيسية

- حياة الحسين

— الشارع الجديد (رواية)
— وكان مساء (قصة)
— أذرع وسيقان (قصة)
— المستنقع (قصة)
— ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)
— الحصاد (رواية)
— جسر الشيطان (قصة)
— النصف الآخر (قصة)
— السهول البيض (رواية)
— أم العروسة (قصة)
— قلعة الأبطال (قصة)
— وعد الله وإسرائيل
— عمر بن عبد العزيز
— هذه حياتى
— الحفيد
— ذكريات سينمائية
— كشك الموسيقى
— خفقات قلب
— صور وذكريات
— الإسراء والمعراج
— القصة من خلال تجاربى الذاتية
— عدو البشر
— أبطال الجزيرة الخضراء
— الثمر

ـــ الله اكبر
ـــ ثلاثة رجال فى حياتها
ـــ مسجد الرسول
ـــ فات الميعاد
ـــ آدم إلى الأبد
ـــ العرب فى أوربا
ـــ الدستور من القرآن العظيم

السيرة النبوية فى ٢٠ جزءًا

رقم الإيداع : ٥٩٥٩
الترقيم الدولى : ١ ــ ٣٢٦ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

السيرة النبوية



وفاة الرسول

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين ﴾

(قرآن كريم)

١

عاد رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى المدينة بعد أداء فريضة الحج ، وانطلق أبو موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل وجرير بن عبد الله البجلى إلى اليمن ومعهم الناس ، وصورة رسول الله ـــ ﷺ ـــ تملأ رءوسهم وصوته يسرى كالنسيم فى أغوارهم . كان أبو موسى يسترجع ما كان بينه وبين نبيه عليه السلام فى الحج ، بعثه ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ إلى أرض قومه قبل الحج ، فلما علم بخروجه إلى مكة وافاه وهو نازل بالأبطح ، فقال ـــ ﷺ :

ـــ أحججت يا عبد الله بن قيس ؟

ـــ نعم يا رسول الله .

ـــ كيف قلت ؟

ـــ قلت لبيك إهلالا كإهلالك .

ـــ فهل سقت معك هديا ؟

ـــ لم أسق .

ـــ فطف بالبيت واسع بين الصفا والمروة ثم حل .

وكان أبو موسى الأشعرى يصغى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ هادئ النفس مطمئن الفؤاد ، وما دار بخلده أن ذلك كان آخر لقاء بينه وبين رسول الله ـــ ﷺ ـــ .

وأطرق معاذ بن جبل فراحت الذكريات تتدفق إلى رأسه ؛ إنه يرى نفسه يوم بعثه ـ ﷺ ـ وأبا موسى الأشعرى إلى اليمين ، بعث كل واحد منهما على مخلاف [١] ، واليمن مخلافـان ، وراح صوت رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يسرى فى عين ذاته :

ـ يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا .

وتذكر معاذ ما قال أبو موسى فى ذلك اليوم :

ـ يا نبى الله إن أرضنا بها شراب من الشعير المزر ، وشراب من العسل البتع [٢] .

ـ كل مسكر حرام .

ورن فى جوف معاذ وصية نبى الله ـ صلوات الله وسلامه عليه :

ـ إنك ستأتى قوما من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليكم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم [٣] ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب .

ورأى معاذ نفسه وهو فى أرضه . كان قريبا من صاحبه أبى موسى فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه ، وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس ،

---

(١) هو لليمن كالريف للعراق .

(٢) المزر : نبيذ الشعير . والبتع : نبيذ العسل .

(٣) كرائم جمع كريمة وهى النفيسة .

وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه فقال له :

ـــ يا عبد الله بن قيس ، ما هذا ؟

ـــ يهودى أسلم ثم ارتد .

ـــ لا أنزل حتى يقتل .

ـــ إنما جيء به لذلك ، فانزل .

ـــ ما أنزل حتى يقتل .

فأمر به فقتل ، ثم نزل فقال :

ـــ يا عبد الله كيف تقرأ القرآن ؟

ـــ أتفوقه تفوقا (١) .

ـــ فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟

ـــ أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئى من النوم ، فأقرأ ما كتب الله لى فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى (٢) .

وطاف بذهن معاذ ذلك اليوم الذى قدم فيه اليمن ؛ إنه صلى بالناس الصبح فقرأ سورة النساء فلما قال : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ قال رجل خلفه : قرّت عين أم إبراهيم . واستمرت الأفكار تنثال على رأس معاذ و لم يخطر له على قلب أن لقاءه رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى موسم الحج هو آخر لقاء بينهما إلى يوم الدين .

وانطلق جرير بن عبد الله البجلى على ظهر جواده ثابتا ، وكان لا يثبت على الخيل . إنه يذكر ذلك اليوم الذى قال له فيه نبى الإسلام عليه السلام : إلا تريحنى من ذى الخلصة ؟ إنه الكعبة اليمانية ، إنه بيت خثعم

---

(١) أى ألازم قراءته ليلا ونهارا شيئا بعد شىء . (٢) أى أطلب الثواب من نومتى .

بيت قومه، وإن قومه أصحاب خيل وهو لا يثبت على الخيل. فذكر ذلك للنبى — ﷺ — فضرب يده على صدره وقال: اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا. فما وقع عن فرس بعد.

ورأى جرير نفسه وهو ينطلق مسرعا فى مائة وخمسين راكبا، حتى إذا ما بلغوا الكعبة اليمانية دخلوا على ذى الخلصة فكسروه وقتلوا من وجدوا عنده، ورأى جرير أن يزف البشرى إلى نبى الإسلام، عليه السلام فبعث إليه رسولا من أحمس يكنى أبا أرطأة، فجاء رسول جرير إلى المدينة وقال لرسول الله ﷺ:

— والذى بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب.

فقال رسول الله — ﷺ:

— اللهم بارك فى خيل أحمس ورجالها.

ولما قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقيم بالأزلام، فقيل له :

— إن رسول الله — ﷺ — ههنا، فإن قدر عليك ضرب عنقك.

فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال:

— لتكسرنها ولتشهدن أن لا إله إلا الله، أو لأضربن عنقك.

فكسرها وشهد.

كانت اليمن فى ملك الحبشة اثنتين وسبعين سنة، إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة، فأقامت الفرس فى اليمن. وكان باذان عامل الفرس عليها لما أرسل رسول الله — ﷺ — كتابه إلى كسرى يطلب منه فيه أن يسلم، فكتب كسرى إلى باذان : أنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى، فسر إليه فاستتبه، فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله — ﷺ، فكتب إليه رسول الله — ﷺ — إن الله قد وعدنى أن يُقتل

كسرى فى يوم كذا وكذا من شهر كذا .

فلما أتى باذان الكتاب توقف لينظر ، وقال : إن كان نبيا فسيكون ما قال. فقتل الله كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله — ﷺ — قتل على يدى ابنه شيرويه . فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله — ﷺ ، وكان ذلك سنة عشر من هجرته عليه السلام .

وجمع رسول الله — ﷺ — لباذان عمل اليمن كلها وأمره على جميع مخاليفها ، فلم يزل عامل رسول الله — ﷺ — أيام حياته ، فلم يعزله عنها ولا عن شىء منها ولا أشرك معه فيها شريكا ، حتى مات باذان ففرق عملها بين شهر بن باذان وعامر بن شهر الهمدانى وعبد الله بن قيس أبى موسى الأشعرى وخالد بن سعيد بن العاص والطاهر بن أبى هالة ويعلى بن أمية وعمرو بن حزم ، وعلى بلاد حضر موت زياد بن لبيد البياضى وعكاشة بن ثور . وبعث معاذ بن جبل ، أعلم أصحابه — ﷺ — بالحلال والحرام ، معلما لأهل البلدين اليمن وحضر موت .

استعمل — ﷺ — عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورِمَع ، وزبيد وعامر بن شهر على همدان ، وعلى صنعاء ابن باذان ، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبى هالة ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعرى ، وعلى الجند يعلى بن أبى أمية . وما كاد عمال رسول الله — ﷺ — يستقرون باليمن حتى هبت عواصف الفتن ، فاليمن كانت آخر بلاد العرب إسلاما وأول من ظهر فيها الكذبة والمرتدون .

٢

وهبت خديجة أم المؤمنين وحاضنة الإسلام لمحمد بن عبد الله قبل النبوة ، زيد بن حارثة. فتبناه ـــ ﷺ ـــ وكان يقال له زيد بن محمد . فلما نزل ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ [1] قيل له زيد بن حارثة ، وكان حب رسول الله ـــ ﷺ .

وتزوج زيد أم أيمن فكان أسامة بن زيد ثمرة ذلك الزواج ، فأحب رسول الله ـــ صلوت الله وسلامه عليه ـــ أسامة حبا عظيما ، فكان الحب ابن الحب . وقد أوغر ذلك صدور بعض المنافقين فزعموا أن أسامة ليس ابن زيد ، وبلغ ذلك الحديث المفترى مسامع رسول الله ـــ ﷺ ـــ فآذاه .

وحدث أن مجزز الأسلمى وكان قيافا ممن يستدلون بهيئة الإنسان وشكله على نسبته ، دخل فرأى أسامة بن زيد وزيدا وعليهما قطيفة قد غطيا رأسيهما وبدت أقدامهما ، فنظر إليهما مجزز الأسلمى وقال :

ـــ إن هذه الأقدام بعضها من بعض .

فسرّ بذلك النبى ـــ صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) الأحزاب ٥ .

وشب أسامة فى بيت النبوة مع أولاد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وبناته ، فكان من أهل البيت . فلما مرضت رقية بنت رسول الله — ﷺ — وكانت عند عثمان بن عفان ، خلفه عليه السلام عليها مع عثمان وخرج إلى ماء بدر ليعترض قافلة قريش .

وعندما خاض الناس فى حديث الإفك ورموا عائشة بالبهتان ، دعا — صلوت الله وسلامه عليه — على بن أبى طالب كرم الله وجهه وأسامة بن زيد فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى على عائشة خيرا ثم قال :

— يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرا ، وهذا الكـذب والباطل .

وأما علىّ فإنه قال :

— يا رسول الله إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها تصدقك .

ونزلت براءة عائشة من فوق سبع سماوات و لم تنس عائشة قول أسامة ولا قول على بن أبى طالب .

ويوم حنين يوم انتشر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد . ثبت أسامة بن زيد مع رسول الله — ﷺ — فيمن ثبت من المهاجرين وأهل البيت ، وراح يدافع عن نبيه وحبيبه والعباس بن عبد المطلب يصرخ :

— يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمُرة .

والأصوات تأتى من كل جانب كأنها البشرى :

— لبيك ، لبيك .

إن أسامة قد أبلى ذلك اليوم بلاء حسنا ، حتى جاء الله بالنصر ..

وخرج أسامة فى غزوة غالب بن عبد الله أرض بنى مرة ، فرأى مرداس

بن نهيك فأدركه هو ورجل من الأنصار ، فلما شهرا عليه السلاح قال :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله .

فلم يتركاه حتى قتلاه ، فلما قدموا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ أخبراه خبره فقال :

ـــ يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟

ـــ يا رسول الله إنه إنما قالها تعوذا بها من القتل .

ـــ فمن لك بها يا أسامة ؟

فو الذى بعثه بالحق ما زال يرددها على أسامة حتى لود أن ما مضى من إسلامه لم يكن ، وأنه كان أسلم يومئذ وأنه لم يقتله ، قال :

ـــ أنظرنى يا رسول الله ، إنى أعاهد الله ألا أقتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا .

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يرى أن وجود الروم بالشام يهدد الإسلام فى جزيرة العرب ، فهرقل بعد أن أعطى من طرف لسانه حلاوة لما بعث إليه ـــ صلوات الله وسلامة عليه ـــ كتابه مع دحية الكلبى ، عاد وجمع الجموع ليغزو المسلمين . فلما بلغ ذلك رسول الله ـــ عليه صلوات الله وسلامه ـــ لم ينتظر حتى يفجأه الروم فى المدينة . بل بعث جيشه إلى مؤتة واستعمل على المسلمين زيد بن حارثة ، وقال :

ـــ إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس .

ونزل المسلمون معان من أرض الشام وكانوا ثلاثة الآلاف ، ونزل هرقل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلّى مائة ألف . لم تكن القوى متكافئة . ورأى

أناس أن يكتبوا إلى رسول الله — ﷺ ، ولكن عبد الله بن رواحة شجع الناس وقال :

— يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنين : إما ظهور وإما شهادة .

فقال الناس :

— قد والله صدق ابن رواحة .

فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب ، بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف . ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ، ثم التقى الناس واقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله — ﷺ — حتى شاط فى رماح القوم .

ثم أخذها جعفر فقاتل بها ، حتى إذا ألجمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها . ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فى الإسلام .

وأخذ عبد الله بن رواحة الراية فقاتل حتى قتل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد . فلما أخذ الراية دافع القوم ، وخشى على المسلمين قلة عددهم فانسحب بهم فى أمان .

وعاد الجيش إلى المدينة فجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون :

— يا فرار ، فررتم فى سبيل الله .

فيقول رسول الله — ﷺ :

— ليسوا بالفرار . ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

ولم ينس رسول الله — ﷺ — يوم مؤتة ولا الخطر الذى يهدد الإسلام فى الشام . فرأى أن يوجه أنظار المسلمين إلى ذلك الخطر . فلما قفل من حجة البلاغ أقام بالمدينة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر . وضرب على الناس بعثا إلى الشام ، ولما كان زيد بن حارثة أمير المسلمين فى مؤتة ، فقد رأى رسول الله — ﷺ — أن يكرمه فى ولده فدعا — ﷺ — أسامة بن زيد فقال :

— سر إلى موضع قتل إبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فاغز صباحا وأسرع السير لتسبق الأخبار ، فإن ظفرك الله عليهم ، فأقل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك .

وعقد — ﷺ — لأسامة لواء بيده ثم قال :

— اغز بسم الله وفى سبيل الله ، وقاتل من كفر بالله .

فخرج أسامة بلوائه معقودا ، فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف ، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا اشتد لذلك ، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص .

وفى جوف الليل قال رسول الله — ﷺ — لمولاه أبى مويهبة :

— إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معى .

فانطلق معه إلى حيث ترقد زينب ورقية وأم كلثوم وإبراهيم والمسلمون الأحبة الأعزاء ، فلما وقف بين أظهرهم قال :

— السلام عليكم يأهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، لو تعلمون ما نجاكم الله منه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الأخيرة شر من الأولى .

ثم أقبل على أبى مويهبة وقال :

— يا أبا مويهبة إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، خيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة ، فاخترت لقاء ربى والجنة .

— بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .

— لا والله يا أبا مويهبة . لقد اخترت لقاء ربى والجنة .

ثم استغفر لأهل البقيع ثم رجع إلى أهله ، فوجد عائشة وهى تجد صداعا فى رأسها وهى تقول :

— وارأساه .

— وما يضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك .

— واثكلاه ، والله إنك لتحب موتى ، فلو كان ذلك لظللت يومك معرسا ببعض أزواجك .

فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال :

— بل أنا وارأساه .

وراح أناس يتكلمون فى إمارة أسامة ويقولون :

— يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين والأنصار ؟

كان سن أسامة سبع عشرة سنة ، ولما بلغ رسول الله — ﷺ — مقالتهم وطعنهم فى ولايته مع حداثة سنة غضب — ﷺ — غضبا شديدا ، وقد عصب رأسه عصابة وعليه قطيفة وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة؟ ولئن طعنتم فى تأميرى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله. وايم الله إن كان خليقا بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان من أحب الناس إلى، وإنهما مظنة لكل خير، فأستوصوا به خيرا فإنه من خيار كم.

٣

كان عمرو بن حزم عامل رسول الله ـ ﷺ ـ على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص عامله على ما بين نجران ورمَع وزبيد ، وكان معاذ بن جبل يطوف باليمن ويأتى إلى نجران يعلم الناس دينهم ، فبينا كان الولاة يقومون بتوزيع الجند ويقيمونهم على ما ينبغى ويكتبون بينهم الكتب ، إذ جاء كتاب من الأسود : « أيها المتوردون علينا ، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه ».

فقالوا للرسول :

ـ من أين جئت ؟

ـ من كهف جُنَّان .

كان عبهلة بن كعب وهو الأسود كاهنا ولد فى كهف جُنَّان ، وكانت داره ، وكان يرى قومه الأعاجيب ويسبى قلوب من سمع منطقه . فلما جاء الخبر بعد حجة الإسلام أن رسول الله ـ ﷺ ـ مريض ، ادعى الأسود النبوة . فكاتبته مذحج وواعده نجران ، فجمع الجموع فكان معه سبعمائة فارس سوى الركبان ، وكان قواده قيس بن عبد يغوث المرادى ومعاوية بن قيس الجنبى ويزيد بن محرم ويزيد بن حصن الحارثى ويزيد بن الأفكل الأزدى .

وانطلق الأسود إلى نجران ، وما انقضى عشرة أيام مذ ادعى النبوة حتى

كان قد استولى عليها وأخرج عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص ونزل منزلهما ، ووثب قائده قيس بن يغوث على فروة بن مُسَيك وهو على مراد فأجلاه ونزل منزله ، فلم يتريث عبهلة بنجران بل سار إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذان والى رسول الله — ﷺ — عليها ، فكان بين المسلمين وبين المرتدين قتال ، وقتل الأسود شهرا وهزم المسلمين ، وغلب على صنعاء لخمس وعشرين ليلة من خروجه .

وكتب فروة بن مُسَيك إلى نبى الإسلام ﷺ — بردَّة الأسود ومذحج ، وكان عليه السلام فى بدء مرضه ، فلم يشغله المرض عن ذلك الخطر الذى يهدد الإسلام فى الجنوب ، فأرسل إلى نفر من المسلمين رسولا وكتب إليهم أن يحاولوه وأمرهم أن يستنجدوا رجالا قد سماهم من بنى تميم وقيس ، وأرسل إلى أولئك النفر أن ينجدوهم .

وخرج معاذ هاربا حتى مر بأبى موسى وهو بمأرب فاقتحما حضر موت ، فأما معاذ فإنه نزل بالسكون ، وأما أبو موسى فإنه نزل فى السكاسك مما يلى المغور والمفازة بينهم وبين مأرب ، وانحاز سائر أمراء اليمن إلى الطاهر وكان على عك والأشعريين ، إلا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص فإنهما رجعا إلى المدينة .

وغلب الأسود على ما بين صهيد مفازة حضر موت إلى عمل الطائف إلى البحرين قبل عدن ، وجعل يستطير استطارة الحريق حتى صفا له ملك اليمن ، وكان خليفته على مذحج عمرو بن معديكرب ، وأسند أمره إلى نفر ، فأما أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث ، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز ودازويه . فلما أثخن فى الأرض استخف بقيس وبفيروز ودازويه وتزوج امرأة شهر بن باذان وهى ابنة عم فيروز ، وقد كرهته امرأة شهر

كراهية شديدة .

وكان المسلمون وأمراء المسلمين فى حضر موت لا يأمنون أن يسير إليهم الأسود أو يبعث إليهم جيشا أو يخرج بحضر موت خارج يدعى بمثل ما ادعى به الأسود ، وتزوج معاذ إلى بنى بكرة ، حتى من السكون ، امرأة أخوالها بنو زنكبيل يقال لها رملة ، فحدبوا لصهره على أمراء المسلمين . وإذا برسل رسول الله — ﷺ — يقبلون ، إنه عليه السلام بعث وبر بن يُحنس إلى فيروز وجشيش الديلمى وداذويه ، وبعث جرير بن عبد الله إلى ذى الكلاع وذى ظليم ، وبعث الأقرع بن عبد الله الحميرى إلى ذى زود وذى مران ، وبعث فرات بن حيان العجلى إلى ثمامة بن أثال ، وبعث زياد ابن حنظلة التميمى ثم العمرى إلى قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر ، وبعث صلصل بن شرحبيل إلى سبرة العنبرى ووكيع الدارمى وإلى عمرو بن المحجوب العامرى وإلى عمرو بن الخفاجى من بنى عامر ، وبعث ضرار بن الأزور الأسدى إلى عوف الزرقانى من بنى الصيداء وسنان الأسدى ثم الغنمى وقضاعى الديلمى ، وبعث نعيم بن مسعود الأشجعى إلى ابن ذى اللحية وابن مشيمصة الجبيرى .

وقدم وبر بن يحنس بكتاب النبى — ﷺ — على جشيش بن الديلمى يأمر المسلمين فيه بالقيام على دينهم والنهوض فى الحرب والعمل فى الأسود إما غيلة وإما مصادمة ، وأن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة ودينا . فراح المسلمون يدبرون أمرهم فوجدوا أن الأسود قد تغير لقائده قيس بن عبد يغوث ، فرأوا فيه العون ، فدعوه وأنبأوه الشأن وأبلغوه عن النبى — ﷺ — فكأنما وقعوا عليه من السماء ، كان يخاف على دمه وكان فى غم وضيق بأمره ، فأجابهم إلى ما أحبوا من ذلك .

وراح وبر بن يحنس يكاتب الناس ويدعوهم لنصرة دينهم ، ودخل على الأسود رجل وأفضى إليه بمخاوفه من قيس ، فأرسل الأسود إلى قيس وقال :

ـــ ما يقول هذا ؟

ـــ وما يقول ؟

ـــ يقول عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل وصار فى العز مثلك ، مال ميل عدوك وحاول ملكك وأضمر على الغدر . إنه يقول يا أسود يا أسود يا سوأة يا سوأة اقطف قُنَّته وخذ من قيس أعلاه، وإلا سلبك أو قطف قُنَّتك .

وحلف به قيس وقال :

ـــ لأنت أعظم فى نفسى وأجل عندى من أن أحدث بك نفسى .

ـــ ما أحفاك ! أتكذب الملك ؟! قد صدق الملك الآن أنك تائب مما اطلع عليه منك .

ثم خرج قيس وأتى جشيش وفيروز وداذويه وقص عليهم ما كان بينه وبين الأسود ، ثم قال :

ـــ فما الرأى ؟

ـــ نحن على حذر .

وبينا هم يتحاورون أرسل إليهم الأسود فقال :

ـــ ألم أشرفكم على قومكم ؟ ألم يبلغنى عنكم ؟

فقالوا فى رجاء :

ـــ أقلنا مرَّتنا هذه .

ـــ لا يبلغنى عنكم فأقيلكم .

فنجوا و لم يكادوا وهو فى ارتياب من أمرهم وأمر قيس ، وهم فى ارتياب وخطر عظيم .

كان معاذ لما جاء إليه رسل النبى — صلوات الله وسلامه عليه — قد قام ليجمع الناس لمصادمة الأسود ، فاعترض عامر بن شهر وذو زود وذو مران وذو الكلاع وذو ظليم على الأسود ، وكاتبوا قيس وجشيش وفيروز وداذويه وبذلوا لهم النصر ، فكاتبوهم وأمروهم أن لا يحركوا شيئا حتى يبرموا الأمر .

وكتب النبى — صلوات الله وسلامه عليه — إلى أهل نجران ، إلى عربهم وساكنى الأرض من غير العرب ، فثبتوا وشقوا عصا الطاعة وانضموا إلى مكان واحد ، فأحس الأسود أن الأرض لم تعد ثابتة تحت قدميه .

وانسل فيروز إلى آزاد ابنة عمه وزوجة الأسود فقال :

— يا ابنة عم ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك ، قتل زوجك وطأطأ فى قومك القتل وسفل بمن بقى منهم وفضح النساء ، فهل عندك من ممالأة عليه ؟

— على أى أمره ؟

— إخراجه أو قتله .

فشردت آزاد برهة ثم قالت :

— أو قتله . نعم والله ما خلق الله شخصا أبغض إلى منه . ما يقول لله على حق ولا ينتهى له عن حرمة ، فإذا عزمتم فأعلمونى بمأتى هذا الأمر فأخرج .

وخرج الأسود على قيس وفيروز وداذويه فى جمع فقاموا مثولا له ،

وبالباب مائة ما بين بقرة وبعير . وخط خطًّا فأقيمت من ورائه وقام من دونها فنحرها غير محبسة ولا معلقة ما يقتحم الخط منها شيء ، ثم خلاها فجالت والدماء تسيل منها حتى فاضت روحها ، فما رؤى أمر كان أفظع منه ولا يوم أوحش منه .

والتفت الأسود إلى فيروز ثم قال :

ـــ أحق ما يلغنى عنك يافيروز ؟

وبوأ له الحربة وقال :

ـــ لقد هممت أن أتحرك فأتبعك هذه البهيمة .

ـــ اخترتنا لصهرك وفضلتنا على الأبناء ، فلو لم تكن نبيا ما بعنا نصيبنا منك بشيء ، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر آخرة ودنيا ؟! لا تقبلن علينا أمثال ما يبلغك ، فإنا بحيث تحب .

ونظر الأسود إلى البقر والبعير التى نحرها وقال داذويه :

ـــ اقسم هذه فأنت أعلم بمن ها هنا .

فاجتمع إلى داذاويه أهل صنعاء وجعل يأمر للرهط بالجزور ، ولأهل البيت بالبقرة ، ولأهل الخلة بعدة ، حتى أخذ أهل كل ناحية بقسطهم .

واجتمع قيس وفيروز وداذويه يديرون قداح الرأى بينهم . إنهم فى خطر والأسود فى ارتياب من أمرهم فهو قاتلهم إن لم يقتلوه ، فأجمع ملؤهم أن يعود داذويه إلى ابنة عمه آزاد فيخبرها بعزيمتهم لتخبرهم بما تأمر ، فأتى داذويه آزاد وقال :

ـــ ما عندك ؟

ـــ هو متحرز متحرس وليس من القصر شيء إلا والحرس محيطون به ؛ غير هذا البيت فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق ، فإذا أمسيتم

فانقبوا عليه فإنكم من دون الحرس وليس دون قتله شيء .

والتقطت آزاد نفسا طويلا ثم قالت :

ــ إنكم ستجدون فيه سراجا وسلاحا .

فخرج داذويه فتلقاه الأسود خارجا من بعض منازله فقال له :

ــ ما أدخلك عليّ ؟

ووجأ رأسه حتى سقط وكان شديدا ، وصاحت آزاد فأدهشته عنه ولولا ذلك لقتله ، وقالت :

ــ ابن عمى جاءنى زائرا فقصرت بى .

ــ اسكتى لا أبا لك فقد وهبته لك .

وانسحب داذويه ترتعد فرائصه رعبا ، فأتى أصحابه فقال :

ــ النجاة .. الهرب .

وأخبرهم الخبر وإنهم على ذلك حيارى إذجاء داذويه رسولها : لا تدعن ما فارقتك عليه ، فإنى لم أزل به حتى اطمأن .

قال داذويه لفيروز :

ــ ائتها فتثبت منها ، فأما أنا فلا سبيل لى إلى الدخول بعد النهى .

فانسل فيروز إلى القصر وراحت آزاد توضح له ما ينبغى عليهم فعله ، كان فيروز أفطن من داذويه ، فلما أخبرته قال :

ــ وكيف ينبغى لنا أن ننقب على بيوت مبطنة ، ينبغى لنا أن نقلع بطانة البيت .

فدخلا البيت فاقتلعا البطانة ثم أغلقاه وجلس عندها كالزائر . فدخل عليها الأسود فاستخفته غيرة ، وأخبرته برضاع وقرابة منها عنده محرم ، فصاح به وأخرجه .

وانطلق فيروز إلى أصحابه وراح يقص عليهم ما كان منه ومن آزاد، فلما أمسوا عملوا فى أمرهم وقد أبلغوا أشياعهم وعجلوا عن مراسلة الهمدانيين والحميريين ، فنقبوا البيت من خارج ثم دخلوا وفيه سراج تحت جفنة ، واتقوا بفيروز وكان أنجدهم وأشدهم فقالوا له :

ـــ انظر ماذا ترى ؟

فخرج وأصحابه بينه وبين الحرس معه فى مقصورة ، فلما دنا من باب البيت سمع غطيطا شديدا . وإذا آزاد جالسة فانقض فيروز عليه فعاجله فخالطه وهو مثل الجمل ، فأخذ برأسه فقتله فدق عنقة ووضع ركبته فى ظهره فدقه ، ثم قام ليخرج فأخذت آزاد بثوبه وهى ترى أنه لم يقتله ، فقالت فى فزع :

ـــ أين تدعنى ؟

ـــ أخبر أصحابى بمقتله .

وأتى قيس وداذويه فقاما معه ، فأرادوا حز رأسه فجلسوا على صدره وأخذت آزاد بشعره وسمعوا بربرة فأمر فيروز الشفرة على حلقه ، فخار أشد خوار ثور سمع قط ، فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة . فقالوا :

ـــ ما هذا ؟ ما هذا ؟

فقالت آزاد :

ـــ النبى يوحى إليه .

وخمد الأسود ، ثم سمر قيس وفيروز وداذويه ليلتهم وهم يأتمرون كيف يخبرون أشياعهم ، فاجتمعوا على النداء بشعارهم الذى بينهم وبين أشياعهم ثم ينادى بالأذان . فلما طلع الفجر نادى داذويه بالشعار ففزع

المسلمون والكافرون ، وتجمع الحرس فأحاطوا بقيس وفيروز وداذويه ، ثم نادى فيروز بالأذان فإذا بأشياعهم يقبلون على ظهور الجياد وإذا بالحرس يتأهبون للقتال ، فنادى فيروز :

ــ أشهد أن محمدا رسول الله ، وأن عبهلة كذاب .

وألقوا إلى أتباع الأسود برأسه فانخلعت قلوبهم رعبا ، وأقام وبر بن يُحنِّس الصلاة ، وشنها القوم غارة ونادى فيروز وأصحابه :

ــ يا أهل صنعاء من دخل عليه داخل فتعلقوا به ، ومن كان عنده منهم أحد فتعلقوا به .

ونادو بمن فى الطريق :

ــ تعلقوا بمن استطعتم .

فاختطف أتباع الأسود صبيانا كثيرين وانتهبوا ما انتهبوا ثم مضوا خارجين ، فلما برزوا فقدوا منهم سبعين فارسا وركبانا ، وإذا أهل الدور والطرق وقد وافوا فيروز وصحبه بهم ، وفقد المسلمون سبعمائة عَيِّل ، فتراسلوا على أن يترك أصحاب الأسود ما فى أيديهم وأن يترك أصحاب محمد ــ ﷺ ــ ما فى أيديهم ، ففعلوا . وخرج أصحاب الأسود العنسى يترددون فيما بين صنعاء ونجران ، وخلصت صنعاء والجند ، وأعز الله الإسلام وأهله وتنافسوا الإمارة ، وتراجع أصحاب النبى ــ ﷺ ــ إلى أعمالهم فاصطلحوا على معاذ بن جبل فكان يصلى بهم .

وقتل الأسود العنسى ولكن استتب الأمر لمسيلمة فى اليمامة ، ووثب طليحة فى بلاد أسد وادعى النبوة وأقبلت الفتن كقطيع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الأخيرة شر من الأولى .

٤

كان طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الأسدى يعد بألف فارس ، وكان كاهنا فكانت نفسه مستعدة للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها . وكانت قوته العقلية تتحرك حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزع لذلك ، فكان يتشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان ، فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعينا بـه فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده .

وكانت نفس طليحة مفطورة على النقص والقصور عن الكمال ، فكان إدراكها فى الجزيئات أكثر من الكليات ، لذلك كانت المخيلة فيه فى غاية القوة لأنها آلة الجزيئات فتنفذ فيها نفوذا تاما فى نوم أو يقظة ، وكان يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالإدراك وتمويها على السائلين .

لم يكن هناك اتصال من ذاته بالملأ الأعلى ، ولم يكن قـادرا على الانسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر كما هو شأن الأنبياء ، ولكنه استطاع بسجعه وظنونه وتخميناته أن يستولى على أفئدة قومه .

رأى طليحة أن اليمامة قد دانت لمسيلمة ، وأن اليمن أسلمت قيادها

للأسود العنسى ، وعلم أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ مريض فتحركت مطامعه وراح يقنع نفسه أن كهانته إن هى إلا نبوة ، فأعلن على الملأ نبوته .

وفتن طليحة عوام وقومه فآمنوا به وصار له جيش من المخدوعين فعسكر بسميراء واستكثف أمره . وكان سنان بن أبى سنان عامل رسول الله ـــ ﷺ ـــ على بنى مالك ، فكتب إلى النبى ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ بخبر ذلك الكذاب الجديد .

وبلغ كتاب سنان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو مريض ، فلم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله عز وجل والذب عن دينه ، فبعث الرسل إلى أنصار الإسلام فى اليمن ليصاولوا الكذاب ويقضوا على فتنته ، ووجه ضرار بن الأزور إلى عماله على بنى أسد فى ذلك وأمرهم بالقيام فى ذلك على كل من ارتد فأشجعوا طليحة وأخافوه . ونزل المسلمون بواردات ونزل المشركون بسميراء ، فما زال المسلمون فى نماء والمشركون فى نقصان حتى هم ضرار بالمسير إلى طليحة ، فلم يبق إلا أخذه سلمًا ، إلا ضربة كان ضربها بالجراز فنبا عنه فشاعت فى الناس . وقال ناس من الناس لتلك الضربة :

ـــ إن السلاح لا يحيك فى طليحة .

وارفضّ الناس إلى طليحة واستطار أمره ، وأقبل ذو الخمار ابن عوف الجذمى حتى نزل بإزاء المسلمين . وأرسل إليه ثمامة بن أوس بن لام الطائى :

ـــ إن معى من جديلة خمسمائة ، فإن دهمكم أمر فنحن بالقردورة والأنسر دُوَين الرمل :

وأرسل إليه مهلهل بن زيدان :

ـــ معى حد الغوث ، فإن دهمكم أمر فنحن بالأكتاف بحيال قَيْد ، وإنما تحدَّبت طيئ على ذى الخمار بن عوف أنه كان بين أسد وغطفان وطيئ حلف فى الجاهلية ، فلما كان قبل مبعث النبى ـــ ﷺ ـــ اجتمعت غطفان وأسد على طيئ فأزاحوها عن دارها فى الجاهلية : غوثها وجديلتها ، فكرة ذلك عوف فقطع ما بينه وبين غطفان وتتابع الحيان على الجلاء ، وأرسل عوف إلى الحيين من طيئ فأعاد حلفهم وقام بنصرتهم فرجعوا إلى دورهم .

كان جيش أسامة قد اجتمع بالجُرف ، وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد قال : أنفذوا بعث أسامة . ولكن ظهور طليحة وادعاؤه النبوة ، واشتداد المرض برسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ جعل الناس يتمهلون .

وكان طليحة فى قرارة نفسه يؤمن أن محمد ـــ ﷺ ـــ رسول الله ، ولكن قوة مطامعه فى النبوة جعلته يرجو أن يكون شريكا فى الأمر مثله مثل مسيلمة ، فرأى أن يبعث حبال ابن أخيه إلى نبى الإسلام عليه السلام يدعوه إلى الموادعة ويخبره خبره .

واجتمع عند رسول الله ـــ ﷺ ـــ رجال ، فقال ـــ ﷺ :

ـــ هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده .

فقال عمر بن الخطاب :

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ غلبه الوجع وعندكم القرآن.وإنما قال ذلك تخفيفا على رسول الله ـــ ﷺ ، فارتفعت أصواتهم ، فأمرهم بالخروج من عنده . وخرج على بن أبى طالب كرم الله وجهه ،

فقال الناس :

— يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله — ﷺ ؟

— أصبح بحمد الله بارئا .

فأخذ العباس بيده وقال له :

— والله أنت بعد ثلاث عبد العصى ، وإنى لا أرى رسول الله — ﷺ — من وجعه هذا بعد ثلاث إلا ميتا ، فإنى رأيت فى وجهه ما كنت أعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا إلى رسول الله — ﷺ — فنسأله فيمن هذا الأمر ، فإذا كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا كلمناه فأوصى بنا .

فقال على كرم الله وجهه :

— لا أسألها رسول الله — ﷺ .

وبلغ حبال رسول طليحة وابن أخيه إلى المدينة ، فألفى الناس واجمين لمرض رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، فراح يتقدم من المسجد وهو مضطرب يخفق قلبه رهبة . وأراد أن يسكن روعه فراح يعيد فى ذاكرته ما كان بين رسول الله — ﷺ — ورسولى مسيلمة الحنفى .

كان مسيلمة قد ادعى النبوة فى اليمامة قبل أن يدعيها عمه طليحة ، وقد كتب إلى رسول الله — ﷺ : أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون .

وقدم عليه رسولان لمسيلمة بهذا الكتاب ، فقال رسول الله — ﷺ — لهما حين قرأ كتابه :

— فما تقولان أنتما ؟

— نقول كما قال .

— أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

وراح حبال يردد فى عين ذاته : إن محمدا لا يضرب أعناق الرسل . لعل ذلك الخوف الذى استبد به ينقشع . ولكن فرائصه كانت ترتعد وإن بذل غاية الجهد ليبدو هادئا تطوف به سكينة .

واستأذن حبال فى الدخول على رسول الله — ﷺ — فأذن له ، فدخل مضطرب الخطو زائغ البصر تسرى فى بدنه قشعريرة وهو يحاول أن يجمع شتات نفسه التى ذهبت شعاعا ، فإنه مقبل على نبى أقر بنبوته مسيلمة وعمه طليحة ، وقد زعما أنهما أشركا فى الأمر معه .

وألقى حبال السلام على رسول الله — ﷺ — وقال :

— أنا ابن خويلد .

وأفرخ روعه ، فراح يقص على رسول الله — ﷺ — ما كان من أمر عمه طليحة وكيف أن الناس اتبعوه وكيف استكثف أمره ، وطفق يدعو رسول الله — ﷺ — إلى الموادعة ، فقال النبى — ﷺ — :

— قتلك الله وحرمك الشهادة .

فقام حبال بن خويلد من عنده يضطرب كريشة فى مهب رياح عاتية ، يحس ضيقا فى صدره كأنما قد خرت عليه جبال المدينة .

٥

جاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ ابن عمه الفضل بن العباس ، فخرج إليه فوجده موعوكا قد عصب رأسه ، فقال عليه السلام :

ـــ خذ بيدى يا فضل .

فأخذ بيده حتى جلس ـــ ﷺ ـــ على المنبر ، ثم قال :

ـــ ناد فى الناس .

فاجتمعوا إليه فقال :

ـــ أما بعد ، أيها الناس فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه . ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه . ألا وإن الشحناء ليس من طبعى ولا من شأنى . ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقا إن كان له أو حلّلنى فلقيت الله وأنا أطيب النفس . وقد أرى أن هذا غير مُغن عنى حتى أقوم فيكم مرارا .

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى فى الشحناء وغيرها ، فقام رجل فقال :

ـــ يا رسول الله إن لى عندك ثلاثة دراهم .

ـــ أعطه يا فضل .

فأمره الفضل فجلس ، ثم قال ـــ ﷺ :

— أيها الناس ، من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فُضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة .

فقام رجل فقال :

— يا رسول الله عندى ثلاثة دراهم غللتها فى سبيل الله .

— ولم غللتها ؟

— كنت إليها محتاجا .

— خذها منه يا فضل .

ثم قال :

— يا أيها الناس ، من خشى من نفسه شيئا فليقم أدع له .

فقام رجل فقال :

— يا رسول الله إنى لكذاب .. إنى لفاحش وإنى لنئوم .

— اللهم ارزقه صدقا وإيمانا ، وأذهب عنه النوم إذا أراد .

ثم قام رجل فقال :

— والله يا رسول الله إنى لكذاب وإنى لمنافق وما شيء إلا قد جنيته .

فقام عمر بن الخطاب فقال :

— فضحت نفسك أيها الرجل .

فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — :

— يا بن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة . اللهم ارزقه صدقا وإيمانا . وصير أمره إلى خير .

وصار — صلى الله عليه وسلم — يدور على نسائه واشتد به المرض عند ميمونة ، فصار يقول :

— أين أنا اليوم . أين أنا غدا ؟

استبطاء ليوم عائشة . وبعث إلى نسائه فاجتمعن فقال :

ــ إنى لا أستطيع أن أدور بينكن ، فإن رأيتن أن تأذنّ لى فأكون فى بيت عائشة فعلتن .

فأذن له ، فخرج رسول الله ــ ﷺ ــ يمشى بين على بن أبى طالب والفضل بن العباس معتمدا عليهما عاصبا رأسه ، تخط قدماه الأرض حتى دخل بيت عائشة .

واشتد برسول الله ــ ﷺ ــ وجعه فقال :

ــ هريقوا على من سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس .

فأقعدوه ــ ﷺ ــ فى مخضب ــ إناء من حجر ــ ثم صبوا عليه الماء حتى طفق يقول :

ــ حسبكم . حسبكم .

فخرج رسول الله ــ ﷺ ــ عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد ، فأكثر الدعاء لهم واستغفر لهم ثم قال :

ــ إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله ، فاختار ذلك العبد ما عند الله .

ففهمها أبو بكر وعرف أن نفسه يريد ، فبكى وقال :

ــ بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

ــ على رسلك يا أبا بكر .

ثم قال :

ــ انظروا هذه الأبواب اللافظة فى المسجد فسدوها إلا بيت أبى بكر ، فإنى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه .

فقال عمر :

ـــ يا رسول الله دعنى أفتح كوة أنظر إليك حيث تخرج إلى الصلاة .

ـــ لا .

وكان لكل بيت بابان ، باب يفتح للمسجد وباب يفتح خارجه ، فسدت جميع الأبواب إلا باب أبى بكر .

ثم قال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا ، إنهم كانوا عيبتى التى أويت إليهم ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم .

ونزل ـــ ﷺ ـــ ودخل بيت عائشة ، وغشى الليل وقام بلال يؤذن بالعشاء ، ومس الأذان أذنى رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فأراد أن يذهب فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال :

ـــ أصلّى الناس ؟

ـــ لا ، هم ينتظرونك .

ـــ ضعوا لى ماء فى المخضب فأغتسل .

ثم أراد أن يذهب فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال :

ـــ أصلى الناس ؟

ـــ لا ، هم ينتظرونك .

وأراد أن يذهب ، فأغمى عليه ثم أفاق فقال :

ـــ أصلى الناس ؟

ـــ لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله .

ثم أراد أن يذهب فأغمى عليه والناس ملمومة فى المسجد ينتظرون النبى ـــ ﷺ ـــ لصلاة العشاء الآخرة، ودخل بلال عليه ـــ ﷺ ـــ

فقال:

ـــ الصلاة يا رسول الله .

ـــ لا أستطيع الصلاة خارجا ، مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فقالت عائشة :

ـــ إن أبا بكر رجل أسيف (رقيق القلب) ، إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس .

وكأنما أرادت عائشة أن تؤكد إمامة أبيها فعادت تقول :

ـــ إنه رجل أسيف .

ـــ مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس .

فقالت عائشة لحفصة :

ـــ قولى له إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس .

ففعلت حفصة فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لحفصة :

ـــ مه ، إنكن صواحب يوسف .

كانت عائشة فى قرارة نفسها تحب أن يقوم أبوها مقام رسول الله ـــ ﷺ ، ولكنها أخفت ما فى سريرتها كما فعلت النسوة اللاتى رأين يوسف لما دعتهن امرأة العزيز لينظرن إلى جمال يوسف فيعذرنها فى حبه ، وإن قالت عائشة بعد ذلك : ما حملنى على كثرة مراجعتى له ـــ ﷺ ـــ إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا ، ولا كنت أرى أنه يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس منه .

وقالت حفصة لعائشة :

— ما كنت أصيب منك خيرا ، مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وخرج بلال وهو يبكى فانخلعت أفئدة الناس وهرعوا إليه ملهوفين وقالوا فى خوف :

— ما وراءك يا بلال ؟

— إن رسول الله — ﷺ — لا يستطيع الصلاة خارجا .

فبكوا بكاء شديدا ، وتلفت عبد الله بن زمعة يبحث عن أبى بكر فلم يجد بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر ، فقال :

— قم يا عمر فصلّ بالناس .

وكبر عمر وكان صيتا ، فسمع رسول الله — ﷺ — صوته بالتكبير فقال :

— أين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون . مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وجاء أبو بكر وصلى بالناس ، وقال عمر لعبد الله بن زمعة :

— ويحك ! ماذا صنعت بى ؟ والله لولا أنى ظننت أن رسول الله ﷺ أمرك ما فعلت .

— إنى لم أر أحدا أولى بذلك منك .

كان أبو بكر من جملة جيش أسامة ، وإن الجيش قد عسكر بالجرف خارج المدينة لينطلق إلى الشام ، فكان على أبى بكر أن يتخلف لما أمره — ﷺ — بالصلاة — بالناس ، وما تخلف أبو بكر من قبل عن غزوة أمره رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يخرج فيها ، سواء أكان أمير القوم أم جنديا من جنود الإسلام .

ودخل أسامة ليزور رسول الله ـــ ﷺ ـــ فوجده مريضا فقال :

ـــ بأبى أنت وأمى ! أتأذن لى أن أمكث أياما حتى يشفيك الله تعالى ؟

ـــ اخرج وسر على بركة الله .

ـــ يا رسول الله إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفى قلبى قَرْحة منك .

ـــ سر على النصر والعافية .

ـــ يا رسول الله إنى أكره أن أسأل عنك الركبان .

ـــ انفذ لما أمرتك به .

ثم أغمى على رسول الله ـــ ﷺ ، وقام أسامة فتجهز للخروج ، فجعل رسول الله يقول :

ـــ أنفذوا بعث أسامة ، لعن الله من تخلف عنه .

وطاف الأنصار بالمسجد لما رأوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ يزداد وجعا ، وأشفقوا من موته ـــ ﷺ ، فدخل عليه الفضل فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه على كرم الله وجهه فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه العباس فأخبره بذلك ، فخرج النبى ـــ ﷺ ـــ متوكئا على علىّ والفضل والعباس أمامه ، والنبى ـــ ﷺ ـــ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثار الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ـــ أيها الناس ، بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليه فأخلد فيكم ؟ ألا وإنى لاحق بربى وإنكم لاحقون به ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير ، فإن الله يقول : ﴿ والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[1]. وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟!

وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الدار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم . ألا ولا تستأثروا عليهم . ألا فإنى فرطكم وأنتم لاحقون بى . ألا وإن موعدكم الحوض . ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى .

يأ يها الناس ، إن الذنوب تغير النعم ، فاذا بر الناس برتهم أئمتهم ، وإذا فجر الناس عقوا أئمتهم .

ودخل رسول الله — ﷺ — دار عائشة ، فخفت إليه فاطمة الزهراء ، واجتمع إليه نساء من نسائه أم سلمة وميمونة ، ونساء من نساء المسلمين منهن أسماء بنت عميس ، وعنده العباس عمه . وتتام برسول الله — ﷺ — وجعه وأغمى عليه حتى ظنوا أنه قد هلك ، فأجمعوا أن يلُدّوه[2] ، فلددته أسماء بنت عميس ، وجعل يشير إليهم وهو مغمى عليه ألا يفعلوا به وهم يظنون أن ذلك كراهة المريض للدواء ، فلما أفاق رسول الله — ﷺ — قال :

---

(١)سورة العصر .

(٢) أن يلدوه : أن يجعلوا الدواء فى شق فمه .

— من صنع هذا بى ؟

— يا رسول الله عمك .

ولم يكن للعباس فى ذلك رأى إنما قالوا ذلك تعللا وخوفا منه — ﷺ ، فقال عليه السلام :

— هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض .

وأشار نحو أرض الحبشة ، قال :

— ولم فعلتم ذلك ؟

قالت أسماء بنت عميس زوج أبى بكر :

— خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب .

— إن ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقذفنى به. لا يبق فى البيت أحد إلا لُدَّ إلا عمى العباس .

فلدوا حتى ميمونة وكانت صائمة عقوبة لهم على ما صنعوا .

ونظر العباس إلى وجه ابن أخيه — عليه صلاة الله وسلامه — فتذكر أنه قبل ذلك بيسير رأى فى المنام أن القمر قد رفع من الأرض إلى السماء فقصها على النبى — ﷺ — فقال له النبى : هو ابن أخيك . فأحس العباس كأن يدا قوية تعتصر فؤاده وأن الدموع تكاد أن تطفر من مآقيه . فأشاح بوجهه حتى لا يقرأ رسولُ الله — ﷺ — فيه ما يعتمل فى جوفه من أحزان .

وكان عنده — ﷺ — سبعة دنانير قد وضعها فى كفه وقال :

— ما ظن محمد بربه أن لو لقى الله وهذه عنده ؟

فأمر عائشة أن تتصدق بها .

واشتد على رسول الله — ﷺ — وجعه ، فدخل أسامة من عسكره

والنبى — ﷺ — مغمور فطأطأ رأسه فقبله ، وهو — ﷺ — لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة ، فعرف أسامة أنه — ﷺ — يدعو له . ورجع أسامة إلى عسكره .

ودخل سلمان الفارسى على رسول الله — ﷺ ، فقال له :

— ألا تسأل عما كابدته الليلة من الألم والسهر أنا وعلى !

— يا رسول الله ، ألا أسهر الليلة معك بدله ؟

— لا ، هو أحق بذلك منك .

وأذن بلال بصلاة الصبح فاجتمع الناس بمسجد الرسول وأمهم أبو بكر ، وخرج — ﷺ — إلى الناس وهم يصلون فرفع الستر وفتح الباب فخرج فقام على باب عائشة ، فكاد المسلمون يفتتنون فى صلاتهم برسول الله — ﷺ — حين رأوه فرحا به ، وتفرّج الناس فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله — ﷺ — فنكص عن مصلاه ، فدفع رسول الله — ﷺ — فى ظهره وقال :

— صل بالناس .

وجلس رسول الله — ﷺ — إلى جنبه فصلى قاعدا عن يمين أبى بكر ، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلمهم رافعا صوته حتى خرج صوته من باب المسجد ، يقول :

— أيها الناس سُعّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم . وإنى والله ما تمسكون علىّ بشىء . إنى لم أحلّ إلا ما أحل القرآن و لم أحرم إلا ما حرم القرآن .

فلما فرغ رسول الله — ﷺ — من كلامه قال له أبو بكر :

— يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب ،

واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها ؟

— نعم .

ثم دخل رسول الله — ﷺ — إلى داره وهو معصوب الرأس ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّنح . دخل عليه السلام بيت عائشة وانقلبت كل امرأة من نسائه — ﷺ — إلى بيتها ، فلما دخل — ﷺ — اشتد عليه الوجع فرجع إليه من كان ذهب من نسائه ، وأخذ فى الموت فصار يغمى عليه ثم يفيق ، وكان عنده وقد اشتد به الأمر قدح فيه ماء فصار يدخل يده فى القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول :

— اللهم أعنّى على سكرات الموت .

ورنت فاطمة الزهراء إلى أبيها فرأته يتألم أشد الألم فأحست نارا تشوى كبدها ، فراحت تقول :

— واكرب أبتاه !

فيقول — ﷺ — فى صوت خافت :

— ليس على أبيك كرب بعد اليوم .

كان — صلوات الله وسلامه عليه — مرهف الحس فكان شعوره بالألم أكثر من غيره ، ولم يدع بالشفاء بل طفق يقول :

— يا نفس مالك تلوذين كل ملاذ ؟

ودخل عبد الرحمن بن أبى بكر ومعه سواك يستن به ، فنظر إليه رسول الله — ﷺ — فعرفت عائشة أنه يريده لأنه كان يحب السواك ، فقالت :

— آخذه لك ؟

فأشار برأسه أن نعم فتناولته وناولته إياه ، فاشتد عليه فقالت :

ـــ ألينه لك ؟

فأشار برأسه أن نعم .

فلينته فأعطته رسول الله ــ ﷺ ــ فاستن به وهو مستنــد إلى صدرها .

وكان رسول الله ــ ﷺ ــ قال لأسامة بن زيد بعد صلاة الصبح :

ـــ اغد على بركة الله .

فودعه أسامة وخرج إلى معسكره وأمر الناس بالرحيل ، فبينا هو يريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن قد جاء يقول :

ـــ إن رسول الله ــ ﷺ ــ يموت .

فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح فجعلوا يشتدون إلى مسجد الرسول .

وأرسلت عائشة خلف أبى بكر ، وأرسلت حفصة خلف عمر ، وأرسلت الزهراء خلف على ، ووجدت عائشة رسول الله ــ ﷺ ــ يثقل فى حجرها ، فذهبت تنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول :

ـــ بل الرفيق الأعلى والجنة .

وندت من دور الرسول صرخة ، فابتدر المسلمون الباب فسبقهم العباس فدخل العباس فدخل وأغلق الباب دونهم ، فإذا عائشة تقول :

ـــ خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق .

ومات رسول الله ــ ﷺ ــ بين سحر عائشة ونحرها ، فمن حداثة سنها وضعت رأسه الشريف على وسادة وقامت تلتدم مع النساء وتضرب وجهها ، فلم يلبث أن خرج العباس إلى الناس فنعى رسول الله ـــ

ﷺ — فقالوا :

— يا عباس ما أدركت منه — ﷺ ؟

— أدركته وهو يقول : جلال ربى الرفيع قد بلغت .

ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة ، ودخل بريدة بلواء أسامة حتى أتى به إلى رسول الله — ﷺ — فغرزه عند بابه والباب مغلق .

وجاء عمر وعثمان وعلىّ ، وصك العويل أسماعهم ، فأما عمر فخبل ، وأما عثمان فأخرس ، وأما علىّ فأقعد لم تستطع قدماه أن يحملاه فانهار ، وصار عمر فى ناحية المسجد يقول :

— إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله — ﷺ — مات ، ولكن ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام ، ثم رجع إلى قومه بعد أربعين ليلة بعد أن قيل قد مات .

والله ليرجعن رسول الله — ﷺ — كما رجع موسى بن عمران عليه السلام ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم .

وما زال عمر يتوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه . ودهش النـاس وطاشت عقولهم فما كانوا قادرين على أن يصدقوا أن خليل الله وحبيبه ونجيه وصفيه ورسوله ونبيه يموت ، أحقا قد انقطع عن الأرض وحى السماء ؟

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله — ﷺ — فى بيت عائشة وعيناه تهملان ورسول الله مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه فقبله ثم قال :

— بأبي أنت وأمي ، طبت حيا وميتا . أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا .

ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال :

— على رسلك يا عمر ، فأنصت .

فأبى إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

ثم تلا :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ (١) .

فما إن سمع عمر أبا بكر حتى دهش ووقع إلى الأرض ما تحمله قدماه ، وعرف أن رسول الله قد مات فقال ودموعه تهطل حتى تبل لحيته :

— إنا لله وإنا إليه راجعون، صلوات الله وسلامه على رسول الله — ﷺ .

وظل عمر في حزنه العميق وقد أطرق وكأنه لم يسمع بالآية التي تلاها أبو بكر في كتاب الله قبل الآن لما نزل به .

وقال أبو بكر :

— وقال الله تعالى لمحمد — ﷺ : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾(٢)

---

(١) آل عمران ١٤٤ .

(٢) الزمر ٣٠ .

وقال تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ (٢) .

وارتفع صوت الزهراء تبكى أباها وحبيبها الذى غمرها بالحب والحنان ، فقالت فى صوت واله حزين :

ـ واأبتاه .. أبتاه .

أجاب ربا دعاه .. يا أبتاه .

الفردوس مأواه . أبتاه .

إلى جبريل ننعاه .

ونزل بقلوب الناس حزن ثقيل وخيم الأسى على مدينة الرسول . وحان أذان المغرب فسار بلال بخطى ثقيلة ، وانطلق بنفس شفها الحزن حتى إذا بلغ المسجد انسكب الدمع من عينيه ، ودخل وهو يترنح فوقع بصره على باب الرسول مقفلا فاستشعر كأن خنجرا مزق نياط قلبه ، فلن يخرج الرسول إليهم منه أبدا ، ولن يتوجه إليه بلال ليخبره أن الناس فى المسجد ينتظرونه ليؤمهم ، فلن ينتظروه بعد اليوم ، ولن يأتى من السماء خبر .

واعتلى بلال المسجد وقد نال منه الحزن ، وراح يؤذن بصوت فيه رنة أسى عميق :

---

(١) القصص ٨٨ .

(٢) آل عمران ١٨٥ .

الله أكبر ! الله أكبر !

الله أكبر ! الله أكبر !

أشهـــد أن لا إلـــه إلا الله

أشهـــد أن لا إلـــه إلا الله

أشهـــد أن ....

وخنقت بلال العبرات فما استطاع أن يذكر اسم الرسول الحبيب والرسول مسجى فى سريره فأجهش بالبكاء . وسمع الناس انقطاع الأذان وبكاء بلال فتجددت الأحزان فبكوا . وراح بلال يغالب نفسه ويتحكم فى عواطفه ليتم الأذان ، وأخيرا ردد بصوت كله دموع :

أشهـــد أن محمـــدا رسول الله

أشهـــد أن محمـــد رسول الله

حى على الصلاة ، حـى على الصلاة

حى على الفلاح ، حى على الفـلاح

الله أكبر ، الله أكبر

لا إلـه إلا الله

٦

بكى الناس على رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— والله لوددنا أنا متنا قبله ، إنا نخشى أن نفتن بعده .

قال معن بن عدى :

— ولكنى والله ما أحب أنى مت قبله ، حتى أصدقه ميتا كما صدقته حيا .

وذهب معن إلى سقيفة بنى ساعدة حيث اجتمع الأنصار فقالوا :

— إن رسول الله — ﷺ قد قبض .

فقال سعد بن عبادة لابنه قيس :

— إنى لا أستطيع أن أسمع الناس كلامى لمرضى ، ولكن تلق منى قولى فأسمعهم ..

فكان سعد يتكلم ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليسمع قومه ، فحمد سعد الله وأثنى عليه ثم قال :

— إن لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب . إن رسول الله — ﷺ — لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان ، فما آمن من قومه إلا قليل . والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا يعزّوا دينه ولا يدفعوا عنه عِداء ، حتى أراد الله بكم خير الفضيلة وساق إليكم الكرامة

وخصكم بدينه ورزقكم الإيمان به وبرسوله والإعزاز لدينه والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم ، حتى استقاموا لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داحضا ، حتى أنجز الله لنبيكم الوعد ، ودانت لأسيافكم العرب ، ثم توفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين . فشدوا يديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس وأولاهم به .

فأجابوا جميعا :

ـــ أنت وفقت فى الرأى وأصبت فى القول ، ولن نعدو ما أمرت . نوليك هذا الأمر فأنت لنا مقنع ولصالح المؤمنين رضا .

فقال عويم بن ساعدة :

ـــ يا معشر الخزرج إن كان هذا الأمر فيكم دون قريش فعرفونا ذلك وبرهنوا حتى نبايعكم عليه . وإن كان لهم دونكم فسلموا إليهم ، فوالله ما هلك رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى عرفنا أن أبا بكر خليفته حين أمره أن يصلى بالناس .

فشتمه الأنصار وأخرجوه ، فانطلق هو ومعن بن عدى مسرعين إلى أبى بكر .

وفت ذلك فى عضد الأنصار فقال قائل منهم :

ـــ فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده ؟

فقالت طائفة منهم :

ـــ فإنا نقول إذا : منا أمير ومنكم أمير . ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا .

فقال سعد بن عبادة حين سمعها :

— هذا أول الوهن .

وجاء عويم بن ساعدة ومعن بن عدى أخو بنى العجلان إلى عمر بن الخطاب وقالا :

— هاتيك الأنصار قد اجتمعت فى ظُلّة بنى ساعدة يبايعون سعد بن عبادة .

إنهما رجلان صالحان قد شهدا بدرا . فأما عويم بن ساعدة فقد شهد له رسول الله — ﷺ — أنه ممن يحبون أن يتطهروا ، فقد قيل لرسول الله — صلى الله عليه وسلم : من الذين قال الله فيهم : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ (1) ؟ فقال رسول الله — ﷺ : نعم المرء منهم عويم بن ساعدة . أما معن فقد قال بعد موت الرسول — صلوات الله وسلامه عليه : والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقه ميتا كما صدقته حيا .

وخاف عمر من وقوع فتنة فى الإمارة وخاف من حدوث ردة ، فمسيلمة الكذاب قد دانت له اليمامة وطليحة العنسي قد غلظ أمره ، ومن يدرى من يخرج غدا على الإسلام لما يبلغ القبائل موت رسول الله — ﷺ ، فانطلق إلى منزل النبى — ﷺ — وقد استبد به القلق فأرسل إلى أبى بكر ، وأبو بكر فى الدار وعلى بن أبى طالب دائب فى جهاز رسول الله — ﷺ ، فأرسل إلى أبى بكر أن اخرج إلى . فأرسل إليه :

— إنى مشتغل .

---

(1) التوبة ١٠٨ .

فأرسل إليه :

— إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره .

فخرج إليه فقال عمر :

— أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ؟ وأحسنهم من يقول منا أمير ومن قريش أمير .

فمضيا مسرعين نحوهم فلقيا أبا عبيدة بن الجراح فتماشوا إليهم ثلاثتهم :

وأحس العباس لما خرج أبو بكر أن فى الأمر شيئا وأن الناس يفكرون فيمن يخلف رسول الله — ﷺ ، فقال لعلى بن أبى طالب :

— امدد يديك أبايعك ، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان .

— أو يطمع يا عم فيها طامع غيرى ؟

— ستسمع .

وبلغ أبو بكر وعمر وأبو عبيدة سقيفة بنى ساعدة ، فإذا بالأنصار يدورون حول سعد بن عبادة ويقولون :

— أنت المرجى ونجلك المرجى .

لقد فتح باب فتنة الساعة إلا أن يغلقه الله وكان عمر قد زوى كلاما أراد أن يقوم به فيهم ، فلما تقدم إليهم ذهب ليبتدئ المنطق فقال له أبو بكر :

— رويدا أتكلم ، ثم انطق بعدما أحببت .

فبدأ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه وشهيدا على أمته ليعبدوا الله

ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة ، وإنما هى من حجر منحوت ، وخشب منجور .

ثم قرأ : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (١) . وقالوا : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾(٢) . فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس مخالف زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم وإجماعهم عليهم ، فهم أول من عبد الله فى الأرض وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور .

فقام الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال :

ـــ يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم ، فإن الناس فى فيئكم وفى ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم . أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد

---

(١) يونس ١٨ .   (٢) الزمر ٣ .

عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم . فإن أبى عليكم إلا ما سمعتم ، فمنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر :

— هيهات لا يجتمع سيفان فى غمد . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم . ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين .

من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مُدْل بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورط فى هلكة ؟

فقال الحباب بن المنذر :

— يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين . أنا جُذَيلها المحكك، وعذيقها المرجَّب [١] ، أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة .

---

(١) الجذل : عود ينصب للإبل الجربى تحتك به فتستشفى . المحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملسا . والعذق : النخلة . والمرجب : المدعوم بالرجبة وهى خشبة ذات شعبتين ، وذلك إذا طال وكثر حمله . والمعنى : إنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيرا فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها كالنخلة الكثيرة الحمل .

فقال عمر :

ـــ إذن يقتلك الله .

ـــ بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة :

ـــ يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغير .

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير ، وكان خزرجيا مثل سعد بن عبادة فقال :

ـــ يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا . فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرضا ، فإن الله ولى المنة علينا بذلك . ألا إن محمدا ـــ ﷺ ـــ من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وايم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر الصديق :

ـــ هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا .

فقال عمر :

ـــ والله لأن أقدم فأنحر كما يُنحر البعير ، أحب إلىّ من أن أتقدم على أبى بكر .

وقال أبو عبيدة :

ـــ لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله ـــ ﷺ ـــ على الصلاة ،

والصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ ابسط يديك نبايعك .

وقال عمر :

— أيكم يطيب نفسا أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله ﷺ ؟ رضيك رسول الله — ﷺ — لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا ؟

كان أبو بكر أحب إلى الناس من ضياء أبصارهم ، فأقبلوا بوجوههم عليه ، وارتفع نداؤهم من كل ناحية :

— لا نريد سواك يا أبا بكر ، أنت لها .

وبسط أبو بكر يده وبايعه عمر ثم أبو عبيدة ، وخف إليه بشير بن سعد فبايعه ، فناداه الحباب بن المنذر :

— يا بشير بن سعد عققت عقاق ، ما أحوجك إلى ما صنعت ؟! أنفست على ابن عمك الإمارة ؟

— لا والله ، ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم .

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء :

— والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا ، فقوموا فبايعوا أبا بكر .

فقاموا إليه فبايعوه ، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم :

فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه فأخذه فبادروا إليه فأخذوا سيفه منه ، فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة ، فقال :

ـ فعلتموها يا معشر الأنصار ، أما والله لكأنى بأبنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء .

قال أبو بكر :

ـ أمنا تخاف يا حباب ؟

ـ ليس منك أخاف ولكن ممن يجيء بعدك .

ـ فإذا كان ذلك فالأمر إليك وإلى أصحابك : ليس لنا عليكم طاعة .

ـ هيهات يا أبا بكر ، إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم .

وأقبلت قبيلة أسلم بجماعتها حتى تضايق بهم السكك فبايعوا أبا بكر . فما هو إلا أن رأى عمر أسلم فأيقن بالنصر ، فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر ، وكادوا يطئون سعد بن عبادة ، فقال ناس من أصحاب سعد :

ـ اتقوا سعدا لا تطئوه .

فقال عمر :

ـ اقتلوه قتله الله .

ثم قام على رأسه فقال :

ـ لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك .

فأخذ سعد بلحية عمر فقال :

ـ والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفى فيك واضحة .

فقال أبو بكر :

ـ مهلا يا عمر ، الرفق ههنا أبلغ .

فأعرض عنه عمر . وقال سعد :

ـــ أما والله لو أن بى قوة ما أقوى على النهوض لسمعت منى فى أقطارها وسككها زئيرا يَجحرك وأصحابك ، أما والله إذًا لأُلحقنك بقوم كنت فيهم تابعا غير متبوع . احملونى من هذا المكان .

فحملوه فأُدخلوه داره ، وكبر الناس لبيعة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة ، فراح التكبير يتجاوب فى أرجاء المدينة .

٧

راح علىّ بن أبى طالب وأسامة بن زيد والعباس بن عبد المطلب وولداه الفضل وقثم يشتغلون بجهاز رسول الله ـــ ﷺ ، واختلفوا هل يغسل فى ثيابه أو يجرد منها كما تجرد الموتى ، فرأوا أن يغسلوه وعليه ثيابه ، فأخذ علىّ يغسله وعليه قميصه ؛ ولف كرم الله وجهه على يده خرقة وأدخلها تحت القميص يغسل بها الجسد الشريف . وغسل عليه السلام فى المرة الأولى بالماء القراح ، وفى الثانية بالماء والسدر ، وفى الثالثة بالماء والكافور ، وكفن فى ثلاثة أثواب بيض يمانية .

وطفق علىّ يقول :

ـــ بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء ، وخصصت حتى صرت مسليا عمن سواك ، وعممت حتى صار الناس فيك سواء . ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون ، ولكان الداء مماطلا ، والكمد محالفا ، وقلاّ لك . ولكنه ما لا يملك رده ، ولا يستطاع دفعه . بأبى أنت وأمى ، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك .

وكان النبى ـــ ﷺ ـــ قد بعث أبا سفيان بن حرب على الصدقات ، فرجع من سعايته وقد مات رسول الله ـــ ﷺ ـــ فلقيه قوم فسألهم فقالوا :

— مات رسول الله — ﷺ .

— من ولى من بعده ؟

— أبو بكر .

— أبو فصيل ؟[١] فما فعل المستضعفان على والعباس ! أما والذى نفسي بيده لأرفعن لهما من أعضادهما .

وأتى أبو سفيان علىّ بن أبى طالب والعباس ، والعباس يفكر فيما كان بينه وبين علي . أشار عليه فى مرض رسول الله — ﷺ وآله — أن يسأله فإن كان الأمر فيهم أعطاه إياهم ، وإن كان فى غيرهم أوصى بهم . فقال على : أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد بعده .

إن العباس ليحس مذ خرج أبو بكر لما دعاه عمر ، أن الأمر يوشك أن يفلت من يد ابن أخيه ، وها هو ذا أبو سفيان بن حرب يأتى ليبايع ابن أبى طالب ، فقال العباس لعلىّ :

— ابسط يدك أبايعك ويبايعك هذا الشيخ ، فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك أحد من قريش ، وإذا بايعك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب .

فقال علىّ عليه السلام :

— لنا بجهاز رسول الله شغل ، وهذا الأمر فليس يخشى عليه .

فلم يلبثوا أن سمعوا التكبير من سقيفة بنى ساعدة ، فقال علىّ :

— يا عم ماهذا ؟

— ما دعوناك إليه فأبيت .

---

(١) سمى بذلك لضعف بنيته والفصيل ولدالناقة وقد انفصل عنها .

— سبحان الله ! أيكون هذا ؟

— نعم .

— أفلا يرد ؟

— وهل رُدَّ مثل هذا قط .

وقال أبو سفيان بن حرب :

— وليتم على هذا الأمر أذل بيت فى قريش ، أما والله لئن شئت لأملأنها على أبى فصيل خيلا ورجلا .

فقال على كرم الله وجهه :

— طالما غششت الإسلام وأهله فما ضررتهم شيئا ! لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك .

وأقبلت الجماعة التى بايعت أبا بكر تزفه زفا إلى مسجد رسول الله — ﷺ ، واجتمعت بنو هاشم إلى بيت على بن أبى طالب ومعهم الزبير ، واجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن بن عوف ، فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة فقال :

— مالى أراكم ملتاثين ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر ، فقد بايع له الناس وبايعه الأنصار .

فقام عثمان ومن معه وقام سعد وعبد الرحمن ومن معهما ، فبايعوا أبا بكر .

وكان البراء بن عازب لبنى هاشم محبا ، فلما قبض رسول الله — ﷺ — خاف أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم ، فأخذه ما يأخذ الوالهة العجول مع ما فى نفسه من الحزن لوفاة رسول الله — ﷺ وآله ، فكان يتردد إلى بنى هاشم وهم عند النبى — ﷺ — فى الحجرة ،

ويتفقد وجوه قريش ، فإنه كذلك إذ فقد أبا بكر وعمر ، وإذا قائل يقول :

— القوم في سقيفة بني ساعدة .

وإذا قائل آخر يقول :

— قد بويع أبو بكر .

فلم يلبث وإذا هو بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة ، والناس يبايعون أبا بكر ، فخرج البراء يشتد حتى انتهى إلى بني هاشم والباب مغلق ، فضرب عليهم الباب ضربا عنيفا قال :

— قد بايع الناس لأبي بكر بن أبي قحافة .

فقال العباس :

— تربت أيديكم إلى آخر الدهر . أما إني قد أمرتكم فعصيتموني .

فمكث البراء يكابد ما في نفسه ، فلما كان بليل خرج إلى المسجد ، فلما صار فيه تذكر أنه كان يسمع همهمة رسول الله — ﷺ — بالقرآن فامتنع من مكانه . فخرج إلى الفضاء فضاء بني بياضة ووجد نفرا يتناجون ، فلما دنا منهم سكتوا فانصرف عنهم فعرفوه وما عرفهم ، فدعوه إليهم فأتاهم فوجد المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري وحذيفة وأبا الهيثم بن التيهان ، وإذا حذيفة يقول لهم :

— والله ليكونن ما أخبرتكم به ، والله ما كَذِبت ولا كُذِّبت .

وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين .

ثم قال البراء :

— ائتوا أُبيّ بن كعب فقد علم كما علمت .

فانطلقوا إلى أبىّ فضربوا عليه بابه ، حتى صار خلف الباب فقال :

ـــ من أنتم ؟

فكلمه المقداد فقال :

ـــ ما حاجتكم ؟

ـــ افتح عليك بابك ، فإن الأمر أعظم من أن يجرىَ من وراء حجاب .

ـــ ما أنا بفاتح بابى وقد عرفتُ ما جئتم له ، كأنكم أردتم النظر فى هذا العقد .

ـــ نعم .

ـــ أفيكم حذيفة ؟

ـــ نعم .

ـــ فالقول ما قال ، وبالله ما أفتح عنى بابى حتى تجرى على ماهى جارية ، ولما يكون بعدها شر منها ، وإلى الله المشتكى .

وذهب عمر إلى علىّ بن أبى طالب والعباس والزبير بن العوام ، فى عصابة فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن أشيم ، فقالوا :

ـــ انطلقوا فبايعوا أبا بكر .

فأبوا ، فخرج الزبير بن العوام بالسيف فقال عمر :

ـــ عليكم بالرجل فخذوه .

فوثب عليه سلمة بن أشيم فأخذ السيف من يده فضرب به الجدار ، فانطلقوا به فبايع ، وذهب بنو هاشم أيضا فبايعوا . ولم يبق من بنى هاشم إلا على كرم الله وجهه وعمه العباس .

كان على يرى أن يؤخر عقد البيعة إلى أن يحضر ويتشاور ويقع الوفاق بينه وبينهم ، على أن يكون العقد لواحد من المسلمين بموجبه ، إما له

أو لأبى بكر أو لغيرهما ، ولم يكن ليليق أن يبرم وهو غير حاضر له مع جلالته فى الإسلام وعظيم أثره وما ورد فى حقه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله ، فهذا هو الذى كان ينقم ومنه كان يتألم .

وأرسل عمر وأبو بكر إلى أبى عبيدة وإلى المغيرة بن شعبة فسألاهما عن الرأى ، فقال المغيرة :

— الرأى أن تلقوا العباس فتجعلوا له ولولده فى هذه الإمرة نصيبا .

فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة حتى دخلوا على العباس ، وذلك فى الليلة الثانية من وفاة رسول الله — ﷺ وآله ، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وقال :

— إن الله ابتعث لكم محمدا — ﷺ — نبيا ، وللمؤمنين وليا ، فمن الله عليهم بكونه بين ظهرانيهم ، حتى اختار له ما عنده فخلّى على الناس أمورهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين ، فاختارونى عليهم واليا ، ولأمورهم راعيا ، فتوليت ذلك وما أخاف بعون الله وتسديده وهنا ولا حيرة وجبنا ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . وما أنفكّ يبلغنى عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ، يتخذكم لجأ فتكونوا حصنه المنيع ، وخطبه البديع . فإما دخلتم فيما دخل فيه الناس أو صرفتموهم عما مالوا إليه ، فقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك فى هذا الأمر نصيبا ، ولمن بعدك من عقبك ، وإذ كنت عم رسول الله — ﷺ — وإن كان المسلمون قد رأوا مكانك من رسول الله — ﷺ — ومكان أهلك ثم عدلوا بهذا الأمر عنكم ، وعلى رسلكم بنى هاشم فإن رسول الله — ﷺ — منا ومنكم .

فاعترض كلامه عمر . وخرج إلى مذهبه فى الخشونة والوعيد وإتيان

الأمر من أصعب جهاته فقال :

ـــ إى والله ، وأخرى إنا لم نأتكم حاجة إليكم ولكن كرها أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم ، فيتفاقم الخطب بكم وبهم . فانظروا لأنفسكم ولعامتهم .

ثم سكت فتكلم العباس شيخ بنى هاشم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ إن الله ابتعث محمدا نبيا كما وصفت . ووليا للمؤمنين ، فمن الله به على أمته حتى اختار له ما عنده . فخلّى الناس على أمرهم ليختاروا لأنفسهم مصيبين للحق مائلين عن زيغ الهوى . فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت . وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم ، ما تقدمنا فى أمركم فَرطا ، ولا حللنا وسطا ، ولا نزحنا شحطا . فإن كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين ، وما أبعد قولك إنهم طعنوا من قولك أنهم مالوا إليك . وأما ما بذلت لنا فإن يكن حقك أعطيتناه فأمسكه عليك ، وإن يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه . وإن يكن حقنا لم نرض لك ببعضه دون بعض . وما أقول هذا أروم صرفك عما دخلت فيه ، ولكن للحجة نصيبها من البيان .

وأما قولك إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ منا ومنكم ، فإن رسول الله ـــ ﷺ ـــ من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها . وأما قولك يا عمر إنك تخاف الناس علينا ، فهذا الذى قدمتموه أول ذلك ، والله المستعان .

وخرج أبو بكر وعمر من عند شيخ بنى هاشم ولم يستطيعا أن يقنعاه ببيعة ابن أبى قحافة . وبقى شيخ بنى أمية ، إنه قدم إلى المدينة وإنه ليقول : إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم !، فكلم عمر أبا بكر فقال :

— إن أبا سفيان قد قدم وإنا لا نأمن شره .

فدفع له أبو بكر ما كان فى يده ، ما كان قد جمعه من الصدقات ، فأخمد المال ثورة شيخ بنى أمية .

وراح الناس يتحدثون عن بيعة أبى بكر ، فقال لهم سلمان الفارسى :

— أصبتم ذا السن منكم وأخطأتم أهل بيت نبيكم ، لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان ولأكلتموها رغدا .

وكان أبو ذر الغفارى غائبا لما مات رسول الله — ﷺ ، وقدم وقد بايع الناس أبا بكر فقال :

— أصبتم قناعة ، وتركتم قرابة ، لو جعلتم هذا الأمر فى أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم اثنان .

واجتمع قوم من الأنصار وقوم من المهاجرين فتعاتبوا فيما بينهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف :

— يا معشر الأنصار إنكم وإن كنتم أولى فضل ونصر وسابقة ، ولكن ليس فيكم مثل أبى بكر ولا عمر ولا علىّ ولا أبى عبيدة .

فقال زيد بن أرقم :

— إنا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن ، وإن منا لسيد الأنصار سعد بن عبادة ، ومن أمر الله رسوله أن يقرئه السلام وأن يأخذ عنه القرآن أبىّ بن كعب ، ومن يجئ يوم القيامة إمام العلماء معاذ بن جبل ، ومن أمضى رسول الله — ﷺ — شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت . وإنا لنعلم أن ممن سميت من قريش من لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد : على بن أبى طالب .

* * *

وقيل لأبى قحافة :

ــ قد ولى ابنك الخلافة .

فقرأ :

ــ ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾

ثم قال :

ــ لم ولوه ؟

ــ لسنه .

ــ أنا أسن منه .

(١) آل عمران ٢٦ .

٨

أدرج — ﷺ — فى أكفانه ووضع على سريره ثم وضع على شفير حفرته ، ثم صار الناس يدخلون عليه رفقاء رفقاء . دخل عليه — ﷺ — أبو بكر وعمر ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار بقدر ما يسع البيت ، فقالوا :

— السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .

وسلم المهاجرون والأنصار كما سلم أبو بكر وعمر ، ثم صفوا صفوفا لا يؤمهم أحد وكان أبو بكر فى الصف الأول الذى حيال الرسول — ﷺ — فقال أبو بكر :

— اللهم إنا نشهد أنه — ﷺ — قد بلغ ما أنزل إليه .

— آمين .

— ونصح لأمته .

— آمين .

— وجاهد فى سبيلك حتى أعز الله دينه وتمت كلمته .

— آمين .

— فاجعلنا إلهنا ممن اتبع القول الذى أنزل معه، واجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا وتعرفنا به فإنه كان بالمؤمنين رءوفا رحيما . لا نبتغى بالإيمان به بدلا ، ولا نشترى به ثمنا أبدا .

— آمين .

واختلفوا فى الموضع الذى يدفن فيه فمن قائل :

— يدفن فى البقيع .

ومن قائل :

— ينقل ويدفن عند إبراهيم الخليل .

فقال أبو بكر :

— إن عندى فى هذا خبرا . سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « لا يدفن نبى إلا حيث قبض » .

وألحدوا له — ﷺ — لحدا لقوله — ﷺ — : « ألحدوا ولا تشقوا ، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا » .

ودخل قبره — ﷺ — العباس وعلىّ والفضل بن العباس بين النشيج والنحيب ، وأخذ شقران مولاه قطيفة كان رسول الله — ﷺ — يلبسها ويفترشها فقذفها إلى القبر وقال :

— والله لا يلبسها أحد بعدك أبدا .

وكان أهل بيت النبى — ﷺ — مجتمعين يبكون تلك الليلة لم يناموا ، فسمعوا صوت المساحى فصاحوا وصاح أهل المسجد فارتجت المدينة صيحة واحدة . ودخل علىّ بن أبى طالب على فاطمة الزهراء وهو واله حزين فقالت له :

— دفنتم رسول الله — ﷺ — ؟

— نعم .

— كيف طابت قلوبكم أن تحثوا التراب عليه ؟ كان نبى الرحمة .

— نعم ولكن لا راد لأمر الله .

وأذن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبى — ﷺ — بكى وانتحب فزاد المسلمين حزنا .

وأشرقت الشمس فجلس أبو بكر على منبر الرسول — ﷺ — فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

— أيها الناس ، إنى قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيى وما وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهدا عهده إلى رسول الله — ﷺ — ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا ، وأن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثانى اثنين إذ هما فى الغار فقوموا فبايعوه .

فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة ، ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس إن الله الجليل الكريم العليم الحكيم الرحيم الحليم بعث محمدا بالحق ، وأنتم معشر العرب كما قد علمتم من الضلالة والفرقة ، ألف بين قلوبكم ، ونصركم به ، وأيدكم ، ومكن لكم دينكم ، وأورثكم سيرته الراشدة المهدية ، فعليكم بحسن الهدى ولزوم الطاعة .

وقد استخلف الله عليكم خليفة ليجمع به ألفتكم ، ويقيم به كلمتكم ، فأعينونى على ذلك بخير . ولم أكن لأبسط يدا ولا لسانا على من لم يستحل ذلك إن شاء الله .

وايم الله ما حرصت عليها ليلا ولا نهارا ، ولا سألتها الله قط فى سر ولا علانية . ولقد قلدت أمرا عظيما ما لى به طاقة ولا يد ، ولوددت أنى وجدت أقوى الناس عليه مكانى ، فأطيعونى ما أطعت الله ، فإذا عصيت

الله فلا طاعة لى عليكم .

ثم بكى وقال :

ــ اعلموا أيها الناس أنى لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ، ولوددت أن بعضكم كفانيه . ولئن أخذتمونى بما كان الله يقيم به رسوله من الوحى ما كان ذلك عندى وما أنا إلا كأحدكم ، فإذا رأيتمونى قد استقمت فاتبعونى ، وإن زغت فقومونى .

واعلموا أن لى شيطانا يعترينى أحيانا ، فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى ، لا أوثر بأشعاركم وأبشاركم .

ثم نزل . وكان علىّ بن أبى طالب والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسى وأبو ذر الغفارى والبراء فى بيت فاطمة ، فجاءهم عمر ثم قال لعلىّ :

ــ قم فبايع لأبى بكر .

فتلكأ واحتبس ، فأخذ بيده فقال :

ــ قم .

فأبى علىّ أن يقوم ، فحمله ودفعه فأخرجه ، ورأت فاطمة ما صنع بزوجها فقامت على باب الحجرة وقالت :

ــ يا أبا بكر ، ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله ، والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله .

وجىء بعلىّ بن أبى طالب إلى أبى بكر وهو يقول :

ــ أنا عبد الله ، أخو رسول الله .

فقيل له :

ــ بايع .

ــ أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى . أخذتم

هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى — ﷺ — وتأخذونه منا أهل البيت غصبا . ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة ؟ فإذاً أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ؛ نحن أولى برسول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون .

فقال له عمر :

— إنك لست متروكا حتى تبايع .

فقال له علىّ :

— احلب له حلبا لك شطره ، وشد له اليوم يردده عليك غدا .

ثم قال :

— والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه .

فقال له أبو بكر :

— إن لم تبايع فلا أكرهك .

فقال أبو عبيدة بن الجراح :

— يا بن عم إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور . ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالا واستطلاعا ، فسلم لأبى بكر هذا الأمر فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق ، فى فضلك ودينك ، وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

فقال على كرم الله وجهه :

— الله الله يا معشر المهاجرين ! لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعون أهله عن مقامه فى

الناس وحقه . فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأنا أهل البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المتطلع لأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية . والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدا .

وقال بشير بن سعد الأنصارى :

ـــ لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علىّ قبل بيعتها لأبى بكر ، ما اختلف عليك .

وكان خالد بن الوليد شيعة لأبى بكر ومن المنحرفين عن علىّ ، فقام خطيبا فقال :

ـــ أيها الناس إنا رُمينا فى بدء هذا الدين بأمر ثقل علينا والله محمله ، وصعب علينا مرتقاه ، وكنا كأنا فيه على أوتار . ثم والله ما لبثنا أن خف علينا ثقله ، وأذل لنا صعبه ، وعجبنا ممن شك فيه بعد عجبنا ممن آمن به ، حتى أمرنا بما كنا ننهى عنه ، ونهينا عما كنا نأمر به ، ولا والله ما سبقنا إليه بالعقول ، ولكنه التوفيق .

ألا وإن الوحى لم ينقطع حتى أحكم ، ولم يذهب النبى ـــ ﷺ ـــ فنستبدل بعده نبيا ولا بعد الوحى وحيا . ونحن اليوم أكثر منا أمس ، ونحن أمس خير منا اليوم . من دخل فى هذا الدين كان ثوابه على حسب عمله ، ومن تركه رددناه إليه . وإنه والله ما صاحب الأمر ـــ يعنى أبا بكر ـــ بالمسئول عنه ولا المختلف فيه ، ولا الخفى الشخص ولا المغموز القناة .

وندم قوم كثير من الأنصار على بيعة أبى بكر ولام بعضهم بعضا ،

وذكروا علىّ بن أبى طالب وهتفوا باسمه وإنه فى داره لم يخرج إليهم . وجزع لذلك المهاجرون وكثر فى ذلك الكلام ، وكان أشد قريش على الأنصار سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبى جهل .

فلما اعتزلت الأنصار تجمع المهاجرون ، فقام سهيل بن عمرو فقال :

— يا معشر قريش إن هؤلاء القوم قد سماهم الله الأنصار وأثنى عليهم فى القرآن ، فلهم بذلك حظ عظيم وشأن غالب . وقد دَعوا إلى أنفسهم وإلى علىّ بن أبى طالب وعلىّ فى بيته لو شاء لردهم ، فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته ، فإن أجابوكم وإلا فقاتلوهم ، فوالله إنى لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نُصرتم بهم .

ثم قام الحارث بن هشام فقال :

— إن يكن الأنصار تبوأت الدار والإيمان من قبل ونقلوا رسول الله — ﷺ — إلى دورهم من دورنا ، فآووا ونصروا ، ثم ما رضوا حتى قاسمونا الأموال وكفونا العمل ، فإنهم قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه فإنهم قد خرجوا مما وسموا به ، وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف ، وإن نزعوا عنه فقد فعلوا الأولى بهم والمظنون معهم .

ثم قام عكرمة بن أبى جهل فقال :

— والله لولا قول رسول الله — ﷺ : « الأئمة من قريش » ما أنكرنا إمرة الأنصار ، ولكانوا لها أهلا ؛ ولكنه قول لا شك فيه ولا خيار . وقد عجلت الأنصار علينا . والله ما قبضنا عليهم الأمر ولا أخرجناهم من الشورى ، وإن الذى هم فيه من فلتات الأمور ونزعات الشيطان وما لا يبلغه المنى ولا يحمله الأمل .

اعذروا إلى القوم ، فإن أبوا فقاتلوهم ، فوالله لو لم يبق من قريش

كلها إلا رجل واحد لصير الله هذا الأمر فيه .

وحضر أبو سفيان بن حرب فقال :

ــ يا معشر قريش إنه ليس للأنصار أن يتفضلوا على الناس حتى يقروا بفضلنا عليهم ، فإن تفضلوا فحسبنا حيث انتهى بها ، وإلا فحسبهم حيث انتهى بهم . وايم الله لئن بطروا المعيشة وكفروا النعمة لنضربنهم على الإسلام كما ضربوا عليه ، فأما علىّ بن أبى طالب فأهل والله أن يسوَّد على قريش وتطيعه الأنصار .

فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس فقال :

ــ يا معشر الأنصار إنما يكبر عليكم هذا القول لو قاله أهل الدين من قريش ، فأما إذا كان من أهل الدنيا لا سيما من أقوام كلهم موتور ، فلا يكبرن عليكم . إنما الرأى والقول مع الأخيار المهاجرين ، فإن تكلمت رجال قريش الذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء ، فعند ذلك قولوا ما أحببتم وإلا فأمسكوا .

وقال حسان بن ثابت :

تنادى سهيلٌ وابن حرب وحارث
وعكرمة الشانى لنا ابن أبى جهل

قتلنا أباه وانتزعنا سلاحه
فأصبح بالبطحا أذلَّ من النعل

فأما سهيلٌ فاحتواه ابن دخشم
أسيرا ذليلا لا يمر ولا يُحلى

وصخر بن حرب قد قتلنا رجاله
غداة لوا بدر فمرجَله يُغلى

وراكضنا تحت العجاجة حارثٌ
على ظهر جرداء كباسقة النحل
يقبّلها طورا وطورا يحثها
ويعدلها بالنفس والمال والأهل
أولئك رهط من قريش تبايعوا
على خطة ليست من الخطط الفضل

فبلغ شعر حسان قريشا فغضبوا وأمروا ابن أبى عزة شاعرهم أن يجيبه ، فقال :

معشر الأنصار خافوا ربكم
واستجيروا الله من شر الفتن
إننى أرهب حربا لاقحا
يشرَق المرضع فيها باللبن
جرها سعد وسعد فتنة
ليت سعد بن عباد لم يكن
ليس ما قدر سعد كائنا
ما جرى البحر وما دام حضن
ليس بالقاطع منا شعرة
كيف يُرجى خير أمر لم يحن
ليس بالمدرك منها أبدا
غير أضعاث أمانىّ الوسن

وقسم أبو بكر العطاء بين نساء المهاجرين والأنصار فبعث إلى امرأة من بنى عدى بن النجار قسمها مع زيد بن ثابت ، فقالت :

ــ ما هذا ؟

— قسم قسمه أبو بكر للنساء .

— أتراشونني على ديني ! والله لا أقبل منه شيئا !

فردته عليه .

وأكرمت قريش معن بن عدى وعويم بن ساعدة ، فاجتمعت الأنصار لهما في مجلس ودعوهما . فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فعيروهما بانطلاقهما إلى المهاجرين ، وأكبروا فعلهما فى ذلك ، فتكلم معن فقال :

— يا معشر الأنصار إن الذى أراد الله بكم خير مما أردتم بأنفسكم ، وقد كان منكم أمر عظيم البلاء وصغرته العافية ، فلو كان لكم على قريش ما لقريش عليكم ثم أردتموهم لما أرادوكم به ، لم آمن عليهم منكم مثل ما آمن عليكم منهم ، فإن تعرفوا الخطأ فقد خرجتم منه وإلا فأنتم فيه .

وتكلم عويم بن ساعدة ، فقال :

— يا معشر الأنصار إن من نعم الله عليكم أنه تعالى لم يرد بكم ما أردتم بأنفسكم ، فاحمدوا الله على حسن البلاء وطول العافية وصرف هذه البلية عنكم . وقد نظرت فى أول فتنتكم وآخرها فوجدتها جاءت من الأمانى والحسد . واحذروا النقم فوددت أن الله صير إليكم هذا الأمر بحقه فكنا نعيش فيه .

فوثبت عليهما الأنصار فأغلظوا لهما وفحشوا عليهما وانبرى لهما فروة ابن عمرو فقال :

— أنسيتما قولكما لقريش : « إنا قد خلفنا وراءنا قوما قد حلت دماؤهم بفتنتهم » ؟ هذا والله ما لا يغفر ولا ينسى . قد تصرف الحية عن وجهها وسمها فى نابها .

كان على بن أبى طالب فى داره وكان أصحابه يمشون إليه بما يدور بين

الأنصار والمهاجرين فكان يستشعر خوفا على الإسلام وأهله . وارتفع صوت بلال بالأذان فخطر لعلىّ خاطر : إن ذلك الأذان سيرفع من الأرض لو أن المهاجرين مشوا إلى الأنصار وكان بينهم قتال ، إنها الفتنة .

وجاء إليه رسول خليفة رسول الله — ﷺ — يسأله الخروج لبيعة أبى بكر ويخوفه الفتنة لو أخر ، فخرج علىّ بن أبى طالب إلى أبى بكر ، فلما رآه الصديق قال :

— أيها الناس هذا علىّ بن أبى طالب ، لا بيعة لى فى عنقه وهو بالخيار من أمره ، ألا وأنتم بالخيار جميعا فى بيعتكم ، فإن رأيتم لها غيرى فأنا أول من يبايعه .

فقال علىّ :

— ما غضبنا إلا فى المشورة، وإنا لنرى أبا بكر أحق الناس بها . إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف له سنه ، ولقد أمره رسول الله — ﷺ — بالصلاة وهو حى . لا نرى غيرك ؛ امدد يدك .

وبايع علىّ بن أبى طالب أبا بكر ، فأقبل الناس على علىّ فقالوا :

— أصبت يا أبا الحسن وأحسنت .

وبعث إلى سعد بن عبادة :

— أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك .

فقال سعد فى غضب :

— أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبلى وأخضب سنان رمحى وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى ، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى . فلا أفعل وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى وأعلم ما حسابى .

فلما أوتى أبو بكر بذلك قال له عمر :

ــ لا تدعه حتى يبايع .

فقال له بشير بن سعد :

ــ إنه قد لج وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه و لده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه فليس تركه بضار كم وإنما هو رجل واحد .

فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد؛ ثم إن الأنصار أصلحوا بين معن وعويم بن ساعدة وبين أصحابهما. ثم اجتمعت جماعة من قريش يوما وفيهم ناس من الأنصار وأخلاط من المهاجرين وذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها وسكون الفتنة، فاتفق ذلك عند قدوم عمرو بن العاص من سفر كان فيه، فجاء إليهم فأفاضوا فى ذكر يوم السقيفة وسعد ودعواه الأمر، فقال عمرو بن العاص :

ــ والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عظيمة ولما دفع عنهم أعظم ، كادوا والله أن يحلوا حبل الإسلام كما قاتلوا عليه ويخرجوا منه من أدخلوا فيه . والله لئن كانوا سمعوا قول رسول الله ــ ﷺ : « الأئمة من قريش » ثم ادعوها لقد هلكوا وأهلكوا ؛ وإن كانوا لم يسمعوها فلما هم كالمهاجرين ولا سعد كأبى بكر ولا المدينة كمكة . ولقد قاتلونا أمس فغلبونا على البدء ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة .

فلم يجبه أحد وانصرف إلى منزله وقد ظفر ، فقال :

ألا قــل لأوس إذا جـئتها   وقـل إذا جـئت للخـزرج

تمنـيتم الملك فى يثرب   فأنـزلت القـدر لم تـنضج

وأخْدجتمُ الأمر قبل التما م وأعجب بذا المَعجل المخدج[1]
تريدون نتج الحيال العسا رَ ولم تلقحوه فلم ينتج
عجبت لسعد وأصحابه ولو لم يهيجوه لم يهتج
رجا الخزرجى رجاء السراب وقد يخلف المرء ما يرتجى
فكان كمُنْح على كفه بكف يقطعها أهوج

فلما بلغ الأنصار مقالته وشعره بعثوا إليه لسانهم وشاعرهم النعمان بن العجلان وكان رجلا أحمر قصيرا تزدريه العيون ، وكان سيدافخما ، فأتى عمرا وهو فى جماعة من قريش فقال :

— والله يا عمرو ما كرهتم من حربنا إلا ما كرهنا من حربكم . وما كان الله ليخرجكم من الإسلام بمن أدخلكم فيه .

إن كان النبى — ﷺ — قال : « الأئمة من قريش » فقد قال : « لو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ». والله ما أخرجنا كم من الأمر إذ قلنا : منا أمير ومنكم أمير . وأما من ذكرت فأبو بكر لعمرى خير من سعد ، ولكن سعدا فى الأنصار أطوع من أبى بكر فى قريش . فأما المهاجرون والأنصار فلا فرق بينهم أبدا ، ولكنك يا بن العاص وترت بنى عبد مناف بمسيرك إلى الحبشة لقتل جعفر وأصحابه ، ووترت بنى مخزوم بإهلاك عمارة بن الوليد .

ثم انصرف فقال :

فقل لقريش نحن أصحاب مكة
ويوم حنين والفوارس فى بدر

(١) المخدج : الناقص ويقال أخدج الأمر : اذا لم يحكمه.

وأصحـاب أحـد والـنضير وخـيبر
ونحن رجعنـا مـن قريظـة بالذكـر
ويوم بـأرض الشام أدخـل جعفـر
وزيـد وعبـد الله فى علـق يجرى
وفى كل يـوم ينكـر الكـلب أهلّـه
نطاعـن فيـه بالمثقفـة السُّمـر
ونضرب فى نقـع العجاجـة أرؤسا
ببـيض كأمثـال البروق إذا تسرى
نصرنـا وآوينـا النبـى ولم نخف
صروف الليالى والعظيم مـن الأمـر
وقلنـا لقـوم هاجروا قبـلُ : مرحبـا
وأهـلا وسهـلا قد أمنتم مـن الفقـر
نقاسمكـم أموالنـا وبيوتنـا
كقسمـة أيسار الجزور على الشطـر
ونكفيكـم الأمـر الـذى تكرهونـه
وكنا أناسا نـذهب الـعسر بالـيسر
وقلتم : حرام نصب سعد ونصبكـم
عتيـق بـن عثمان حـلالٌ أبـا بكـر
وأهـل أبـو بكـر لها خير قـائم
وإن عليـا كان أخلـق بالأمـر
وكان هوانـا فى علـىّ وإنـه
لأهل لها يا عمرو من حيث لا تدرى

فذاك بعون الله يدعو إلى الهدى
ويَنهى عن الفحشاء والبغى والنكر
وصىّ النبى المصطفى وابن عمه
وقاتل فرسان الضلالة والكفر
وهذا بحمد الله يهدى من العمى
ويفتح آذانا ثُقِلن من الوقر
نجىّ رسول الله فى الغار وحده
وصاحبه الصديق فى سالف الدهر
فلولا اتقاء الله لم تذهبوا بها
ولكن هذا الخير أجمع للصبر
ولم نرض إلا بالرضا ولربما
ضربنا بأيدينا إلى أسفل القدر

فلما انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش غضب كثير منها ، وألفى ذلك قدوم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن ، وكان رسول الله — ﷺ — استعمله عليها ، وكان هوى خالد مع على بن أبى طالب ، فغضب للأنصار وشتم عمرو بن العاص وقال :

— يا معشر قريش إن عمرا دخل فى الإسلام حين لم يجد بدا من الدخول فيه ، فلما لم يستطع أن يكيده بيده كاده بلسانه ، وإن من كيده الإسلام تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار . والله ما حاربنا للدين ولا للدنيا . لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا وما بذلنا دماءنا لله فيهم ، وقاسمونا ديارهم وأموالهم وما فعلنا مثل ذلك بهم ، وآثرونا على الفقر وحرمناهم ، ولقد وصى رسول الله بهم وعزاهم عن جفوة السلطان ، فأعوذ بالله أن

أكون وإياكم الخلف المضيع والسلطان الجانى .

ثم إن رجالا من سفهاء قريش ومثيرى الفتن منهم اجتمعوا إلى عمرو بن العاص فقالوا له :

ـــ إنك لسان قريش ورجلها فى الجاهلية والإسلام ، فلا تدع الأنصار وما قالت .

وأكثروا عليه فى ذلك فراح إلى المسجد وفيه ناس من قريش وغيرهم ، فتكلم وقال :

ـــ إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها ، وايم الله لوددت أن الله خلّى عنا وعنهم وقضى فيهم وفينا بما أحب ، ولنحن الذين أفسدنا على أنفسنا ، أنحرناهم عن كل مكروه ، وقدمناهم إلى كل محبوب ، حتى أمنوا المخوف ، فلما جاز لهم ذلك صغّروا حقنا ، ولم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم.

ثم التفت فرأى الفضل بن العباس بن عبد المطلب وندم على قوله للخئولة التى بين ولد عبد المطلب وبين الأنصار ، ولأن الأنصار كانت تعظّم عليا وتهتف باسمه حينئذ ، فقال الفضل :

ـــ يا عمرو إنه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة ، إلا أن يأمرنا فنفعل .

ثم رجع الفضل إلى علىّ فحدثه ، فغضب وشتم عمرا وقال :

ـــ آذى الله ورسوله .

ثم قام فأتى المسجد فاجتمع إليه كثير من قريش ، وتكلم مغضبا فقال :

ـــ يا معشر قريش إن حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق ، ولقد قضوا ما عليهم وبقى ما عليكم . واذكروا أن الله رغب لنبيكم عن مكة فنقله إلى

المدينة ، وكره له قريشا فنقله إلى الأنصار . ثم قدمنا عليهم دارهم فقاسمونا الأموال وكفَونا العمل ، فصرنا منهم بين بذل الغنى وإيثار الفقير . ثم حاربنا الناس فوقّونا بأنفسهم . وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن جمع لهم فيها بين خمس نِعم ، فقال ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[1]

ألا وإن عمرو بن العاص قد قام مقاما آذى فيه الميت والحى ، ساء به الواتر وسرّ به الموتور ، فاستحق من المستمع الجواب ومن الغائب المقت . وإنه من أحب الله ورسوله أحب الأنصار ، فليكفف عمرو عنا نفسه .

فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص فقالوا :

ـــ أيها الرجل أما إذا غضب على فاكفف .

وقال على للفضل :

ـــ يا فضل انصر الأنصار بلسانك ويدك ، فإنهم منك وإنك منهم .

فقال الفضل :

قلت يا عمرو مقالا فاحشا	إن تعد يا عمرو والله فَلكْ
إنما الأنصار سيف قاطع	من تصبه ظُبة السيف هلك
وسيوف قاطع مضربُها	وسهام الله فى يوم الحلك
نصروا الدين وآووا أهله	منزل رحب ورزق مشترك
وإذا الحرب تلظت نارها	بركوا فيها إذا الموت برك

---

(١) الحشر ٩ .

ودخل الفضل على عليّ فأسمعه شعره ففرح به وقال :

— وريت بك زنادى يا فضل ، أنت شاعر قريش وفتاها ، فأظهر شعرك وابعث به إلى الأنصار .

فلما بلغ ذلك الأنصار قالت :

— لا أحد يجيب إلا حسّان الحسام .

فبعثوا إلى حسان بن ثابت فعرضوا عليه شعر الفضل ، فقال :

— كيف أصنع بجوابه ! إن لم أتحر قوافيه فضحنى ، فرويدا حتى أقفُو أثره فى القوافى .

فقال له خزيمة بن ثابت :

— اذكر عليا وآله يكفيك كل شيء .

فقال حسان بن ثابت :

جـزى الله عنـا والجزاء بكفـه
أبـا حسن عنّـا ومـن كـأبى حسن
سبـقت قـريشا بالـذى أنت أهلُـه
فصدرك مشروح وقلـبك ممتحـن
تمنت رجـال مـن قـريش أعـزة
مكـانك ، هيهات الهزال من السمن
وأنتَ مـن الإسلام فى كل موطـن
بمنزلـة الدلـو البـطين مـن الـرسن
غضبت لنـا إذ قـام عمـرو بخطبـة
أمات بها التقـوى وأحيـا بها الإحن

فكنت المرجى من لؤى بن غالب
لما كان منهم والذى كان لم يكن

حفظت رسول الله فينا وعهده
إليك ومن أولى به منك ومن ومن !

ألست أخاه فى الهدى ووصيَّه
وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن

فحقك ما دامت بنجد وشيجة
عظيم علينا ثم بعد على اليمن

وبعث الأنصار بهذا الشعر إلى علىّ بن أبى طالب فخرج إلى المسجد ، وقال لمن به من قريش وغيرهم :

— يا معشر قريش إن الله جعل الأنصار أنصارا فأثنى عليهم فى الكتاب ، فلا خير فيكم بعدهم . إنه لا يزال سفيه من سفهاء قريش وتره الإسلام ودفعه عن الحق وأطفأ شرفه وفضل غيره عليه ، يقوم مقاما فاحشا فيذكر الأنصار . فاتقوا الله وارعوا حقهم ، فوالله لو زالوا لزلتُ معهم ، لأن رسول الله — ﷺ — قال لهم : « أزول معكم حيثما زلتم » .

فقال المسلمون جميعا :

— رحمك الله يا أبا الحسن ! قلت قولا صادقا .

ولم يرض عقلاء المهاجرين عن فتنة عمرو بن العاص ، فترك عمرو المدينة وخرج عنها حتى رضى عنه على والمهاجرون .

وقام الوليد بن عقبة بن أبى مُعيط يشتم الأنصار فقال :

— إن الأنصار لترى لها من الحق علينا مالا نراه . والله لئن كانوا آووا لقد عزوا بنا ، ولئن كانوا آسوا لقد منوا علينا . والله ما نستطيع مودتهم

لأنه لا يزال قائل منهم يذكر ذلَّنا بمكة وعزنا بالمدينة ، ولا ينفكون يعيرون موتانا ويغيظون أحياءنا ، فإن أجبناهم قالوا غضبت قريش على غاربها . ولكن قد هوّن علىّ ذلك منهم حرصُهم على الدين أمس.. واعتذارهم من الذنب اليوم .

ثم قال :

تباذخت الأنصار فى الناس باسمها ... ونسبتُها فى الأزد عمرو بن عامر
وقالوا لنا حق عظيم ومنّة ... على كل باد من معدّ وحاضر
فإن يك للأنصار فضلٌ فلم تنل ... بحرمته الأنصار فضلَ المهاجر
وإن تكن الأنصار آوت وقاسمت ... معايشها من جاء قسمة جازر
فقد أفسدت ما كان منها بمنِّها ... وما ذاك فعل الأكرمين الأكابر
إذا قال حسان وكعب قصيدة ... بشتم قريش غنيت فى المعاشر
وسار بها الركبان فى كل وجهة ... وأعمل فيها كل خفٍّ وحافر
فهذا لنا من كل صاحب خطبة ... يقوم بها منكم ومن كل شاعر
وأهل بأنْ يهجَوا بكل قصيدة ... وأهل بأن يرموا بنبل فواقر

ففشا شعره فى الناس فغضبت الأنصار ، وغضب لها من قريش قوم منهم ضرار بن الخطاب الفهرى وزيد بن الخطاب ويزيد بن أبى سفيان ، فبعثوا إلى الوليد فجاء ، فتكلم زيد بن الخطاب فقال :

ـــ يا بن عقبة بن أبى معيط ، أما والله لو كنت من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا لأحببت الأنصار ، ولكنك من الجفاة فى الإسلام البطاء عنه الذين دخلوا فيه بعد أن ظهر أمر الله وهم كارهون ، إنا نعلم أنا أتيناهم ونحن فقراء فأغنونا ، ثم أصبنا الغنى فكففنا عنهم ولم يرزءونا شيئا .

فأما ذكرهم ذلة قريش بمكة وعزها بالمدينة فكذلك كنا وكذلك قال الله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾[١] . فنصرنا الله تعالى بهم وآوانا إلى مدينتهم .

وأما غضبك لقريش فإنا لا ننصر كافرا ولا نواد ملحدا ولا فاسقا ، وقد قلت وقالوا فقطعك الخطيب وألجمك الشاعر .

وأما ذكرك الذى كان فدع المهاجرين والأنصار فإنك لست من ألسنتهم فى الرضا ، ولا نحن من أيديهم فى الغضب .

وتكلم يزيد بن أبى سفيان فقال :

ـــ يا بن عقبة . الأنصار أحق بالغضب لقتلى أحد ، فاكفف لسانك فإن من قتله الحق لا يغضب له .

وتكلم ضرار بن الخطاب فقال :

ـــ أما والله لولا أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال « الأئمة من قريش » لقلنا الأئمة من الأنصار . ولكن جاء أمر غلب الرأى ، فأقمع شرتك أيها الرجل ولا تكن امرأ سوء ، فإن الله لم يفرق بين الأنصار والمهاجرين فى الدنيا ، وكذلك الله لا يفرق بينهم فى الآخرة .

وأقبل حسان بن ثابت مغضبا من كلام الوليد بن عقبة وشعره ، فدخل المسجد وفيه قوم من قريش فقال :

ـــ يا معشر قريش إن أعظم ذنبنا إليكم قتلنا كفاركم وحمايتنا رسول الله ـــ ﷺ . وإن كنتم تنقمون منا منة كانت بالأمس فقد كفى الله

---

(١) الأنفال ٢٦ .

شرها، فما لنا وما لكم ؟ والله ما يمنعنا من قتالكم الجبن ولا من جوابكم العى . إنا لحىّ فعال ومقال ، ولكنا قلنا إنها حرب أولها عار وآخرها ذل ، فأغضينا عليها عيوننا وسحبنا ذيولنا حتى نرى وتروا ، فإن قلتم قلنا وإن سكتم سكتنا .

فلم يجبه أحد من قريش ، ثم سكت كل من الفريقين عن صاحبه ورضى القوم أجمعون وقطعوا الخلاف والعصبية .

واحتبس خالد بن سعيد بن العاص عن أبى بكر فلم يبايعه أياما وقد بايع الناس ، وأتى بنى هاشم فقال :

— أنتم الظهر والبطن ، والشعار[1] دون الدثار ، والعصا دون اللحا ، فإذا رضيتم رضينا وإذا سخطتم سخطنا ، حدثونى إن كنتم قد بايعتم هذا الرجل .

— نعم .

— على برد ورضا من جماعتكم ؟

— نعم .

— فأنا أرضى وأبايع إذا بايعتم : أما والله يا بنى هاشم إنكم الطوال الشجر ، الطيب الثمر .

ثم إنه بايع أبا بكر . وبلغت أبا بكر فلم يحفل بها واضطغنها عليه عمر .

واستقرت الخلافة لأبى بكر فافتخرت تيم بنى مرة رهط الصديق ، فقال الفضل بن العباس :

— يا معشر قريش وخصوصا يا بنى تيم ، إنكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دونكم . ولو طلبنا هذا الأمر الذى نحن أهله لكانت كراهة

---

(١) الشعار : ما يقى الشعر وهو تحت الدثار .

الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا ، حسدا منهم لنا وحقدا علينا . وإنا لنعلم أن عند صاحبنا عهدا هو ينتهى إليه .

وقال بعض ولد أبى لهب بن عبد المطلب بن هاشم :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف
عن هاشم ثم منها عن أبى حسن
أليس أول من صلىَّ لقبلتكم
وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وأقرب الناس عهدا بالنبى ومَن
جبريل عون له فى الغسل والكفن
ما فيه ما فيهم لا يمترون به
وليس فى القوم ما فيه من الحسن
ماذا الذى ردهم عنه فنعلمه
ها إن ذا غَبْنُنا من أعظم الغبن

فبعث إليه على فنهاه وأمره ألا يعود وقال :

ـــ سلامة الدين أحب إلينا من غيره .

* * *

وصعد أبو بكر المنبر ليخطب الناس فقام له الحسن بن علىّ فقال :

ـــ انزل عن منبر أبى .

فقال أبو بكر فى هدوء :

ـــ صدقت والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبى .

فبعث علىّ إلى أبى بكر :

ـــ إنه غلام حدث وإنا لم نأمره .

فقال أبو بكر :

ـــ صدقت ، إنا لم نتهمك .

بويع لأبى بكر بالخلافة فأمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ، وأن يمضى أسامة لما أمر به . ولكنه لم اشتهرت وفاة النبى ـــ ﷺ ـــ ظهر النفاق وقويت نفوس أهل النصرانية واليهودية ، وصارت المسلمـــون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية ، وارتدت طوائف من العرب وقالوا :

ـــ نصلى ولا ندفع الزكاة .

وكلم الناس أبا بكر فقالوا :

ـــ كيف يتوجه هذا الجيش إلى الروم وقد ارتدت العرب حـــول المدينة ؟

ـــ والله الذى لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما أرد جيشا وجهه رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولا حللت لواء عقده . والله لأن تخطفنى الطير أحب إلى من أن أبدأ بشىء قبل أمر رسول الله ـــ ﷺ .

ووقف أسامة بالناس عند الخندق وقال لعمر :

ـــ ارجع إلى خليفة رسول الله ـــ ﷺ ـــ فاستأذنه أن يأذن لى أن أرجع بالناس ، فإن معى وجوه الناس ولا آمن على خليفة رسول الله ـــ ﷺ ـــ وثقله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون .

وانطلق عمر ولحقت به الأنصار فقالوا :

— فإن أبى أبو بكر إلا أن يمضى فأبلغه منا السلام ، واطلب منه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة .

فقدم عمر على أبى بكر وأخبره بما قال أسامة ، فقال أبو بكر :

— والله لو تخطفنى الذئاب والكلاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله — ﷺ — .

— فإن الأنصار أمرونى أن أبلغك أنهم يطلبون أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة .

فوثب أبو بكر وكان جالسا وأخذ بلحية عمر وقال :

— ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب ، استعمله رسول الله — ﷺ — وتأمرنى أن أنزعه !

فخرج عمر إلى الناس فقال :

— امضوا ثكلتكم أمهاتكم ، ما لقيت اليوم بسببكم من خليفة رسول الله — ﷺ — خيرا .

فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة ، خرج أسامة فى ثلاثة آلاف فيهم ألف فارس ، ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبى بكر ، فقال له أسامة :

— يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن .

— والله لا تنزل ووالله لا أركب . وما علىّ أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة .

حتى إذا انتهى قال :

ـــ إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل .

فأذن له ، ثم قال أبو بكر لأسامة :

ـــ اصنع ما أمرك به نبي الله ـــ ﷺ ؛ ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبل ، ولا تقصرن فى شيء من أمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولا تعجلن لما خلفت من عهده .

ثم التفت إلى الناس وقال :

ـــ يأيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوّا ، ولا تغدِروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله .

وانطلق الجيش إلى الشام ، وخرج أبو بكر على ساعده قماش وهو ذاهب به إلى السوق فقال له عمر :

ـــ أين تريد ؟

ـــ السوق .

ـــ تصنع هذا وقد وليت أمر المسلمين ؟!

ـــ فمن أين أطعم عيالى ؟

ـــ انطلق يفرض لك أبو عبيدة .

كان بلال خازن الرسول — ﷺ — وكان مؤذنه ، وقد اعتزل عمله وامتنع عن الأذان بعد أن قبر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وأصبح أبو عبيدة على بيت مال المسلمين . فانطلق إليه أبو بكر وعمر فقال :

— أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم ، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف . وإذا أبليت شيئا رددته وأخذت غيره .

ففرض له كل يوم نصف شاة .

وكانت العداوة ناشبة بين غطفان وأسد ، فلما بلغ الحين موت رسول الله — ﷺ — قام عيينة بن حصن فى غطفان فقال :

— ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد ، وإنى لمجدد الحلف الذى كان بيننا فى القديم ومتابع طليحة . والله لأن نتبع نبيا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش . وقد مات محمد وبقى طليحة فطابقوه على رأيه .

ففعل وفعلوا ، فلما اجتمعت غطفان على المطابقة لطليحة هرب ضرار بن الأزور وقضاعي وسنان ومن كان قام بشيء من أمر النبى — ﷺ — فى بنى أسد إلى أبى بكر ، وارفض من كان معهم .

وبلغت وفاة رسول الله — ﷺ — القبائل العربية من المدينة ، وكان رافع بن أبى رافع الطائى فى مجلس مع أصحابه ، فلما سمع بموت الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال :

— من وليه ؟

— أبو بكر .

فشرد رافع بن أبى رافع يتذكر ذلك اليوم الذى بعث رسول الله — ﷺ — جيشا فآمر عليهم عمرو بن العاص وفيهم أبو بكر وعمر أن يستنفروا من مروا به ، فمروا على طئ فاستنفروهم فنفروا معهم فى غزاة ذات السلاسل ، فقال رافع فى نفسه :

— والله لأختارن فى هذه الغزاة لنفسى رجلا من أصحاب رسول الله — ﷺ — أستهديه ، فإنى لست أستطيع إتيان المدينة .

فاختار أبا بكر وكان له كساء فدكى يجمع بين طرفيه بخلال من عود أو حديد إذا ركب ، ويلبسه إذا نزل ، فلما قضوا غزاتهم قال :

— يا أبا بكر إنى قد صحبتك وإن لى عليك حقا ، فعلمنى شيئا أنتفع به .

— قد كنت أريد ذلك لو لم تقل لى : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتحج البيت ، وتصوم شهر رمضان ، ولا تتأمر على رجلين .

— أما العبادات فقد عرفتها . أرأيت نهيك لى عن الإمارة ! وهل يصيب الناس الخير والشر إلا بالأمارة ؟!

— إنك استجهدتنى فجهدت لك . إن الناس دخلوا فى الإسلام طوعا وكرها فأجارهم الله من الظلم ، فهم جيران الله وعواد الله وفى ذمة الله ، فمن يظلم منكم إنما يحقر ربه . والله إن أحدكم ليأخذ شويهة جاره أو بعيره فيظل عمله بأسا بجاره، والله ومن وراء جاره .

فشد رافع بن أبى رافع الطائى على راحلته وهو يعجب فى نفسه كيف رضى أبو بكر أن يستخلف بعد رسول الله — ﷺ ، وكان ينهاه عن الإمارة ! فأتى المدينة فجعل يطلب خلوة الصديق حتى قدر عليها فقال :

— أتعرفنى ؟ أنا رافع بن أبى رافع الطائى . أتعرف وصية أوصيتنى بها ؟

— نعم . إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبض والناس حديثو عهد بالجاهلية ، فخشيت أن يفتنوا وإن أصحابى حملونيها .

فما زال أبو بكر يعتذر إليه حتى عذره .

وأتت فاطمة الزهراء والعباس بن عبد المطلب أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، كانا يطلبان أرض فدك وسهمه من خيبر ، فقالت فاطمة :

— أأنت ورثت رسول الله أم أهله ؟

— لا ، بل أهله .

— من يرثك إذا مت ؟

— ولدى وأهلى .

— فما لنا لا نرث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟

— سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن النبى لا يورث » . ولكنى أعول من كان رسول الله يعول ، وأنفق على من كان رسول الله ينفق .

وفكرت فاطمة فهى لم تسمع ذلك من أبيها ، وقد علمت أن أزواج النبى — صلى الله عليه وسلم — أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر ليسألنه ميراثهن ، فقالت عائشة : « أليس قد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ؟ إنها لو كانت قد سمعت ذلك من أبيها — صلوات الله وسلامه عليه — ما طالبت بميراثه ، ولكنها كانت تقرأ فى كتاب الله : ﴿ وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا

منطق الطير ﴾[1] . ﴿ كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴾[2] .

وسألته فاطمة أن يتنظر علىّ بن أبى طالب على تلك الأرض وذلك السهم ، فقال :

ـــ لست بالذى أقسم من ذلك شيئا ، ولست تاركا شيئا كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يعمل به فيها إلا عملته .

وإنى أخشى إن تركت أمره أو شيئا من أمره أن أزيغ .

فقامت فاطمة مغضبة وساء أبا بكر غضبها . إنها غضبت من قبل على عمر وقالت إنها لن تكلمه حتى تلقى ربها ، والتقى الصاحبان فقال عمر لأبى بكر :

ـــ انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها .

فانطلقا جميعا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما عليها . فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال .

ـــ يا حبيبة رسول الله . والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتى ، وإنك أحب إلىّ من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك أنى مت لا أبقى بعده . أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك

---

(١) النمل ١٦ (٢) مريم ١ ـــ ٦

وميراثك من رسول الله ؟ ألا إنى سمعت أباك رسول الله — ﷺ — يقول : « لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » .

— أرأيتكما إن حدثتكما عن رسول الله — ﷺ — تعرفانه وتفعلان به ؟

— نعم .

— نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاى وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد أحبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى .

— نعم ، سمعناه من رسول الله — ﷺ .

— فإنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبى لأشكونكما إليه .

فقال أبو بكر :

— أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة .

ثم انتحب يبكى وخرج باكيا ، فاجتمع إليه الناس فقال لهم :

— يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله ، وتركتمونى وما أنا فيه . لا حاجة لى فى بيعتكم ، أقيلونى بيعتكم .

— يا خليفة رسول الله إن هذا الأمر لا يستقيم وأنت أعلمنا بذلك ، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين .

— والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة ، ما بت ليلة ولى فى عنق مسلم بيعة بعدما سمعت من فاطمة .

وودت عائشة أن تعلم السر الذى أفضى به النبى — ﷺ — إلى فاطمة قبل موته . إن فاطمة جاءت إليه — صلوات الله وسلامه عليه — لما دخل بيت عائشة وقد اجتمع نساؤه عنده ، تمشى لا تخطئ مشيتها مشية

أبيها ، فلما رآها — ﷺ قال :

— مرحبا با بنتي .

فأقعدها عن يمينه ثم سارها بشيء فبكت ، ثم سارها فضحكت ، فقالت لها عائشة :

— خصك رسول الله بالسرار وأنت تبكين ؟

وقامت فاطمة فهرعت عائشة إليها وقالت :

— أخبريني ما سارك ؟

— ما كنت لأفشي سر رسول الله .

* * *

وأتت فاطمة بالحسن والحسين إليه فقالت :

— يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئا .

— أما الحسن فإن له هيبتي وسؤددى ، وأما الحسين فإن له جرأتي وجودى .

* * *

إن عائشة لم تنس ذلك اليوم ، وقد لحق صلوات الله وسلامه بالرفيق الأعلى فلن يعد هناك ما يوجب أن تكتم فاطمة ذلك السر الذى كان بينها وبين أبيها — صلوات الله وسلامه عليه . فذهبت عائشة إلى فاطمة الزهراء وقالت :

— أسألك لما لى عليك من الحق لما أخبرتنى ما بسارك ؟

— أما الآن فنعم! سارنى فى أول الأمر قال لى: إن جبريل كان يعارضنى فى القرآن كل سنة مرة وقد عارضنى فى هذا العام مرتين. ولا أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى، فاتقى الله واصبرى فنعم السلف أنا لك. فبكيت. ثم سارنى فقال: أما ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين؟

١٠

ذاع خبر موت رسول الله ـ ﷺ ـ فى القبائل القريبة من المدينة، فجاء رجال من عبس وذبيان وكلموا أبا بكر فى أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاه ، فراح أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يتشاورون فى الأمر ، فقال أبو بكر فى حزم :

ـ والله لو منعونى عناقا (عنزا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لقاتلتهم على منعه .

وكان رجال من الصحابة يرون موادعة القوم . فأسامة بن زيد وجلة الأنصار والمهاجرين قد انطلقوا إلى الشام لقتال الروم انتقاما لمقتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وابن رواحة يوم مؤتة . وكان عمر بن الخطاب من مؤيدى ذلك الرأى فقال لخليفة رسول الله :

ـ كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ـ ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله .

فقال أبو بكر لعمر فى شدة :

ـ أجبّار فى الجاهلية خوّار فى الإسلام ! والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال . وقد قال : إلا بحقها .

وما هو إلا أن رأى عمر الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرف أنه

الحق ، ورجع وفد عبس وذبيان إلى عشائرهم وأخبروهم بقلة أهل المدينة وأطمعوهم فيها ، وقال شاعرهم :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا لعباد الله ما لأبى بكر
أيورثنا بكرا إذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلا رددتم وفدنا بزمانه ... وهلا حشيتم حسَّ راعية السكر
وإن التي سألوكمُ فمنعتمُ ... لكالتمر أو أحلى إلىَّ من التمر

ودعا أبو بكر كبار الصحابة : علىّ بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، فقال الصديق :

ـــ إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلا تؤتون أم نهارا ، وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم ، فاستعدوا وأعدوا .

وخرج المسلمون يستعدون للدفاع عن مدينة الرسول فلبسوا عدة القتال ، وخرج علىّ والزبير وسعد وطلحة وعبد الله بن مسعود ونفر من المسلمين لحماية مشارف المدينة ، وبقى باقى المسلمين فى المسجد مدججين بالسلاح على استعداد للقتال ، وإن كانوا فى قرارة أنفسهم يتمنون ألا يدهم أحد المدينة حتى يعود جيش أسامة من الشام .

وانقضت ثلاثة أيام وصحابة رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ عند مداخل المدينة ساهرون ، يرسلون العسس مستطلعين . وما كادت الشمس تغيب حتى أقبل بعض العسس مهطعين معلنين أن القبائل المجاورة قد تحركت قاصدة المدينة ، فبعث صحابة الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ إلى أبى بكر رسولا ينبئة الخبر ، فأجابهم أن

الزموا أماكنكم .

وجاء أبو بكر فى أهل المسجد على الإبل ، ورأى مفاجأة الأعداء فى جوف الليل ، فانطلق المسلمون حتى بلغوا معسكر الأعداء فما سمعوا لهم همسا ولا حسا ، وانقض المسلمون على أعدائهم فأخذوا وولوا الأدبار . فاقتفى المسلمون أثرهم حتى ذا حسا ، وكان الأعداء قد تركوا هناك مددا من الرجال ليشدوا أزرهم عند الحاجة ، فانضم المدد إلى فلول الفارين ووقفوا فى وجه المسلمين المغيرين ، ودار قتال رهيب وإذا برواحل المسلمين تجفل ، ترى ما دهاها !

جاء الأعداء بأوعية من جلود نفخوها وربطوها بالحبال وضربوها بأرجلهم فى وجوه إبل أهل المدينة ، فنفرت الإبل واستمرت فى ارتدادها حتى دخلت مدينة الرسول .

ولاح للأعداء النصر ، فما إن تبرغ الشمس حتى يميلوا على المدينة بأسيافهم ويرغموا أهلها على التسليم لهم بعدم إيتاء الزكاة . إنهم كانوا يؤدونها لرسول الله ـ ﷺ ـ لأن صلاته كانت سكنا لهم ، فما بال أبى بكر يصر على جمعها ؟

وراح المسلمون يتأهبون لمعاودة الهجوم قبل أن يتنفس الصبح ، فلما كان الثلث الأخير من الليل خرجوا متسللين دون أن يسمع لهم ركز ، وبلغوا الأعداء مع الفجر ، فداهموهم وأعملوا سيوفهم فيهم . فهبوا من نومهم مذعورين يدافعون عن أنفسهم ، ولكن المنايا أطلت من أسياف أهل المدينة فراحت تحصدهم حصدا ، فلم يسع القوم إلا الفرار مدحورين مهزومين .

وراح صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ يحرسون المدينة ويرقبون عودة

جيش أسامة فى لهفة وقلق ، فقد انقضى ستون يوما على خروج الجيش و لم يأت لخليفة رسول الله — ﷺ — من يبشره بعودة الجيش ظافرا سالما ، وكانت تلك العودة أمنية تداعب أخيلة أهل المدينة أجمعين .

كان أهل المدينة فى انتظار أخبار سارة مشجعة ، فبعد موت رسول الله — ﷺ — عاد رسل رسول الله — صلوات اللهوسلامه عليه — إلى مسيلمة وطليحة ، عادوا إلى أبى بكر وأخبروه بما كان من أمر الأنبياء الكذبة ، فقال أبو بكر :

— لا تبرحوا حتى تجئ رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمر ، وانتقاض الأمور .

فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبى — ﷺ — من كل مكان بانتقاضة عامة أو خاصة ، فلم يكن أبو بكر بقادر على محاربة المرتدين ما دام جيش أسامة لم يعد بعد ، فحاربهم بما كان رسول الله — ﷺ — يحاربهم بالرسل ، فرد رسلهم بأمره ، وأتبع الرسل رسلا وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة .

وكان أول خبر سار جاء إلى المدينة بعد موت رسول الله — ﷺ — خبر مقتل الأسود العنسى النبى الكذاب ، فانشرح صدر أبى بكر بذلك الخبر وكبر المسلمون سرورا .

وكانت أعين صحابة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ساهرة . فسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام وأبو قتادة فى رجال من المسلمين يحرسون مشارف المدينة . وسقط الليل فأرهفت الحواس ، ونظر عبد الله بن مسعود فرأى أناسا على رواحلهم يندفعون إلى المدينة ، فأمر رجاله أن

يستعدوا للقتال . وإذا بفارس يقدم بالبشرى ويقول إن عدى بن صفوان قد أقبل بالصدقات .

كان رسول الله — ﷺ — قد أرسل عماله ليجمعوا الصدقات من القبائل ، وكان عدى بن حاتم فيمن أرسل . فلما سمع عبد الله بن مسعود الخبر لم ينتظر حتى يقبل عدى والذين معه بل انطلق إلى المسجد ليعلن على الملأ قدوم عدى ليحيى فى الناس موات الأمل .

وفى وسط الليل جاء صفوان وبشر بمقدمه سعد بن أبى وقاص ، فلم ينم الناس من شدة الفرح . وكان رسول الله — ﷺ — قد ولى الزبرقان بن بدر التميمى على صدقات قومه . فجاء بها فى آخر الليل وبشر به عبد الرحمن ابن عوف ونادى بالخبر . فقال الناس :

— طالما بشرت بالخير .

وترقب المسلمون عودة جيش أسامة ليقاتلوا ذبيان وعبس .

والقبائل التى بخلت بالصدقات ، وليحاربوا مسيلمة وطليحة وكل من شق عصا الطاعة من الخارجين عن الإسلام .

* * *

انطلق جيش أسامة إلى أهل أبنى فشن عليهم الغارة ، وارتفع شعار المسلمين يزلزل الأرض تحت أعداء المسلمين :

— يا منصور أمت .. يا منصور أمت .

وارتفعت السيوف المؤمنة لتطيح بالرءوس الكافرة ، وجعل أسامة يرقب قاتل أبيه ، ثم انقض عليه كوحش كاسر وطعنه طعنة تركته كأمس الدابر . وأنزل الله الرعب بقلوب الأعداء فساروا كالغنم الشاردة فى الليلة الشاتية ، فقتل من قتل وأسر من أسر و لم يقتل من المسلمين أحد .

كان أسامة يصول ويجول على فرس أبيه ، فلما انقشع غبار المعركة راح يقسم الغنائم فأسهم للفرس سهمين وللفارس سهما وأخذ لنفسه مثل ذلك .

وكان عمال رسول الله — ﷺ — على قضاعة وعلى كلب امرؤ القيس بن الأصبع الكلبى ، وعلى القين عمرو بن الحكم ، وعلى سعد هذيم معاوية بن فلان الوائلى ، فارتد وديعة الكلبى فيمن آزره من كلب وبقى امرؤ القيس على دينه ، وارتد زميل بن قطبة القينى فيمن آزره من بنى القين وبقى عمرو على دينه ، وارتد معاوية بن فلان فيمن آزره من سعد هذيم ، فكتب أبو بكر إلى امرئ القيس بن فلان فسار لقتال وديعة والذين معه ، وإلى عمرو بن الحكم فسار لقتال زميل ومعاوية العذرى ، فلما توسط أسامة بلاد قضاعة بعث فرسانه لقتال المرتدين وشد أزر المسلمين ، ففر المرتدون واجتمعوا إلى وديعة ، فلما رجعت خيول أسامة إليه أغار على الحمقتين فأصاب فى بنى الضبيب وجذام وفى بنى خليل من لخم .

وكانت فكرة الردة قد راودت أخيلة بعض قبائل العرب ، فلما رأوا خيل أسامة قالوا :

— لولا قوة أصحاب محمد — ﷺ — ما خرج مثل هؤلاء من عندهم .

فثبتوا على الإسلام .

وجاء المساء فأمر أسامة الناس بالرحيل ، وأسرع السير وبعث مبشرا إلى المدينة بسلامتهم ، فخرج أبو بكر فى المهاجرين والأنصار يلقون أسامة ومن معه فرحين مستبشرين ، وعانق أبو بكر أسامة وهنأه بسلامته وسلامه جيشه ، وقال له عمر :

— السلام عليك أيها الأمير .

فقال له أسامة :

— غفر الله لك ، تقول لى هذا ؟

— لا أزال أدعوك ما عشت : الأمير . مات رسول الله — ﷺ — وأنت على أمير .

وسار أسامة واللواء بين يده حتى انتهى إلى باب المسجد ، ثم انصرف إلى بيته وهو شارد يتمنى لو أن حبيبه رسول الله — ﷺ — كان قد تلقاه بابتسامته الآسرة التى كانت تنير له الطريق .

١١

مات رسول الله ـــ ﷺ ـــ واجتمعت أسد وغطفان وطيئ على طليحة الذى ادعى النبوة ، إلا ما كان من خواص أقوام فى القبائل الثلاث قد بقوا على دينهم . فاجتمعت أسد بسميراء وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة وطيئ على حدود أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرّة وعبس بالأبرق من الربذة ، وانضم إليهم ناس من بنى كنانة . وضاقت بهم الأرض فافترقوا فرقتين ، فأقامت فرقة منهم بالأبـرق ، وسارت الأخرى إلى ذى القصة ، وأمدهم طليحة بحبال ، فكان حبال على أهل ذى القصة من بنى أسد ومن انضم إليهم من ليث والديل ومُدْلج .

وبعث المرتدون وفودا فقدموا المدينة فنزلوا على وجوه الناس ، ما خلا العباس فقد أبى أن ينزلوا عليه ، فأخذوهم إلى أبى بكر فطلبوا منه أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة ، فأبى أبو بكر ورد وفود المرتدين خائبين .

وكان قتال بين أسد وغطفان وطيئ والفئة القليلة التى كانت بالمدينة بعد خروج جيش أسامة ، فعبأ أبو بكر الناس ، ثم خرج على تعبئة يمشى فى سواد الليل وعلى ميمنته النعمان بن مقرّن وعلى ميسرته عبد الله بن مقرّن وعلى الساقة سويد بن مقرّن معه الفرسان . فما طلع الفجر إلا وهم والعدو فى صعيد واحد ، فما سمعوا للمسلمين همسا ولا حسا حتى وضعوا فيهم

السيوف ، فاقتتلوا ما بقى من الليل فما أشرقت الشمس حتى ولى المرتدون الأدبار ، وقد قتل حبال ذراع طليحة الأيمن .

وعاد جيش أسامة إلى المدينة والمرتدون لا يزالون بذى القصة ، فاستخلف أبو بكر أسامة على المدينة وقال له ولجنده :

— أريحوا وأريحوا ظهركم (رواحلكم) .

ثم خرج أبو بكر فى رجال من المسلمين إلى ذى القصة لقتال أسد وغطفان والمرتدين الذين يريدون أى يمنعوا حق المال ، فقال له المسلمون :

— ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك ، فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب أمرت آخر .

— لا والله ولا أواسينكم بنفسى .

فخرج فى تعبئته إلى ذى حسى وذى القصة ، والنعمان وعبد الله وسويد على ما كانوا عليه حتى نزلوا على أهل الربذة بالأبرق ، فهزم الله المرتدين وأخذ الحطيئة أسيرا ، فطارت عبس وبنو بكر ، وأقام أبو بكر على الأبرق أياما وقد غلب بنى ذبيان على البلاد وقال :

— حرام على بنى ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذ غنّمناها الله. وأجلاها .

وانضمت عبس وذبيان إلى طليحة وكان قد ارتحل عن سميراء ونزل على بُزاخة وأقام عليها ، وأراح أسامة وجنده ظهرهم والتقطوا أنفاسهم ، وقد جاءت صدقات كثيرة إلى المدينة تفضل عنهم فشد ذلك أزر المسلمين ، فراح أبو بكر يعقد الألوية وهو بذى القصة . عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له . وعقد لعكرمة بن أبى جهل وأمره بمسيلمة الكذاب ،

وعقد للمهاجر بن أبى أمية وأمره بجنود العنسى فالأسود العنسى قد قتل ، وأمره بمعونة الأنباء على قيس بن المكشوح ومن أعانه من أهل اليمن عليهم ، ثم يمضى إلى كندة بحضر موت ، وعقد لخالد بن سعيد بن العاص وكان عمر بن الخطاب كارها لذلك ، فخالد بن سعيد أبى مبايعة أبى بكر لما عاد من اليمن ولم يبايع إلا بعد أن أستأذن بنى هاشم ، وبعث أبو بكر خالد بن سعيد إلى الحمقتين من مشارف الشام ، وعقد لعمرو بن العاص إلى جماعة قضاعة ووديعة والحارث ، وعقد لحذيفة بن مِحصَن الغلفانى وأمره بأهل دبا ، ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهما فى عمله على صاحبه ، وبعث شرحبيل بن حسنة فى أثر عكرمة بن أبى جهل وقال :

— إذا فُرغ من اليمامة فالحق بقضاعة وأنت على خيلك ، تقاتل أهل الردة .

وعقد لطريفة بن حاجز وأمره ببنى سليم ومن معهم من هوازن ، ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة واليمن ، وللعلاء الحضرمى وأمره بالبحرين،فعقد أحد عشر لواء وراح يوصى الأمراء، وكتب إلى من بعث إليه من جميع المرتدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من أبى بكر خليفة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى من بلغه كتابى هذا من عامة وخاصة ، أقام على الإسلام أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى . فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، نُقرّ بما جاء به ونكفر من أبى ونجاهده . أما بعد فإن الله تعالى أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، لينذر من كان حيا ويحق القول على

الكافرين ، فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله — ﷺ — بإذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طوعا وكرها . ثم توفى رسول الله — ﷺ — . وقد نفّذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذى عليه ، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزل ، فقال ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (١) . وقال ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مِتَّ فهم الخالدون ﴾ (٢) . وقال للمؤمنين : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾ (٣) . فمن كان إنما يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له ، فإن الله له بالمرصاد حىٌّ قيوم لا يموت . ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه ويجزيه . وإنى أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله ، وما جاءكم به نبيكم — ﷺ ، وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله ، فإن كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم يعنه الله مخذول ، فمن هداه الله كان مهتديا ، ومن أضله كان ضالا . قال الله تعالى : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ (٤) . ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقر به ، ولم يقبل منه فى الآخرة صرف ولا عدل . وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال الله تعالى :

---

(١) الزمر ٣٠ — (٢) الأنبياء ٣٤

(٣) آل عمران ١٤٤ — (٤) الكهف ١٧

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾(١) . وقال : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾(٢) . وإنى بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله .

وقد أمرتُ رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم فإن أبوا فعاجلوهم ، وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى لهم » .

وكتب العهود للأمراء : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله — ﷺ — لفلان ، حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله ، سره وعلانيته ، وأمره بالجد فى أمر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان . بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم . لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم . فمن أجاب إلى أمر الله عز

---

(١) الكهف ٥٠ (٢) فاطر ٦

وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله . فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استقر به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه ، لا يقبل من أحد شيئا أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله ، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يدخل فيهم حشدا حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيونا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ، يتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول ».

وانطلق الأمراء بجيوشهم لقتال أهل الردة الذين أقروا بالإسلام وعملوا به ثم نكصوا على أعقابهم بخلا بالأموال ، وحرمانا للفقراء والمساكين من حق فرضه الله فى أموال الأغنياء ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (١)

---

(١) الحشر ٧

١٢

قتل جعفر بن أبى طالب فى مؤتة فترك زوجه عاتكة بنت زيد ، وكانت عاتكة شابة رائعة الحسن رضية الخلق ، فخطبها عبد الله بن أبى بكر وهام بها حبا ، فلما تأهب المسلمون لقتال هوازن خرج عبد الله مع الخارجين وخاض القتال حتى خلصت إليه الجراح وكان جرحه خطيرا ، فلما عاد إلى المدينة عكفت عاتكة على العناية به حتى اندمل جرحه .

وتفتح قلبه لعاتكة زوجه ، ففنى عبد الله رقة آل أبى بكر ، فعشقها وهام بها حتى أصبح لا يطيق البعد عنها ، فكان إذا خرج عنها لحاجة أحس حنينا إليها فيسرع بالعودة إليها ، لا يحس ان هناك دنيا غير دنياها .

وبادلته عاتكة حبا بحب ، وعلمت مكانتها من نفسه فغلبته فى كثير من أمره ، فصار الرأى لها والتدبير تدبيرها . ولم تكتف بأنها سلبته قلبه بل راحت تسلبه لبه ، ففنى عبد الله فيها ، فساء ذلك أبا بكر خليفة رسول الله . إنه يرى ابنه يتلاشى فى زوجه ويقبع فى داره لا يخرج للجهاد ، فعبد الرحمن بن أبى بكر خرج فى جيش خالد بن الوليد ، أما عبد الله فهو إلى جوار عاتكة ينظر فى عينيها الساحرتين الأخاذتين ، فعزم أبو بكر على أن يعاتبه لعله يرعوى ويثوب إلى رشده .

وتقابل الأب والابن وتعاتبا ، وخرج عبد الله وقد وعد أباه أن يختلف إلى الأسواق كما كان يختلف ، وأن يسير إلى المسجد كما كان يسير . وما إن

عاد إلى الدار ، وما إن تطلع إلى عاتكة حتى نسى كل شيء ، نسى ما دار بينه وبين أبيه ، بل نسى أباه ، بل نسى نفسه ، ولم يعد يذكر إلا عاتكة حبيبة الفؤاد .

ومكث عبد الله معها فلم يختلف إلى الأسواق ولم يبادر إلى الغزوات ولم ينطلق إلى المسجد ، بل انطلق يحلق فى عوالم الحب والخيال . وانتظر أبو بكر لعل حب ابنه لزوجه يبلى على الأيام ، ولعل جذوته تخبو ، ولكن ما كان كر الأيام إلا ليزيد ذلك الحب لهيبا ، وما كان عتاب أبى بكر إلا ليؤجج ناره فى صدره .

إن عبد الله ليحاول مخلصا أن يبرأ من ذلك الحب الذى جر عليه عتاب أبيه ، ولكن متى كان للمرء سلطان على فؤاده ؟ حاول عبد الله أن يكبح جماح قلبه ولكنه أخفق ، وانطلق قلبه بلا جماح على هواه .

وخرج أبو بكر فى يوم الجمعة للصلاة فمر على عبد الله وهو يناغى عاتكة فى علية له . فلم يكلمه بل سار فى طريقه ، فما زال أمام عبد الله فسحة من الوقت قبل الصلاة . ثم أذن المؤذن وصلى الناس وعاد أبو بكر وقد انقضت الصلاة ، فألفى عبد الله لا يزال يناغى عاتكة ويداعبها . فغضب أبو بكر أشد الغضب فابنه يبيع آخرته بدنياه ، فناداه وقال له :

— يا عبد الله أجمعت ؟

فقال عبد الله فى ارتباك :

— أوصلى الناس ؟

فقال أبو بكر فى حدة :

— نعم .

ثم قال لابنه فى حزم :

ـــ لقد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة وقد ألهتك عن فرائض الصلاة .

وانصرف أبو بكر وقلبه يدمى ، إنه يعلم مقدار شغف ابنه بزوجه ولكنها ستفسد عليه دينه . وبقى عبد الله شارد اللب مطأطئ الرأس ، ثم سار يجر رجليه جرا وقد ارتسم على وجهه الألم الشديد يكاد فؤاده ينفطر وكبده تنصدع . إن نفسه لتدمى وإن كلمة أبيه الأخيرة لتدوى فى أذنيه فتزلزل كيانه ، فيالها من كلمة قوضت هناءه : « طلقها ». هذا ما هتف به الشيخ ، ولخروج روحه أهون عليه من خروج عاتكة من بين يديه . لطالما وعد أباه أن يرعوى فى حبه ولكن حبه قد غلبه . فما من الفراق بد . ليته مات يوم الطائف يوم رمى بسهم ! ليته قضى قبل أن يحل به هذا العذاب ! كان وقع السهم يومذاك أخف من وقع ما سمعه اليوم على نفسه . أصاب السهم جسمه فأدماه ، وأصابت الكلمة روحه وما لجرح الروح من دواء .

واستمر عبد الله باسر الوجه حزين الفؤاد حتى أقبلت عليه عاتكة ، فحاول أن يخفى عنها ما ألم به ولكن هيهات ! فما كان المحب بقادر على أن يخفى ما به عمن يحب ، وما كان المحبوب بحاجة إلى أن يفصح اللسان عما يخفى المحب ، فإن روحيهما لتتناجيان وإن قصر البيان .

وتكلف عبد الله الهدوء والاطمئنان وفتح لها ذراعيه وقد ارتسم على وجهه الابتسام ، فلم ترتم فى أحضانه كما اعتادت أن تفعل ، ولم ترن إليه فى حنان بل قالت فى قلق :

ـــ ما هناك ؟

ـــ لا شىء .

ـــ وحبى يا عبد الله أصدقنى القول .

فجرت دموعه على خديه ولم ينبس ، وأرخى ذراعيه الممـدودتين وأطرق وقد غلبته دموعه ، فقالت فى دهشه :

ـــ أتبكى ؟

ـــ إنه الفراق .

وراح عبد الله يهيم على وجهه وصورة عاتكة تتمثل له أنى صرف البصر . إنه ليهفو إليها ، ولكن عز الوصول وتقطعت الأسباب وأصبحت عاتكة ذكرى وصارت له خيالا بعد أن كانت شيئا ينال . وذات ليلة حاول عبد الله النوم ولكن لم تغمض له عين ، فصعد إلى سطح له يرقب النجوم التى شهدت حبه وهناءه ليشهدها سهده وشقاءه . وتلفت عبد الله فعادت إليه ذكريات سعادته تتزاحم فى رأسه فهاجت نفسه فقال فى لوعة :

أعاتك لا أنساك مـا ذر شارق	وما ناح قمرى الحمام المطـوق
أعـاتك قلبى كل يـوم وليلـة	لديك لما تخفـى النفـوس معلق
لها خلـق جـزل ورأى ومنطـق	وخلق مصون فى حياء ومصدق
فلم أر مـثلى طلـق اليـوم مثلهـا	ولا مثلهـا فى غير شىء تطلــق

وكان أبو بكر فى سطح له يصلى فمس أذنيه صوت ابنه الشاكى ، فهز أوتار قلبه ورق له ولم يستطع أن يصبر على عذاب ابنه فأشرف عليه وقال :

ـــ يا عبد الله راجع عاتكة .

فأحس عبد الله نشوة الغريق غب انتشاله من اليم ، وصاح قائلا فى فرح :

ـــ أشهدك أنى راجعتها .

ولحه أبو بكر وهو يهرول فى غبطة وانشراح ، ثم يشرف على غلامه أيمن ويقول فى سرور :

— يا أيمن أنت حر لوجه الله تعالى ، أشهدك أنى راجعت عاتكة .

فاطمأنت نفس الشيخ ، وأخذ عبد الله يجرى إلى مؤخر الدار حيث اعتكفت عاتكة وراح يقول :

أعاتك قد طلقت فى غير ريبة ... وروجعت للأمر الذى هو كائن

كذلك أمر الله غاد ورائح ... على الناس فيه ألفة وتباين

وما زال قلبى للتفرق طائرا ... وقلبى لما قد قرب الله ساكن

ليهنك أنى لا أرى فيك سخطة ... وأنك قد تمت عليك المحاسن

فإنك ممن زين الله وجهه ... وليس لوجه زانه الله شائن

عادت السعادة ترفرف على العش الصغير ، ولكن جرح عبد الله الذى أصيب به يوم الطائف تحرك فلزم الدار ، وجعلت عاتكة تعمل جاهدة على تمريضه ، إلا أن جهودها ذهبت أدراج الرياح فقد ثقلت عليه وطأة المرض . ومرت الأيام فكانت حالته تزداد سوءا، وراحت عجلة الزمن تدور لتسرع بيوم طيه .

ودنا يوم الرحيل فتطلع إلى عاتكة وحاول أن يبش لها ولكن خانته ملامحه فظل وجهه شاحبا لا يوحى إلا بقرب الفراق ، فغامت عينا عاتكة بالدمع فأشاحت بوجهها حتى لا يرى عبراتها المترقرقة فى مقلتيها .

وتذكر عبد الله أنه كان قد ابتاع الحلة التى أرادوا دفن رسول الله — ﷺ — فيها بتسعة دنانير ليكفن فيها فطلبها . فجاءوا له بها . وحضرته الوفاة فنظر فى الحلة وقال :

— لا تكفنونى فيها،فلو كان فيها خير كفن فيها رسول الله — ﷺ .

وانطلقت روح عبد الله من سجنها لتهيم طليقة فى السماوات ، وأحست عاتكة حزنا ثقلا ولوعة وأسى فراحت تبكى حتى لكاد قلبها ينفطر ، وأنشأت تقول :

فلله عينا من رأى مثله فتى أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرا
فآليت لا تنفك عينى سخينة عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
مدى الدهر ما غنت حمامة أيكة وما طرد الليل الصباح المنورا

وجهز الجسد الفانى ، ووقف أبو بكر يصلى عليه فى خشوع وفى القلب لوعة وفى النفس حسرة وفى العينين دموع ، ثم حمل ليقبر وانطلق الناس به حتى بلغوا البقيع ، فنزل فى قبره عمر وطلحة ، وغيب عبد الله فى التراب فانقضى كما ينقضى اللحن الجميل .

١٣

كان طليحة بن خويلد فى قومه بنى أسد وفى غطفان ، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان ، وبعث إلى بنى جديلة والغوث وطئ يستدعيهم إليه فبعثوا أقواما منهم بين أيديهم ليلحقوهم على أثرهم سريعا ، فبعث الصديق عدى بن حاتم إلى قومه طئ وقال له :

ــ أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم .

فذهب عدى إلى قومه بنى طئ فأمرهم أن يبايعوا الصديق وأن يراجعوا أمر الله . فقالوا :

ــ لا نبايع أبا الفصيل أبدا .

وعقد أبو بكر لخالد بن الوليد سيد الأمراء ورأس الشجعان الصناديد ، وقال :

ــ سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سله على الكفار والمنافقين .

وأمره أبو بكر أن يبدأ بطئ على الأكناف . ثم يكون وجهه إلى البزاخة ، ثم يثلث بالبطاح ، ولا يريم إذا فرغ من قوم حتى يحدث إليه ويأمره بذلك . وظهر أبو بكر أنه خارج إلى خيبر ومنصب عليه منها حتى يلاقيه بالأكناف ، أكناف سلمى .

وانطلق خالد وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن

شماس . إنه خطيب الأنصار وخطيب النبى — ﷺ — وقال عنه — ﷺ : نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس . ولما أنزل على رسول الله — ﷺ : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ (١) . اشتدت على ثابت وغلق عليه بابه وطفق يبكى ، فأخبر رسول الله — ﷺ — فسأله فأخبره بما كبر عليه منها وقال :

— أنا رجل أحب الجمال وأنا أسود قومى .

— إنك لست منهم ، بل تعيش بخير وتموت بخير ويدخلك الله الجنة .

ولما أنزل على رسول الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول ﴾ (٢) فعل مثل ذلك فأخبره النبى — ﷺ — فأرسل إليه فأخبره بما كبر عليه منها وأنه جهير الصوت وأنه يتخوف ممن حبط عمله ، فقال — ﷺ :

— إنك لست منهم ، بل تعيش حميدا وتقتل شهيدا ويدخلك الله الجنة .

وبعث خالد بين يديه ثابت بن أقرم وعكاشة بن محصن طليعة ، وكان ثابت حليف الأنصار شهد بدرا وما بعدها ، وكان ممن حضر مؤتة ، فلما قتل عبد الله بن رواحة دُفعت الراية إليه فسلمها لخالد بن الوليد وقال :

— أنت أعلم بالقتال منى .

أما عكاشة بن محصن فكان من سادات الصحابة وفضلائهم ، هاجر وشهد بدرا وأبلى يومئذ بلاء حسنا ، وانكسر سيفه فأعطاه رسول الله يومئذ سيفا شديد المتن وكان ذلك السيف يسمى العون ، وشهد أحدا

---

(١) النساء ٣٦ (٢) الحجرات ٢

والخندق وما بعدهما ، ولما ذكر رسول الله — ﷺ — السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب فقال عكاشة :

— يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم .

— اللهم اجعله منهم .

ثم قام رجل آخر فقال :

— يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم .

— سبقك بها عكاشة .

كان عمر عكاشة أربعا وأربعين سنة وكان من أجمل الناس ، فانطلق ثابت وعكاشة طليعة .

وقام طليحة فيمن معه فقال :

— أمرت أن تصنعوا رحى ذات عرى ، يرمى الله بها من رمى ، يهوى عليها من هوى .

ثم عبى جنوده ثم قال :

— ابعثوا فارسين ، على فرسين أدهمين ، من بنى نصر بن قعين ، يأتيانكم بعين .

وخرج طليحة وأخوه سلمة طليعتين ينظران ويسألان ، فلما وجدا ثابتا وعكاشة تبارزوا ، فأما سلمة فلم يمهل ثابتا أن قتله ، ونادى طليحة أخاه حين رأى أن قد فرغ من صاحبه أن أعنى على الرجل ، فإنه آكل ، فاعتونا عليه فقتلاه، ثم رجعا وقد أثلج صدر طليحة فقد انتقم لمقتل ابن أخيه حبال بذى القصة ، فقال :

عشية غادرت ابن أقرم ثاويـا   وعكـاشة العمـىَّ تحت مجالِ
أقمت لـه صدر الحمالـة إنها   مُعَـوذة قَبـل الكمـاة نـزالِ

فيومٌ تراها فى الحلال مصونـةً ويـوم تراهـا فى ظـلال عـوالى
وإن يك أولاد أصبـن ونسوة فلم يذهبـوا فرغـا بقتـل حبـال

وكان أبو بكر قد اتفق مع خالد على أن يذهب أبو بكر إلى خيبر بمن معه مكيدة ليبلغ ذلك عدوه فيرعبهم ، فخرج أبو بكر إلى خيبر فقعدت طيئ عن نصرة طليحة واللحوق بمن خرج منها إليه ، وخرج خالد إلى طليحة وكان فى جيشه كبار صحابة الرسول :

عمار بن ياسر ، وزيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، وكان زيد أكبر من عمر أسلم قديما وشهد بدرا وما بعدها وقد آخى رسول الله ــ ﷺ ــ بينه وبين معن بن عدى الأنصارى ، وكانت راية المهاجرين بيده .

وسالم مولى أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة،وقد تبناه أبو حذيفة وزوجه بابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة ، فلما أنزل الله : ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ [١] دعوه سالم بن عبيد ، وكان من سادات المسلمين أسلم قديما وهاجر إلى المدينة قبل رسول الله ــ ﷺ ــ فكان يصلى بمن بها من المهاجرين وفيهم عمر بن الخطاب لكثرة حفظه القرآن ، وشهد بدرا وما بعدها . وهو أحد الأربعة الذين قال فيهم رسول الله ــ ﷺ : استقرئوا القرآن من أربعة ، فذكر منهم سالما مولى أبى حذيفة .

وأبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى الخزرجى ، شهد بدرا وأبلى يوم أحد وقاتل قتالا شديدا . وأعطاه رسول الله ــ ﷺ ــ يومئذ سيفا

---

(١) الأحزاب ٥٢

فأعطاه حقه . وكان يتبختر عند الحرب فقال — صلوات الله وسلامه عليه : إن هذه لمشية يبغضها الله إلا فى هذه المواطن . وكان يعصب رأسه بعصابة حمراء ، شعارا له بالشجاعة .

والطفيل بن عمرو الدوسى ، أسلم قبل الهجرة وذهب إلى قومه فدعاهم إلى الله فهداهم الله على يديه فلما هاجر النبى — ﷺ — إلى المدينة جاءه بتسعين أهل بيت من دوس مسلمين . إنه خرج فى جيش خالد ومعه ابنه عمرو ، فرأى الطفيل فى المنام كأن رأسه قد حلق وكأن امرأة أدخلته فى فرجها وكأن ابنه يجتهد أن يلحقه فلم يصل ، فأولها بأنه سيقتل ويدفن وأن ابنه يحرص على الشهادة فلا ينالها عامه ذلك .

وعباد بن بشير بن وقش الأنصارى،أسلم على يدى مصعب بن عمير قبل الهجرة،قبل إسلام معاذ وأسيد بن الحضير.وشهد بدرا وما بعدها،وكان ممن قتل كعب بن الأشرف ، وكان يوم خرج جيش خالد ابن خمس وأربعين سنة . وكان له بلاء وعناء ، وتهجد رسول الله — ﷺ — ذات ليلة فسمع صوت عباد فقال :

— اللهم اغفر له .

وعبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول ، كان من سادات الصحابة وفضلائهم ، شهد بدرا وما بعدها ، وكان أبوه رأس المنافقين وكان أشد الناس على أبيه ، ولو أذن له رسول الله — ﷺ — لضرب عنقه ، وكان اسمه الحباب فسماه رسول الله — ﷺ — عبد الله .

ومعن بن عدى ، وهو أخو عاصم بن عدى ، شهد العقبة وبدرا وأحد والخندق وسائر المشاهد ، وكان قد آخى رسول الله — ﷺ — بينه وبين زيد بن الخطاب ، وحين مات رسول الله عليه السلام بكى الناس عليه

وقالوا : والله وددنا أنا متنا قبله ونخشى أن نفتن بعده . قال معن بن عدى : ولكنى والله ما أحب أن أموت قبله لأصدقه ميتا كما صدقته حيا . وكان الذى أخبر عمر بحديث السقيفة واجتماع الأنصار لمبايعة سعد بن عبادة .

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، أخو هند زوجة أبى سفيان ، أسلم قبل أن يدخل المسلمون دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة وإلى المدينة وشهد بدرا وما بعدها ، وآخى رسول الله — ﷺ — بينه وبين عباد بن بشر ، وكان عمره يوم خرج لقتال المرتدين ثلاثا وخمسين سنة ، وكان طويلا حسن الوجه له سن زائدة .

كانوا فرسانا لا يرهبون الموت وكانوا من حملة القرآن .

وأقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلا فلم يفطنوا له حتى وطئته الإبل بأخفافها ، فكبر ذلك على المسلمين . ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن محصن صريعا فجزع لذلك المسلمون وقالوا :

— قتل سيدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم .

ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع عند مقتل ثابت وعكاشة فقال لهم :

— هل لكم إلى أن أميل بكم إلى حى من أحياء العرب كثير عددهم ، شديدة شوكتهم ، لم يرتد منهم عن الإسلام أحد ؟

فقال له الناس :

— ومن هذا الحى الذى تعنى ؟ فنعم والله الحى هو .

— طئ .

— نعم الرأى ما رأيت .

كان عدى بن حاتم الطائى يفاوض بنى قومه بعد أن قالوا لا نبايع

أبا فصيل ، فقال :

ــ والله ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر .

ولم يزل عدى يزين لهم مبايعة الصديق حتى لا نوا ، فلما مال خالد إلى بنى طئ خرج إليه عدى فقال :

ــ أنظرنى ثلاثة أيام فإنهم قد استنظرونى حتى يبعثوا إلى من تعجل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم ، فإنهم يخشون إن تابعوك أن يقتل طليحة من سار إليه منهم ، وهذا أحب إليك من أن يجعلهم إلى النار .

فلما كان بعد ثلاث جاءه عدى فى خمسمائة مقاتل ممن راجع الحق فانضافوا إلى جيش خالد . وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة ، فقال له عدى :

ــ إن طيئا كالطائر ، وإن جديلة أحد جناحى طئ ، فأجلنى أياما لعل الله أن ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث .

ففعل فأتاهم عدى ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاءه بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب ، فكان خير مولود ولد فى أرض طئ وأعظمه عليهم بركة .

وسار خالد حتى نزل بأجا وسلمى وعبى جيشه هناك ، والتقى مع طليحة الأسدى بمكان يقال له بزاخة ، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة . وجاء طليحة فيمن معه من قومه ومن التف معهم وانضاف إليهم ، وقد حضر معه عيينة بن حصن المطاع الخليع فى سبعمائة من قومه بنى فزارة . واصطف الناس وجلس طليحة ملتفا فى كساء له يتنبأ لهم ينظر ما يوحى إليه فيما يزعم .

ودار القتال وجعل عيينة يقاتل ما يقاتل ، حتى إذا ضجر من القتال يجئ إلى طليحة وهو ملتف فى كسائه فيقول :

ـــ أجاءك جبريل ؟

ـــ لا .

فيرجع فيقاتل ثم يرجع فيقول له :

ـــ أجاءك جبريل ؟

ـــ لا .

فيرجع فيقاتل ثم يرجع فيقول له :

ـــ أجاءك جبريل ؟

ـــ نعم .

ـــ فما قال لك ؟

ـــ قال لى إن لى رحاء كرحاه ، وحديثا لا تنساه .

فقال عيينة بن حصن فى سخرية :

ـــ أظن أن قد علم الله سيكون لك حديث لا تنساه .

ثم التفت إلى قومه وقال :

ـــ يا بنى فزارة انصرفوا .

ـــ وانهزم وانهزم الناس عن طليحة ، فلما جاءه المسلمون ركب على فرس كان قد أعدها لنفسه وأركب امرأته النوار على بعير له ، ثم انهزم بها إلى الشام وتفرق جمعه ، وقد قتل الله طائفة ممن كان معه . فلما أوقع الله بطليحة وفزارة ما أوقع ، قالت بنو عامر وسليم وهوازن :

ـــ ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه فى أموالنا وأنفسنا .

وأسر خالد عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة — وكان أحد الأمراء مع طليحة — وبعث بهما إلى المدينة ، فدخل عيينة المدينة مجموعة يداه إلى عنقه ، فجعل الولدان والغلمان يطعنونه بأيديهم ويقولون :

— أى عدو الله ، ارتددت عن الإسلام ؟!

— والله ما كنت آمنت قط .

وقدم عيينة وقرة بن هبيرة على أبى بكر ، فقال له قرة :

— يا خليفة رسول الله ، إنى قد كنت مسلما ولى من ذلك على إسلامى عند عمرو بن العاص شهادة ، قد مر بى فأكرمته وقربته ومنعته .

فدعا أبو بكر عمرو بن العاص فقال :

— ما تعلم من أمر هذا ؟

كان رسول الله — ﷺ — قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر منصرفه من حجة الوداع ، فمات رسول الله — ﷺ — وعمرو بعمان ، فأقبل حتى إذا انتهى إلى البحرين وجد المنذر بن ساوى فى الموت فقال له المنذر :

— أشر علىّ فى مالى بأمر لى ولا علىّ .

— صدِّق بعقار صدقة تجرى من بعدك .

ففعل .

ثم خرج من عنده فسار فى بنى تميم ، ثم خرج منها إلى بلاد بنى عامر فنزل على قرة بن هبيرة ، وقرة يقدم رجلا ويؤخر رجلا . إنه يتأرجح بين الإسلام والردة وعلى ذلك بنو عامر كلهم إلا خواص ، فذبح قرة لعمرو وأكرم مثواه ، فلما أراد الرحلة خلا به قرة فقال :

— يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالأتاوة ، فإن أنتم أعفيتموها

من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم .

ــ أكفرت ياقرة ؟

ــ اجعلوا بيننا وبينكم موعدا .

ــ أتواعدنا بالعرب وتخوفنا بها ؟ موعدك حِفش أمك ، والله لأوطئنه عليك الخيل .

وراح عمرو يقص على أبى بكر الخبر حتى انتهى إلى ما قال له من أمر الصدقة ، قال له قرة :

ــ حسبك ، رحمك الله .

ــ لا والله حتى أبلغ له كل ما قلت ؟

فبلغ له فتجاوز عنه أبو بكر وحقن دمه ودم عيينة بن حصن .

وأخذ المسلمون رجلا من بنى أسد فأتى به خالد بالغمر ، وكان عالما بأمر طليحة ، فقال له خالد :

ــ حدثنا عنه عن ما يقول لكم .

ــ والحمام واليمام ، والصُّرد الصوام ، قد صُمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام .

واجتمعت طائفة كثيرة من الفلال يوم بزاخة من أصحاب طليحة من بنى غطفان ، فاجتمعوا إلى امرأة يقال لها أم زمل ــ سلمى بنت ملك بن حذيفة ــ وكانت من سيدات العرب كأمها أم قرفة ، وكان يضرب بأمها المثل فى الشرف لكثرة أولادها وعزة قبيلتها وبيتها . فلما اجتمعوا إليها ذمرتهم لقتال خالد ، فهاجوا لذلك ، وناشب إليهم آخرون من بنى سليم وطيئ وهوازن وأسد فصاروا جيشا كثيفا . وتفحل أمر هذه المرأة ، فلما

سمع بهم خالد بن الوليد سار إليهم واقتتلوا قتالا شديدا وهى راكبة على جمل أمها الذى يقال له : من يمس جملها فله مائة من الإبل ، وذلك لعزها ، فهزمهم خالد وعقر جملها ، وبعث بالفتح إلى الصديق فكتب أبو بكر إلى خالد :

— « ليزدك ما أنعم الله به خيرا ، واتق الله فى أمرك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . جد فى أمرك ولا تلن ولا تظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين إلا نكلت به » .

١٤

توفى رسول الله — ﷺ — وقد فرق فى بنى تميم عماله ، فكان الزبرقان بن بدر على الرِّباب وعوف والأبناء ، وسهم بن منجاب وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو على بنى عمرو — هذا على يَهْدَى وهذا على خضَّمَ قبيلتين من بنى تميم ، ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة على بنى حنظلة — هذا على بنى مالك وهذا على بنى يربوع .

وجاء الخبر بموت رسول الله — ﷺ — فخرج صفوان إلى أبى بكر بصدقات بنى عمرو وما ولى منها وبما ولى سبرة ، وبقى سبرة فى قومه . وانتظر قيس ما يفعل الزبرقان فقد كانت بينهما جفوة ومنافسة ، وقد قال قيس وهو ينتظر لينظر ما يصنع ليخالفه :

— واويلنا من ابن العُكليَّة [١] ! والله لقد مزقنى فما أدرى ما أصنع ؟! لئن أنا تابعت أبا بكر وأتيته بالصدقة لينحرنَّها فى بنى سعد فليسوِّدنى فيهم ، ولئن نحرتها فى بنى سعد ليأتين أبا بكر فليسودنى عنده .

كان قيس فى حيرة : إنه يخشى أن ينطلق بصدقات قومه إلى أبى بكر فينحر الزبرقان ما معه من الصدقات فى قومه فينال عندهم الحظوة ويصبح

---

(١) العكل بالكسر والضم : اللئيم .

السيد المطاع فيهم . وإنه يخشى أن ينحر الصدقات فى قومه فيذهب الزبرقان بما معه إلى خليفة رسول الله فينال عنده الحظوة . وأخيرا عزم قيس على قسمها فى قومه ففعل ، وعزم الزبرقان بن بدر على الوفاء فاتبع صفوان بصدقات الرِّباب وعوف والأبناء حتى قدم بها المدينة ، وهو يقول يُعرِّض بقيس :

وفيت بأذواد (١) الرسول وقد أبت
سعاة فلم يردد بعيرا مُجيرها

ونشب الشر بين أحياء بنى تميم وتشاغلوا وشغل بعضهم بعضا ، ثم ندم قيس بعد ذلك فلما أظله العلاء بن الحضرمى أخرج الصدقات ، ثم خرج معه إلى المدينة وقال :

ألا بلغا عنى قريشا رسالة — إذا ما أتتها بينات الودائع

ولم تهدأ قبائل بنى تميم ؛ بقى أناس على الإسلام وارتد أناس عنه فقامت بينهم حروب ، وكانت الإمدادات تأتى من بنى تميم إلى ثمامة بن أثال وهو يحارب مسيلمة الكذاب ، فلما حدث ذلك الشقاق عاد بنو تميم إلى عشائرهم فأضر ذلك ثمامة ، فراح ينتظر وفود عكرمة بن أبى جهل لينهض مرة أخرى لقتال المرتدين .

وراح مسلمو بنى تميم يحاربون المرتدين منهم ، وفيما هم يقتتلون فجأتهم سجاح بنت الحارس قد أقبلت من الجزيرة وكانت ورهطها فى بنى تغلب تقود أفناء ربيعة ، معها الهذيل بن عمران فى بنى تغلب ، وعقة بن هلال فى النَّمر، وزياد بن هلال فى أياد، والسليل بن قيس فى شيبان، فأتاهم

(١) الذود : ثلاثة أبعرة إلى العشرة .

أمر أدهى مما كانوا فيه .

كانت سجاح من نصارى العرب وقد ادعت النبوة بعد موت رسول الله — ﷺ — وخرجت لقتال أبى بكر ، فلما انتهت إلى الحَزْن راسلت مالك بن نويرة ودعته إلى الموادعة فأجابها ، ولواها عن غزو أبى بكر وحملها على غزو أحياء من بني تميم فقالت :

— نعم فشأنك بمن رأيت ، فإنى إنما امرأة من بنى يربوع ، فإن كان ملك فالملك ملككم .

فأرسلت إلى بنى مالك بن حنظلة تدعوهم إلى الموادعة فأجابها إلى ذلك وكيع ، فخرج عطارد بن حاجب وسروات مالك حتى نزلوا فى بنى العنبر على سبرة بن عمرو هرابا قد كرهوا ما صنع وكيع .

واجتمع وكيع ومالك وسجاح وقد وادع بعضهم بعضا ، واجتمعوا على قتال الناس وقالوا :

— بمن نبدأ ؟ بخضّم أم بيهدى أم بعوف والأبناء أم بالرِّباب ؟

فقالت :

— أعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم أغيروا على الرِّباب ، فليس دونهم حجاب .

ودارت معركة رهيبة قتلت فيها قتلى كثيرة ، وانتصرت سجاح فانضم إليها الزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب ، واجتمع إليها رؤساء أهل الجزيرة فقالوا لها :

— ما تأمريننا ؟ فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا ولا يريدوننا على أن نجوز فى أرضهم ، وقد عاهدنا هؤلاء القوم .

— اليمامة .

— إن شوكة أهل اليمامة شديدة ، وقد غلظ أمر مسيلمة .

فقالت فى إصرار :

— عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة .

وخرجت لبنى حنيفة ، وبلغ ذلك مسيلمة فهابها وخاف إن هو شغل بها أن يغلبه ثمامة على حجر أو شرحبيل بن حسنة أو القبائل التى حولهم ، فأهدى لها ، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتيها ، فنزلت الجنود على الأمواه وأذنت له وآمنته ، فجاءها وافدا فى أربعين من بنى حنيفة وكانت راسخة فى النصرانية قد علمت من علم نصارى تغلب ، فقال مسيلمة :

— لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذى ردّت قريش ، فحباك به وكان لها لو قبلت .

— لا يرد النصف إلا من حنف ، فاحمل النصف إلى خيل تراها كالسهف .

— سمع الله لمن سمع ، وأطعمه بالخير إذ طمع ، ولا زال أمره فى كل ما سر نفسه يجتمع ؛ رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دنية أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكُبار ، رب الغيوم والأمطار .

وراح مسيلمة يدارسها فقال :

— ما أوحى إليك ؟

— هل تكون النساء يبتدئن ؟ ولكن أنت ما أوحى إليك ؟

— ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من

بين صفاق وحشى .

ـــ وماذا أيضا ؟

ـــ أوحى إلىّ أن الله خلق النساء أفراجا ، وجعل الرجال لهن أزواجا ، فنولج فيهن قعسا إيلاجا ، ثم نخرجها إذا نشاء إخراجا ، فينتجن لنا سخالا إنتاجا .

ـــ أشهد أنك نبي .

ـــ هل لك أن أتزوجك ، فآكل بقومى وقومك العرب ؟

ـــ نعم .

فأقاما فى القبة التى ضربت لهما ثلاثا ، ثم انصرفت إلى قومها فقالوا :

ـــ ما عندك ؟

ـــ كان على الحق فاتبعته فتزوجته .

ـــ فهل أصدقك شيئا ؟

ـــ لا .

ـــ ارجعى إليه فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق .

فرجعت ، فلما رآها مسيلمة قال :

ـــ مالك ؟

ـــ أصدقنى صداقا .

ـــ من مؤذنك ؟

ـــ شبث بن ربعى الرِّباعى .

ـــ علىَّ به .

فجاء فقال :

ـــ ناد فى أصحابك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم

صلاتين مما أتاكم به محمد ، صلاة العشاة الآخرة وصلاة الفجر .

وانصرفت سجاح إلى بنى تغلب ومعها أصحابها فيهم الزبرقان ابن بدر ، وعطارد بن حاجب ، وعمرو بن الأهتم ، وغيلان بن خرشة ، وشبث بن ربعى ، وقد حملت نصف غلات اليمامة . وخرج الزبرقان والأقرع بن حابس إلى أبى بكر وقالا :

ـــ اجعل لنا خراج البحرين ونضمن لك ألا يرجع من قومنا أحد .

كان بنو تميم يدينون بالمجوسية فى الجاهلية ، وكانوا يعتقدون أنهم أكثر حضارة من قريش ، وقد دخلوا فى الإسلام بعد فتح مكة وما كان الإسلام قد استقر فى أفئدتهم بعد . فرأى أبو بكر أن يتألفهم بالمال فقبل أن يجعل لهم خراج البحرين ، وكان الذى يمشى بينهم وبين أبى بكر طلحة بن عبيد الله . وكتب الكتاب وبعث إلى شهود ليشهدوا منهم عمر ، فلما أتى عمر بالكتاب فنظر فيه لم يشهد ، ثم قال :

ـــ لا والله ولا كرامة .

ثم مزق الكتاب ومحاه ، فغضب طلحة فأتى أبا بكر فقال :

ـــ أأنت الأمير أم عمر ؟

ـــ عمر ، غير أن الطاعة لى .

ـــ فسكت ، وندم الزبرقان والأقرع بن حابس فخرجا ليشهدا مع خالد المشاهد كلها ، وليحاربا الذين باعوا دينهم بدنياهم تكفيرا عن ردتهما لعل الله يرحمهما برحمته ويدخلهما جناته ، ذلك هو الفوز العظيم .

١٥

خرج خالد بن الوليد من ظفر وقد استبرأ أسداوغطفان وطيئا ، وأراد السير فسار يريد البطاح دون الحزن وعليها مالك بن نويرة ، فترددت الأنصار عليه وقالوا :

ــ ما هذا بعهد الخليفة إلينا . إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا .

ــ إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إلىّ أن أمضى ، وأنا الأمير وإلىّ تنتهى الأخبار . ولو أنه لم يأتنى له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه حتى أنتهزها ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به . وهذا مالك بن نويرة بحيالنا وأنا قاصد إليه ومن معى من المهاجرين والتابعين بإحسان ولست أكرههم .

ومضى خالد ، وندمت الأنصار ودار بينهم الحوار وقالوا :

ــ إن أصاب القوم خيرا إنه لخير حرمتموه ، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبنكم الناس .

فأجمعوا اللحاق بخالد وبعثوا إليه رسولا . فلحقه الرسول بعد يومين من مسيره والتمس منه الانتظار حتى يلحقوا به ، فانتظر فلما لحقوا به انطلق بالأنصار والمهاجرين إلى مالك بن نويرة .

كان مالك قد ارعوى وندم بعد انصراف سجاح إلى الجزيرة وتحير فى أمره ، ففرق قومه فى أموالهم ونهاهم عن الاجتماع وقال :

ــ يا بنى يربوع إنا قد كنا عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين ، وبطأنا الناس عنه فلم نُفلح ولمُ ننجح . وإنى قد نظرت فى هذا الأمر فوجدت الأمر يتأتى لهم بغيرسياسة ، وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناوأة قوم صنع لهم ، فتفرقوا إلى دياركم وادخلوا فى هذا الأمر .

فتفرقوا على ذلك إلى أموالهم ، وخرج مالك حتى رجع إلى منزله .

وعرف وكيع وسماعة قُبح ما أتيا يوم وادعا سجاح ، واجتمعوا على قتال الناس فلم يتجبرا بل أخرجا الصدقات ، فاستقبلا بها خالدا فقال خالد :

ــ ما حملكما على موادعة هؤلاء القوم ؟

فقالا :

ــ ثأر كنا نطلبه فى بنى ضبة . وكانت أيام تشاغل وفرص .

وقدم خالد البطاح فلم يجد به أحدا ، فبعث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب وإن امتنع أن يقتلوه .

وانطلقت السرايا ووصية أبى بكر ترن فى ضمائرهم : « إذا نزلتم منزلا فأذنوا وأقيموا ، فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم ، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ثم تقتلوا كل قتلة الحرق فما سواه ، وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم ، فإن أقروا بالزكاة فاقبلوا منهم ، وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة ولا كلمة .

وراح المسلمون يؤذنون فى أحياء بنى تميم فيؤذن الناس ويقيمون الصلاة ، فكان المسلمون يكفون عنهم ، ثم يسألونهم الزكاة فكانوا

يخرجونها طائعين . وجاءت الخيل بمالك بن نويرة فى نفر معه من بنى ثعلبة وقد ارتفعت الأصوات ، فقد اختلفت السرية فيهم ، وكان أبو قتادة الحارث بن ربعى أخو بنى سلمة فى السرية ، فشهد أن مالك بن نويرة قد أذن لما سمع أذان المسلمين وقال :

— لما غشونا القوم أخفناهم تحت الليل ، فأخذ القوم السلاح فقلنا : إنا المسلمون . فقالوا : ونحن المسلمون . قلنا فما بال السلاح معكم ؟ قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ قلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح . فوضعوها ثم صلينا وصلوا .

وقال ناس من الناس إن مالك بن نويرة والذين معه لم يؤذنوا ، فلما اختلفوا فيهم أمر خالد بهم فحبسوا فى ليلة باردة لا يقوم لها شيء ، وجعلت تزداد بردا ، فأمر خالد مناديا فنادى :

— أدفئوا أسراكم .

وكانت فى لغة كنانة إذا قالوا : دثروا الرجل فأدفئوه دفأة قتله . فظن القوم أنه أراد القتل فقتلوهم ، فقتل ضرار بن الأزور مالكا . وسمع خالد ما أثاره القتل من ضجة فخرج وقد فرغوا منهم : فقال :

— إذا أراد الله أمرا أصابه .

فقال له أبو قتادة فى ثورة :

— هذا عملك .

فنهره خالد فى شدة ، فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر . وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال امرأة مالك بن نويرة ، فراح الناس يهمسون أنه كان يحبها فى الجاهلية ، وأنه ما قتل زوجها إلا لينالها .

وأتى أبو قتادة أبا بكر وراح يقص عليه ما كان من فعل خالد ، فقال

عمر لأبى بكر :

— إن فى سيف خالد رَهَقا ، فإن لم يكن هذا حقا حق عليه أن تقيده .

وأكثر عليه فى ذلك ، وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال :

— هيه يا عمر ! تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد .

وجاء متمم بن نويرة إلى المدينة ، فجعل يشكو إلى الصديق خالدا وعمر يساعده ، وينشد الصديق ما قال فى أخيه من المراثى :

وكنا كندمانى جُذيمة برهة — من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وعشنا بخير ما حيينا وقبلنا — أباد المنايا قوم كسرى وتبعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكا — لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وراح عمر يزين لأبى بكر عزل خالد وأبو بكر لا يلقى إليه سمعه ، وقال متمم :

لقد لامنى عند العبور على البكى
رفيقى لتذراف الدموع السوافك

وقال أتبكى كل قبر رأيته
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى
فدعنى فهذا كله قبر مالك

وراح متمم بن نويرة ينشد أبا بكر دم أخيه ويطلب إليه فى سبيهم ، فكتب له برد السبى . وألح عليه عمر فى خالد أن يعزله فقال أبو بكر :

— لا يا عمر ، لم أكن لأشيم سيفا سله الله على الكافرين .

ولم يسكت عمر بل ظلّ يحرض الصديق ويذمره على عزل خالد عن

الإمرة ، ويقول :

ـ عدو الله عدا على امرئ مسلم فقتله ، ثم نزا على امرأته .

وبعث الصديق إلى خالد فأقبل خالد قافلا حتى دخل المسجد وعليه قباء له عليه صدأ الحديد ، معتجرا بعمامة له قد غرز فى عمامته أسهما . فلما أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها ، ثم قال :

ـ أرثاء ؟! قتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك .

وسار خالد لا يكلمه ولا يظن إلا أن رأى أبى بكر على مثل رأى عمر فيه ، حتى دخل على أبى بكر . فلما أن دخل عليه أخبره الخبر واعتذر إليه فعذره أبو بكر وتجاوز عنه ما كان فى حربه تلك . فخرج خالد حين رضى عنه أبو بكر وعمر جالس فى المسجد فقال :

ـ هلم إلى يا بن أم شلمة .

فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه فلم يكلمه ، ودخل بيته وفكرة عزل خالد عن قيادة الجيش تراوده ، فلما سار إليه الأمر كان أول ما فعله أن عزل خالدا عن إمرة الجيش .

وصفح أبو بكر عن خالد ، فساء ذلك أبا قتادة ، وعاهد الله ألا يشهد مع خالد بن الوليد حربا أبدا .

١٦

بعث أبو بكر عكرمة بن أبى جهل إلى مسيلمة وأتبعه شرحبيل بن حسنة ، وأراد عكرمة أن يكون له فخر هزيمة بنى حنيفة وحده ، فلم ينتظر وصول شرحبيل بل عجل بالهجوم على مسيلمة ، فدارت معركة بين المسلمين والمرتدين فهزم عكرمة ، وكتب إلى الصديق بالذى كان من أمره ، فكتب إليه أبو بكر :

ـــ « يا بن أم عكرمة لا أرينك ولا ترانى على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان ومهرة ، وإن شغلا فامض أنت ثم تسير وتسير جندك يستبرئون مما مررتم به حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أمية باليمن وحضر موت » .

وكان شرحبيل قد قام بالطريق حين أدركه خبر هزيمة عكرمة ، فكتب إليه أبو بكر يأمره بالمقام حتى يأتيه أمره . فلما قدم خالد على أبى بكر من البطاح بعد مقتل مالك بن نويرة رضى أبو بكر عن خالد وسمع عذره وقبل منه وصدقه ورضى عنه ، ووجهه إلى مسيلمة فكتب إلى شرحبيل : « إذا قدم عليك خالد ثم فرغتم إن شاء الله فالحق بقضاعة حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالف » .

وخرج الناس مع خالد بن الوليد ـــ على الأنصار ثابت بن قيس والبراء ابن فلان ، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب ، وعلى القبائل

على كل قبيلة رجل — وتعجل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبطاح ، وانتظر البعث الذى ضرب بالمدينة ، فلما قدم عليه نهض حتى أتى اليمامة لقتال بنى حنيفة .

كان عدد بنى حنيفة أربعين ألف مقاتل فى قراها وحجرها ، فسار خالد حتى إذا أظل عليهم وجد خيولا لعقة ، والهذيل ، وزياد وقد كانوا أقاموا على خرج أخرجه لهم مسيلمة ليلحقوا به سجاح ، فلما شعروا بجيش خالد انطلقوا بالخراج هرابا إلى الجزيرة ليقدموا ما حملوا إلى سجاح .

ولم ينتظر شرحبيل مقدم خالد وجنده بل فعل فعل عكرمة وبرز لقتال مسيلمة ، فلحقت الهزيمة بالمسلمين ، فاضطر شرحبيل إلى الانسحاب بعد أن خلف على أرض المعركة شهداء ، فلما قدم عليه خالد لامه ، وأمد أبو بكر خالدا بسليط ليكون ردءا له من أن يأتيه أحد من خلفه .

وكان مسيلمة يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالى أن يطلع الناس منه على قبيح ، وكان معه نهار الرَّجَّال بن عُنفوة وكان قد هاجر إلى النبى — ﷺ — وقرأ القرآن وفقه فى الدين ، فبعثه معلما لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة وليشدد من أمر المسلمين ، فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة ، شهد له أنه سمع محمدا — ﷺ — يقول إنه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له .

وبلغ مسيلمة دنو خالد فضرب عسكره بعقرباء ، واستنفر الناس فجعل الناس يخرجون إليه . وخرج مجاعة بن مرارة فى سرية يطلب بثأر له فى بنى عامر وبنى تميم وقد خاف قواته ، وكان ثأرهم فى بنى عامر أن خولة بنت جعفر فيهم فمنعوهم منها ، وأما ثأرهم فى بنى تميم فنعَمٌ لمجاعة أخذها بنو تميم .

واستقبل خالد شرحبيل بن حسنة فقدمه ، وأمر على المقدمة خالد بن فلان المخزومى ، وجعل على المجنبتين زيدا وأبا حذيفة ، وجعل مسيلمة على مجنبتيه المحكم بن الطفيل والرجال بن عنفوة ، فسار خالد ومعه شرحبيل حتى إذا كان من عسكر مسيلمة على ليلة وجد أناسا نائمين . إنهم ما بين أربعين وستين ، ترى أهم مقدمة مسيلمة ؟

هجم شرحبيل عليهم فإذا هم مجاعة وأصحابه وقد غلبهم الكرى وكانوا راجعين من بلاد بنى عامر بعد أن استخرجوا خولة بنت جعفر فهى معهم . كانوا نياما وأرسان خيولهم بأيديهم تحت خدودهم وهم لا يشعرون بقرب الجيش ، فأنبهوهم وقالوا .

ـــ من أنتم ؟

ـــ هذا مجاعة وهذه حنيفة .

فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالد بن الوليد فأتوه بهم فظن خالد أنهم جاءوا ليستقبلوه وليتقوه بحاجته فقال :

ـــ متى سمعتم بنا ؟

ـــ ما شعرنا بك ، إنما خرجنا لثأر لنا فيمن حولنا من بنى عامر وتميم .

ولو فطنوا لقالوا : تلقيناك حين سمعنا بك . فلو فعلوا لأتوا ببرهان أنهم سامعون مطيعون ، ولكنهم أقروا أنهم لا يزالون فى ردتهم سادرين . فأمر بهم أن يقتلوا ، فجادوا كلهم بأنفسهم دون مجاعة بن مرارة وقالوا :

ـــ إن كنت تريد بأهل اليمامة غدا خيرا أو شرا ، فاستبق هذا ولا تقتله .

كان مجاعة سيدا فى بنى حنيفة شريفا مطاعا ، فقيده خالد وجعله فى الخيمة مع امرأته أم تميم ابنة المنهال التى كانت تحت مالك بن نويرة .

وسار خالد بالمسلمين حتى تواجه الجيشان ، فقال مسيلمة لقومه :

— اليوم يوم الغيرة ، اليوم إن هزمتم تستردف النساء سبيات ، وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم .

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة ، فضرب عسكره وراية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس ، والعرب على راياتها ، ومجاعة بن مرارة مقيد فى الخيمة مع أم تميم امرأة خالد ، فاصطدم المسلمون والكفار وكان الرَّجَّال بحيال زيد بن الخطاب ، فلما دنا صفّاهما قال زيد :

— يا رجَّال ، الله الله ! فوالله لقد تركت الدين وإن الذى أدعوك إليه لأشرف لك وأكثر لدنياك .

فأبى فاجتلدا فقُتِل الرَّجَّال : فكانت جولة وانهزمت الأعراب ، حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد ، فأرادوا قتل أم تميم فمنعها مجاعة وقال :

— أنا لها جار ، فنعمت الحرة هى .

فدفعهم عنها لما قال :

— عليكم بالرَّجَّال .

فراحوا يضربون الفسطاط بالسيوف . ثم إن المسلمين تداعوا فقال ثابت بن قيس :

— بئسما عدَّدتم أنفسكم يا معشر المسلمين .

والتفت إلى أهل اليمامة فقال :

— اللهم إنى أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء .

ثم التفت ناحية المسلمين وقال :

ـــ وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء .

وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله ، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون :

ـــ يا أصحاب سورة البقرة ، بطل السحر اليوم .

وحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن ، فلم يزل ثابتا وهو ينادى بشعار المسلمين .

ـــ يا محمداه ! يا محمداه !

وقال المهاجرون لسالم مولى أبى حذيفة لما أعطى الراية بعد أن قتل صاحبها عبد الله بن حفص بن غانم :

ـــ أتخشى أن نؤتى من قبلك ؟

فقال سالم فى انفعال :

ـــ بئس حامل القرآن أنا إذًا .

وانقطعت يده اليمنى فأخذ الراية بيساره فقطعت ، فاحتضنها وهو يقول :

ـــ ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ [١] .

﴿ وكأين من نبى قاتل معه رِبِّيون كثير ﴾ [٢] .

وقال أبو حذيفة :

ـــ يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال .

وحمل على بنى حنيفة حملة صادقة حتى أبعدهم عن خيام المسلمين ،

---

(١) آل عمران ١٤٤ (٢) آل عمران ١٤٦

وخلصت إليه الجراح فراح يجود بأنفاسه الطاهرة .

وقال زيد بن الخطاب :

— أيها الناس عضوا على أضراسكم ، واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما .

وراح يتقدم كأسد جسور يلعب بسيفه ويقط الرءوس ؟ ودنا منه بعض المسلمين يحدثه فقال :

— والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى .

وطفق يقاتل ويغوص فى صفوف الأعداء حتى بلغ منه الجهد ، فدنا منه أبو مريم الحنفى فضربه ضربة كانت القاضية .

وصُرع سالم مولى أبى حذيفة أحد الأربعة الذين قال فيهم رسول الله — ﷺ : « واستقرئوا القرآن من أربعة » . وقال لأصحابه وهو فى الرمق الأخير :

— ما فعل أبو حذيفة ؟

— قتل .

— فما فعل فلان ؟

— قتل .

— فأضجعونى بينهما .

وجبَّن المهاجرون والأنصار أهل البوادى ، وجبَّنهم أهل البوادى ، فقال بعضهم لبعض :

— امتازوا كي نستحيا من الفرار اليوم ، ونعرف اليوم من أين نؤتى .

ففعلوا وقال أهل القرى :

— نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم .

فقال لهم أهل البادية :

ــ إن أهل القرى لا يحسنون القتال وما يدرون ما الحرب ، فسترون إذا امتزتما من أين يجيء الخلل .

فامتازوا واشتد القتال ، وراح الرجال من الجانبين يسقطون صرعى : استشهد شجاع بن وهب رسول رسول الله إلى الحارث بن مثمر الغسانى ، والطفيل بن عمرو الدوسى ، وعياد بن بشر ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن عبد الله بن أبىّ بن سلول ؛ وكانت المصيبة فى المهاجرين والأنصار أكثر منها فى أهل البادية .

وقام البراء بن مالك أخو أنس بن مالك ، فلما رأى ما صنع الناس أخذته العُرواء فوثب فقال :

ــ أين يا معشر المسلمين ؟ أنا البراء بن مالك ، هلم إلىّ .

وفاءت فئة من الناس فقاتلوا القوم حتى قتلهم الله ، وخلصوا إلى محكم اليمامة وهو محكم بن طفيل ، فقال حين بلغه القتال :

ــ يا معشر بنى حنيفة والله تستقحب الكرائم غير رضيات ، وينكحن غير حظيات ، فما عندكم من حسب فأخرجوه .

وثبت مسيلمة فعرف خالد أن الحرب لا تركد إلا بقتل مسيلمة ، ولم تحفل بنو حنيفة بقتل من قتل منهم . ثم برز خالد حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى البراز وانتمى وقال :

ــ أنا ابن الوليد العدد . أنا ابن عامر وزيد .

ونادى بشعار المسلمين :

ــ يا محمداه !

فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله وهو يرتجز :

أنا ابـن أشيـاخ وسيفــي السَّحت (١)

أعظم شيء حين يأتـيك النَّـفت (٢)

ودارت رحى المسلمين وطحنت ، ودنا خالد من مسيلمة فأدبر ، وشد المسلمون على الكافرين فنادى المحكم :

ــ الحديقة . الحديقة .

فتدفق بنو حنيفة إلى حديقة كانت لمسيلمة ، وقبل أن يدخل محكم اليمامة مع الناس رماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بسهم فوضعه في نحره فقتله . وأغلق بنو حنيفة الحديقة عليهم وأحاط المسلمون بهم . وصرخ البراء بن مالك فقال :

ــ يا معشر المسلمين احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه .

ففعلوا حتى إذا وضعوه على الجدار وأُرْعِد فنادى :

ــ أنزلوني .

ثم قال :

ــ احملوني .

ففعل ذلك مرارا ثم قال :

ــ أف لهذا خَشَعا .

ثم قال :

ــ احملوني .

فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم فقاتلهم على الباب حتى فتحه

---

(١) السحت : القطع والاستئصال

(٢) النفث : الغضب .

للمسلمين وهم على الباب من خارج، فدخلوا فأغلق الباب عليهم، ثم رمى بالمفتاح من وراء الجدران فلم يبق أمام المسلمين إما أن يفنوا أو يفنوا بنى حنيفة .

وكان أبو دجانة ممن اقتحم على بنى حنيفة الحديقة فانكسرت رجله ، ولكنه استمر يقاتل فى شجاعة مع إخوانه ، وانتثرت الجثث تغطى أرض الحديقة ، وتطاير أنصار مسيلمة عنه وقال له بعضهم :

ـــ فأين ما كنت تعدنا ؟

ـــ قاتلوا عن أحسابكم .

وكان وحشى يحمل حربته . إنه قتل بها خير الناس بعد رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوم أحد : قتل حمزة بن عبد المطلب وإنه ليرجو أن يقتل بها مسيلمة الكذاب شر الناس على وجه الأرض .

وأتيحت له الفرصة فهز حربته ثم أطلقها لتستقر بين رجليه ، فسقط مسيلمة وعلاه أبو دجانة بالسيف فتركه كأمس الدابر .

وقتل مسيلمة وغطت حديقة الموت الجثث ، فقد قتل فى المعركة وفيها عشرة آلاف مقاتل . وصرخ صارخ :

ـــ إن العبد الأسود قتل مسيلمة .

فخرج خالد بمجاعة يرسف فى الحديد ليريه مسيلمة وأعلام جنده ، فجعل يكشف له القتلى حتى مر بمحكم بن الطفيل وكان رجلا جسيما وسيما . فلما رآه خالد قال :

ـــ هذا صاحبكم ؟

ـــ لا، هذا والله خير منه وأكرم ، هذا محكم اليمامة .

ثم مضى خالد يكشف له القتلى حتى دخل الحديقة فقلب له القتلى ،

فإذا رُويجل أصفر أحينس فقال مجاعة :

— هذا صاحبكم قد فرغتم منه .

فقال خالد لمجاعة :

— هذا صاحبكم الذى فعل بكم مافعل ؟

— قد كان ذلك يا خالد .

وقال عبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن عمر لخالد :

— ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون .

— دعانى أبث الخيل فألقط من ليس فى الحصون ثم أرى رأيى ، فبعث الخيول فحووا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان فضموا هذا إلى المعسكر . ونادى بالرحيل لينزل على الحصون فقال له مجاعة :

— إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس ، وإن الحصون لمملوءة رجالا فهلم لك إلى الصلح على ما ورائى .

أنهكت الحرب خالدا وأصيب معه من أشراف الناس من أصيب ، فقد رق وأحب الدعة والصلح فصالح مجاعة على الصفراء والبيضاء والحلقة ونصف السبى . ثم قال مجاعة :

— أنطلق إليهم فأشاورهم وننظر فى هذا الأمر، ثم أرجع إليك .

فدخل مجاعة الحصون.وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى ، فقال للنساء :

— البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون .

ففعلن . ثم رجع إلى خالد وقد رأى خالد الرجال فيما يرى على الحصون عليهم الحديد فأحس ضيقا ، فقد قتل من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة ثلثمائة وستون ، ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين

بإحسان ستمائة أو يزيدون . إنه لا يدرى ما هو كائن لو استؤنف القتال .

وانتهى مجاعة إلى خالد فقال :

ـــ أبوا مصالحتك ، ولكن إن شئت صنعت شيئا فعزمت على القوم .

ـــ ما هو ؟

ـــ تأخذ منى ربع السبى وتدع ربعا .

واتفقا على أن يصطلحا على الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع وعلى نصف السبى وحائط من كل قرية يختاره خالد ومزرعة يختارها خالد ، واتفقا على ذلك ثم سرحه وقال :

ـــ أنتم بالخيار ثلاثا ، والله لئن لم تتموا وتقبلوا لأنهدن إليكم ثم لا أقبل منكم خصلة أبدا إلا القتل .

فأتاهم مجاعة فقال :

ـــ أما الآن فاقبلوا .

فقال سلمة بن عمير الحنفى :

ـــ لا والله لا نقبل ، نبعث إلى أهل القرى والعبيد ، فنقاتل ولا نقاضى خالدا ، فإن الحصون حصينة والطعام كثير والشتاء قد حضر ، يا بنى حنيفة قاتلوا عن أحسابكم .

فقال مجاعة :

ـــ يا بنى حنيفة أطيعونى واعصوا سلمة فإنه رجل مشئوم قبل أن يصيبكم ما قال مسيلمة ، قبل أن تستردف النساء غير رضيات ، وينكحن غير حظيات .

فأطاعوه وعصوا سلمة وقبلوا قضيته ، فخرج مجاعة سابع سبعة حتى أتى خالدا فقال :

ـ بعد شر ما رضوا ، اكتب كتابك .

فكتب : « هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجاعة بن مرارة وسلمة ابن عمير وفلانا وفلانا : قاضاهم على الصفراء والبيضاء ونصف السبى والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة على أن يسلموا ، ثم أنتم آمنون بأمان الله ولكم ذمة خالد بن الوليد وذمة أبى بكر خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ وذمم المسلمين على الوفاء » .

وفتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان ، فقال خالد لمجاعة :

ـ ويحك خدعتنى .

ـ قومى و لم أستطع إلا ما صنعت .

وحشرت بنو حنيفة إلى البيعة والبراءة مما كانوا عليه إلى خالد وخالد فى عسكره ، فلما اجتمعوا قال سلمة بن عمير لمجاعة :

ـ استأذن لى على خالد أكلمه فى حاجة له عندى ونصيحة .

كان سلمة لا ينسى ما حل بقومه على يد خالد ؛ إنه أجمع أن يفتك به ، فكلم مجاعة خالدا فأذن له ، فأقبل سلمة بن عمير مشتملا على السيف يريد ما يريد ، فقال خالد :

ـ من هذا المقبل ؟

قال مجاعة :

ـ هذا الذى كلمتك فيه وقد أذنت له .

ـ أخرجوه عنى .

فأخرجوه عنه ففتشوه فوجدوا معه السيف فلعنوه وشتموه وأوثقوه وقالوا :

— لقد أردت أن تهلك قومك . وايم الله ما أردت إلا أن تستأصل بنو حنيفة وتسبى الذرية والنساء . وايم الله لو أن خالدا علم أنك حملت السلاح لقتلك ، وما نأمنه إن بلغه أن يقتل الرجال ويسبى النساء بما فعلت ويحسب أن ذلك على ملأ منا .

فأوثقوه وجعلوه فى الحصن ، وتتابع بنو حنيفة على البراءة مما كانوا عليه وعلى الإسلام . وعاهدهم سلمة على ألا يحدث حدثا ويعفوه فأبوا و لم يثقوا بحُمقه أن يقبلوا منه عهدا . فأفلت ليلا فعمد إلى عسكر خالد فصاح به الحرس ، وفزعت بنو حنيفة فاتبعوه فأدركوه فى بعض الحوائط فشد عليهم بالسيف فاكتنفوه بالحجارة ، وأجال السيف على حلقه فقطع أوداجه فسقط فى بئر فمات .

وقال خالد لمجاعة :

— زوجنى ابنتك .

— مهلا ، إنك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك .

— أيها الرجل زوجنى .

فزوجه . وبعث خالد بن الوليد وفدا من بنى حنيفة إلى أبى بكر الصديق ، وساق الأسرى إلى المدينة وقد تسرى علىّ بن أبى طالب بجارية منهم وهى أم ابنه محمد الذى يقال له محمد بن الحنفية .

وجاء عبد الله بن عمر من اليمامة إلى المدينة ، فلما رآه أبوه قال :

— ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا واريت وجهك عنى !

— سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدتُ أن تساق إلىّ فلم أعطها .

وأطرق عمر بن الخطاب هنيهة ثم قال :

— سبقنى إلى الحسنيين : أسلم قبلى واستشهد قبلى .

وجاء أبو مريم قاتل زيد بن الخطاب إلى عمر وقال :

— إن الله أكرم زيدا بيدى و لم يهنى على يده .

وقابل عمر متمم بن نويرة وهو يرثى أخاه مالكا ، فقال له عمر :

— لو كنت أحسن الشعر لقلت كما قلت .

فقال له متمم :

— لو أن أخي ذهب على ما ذهب عليه أخوك ما حزنت عليه .

— ما عزانى أحد بمثل ما عزيتنى به .

وبلغ أبا بكر أن خالدا تزوج ابنة مجاعة فكتب إليه كتابا يقطر الدم :

« لعمرى يا بن أم خالد إنك لفارغ تنكح النساء . وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجف بعد ؟! » .

فلما نظر خالد فى الكتاب جعل يقول :

— هذا عمل الأعيسر .

وكان يعنى عمر بن الخطاب ، فالعداوة بين الرجلين مشبوبة .

١٧

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، وأسلم المنذر على يديه وأقام فى أهل البحرين العدل ، فلما توفى رسول الله ـــ ﷺ ـــ توفى المنذر بعده بقليل ، وكان قد حضر عنده فى مرضه عمرو بن العاص فقال له :

ـــ يا عمرو هل كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يجعل للمريض شيئا من ماله ؟

ـــ نعم ، الثلث .

ـــ ماذا أصنع به ؟

ـــ إن شئت تصدقت به على أقربائك ، وإن شئت على المحاويج ، وإن شئت جعلته صدقة من بعدك حبسا محرما .

ـــ إنى أكره أن أجعله كالبحيرة [١] والسائبة والوصيلة والحام ، ولكنى أتصدق به .

ففعل ومات . فلما مات ارتد أهل البحرين وملكوا عليهم الغرور وهو المنذر بن النعمان بن المنذر .

وقال قائلهم :

---

(١) البحيرة والسائبة والوصيلة والحام : أنواع من الإبل والغنم كانوا يحرمون الانتفاع بها فى الجاهلية فأبطل ذلك الإسلام .

— لو كان محمد نبيا ما مات .

ولم يبق بها بلدة على الثبات سوى قرية يقال لها جواثا كانت أول قرية أقامت الجمعة من أهل الردة ، وقد حاصر المرتدون أهلها وضيقوا عليهم حتى منعوا من الأقوات وجاعوا جوعا شديدا . وقد قال رجل منهم يقال له عبد الله بن خدف أحد بنى بكر بن كلاب وقد اشتد عليه الجوع :

ألا أبلـغ أبـا بكــر رسولا وفتيــان المدينــة أجمعينــا
فهـل لكـمُ إلى قـوم كــرام قعـود فى جواثـا محصرينـا
كـأن دماءهـم فى كل فــج شعاع الشمس يغشى الناظرينا
توكلنـا على الــرحمن إنــا وجدنــا الصبر للمتوكلينــا

كان الجارود بن المعلى من عبد القيس وقد ساءه أن يرتد قومه بعد أن هداهم الله إلى النور ، كان الجارود قد قدم على رسول الله — ﷺ — مرتادا فقال :

— أسلم يا جارود .

— إن لى دينا .

— إن دينك يا جارود ليس بشىء وليس بدين .

— فإن أنا أسلمت فما كان من تبعة فى الإسلام فعليك ؟

— نعم .

فأسلم ومكث فى المدينة حتى فقه ، فلما أراد الخروج قال :

— يا رسول الله هل نجد عند أحد منكم ظهرا نتبلغ عليه ؟

— ما أصبح عندنا ظهر .

— يا رسول الله إنا نجد بالطريق ضوال من هذه الضوال .

— تلك حَرَقُ النار فإياك وإياها .

فلما قدم على قومه دعاهم إلى الإسلام فأجابوه كلهم ، وإنه ليسيئه أن يرتد قومه وأن يغلقوا أفئدتهم دون أنوار اليقين ، فبعث فيهم فجمعهم ثم قام فخطبهم فقال :

ـــ يا معشر عبد القيس إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى به إن علمتموه ، ولا تجيبونى إن لم تعلموا .

ـــ سل عما بدا لك .

ـــ تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضوا ؟

ـــ نعم .

ـــ تعلمونه أو ترونه ؟

ـــ لا بل نعلمه .

ـــ فما فعلوا ؟

ـــ ماتوا .

ـــ فإن محمدا ـــ ﷺ ـــ مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

ـــ ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأنك سيدنا وأفضلنا .

ففاءت عبد القيس إلى الله . وأما بكر فقد خرج الحطم بن ضبيعة أخو بنى قيس بن ثعلبة فيمن اتبعه من بكر بن وائل على الردة ، ومن انضم إليه من غير المرتدين ممن لم يزل كافرا ، حتى نزل القطيف وهجر وكان قد اتفق مع قومه على أن يردوا الملك فى آل المنذر ، فملكوا المنذر بن النعمان بن المنذر ، فبعث المنذر الحطم إلى جواثا وقال له :

ـــ اثبت فإنى إن ظفرت ملكتك بالبحرين ، حتى تكون

كالنعمان بالحيرة .

وانطلق الحطم إلى جواثا فحاصر قومها الذين ثبتوا على الإسلام ؛ وفى ذلك الوقت بعث أبو بكر العلاء بن الحضرمى على قتال أهل الردة بالبحرين . فلما أقبل إليها فكان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال فى مسلمة بني حنيفة ، وراح الأمراء يتلقون العلاء بالترحاب وينضمون إليه حتى نزل جيش المسلمين هجر . فأرسل العلاء إلى الجارود ورجل آخر أن انضما فى عبد القيس حتى تنزلا على الحطم مما يليكما ، وخرج هو فيمن جاء معه وفيمن قدم عليه ، حتى ينزل عليه مما يلى هجر .

وتجمع المشركون كلهم إلى الحطم إلا أهل دارين ، وتجمع المسلمون كلهم إلى العلاء الحضرمى ، وخندق المسلمون والمشركون وكانوا يتراوحون القتال يرجعون إلى خندقهم ، فكانوا كذلك شهرا . فبينا الناس ليلة إذ سمع المسلمون فى عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال ، فقال العلاء :

— من يأتينا بخبر القوم ؟

فقال عبد الله بن خدف :

— أنا آتيكم بخبر القوم .

وكانت أمه عِجلية ، فخرج حتى إذا دنا من خندقهم أخذوه فقالوا له :

— من أنت ؟

فانتسب لهم وجعل ينادى :

— يا أبجراه .

فجاء أبجر بن بجير فعرفه فقال :

ـــ ما شأنك ؟

وراح عبد الله بن خدف يتفرس فى القوم فإذا بهم سكارى قد لعبت بهم الخمر ، فقال :

ـــ لا أضيعنّ بين اللهازم ، علام أقتل وحولى عساكر من عجل وتيم اللات وقيس وعنزة . أيتلاعب بى الحُطم ونزاع القبائل وأنتم شهود ؟!

فتخلصه أبجر وقال :

ـــ والله إنى لأظنك بئس ابن الأخت لأخوالك الليلة .

كان الأبجر يترنح من السكر فقال له ابن خدف :

ـــ دعنى من هذا وأطعمنى فإنى قد متُّ جوعا .

فقرب له طعاما فأكل ثم قال :

ـــ زودنى واحملنى وجوزنى أنطلق إلى طيتى .

ففعل وقد غلب عليه الشراب وحمله على بعير وزوده وجوزه وخرج عبد الله بن خدف حتى دخل عسكر المسلمين فأخبرهم أن القوم سكارى ، فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عليهم عسكرهم فوضعوا السيوف فيهم حيث شاءوا . واقتحم المشركون الخندق هرابا فاندكت رقاب ونجا أناس وقطعت رءوس وأسرت زرافات ، واستولى المسلمون على ما فى العسكر لم يفلت رجل إلا بما عليه .

وأفلت أبجر ، ودهش الحُطم وطار فؤاده فقام إلى فرسه والمسلمون خلالهم يجوسون ليركبه ، فلما وضع رجله فى الركاب انقطع به ، فمر به عفيف بن المنذر أحد بنى عمرو بن تميم والحُطم يستغيث ويقول :

ـــ ألا رجل من بنى قيس بن ثعلبة يعقلنى ؟

فرفع صوته فعرف عفيف صوته فقال :

ــ أبو ضبيعة ؟

ــ نعم . أعطنى رجلك أعقلك .

فأعطاه رجله يعقله فضربها بسيفه فقطعها من الفخذ وتركه ، فقال الحُطم :

ــ أجهز علىّ .

ــ إنى أحب ألا تموت حتى أمضك .

كان عفيف يحب له أن يتألم كما تألم ، فقد كان معه عدة من ولد أبيه أصيبوا فى تلك الليلة ، وجعل الحطم لا يمر به فى الليل أحد من المسلمين إلا قال :

ــ هل لك فى الحُطم أن تقتله ؟

ويقول ذاك لمن لا يعرفه ، حتى مر به قيس بن عاصم فقال له :

ــ هل لك فى الحطم أن تقتله ؟

فمال عليه فقتله ، فلما رأى فخذه نادرة قال :

ــ واسوأتاه ! لو علمت الذى به لم أحركه .

وخرج المسلمون بعد ما أحرزوا الخندق على القوم يطلبونهم ، فاتبعوهم فلحق قيس بن عاصم أبجر ، وكان فرس أبجر أقوى من فرس قيس ؛ فلما خشى أن يفوته طعنه فى العرقوب فقطع العصب ، فسقط الفرس وسقط راكبه ، وأسر عفيف بن المنذر الغرور بن سويد ، فكلمه الناس فيه وسألوه أن يجيره ، فأتى به إلى العلاء وقال :

ــ إنى قد أجرت هذا .

ــ ومن هذا ؟

ــ الغرور :

إن الغرور المنذر بن النعمان بن المنذر من ملكه أهل البحرين عليهم ينظر إلى العلاء بعينين متوسلتين قد تعلقتا بشفتى أمير القوم ، قال :

ــ أنت غررت هؤلاء ؟

فقال الغرور فى انكسار :

ــ أيها الملك إنى لست بالغرور ، ولكنى المغرور .

ــ أسلم .

فأسلم وبقى بهجر .

وأصبح العلاء فقسم الأنفال ونفل رجالا من أهل البلاد ثيابا ، فكان فيمن نفل عفيف بن المنذر وقيس بن عاصم وثمامة بن أثال ، فأما ثمامة فنفل ثيابا فيها خميصة ذات أعلام كان الحُطم يباهى فيها .

وقصد معظم الهاربين من وجه سيوف المسلمين لدارين فركبوا إليها السفن ، ورجع الآخرون إلى بلاد قومهم . فكتب العلاء بن الحضرمى إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل لقتال هؤلاء الفلاّل . وأرسل الرسل إلى سادات القبائل الذين تمسكوا بالإسلام بلزوم ما هم عليه والقعود لأهل الردة بكل سبيل .

ولم يزل العلاء مقيما فى عسكر المشركين فى الدهناء حتى رجعت إليه الكتب من عند من كان كتب إليه من بكر بن وائل ، وبلغه عنهم القيام بأمر الله والغضب لدينه . فلما جاءه عنهم من ذلك ما كان يشتهى أيقن أنه لن يؤتى من خلفه بشىء يكرهه على أحد من أهل البحرين ، وندب الناس إلى دارين حيث اجتمع فلول الهاربين ، ثم جمع المسلمين فخطبهم وقال :

ــ إن الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشُرَّد الحرب فى هذا البحر ،

وقد أراكم من آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر ، فانهضوا إلى عدوكم ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم .

ـــ نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولا ما بقينا .

كان نصر الله عظيما يوم أن ركبوا المرتدين بأسيافهم فى الدهناء ، وإن ذلك النصر قد ثبت أقدامهم فارتحلوا حتى إذا بلغوا ساحل البحر راح العلاء يدعو وهم يدعون :

ـــ يا أرحم الراحمين . يا كريم يا حليم . يا أحد يا صمد يا حىّ . يا محيى الموتى . يا حى يا قيوم . لا إله إلا أنت يا ربنا .

وراحوا يخوضون ماء الخليج على ظهور الخيل والبغال والحمير والجمال ، يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل ، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر . فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعا ، فالتقوا بالفرار واقتتلوا قتالا شديدا ، فدارت الدائرة على المرتدين وجاء نصر الله المبين .

ورجع العلاء إلى البحرين ، وانتشر الإسلام فيها وتوطدت أركانه ، وأقفل العلاء بن الحضرمى الناس فرجع الناس إلا من أحب المقام ، وقفل ثمامة بن أثال حتى إذا كانوا على ماء لبنى قيس بن ثعلبة فرأوا ثمامة ورأوا خميصة الحطم عليه ، دسوا له رجلا وقالوا :

ـــ سله عنها كيف صارت له وعن الحطم ، أهو قتله أو غيره .

فأتاه فسأله عنها فقال :

ـــ نفلتها .

ـــ أأنت قتلت الحطم ؟

ـــ لا ، ولوددت أنى كنت قتلته .

— فما بال هذه الخميصة معك ؟

— ألم أخبرك ؟

فرجع إليهم فأخبرهم فتجمعوا له ثم أتوه ، فتحرشوا به فقال :

— ما لكم ؟

— أنت قاتل الحطم .

— كذبتم ، لست بقاتله ولكنى نفلتها .

— هل ينفل إلا القاتل ؟

— إنها لم تكن عليه ، إنما وجدت فى رحله .

— كذبت .

فأصابوه .

وكان على المسلمين راهب فى هجر فأسلم ، فقيل له :

— ما دعاك إلى الإسلام ؟

— دعاء سمعته فى عسكرهم فى الهواء من السحر .

— وما هو ؟

— اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك ، والبديع ليس قبلك شىء ، والدائم غير الغافل ، والحى الذى لا يموت ، وخالق ما يُرى وما لا يُرى ، وكل يوم أنت فى شأن ، وعلمت اللهم كل شىء بغير تعلم .

وكتب العلاء إلى أبى بكر بهزيمة أهل الخندق وقتل الحُطم : « أما بعد فإن الله تبارك اسمه سلب عدونا عقولهم ، وأذهب ريحهم بشراب أصابوه من النهار ، فاقتحمنا عليهم خندقهم فوجدناهم سكارى فقتلناهم إلا الشريد ، وقد قتل الله الحطم » .

وكان رسول الله — ﷺ — قد بعث جرير بن عبد الله البجلى لهدم

صنم ذى الخلصة ، فلما مات رسول الله — ﷺ — غضبت خثعم رهط جرير لذى الخلصة ، وأرادوا إعادته ، فرد أبو بكر جريرا إلى قومه وأمره أن يدعو من ثبت منهم على أمر الله ليقاتل بهم من ولى عن أمر الله ، وأمره أن يأتى خثعم فيقاتل من خرج غضبا لذى الخلصة ومن أراد إعادته حتى يقتلهم الله ويقتل من شاركهم فيه ، ثم يكون وجهه إلى نجران فيقيم بها حتى يأتيه أمره .

وخرج جرير لينفذ ما أمره به ، فلم يقف فى سبيله إلا رجال فى عدة قليلة فقتلهم وتتبعهم ، ثم كان وجهه إلى نجران فأقام بها انتظارا لأمر أبى بكر الصديق الذى ثارت عليه الأرض بخلا بما فى أيدى الناس ، أو طمعا فى زعامة زائلة .

لم تضحك فاطمة الزهراء مذ مات أبوها — ﷺ — إنها تذوب حزنا عليه وشوقا إليه . ومرضت « أم أبيها » فراح الحسن والحسين وأم كلثوم يرنون إلى أمهم فى إشفاق وجزع ، إنها تذوى وبريق عينيها الجميلتين ينطفئ ، والموت يزحف إليها لتلحق برسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وبالأحبة زينب ورقية وأم كلثوم .

وجاءت أمية بنت زينب وألقت نظرة على خالتها فانقبض صدرها واعتصر قلبها الحزن ، فقد عاشت فى كنف الزهراء بعد موت أمها فأنستها بعطفها وحنانها وحبها آلام اليتم ، فكانت لها أما بعد أمها ؛ فلو ماتت فإنها ستكون قد تجرعت قسوة اليتم مرتين .

وشردت الزهراء فإذا بالذكريات تتدفق إلى رأسها ؛ إنها ترى ليلة زفاف على ابن عمها عليها . إن أباها الذى أصيبت به توضأ فى تلك الليلة وصب على علىّ وعليها ودعا لهما أن يبارك فى نسلهما ، إن عليا فارس الإسلام أصدقها درعه الحطمية باعها بأربعمائة درهم ، وقد بعث معها أبوها عليه الصلاة والسلام بخميلة ووسادة من أدم حشوها ليف ورحى وسقاة وجرتين .

كانت فى الخامسة عشرة من سنها وكانت تطحن وتنهض بأعباء دارها الصغيرة ، وكان علىّ بن أبى طالب يشفق عليها ويعاونها كلما سمح وقته

بالبقاء معها . إنها لتذكر ذلك اليوم الذى ورد فيه إلى المدينة سبى وسعة فقال لها زوجها :

— والله لقد سنوت [١] حتى لقد اشتكيت صدرى ، وقد جاء الله أباك بسبى فاذهبى فاستخدميه .

— وأنا والله لقد طحنت حتى محلت [٢] يداى .

إنها لترى نفسها وهى ابنة النبى — ﷺ — وتكاد تسمع صوته الجهورى فى أعماقها وهو يقول :

— ما جاء بك أى بنية ؟

— جئت لأسلم عليك .

واستحيت وهى راقدة فى فراشها كما استحيت فى ذلك اليوم أن تسأله ، ورأت نفسها وهى راجعة تتعثر فى مشيتها .

وسرى فى وجدانها صوت على :

— ما فعلت ؟

— استحييت أن أسأله .

ورأت بعين خيالها نفسها وهى تنطلق مع زوجها إلى أبيها صلوات الله وسلامه عليه وسمعت بأذن الخيال عليا يقول :

— يا رسول الله والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى .

— لقد طحنت حتى محلت يداى ، وقد جاءك الله بالسبى وسعة فأخدمنا .

---

(١) سنوت : سقيت الإبل ونحوها .

(٢) محلت يداى : أصابتها الخشونة من قسوة العمل .

ـــ والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم .

ورأت نفسيهما وقد عادا مطأطئ الرءوس ، ولكن أباها الرحيم أتاهما وقد دخلا فى قطيفتهما ، إذا غطت رءوسهما تكشفت أقدامهما وإذا غطت أقدامهما تكشفت رءوسهما ، فثارا فقال :

ـــ مكانكما .

ثم قال :

ـــ ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟

ـــ بلى .

ـــ كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله فى دبر كل صلاة عشرا وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، وإذا آويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين ، وكبرا أربعا وثلاثين .

فما تركتهن منذ ذلك الوقت .

كانت صابرة مع على بن أبى طالب على جهد العيش وضيقه . إنه لم يتزوج عليها ولكنه أراد أن يتزوج فى وقت بدرة بنت أبى جهل ، فأنف أبوها ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ من ذلك وخطب الناس فقال :

ـــ لا أحرم حلالا ولا أحل حراما ، وإن فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها ، وإنى لأخشى أن تفتن عن دينها . ولكن إن أحب ابن أبى طالب أن يطلقها ويتزوج بنت أبى جهل فإنه والله لا تجتمع بنت نبى الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد أبدا .

فإن كان علىّ قد ترك الخطبة و لم يتزوج عليها فإنها تموت ، وإن عليا سيتزوج بعد موتها . فراحت توصى زوجها أن يتزوج أميمة بنت أختها

زينب بعد أن تلحق بأبيها .

وعلم أبو بكر بمرض حبيبة الرسول فأتاها أبو بكر فما يجب أن تموت فاطمة وهى ساخطة عليه . إنها سألته الميراث فأخبرها أن رسول الله — ﷺ — قال : لا نورث ما تركنا فهو صدقة . فسألت أن يكون زوجها ناظرا على هذه الصدقة فأبى ذلك وقال : إنى أعول ما كان رسول الله يعول ، وإنى أخشى إن تركت شيئا مما كان رسول الله — ﷺ — يفعله أن أضل . ووالله لقرابة رسول الله — ﷺ — أحب إلىَ أن أصل من قرابتى .

إنها وجدت فى نفسها من ذلك ، وأتاها أبو بكر واستأذن ، فدخل علىّ كرم الله وجهه على زوجه فقال :

— هذا أبو بكر يستأذن عليك .

فقالت فى صوت خافت :

— أتحب أن آذن له ؟

— نعم .

فأذنت له ، فدخل عليها يترضاها فقال :

— يا حبيبة رسول الله ، والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله ومرضاتكم أهل البيت .

وراح يترضاها حتى رضيت ، فانصرف أبو بكر برضائها مسرورا .

وبقيت سيدة النساء صامتة وصور الماضى تتوافد على ذاكرتها . إنها ترى بيت مكة وخديجة أم المؤمنين تملؤه حياة ، وأم أيمن ترعى زينب ورقية وأم كلثوم ، ورسول الله — ﷺ — يخرج إلى الناس يدعوهم إلى الله ثم يعود مجهدا مهموما لإعراض قومه عن الحق المبين ، فتهرع إليه خديجة تواسيه

وتمسح عنه الآلام والأحزان .

إن أمها الطاهرة قد رقدت هناك فى مكة ، ودفنت زينب ورقية وأم كلثوم وأم أيمن هنا فى البقيع ، وقبر أبوها حيث قبض فى بيت عائشة . إنهم ماتوا ولكنها تراهم جميعا عند سريرها ينتظرونها لتنطلق معهم إلى حيث ذهب أبوها ، إلى الرفيق الأعلى .

كان الموت يطلبها حثيثا وإنها لتترك الدنيا غير آسفة على فراقها ، فما تنافست فى عزها وفخرها ، وما بهرتها زينتها ونعيمها ، وما جزعت من ضرائها وبؤسها . إنها عما قليل ستصبح ميتا يبكى ، وستخلف من ورائها دنيا لا خير فى شىء من أزوادها إلا التقوى .

وفتحت عينين واهنتين فرأت أبا الحسن والها حزينا ، والحسن والحسين وفى أعينهما دموع ، وأم كلثوم تكاد تموت من الأسى . فأرادت أن تواسيهم ولكن الكلمات ماتت على شفتيها ، ولم تجد الكلام الذى يعبر عما تعتمل به نفسها .

وحانت منها التفاتة فرأت أسماء بنت عميس فتذكرت جعفر بن أبى طالب زوج أسماء قبل أن يتزوجها أبو بكر ، فدعت الله أن تكون معه فى الجنة ، وأوصت أسماء أن تغسلها .

وفاضت الروح المطمئنة ورجعت إلى ربها راضية مرضية . فأُجهش أبو الحسن بالبكاء ، وراح الحسن والحسين وأم كلثوم يذرفون الدموع على أعظم أم فى الوجود ، ستيدة نساء أهل الجنة .

وقام على وأسماء بنت عميس وسلمى أم رافع وراحوا يغسلون الجسد الطاهر والعيون تسح الدموع ، واجتمع الناس فى المسجد وقد نزل بقلوبهم حزن ثقيل ، فقد جدد موت الزهراء أحزانهم على فراق أبيها نبى

الرحمة ورسول رب العالمين .

وصلى عليها زوجها علىّ وعمه العباس ، وفى سكون الليل خرجت الجنازة إلى البقيع وقد غامت أعين الرجال بالدموع ، وارتفع نشيج النساء من الدور . ودفنت على أضواء المشاعل فقد كانت الليلة ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من هجرة أبيها العظيم .

وشعر علىّ بنار الحزن تلسع فؤاده فلم يقدر على أن يكتم ما به ، فوقف يناجى رسول الله — ﷺ — ويرثى زهراءه :

— السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة إلى جوارك والسريعة اللحاق بك ، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ، إلا أن لي فى التأسى بعظيم فرقتك ، وفادح مصيبتك ، موضع تعز ، ولقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك .

إنا لله وإنا إليه راجعون . لقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ، أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم . وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها ، فأحفها السؤال واستخبرها الحال ؛ هذا ولم يطل العهد ، ولم يخل منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .

١٩

نبع بعمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدى ، وكان يسمى فى الجاهلية الجُلندى ، وادعى النبوة . وتابعه الجهلة من أهل عُمان فحارب جيفرا وعبادا وألجأهما إلى الجبال والبحر ، فبعث جيفر إلى أبى بكر يخبره بذلك واستجاشه ، فبعث إليه الصديق بأميرين وهما حذيفة بن محصن الحميرى ، وعرفجة البارقى من الأزد ؛ حذيفة إلى عُمان ، وعرفجة إلى مهرة ، وأمرهما أن يجتمعا ويتفقا ويبتدئا بعمان ، وحذيفة هو الأمير ، فإذا ساروا إلى بلاد مهرة فعرفجة الأمير .

وكان أبو بكر قد بعث عكرمة بن أبى جهل إلى مسيلمة وأتبعه بشرحبيل بن حسنة ، فعجل عكرمة وناهض مسيلمة قبل مجىء شرحبيل ليفوز بالظفر وحده ، فناله من مسيلمة قرح والذين معه ، فتقهقر فكتب إليه الصديق يلومه على تسرعه قال :

ـــ لا أرينك ولا أسمعن بك إلا بعد بلاء .

وأمره أن يلحق بحذيفة وعرفجة إلى عمان : « وكل منكم أمير على جيشه ، وحذيفة ما دمتم بعمان فهو أمير الناس . فإذا فرغتم فاذهبوا إلى مهرة ، فإذا فرغتم منها فاذهب إلى اليمن وحضر موت ، فكن مع المهاجر ابن أبى أمية ، ومن لقيته من المرتدين بين عمان إلى حضر موت واليمن فنكل به » .

فسار عكرمة لما أمره به الصديق ، فلحق حذيفة وعرفجة قبل أن يصلا إلى عمان ، وقد كتب إليهما الصديق أن ينتهيا إلى رأى عكرمة بعد الفراغ من السير من عمان أو المقام بها ، فساروا فلما اقتربوا من عمان راسلوا جيفرا . وبلغ لقيط بن مالك مجئ الجيش فخرج فى جموعه فعسكر بمكان يقال له دبا ، وهى مصر تلك البلاد وسوقها العظمى ، وجعل الذرارى والأموال وراء ظهورهم ليكون أقوى لحربهم .

واجتمع جيفر وعباد بمكان يقال له صحار ، فعسكروا به وبعثا إلى أمراء الصديق فقدموا على المسلمين ، فتقابل الجيشان هناك وتقاتلوا قتالا شديدا ، وابتلى المسلمون وكادوا أن يولوا ، فمن الله بكرمه ولطفه أن بعث إليهم مددا فى الساعة الراهنة من بنى ناجية وعبد القيس فى جماعة من الأمراء ، فقوى الله بهم أهل الإسلام ووهن الله بهم أهل الشرك ، فولى المشركون الأدبار وقتل منهم فى المعركة عشرة آلاف ، وركبهم المسلمون حتى أثخنوا وسبوا الذرارى وقسموا الأموال على المسلمين ، وبعثوا بالخمس إلى أبى بكر مع عرفجة ، وكان الخمس ثمانمائة رأس غير السبى ، وغنموا السوق بحذافيرها .

ورأى عكرمة وحذيفة أن يقيم حذيفة بعمان حتى يوطئ الأمور ويسكن الناس ، فراح حذيفة يدعو القبائل حول عمان إلى السكون . فلما فرغ عكرمة وعرفجة وحذيفة من ردة عمان خرج عكرمة فى جنده نحو مَهْرة . واستنصر من حول عمان وأهل عمان ، وسار حتى اقتحم على مهرة بلادها فوافق بها جمعين من مهرة ؛ أما أحدهما فبمكان من أرض مهرة يقال له جيروت عليهم شخريت رجل من بنى شخراة ، وأما الآخر بالنجد ، وقد انقادت مهرة جميعها لصاحب هذا الجمع عليهم المصبّح أحد

بنى محارب والناس كلهم معه إلا ما كان من شخريت ؛ فكانا مختلفين كل واحد من الرئيسين يدعو الآخر إلى نفسه ، وكل واحد من الجندين يشتهى أن يكون النصر لرئيسهم .

ورأى عكرمة قلة مَن مع شخريت فدعاه إلى الرجوع إلى الإسلام فأجابه ، ووهن الله بذلك المصبِّح . ثم أرسل إلى المصبح يدعوه إلى الإسلام والرجوع عن الكفر فاعتز بكثرة من معه وازداد مباعدة مخالفة لشخريت ، فسار إليه عكرمة وسار معه شخريت فالتقوا هم والمصبح بالنجدة ، فاقتتلوا أشد من قتال دَبَا ، ثم إن الله كشف جنود المرتدين وقتل المصبح وركبهم المسلمون فقتلوا منهم ما شاءوا وأصابوا ما شاءوا ، وأصابوا فيما أصابوا ألفى نجيبة ، فخمس عكرمة الفىء فبعث بالأخماس مع شخريت إلى أبى بكر ، وقسم الأربعة الأخماس على المسلمين ، وبعث السائب أحد بنى عابد بن مخزوم بشيرا فقدم على أبى بكر بالفتح ، وقدم شخريت بعده بالأخماس .

وكان الأسود العنسى قد نبغ باليمن وأضل خلقا كثيرا من ضعفاء العقول حتى ارتد كثير منهم عن الإسلام ، وقد قتله الأمراء الثلاثة قيس بن مكشوح وفيروز الديلمى ، وداذويه ، وكان ذلك فى عهد رسول الله — ﷺ . فلما بلغهم موت رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ازداد بعض أهل اليمن فيما كانوا فيه من الحيرة والشك ، وطمع قيس بن مكشوح فى الإمرة باليمن فارتد عن الإسلام ، وتابعه عوام أهل اليمن .

وأرسل قيس إلى ذى الكلاع وأصحابه أن الأبناء نزاع بلادكم وثقلاء فيكم ، وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد أرى من الرأى أن أقتل رءوسهم وأخرجهم من بلادنا .

فتبرأ أهل ذى الكلاع فلم يمالئوه و لم ينصروا الأبناء ، واعتزلوا وقالوا :

ـــ لسنا مما ها هنا فى شىء ، أنت صاحبهم وهم أصحابك .

فتربص لهم قيس واستعد لقتل رؤسائهم ، إخوان الأمس . فراح يدبر أمره سرا ، فاتصل برجال قد شقوا عصا الطاعة وراحوا يعيثون فى الأرض فسادا، وكاتبهم فى السر وأمرهم أن يتعجلوا إليه ليكون أمره وأمرهم واحد ، وليجتمعوا على نفى الأبناء من بلاد اليمن . فكتبوا إليه بالاستجابه له ، وأخبروه أنهم إليه سُراع ، فاستيقظ أهل صنعاء على خبر دنو أولئك الثوار منها .

وانطلق قيس إلى فيروز وهو يتصنع الدهشة والخوف من الأنباء التى ترامت إليه ، وأتى داذويه ، فاستشارهما ليخدعهما ولئلا يتهماه . فأداروا قداح الرأى بينهم ، واطمأن فيروز وداذويه إلى قيس .

ودعاهما قيس من الغد إلى طعام ، فخرج داذويه حتى دخل عليه ، فلما دخل عليه عاجله فقتله ، وخرج فيروز يسير والموت يتربص به حتى إذا دنا سمع امرأتين على سطحين تتحدثان ، فقالت إحداهما :

ـــ هذا مقتول كما قتل داذويه .

فنكص على عقبيه وراح يركض ليفر من الموت ، وبلغ قيسا رجوع فيروز فخرج فرسان له يقتفون أثره فجعلوا يركضون وهو يـركض متوجها نحو جبل خولان ففيه أخوال ، واستمر السباق الرهيب والمطاردة المثيرة ، وقد انتهت بأن سبق فيروز الخيول إلى الجبل وامتنع بأخواله .

ورجعت الخيول إلى قيس ، فأحنقه انفلات فيروز من قبضته ، ثم جمع جموعه وانقض على صنعاء فأخذها ، وأتته خيول الأسود وانضمت إليه وتناست ما كان من اشتراك قيس فى مقتل العنسى ، وقام فيروز فى أخواله

فهرع إليه أناس ممن بقوا على إسلامهم ، وكتب إلى أبى بكر بالخبر ، فقال قيس فى استخفاف :

ـــ وما خولان وما فيروز وما فرار أووا إليه ؟!

وعمد قيس إلى الأبناء ففرَّقهم ثلاث فرق : أقر من أقام وأقر عياله ، وفرق عيال الذين هربوا إلى فيروز فرقتين ، فوجه إحداهما إلى عدن ليحملوا فى البحر ، وحمل الأخرى فى البر ، وقال لهم جميعا :

ـــ الحقوا بأرضكم .

وبعث معهم من يسيرهم فكان عيال الديلمى ممن يسير فى البر ، وعيال داذويه ممن يسير فى البحر . فلما رأى فيروز أن قد اجتمع عوام أهل اليمن على قيس ، وأن العيال قد سيروا وأنهم عرضة للنهب وأنه لا يستطيع أن يفارق عسكره لينقذهم ، أرسل إلى بنى عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة رسولا بأنه يستمدهم ويستنصرهم لإنقاذ عياله . فركبت عقيل وعليهم رجل من الحلفاء يقال له معاوية ، فاعترضوا خيل قيس فأنقذوا أولئك العيال وقتلوا الذين سيروهم ، ووثبت عك وعليهم مسروق فساروا حتى أنقذوا عيالات الأبناء ، وأمدت عقيل وعك فيروز بالرجال ، فلما أتته أمدادهم خرج فيمن كان اجتمع إليه وفى ذلك المدد لقتال قيس .

والتقى جيش المسلمين وجيش المرتدين دون صنعاء ، ودارت رحى معركة رهيبة ، المسلمون يدافعون عن الحق والمرتدون يقاتلون فى سبيل عرض الدنيا ، وارتفعت أصوات المسلمين بشعارهم :

ـــ وامحمداه ! وامحمداه !

فإذا بسيوف المسلمين تحصد الكافرين حصدا ، فهزم الله قيسا فى قومه ومن انضموا إليه ، فخرج هاربا فى جنده حتى عاد معهم وعادوا إلى المكان

الذى فروا إليه بعد مقتل العنسى .

وخرج عكرمة بن أبى جهل من مهرة سائرا نحو اليمن حتى ورد أبين ومعه بشرَ كثير ، فجمع النخع فقال لهم :

ــ كيف كنتم فى هذا الأمر ؟

ــ كنا فى الجاهلية أهل دين لا نتعاطي ما تتعاطى العرب بعضها من بعض . فكيف بنا إذا صرنا إلى دين عرفنا فضله ودخلنا حبه ؟

فسأل عنهم فإذا الأمر كما قالوا ، ثبت عوامهم على الإسلام وهرب من ارتد من خاصتهم ، واستبرأ النخع وحمير وقوى بهم .

ونزل بقيس هم ثقيل لهبوط عكرمة إلى اليمن ، فأرسل إلى عمرو بن معد يكرب لينضم إليه فجاءه عمرو ، وكان عمرو قد ارتد فيمن ارتد وجعله العنسى على جيش من جيوشه . ووقعت بين قيس وعمرو خلافات فتنازعا وتعايرا ، فنظم عمرو بن معد يكرب شعرا يعير فيه قيسا غدره بالأبناء وقتله داذويه ، فراح قيس يعيره بما فعله به خالد بن سعيد حين لقيه ، وكيف فر عمرو منه ، وكيف سلبه خالد بن سعيد فرسه وسيفه الصمصامة .

وبعث أبو بكر المهاجر بن أبى أمية إلى اليمن ، وكان المهاجر قد تخلف عن تبوك ، فرجع رسول الله ــ ﷺ ــ وهو عليه عاتب . فبينا أم سلمة تغسل رأس رسول الله ــ ﷺ ــ قالت :

ــ كيف ينفعنى شيء وأنت عاتب على أخى ؟

فرأت منه رقة ، فأومأت إلى خادمها فدعته ، فلم يزل برسول الله ــ ﷺ ــ ينشر عذره حتى عذره ورضى عنه وأمَّره على كندة ، فاشتكى ولم يستطع الذهاب فكتب إلى زياد بن لبيد البياضى أمير رسول الله ــ ﷺ ــ

على حضر موت ليقوم له على عمله .

ولم يكن المهاجر بن أبى أمية ابن زاد الركب خرج حتى توفى رسول الله — ﷺ ، فأتم له أبو بكر إمرته وأمره بقتال من بين نجران إلى أقصى اليمن ، فاتخذ المهاجر مكة طريقا فمر بها فأتبعه خالد بن أسيد ، ومر بالطائف فأتبعه عبد الرحمن بن أبى العاص ، ثم مضى حتى إذا حاذى جرير ابن عبد الله ضمه إليه ، وانضم إليه عبد الله بن ثور فيمن استجاب له من أهل تهامة ، ثم قدم على أهل نجران فانضم إليه فروة بن مسيك .

ولما بلغ نجران وفاة رسول الله — ﷺ — وهم يومئذ أربعون ألف مقاتل ، بعثوا وفدا إلى أبى بكر ليجددوا عهدا فقدموا إليه ، فكتب لهم كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله أبى بكر خليفة رسول الله — ﷺ — لأهل نجران ، أجارهم من جنده ونفسه ، وأجاز لهم ذمة محمد — ﷺ ، إلا ما رجع عنه محمد — ﷺ — بأمر الله عز وجل فى أرضهم وأرض العرب : ألا يسكن بها دينان.أجارهم على أنفسهم بعد ذلك وملتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وعاديتهم وشاهدهم وأسقفهم ورهبانهم وبيعهم على ما وقعت وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير ، عليهم ما عليهم ، فإذا أدوه فلا يحشرون ولا يعشرون ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ، ووفى لهم بكل ما كتب لهم رسول الله — ﷺ ، وعلى ما فى هذا الكتاب من ذمة محمد رسول الله — ﷺ — وجوار المسلمين ، وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق »

وبلغت العداوة بين قيس وعمرو بن معد يكرب مداها ، ورأى عمرو أن لا قبل له بجيوش المسلمين ففارق قسينا وانطلق إلى المهاجر بن أبى أمية على غير أمان ليجيب داعى الإسلام ، فأوثقه المهاجر ، ومكنه الله من

قيس فأوثقه ، وكتب بحالهما إلى أبى بكر وبعث بهما إليه .

وجىءبقيس وعمرو على بكر فقال :

ـــ يا قيس أعدوت على عباد الله تقتلهم وتتخذ المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين ؟!

ولم يجد أبو بكر أمرا جليا ، ونفى قيس أنه قتل داذويه ، وكان ذلك عملا عمل فى سر لم يكن به بينة ، وكان أبو بكر قد هم بقتله ولكنه لم يجد الحجج القوية التى تبرر القتل فاضطر إلى أن يتنازل عن دم داذويه ، فلأن يخطئ السلطان فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة .

وقال لعمروبن معد يكرب :

ـــ أما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور ؟ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله .

كان أبو بكر يرى أن عمرو بن معد يكرب فارس لا يشق له غبار ، وأنه لو أخلص للإسلام لأدى له خدمات جليلة ، فما إن قال عمرو فى توبة :

ـــ لا جرم ، لأقبلن ولا أعود .

حتى أطلق أبو بكر سراحه وخلى سبيل قيس وردهما إلى عشائرهما ، وكتب أبو بكر إلى المهاجر وعكرمة : أن يسيرا حتى يقدما على حضر موت .

٢٠

أسلمت كندة وأسلم أهل بلاد حضر موت كلهم ، فأمر رسول الله ــ ﷺ ــ بما يوضع من الصدقات أن يوضع صدقة بعض حضر موت فى كندة،ووضع صدقة كندة فى بعض حضر موت،وبعض حضر موت فى السكون ، والسكون فى بعض حضر موت ، فقال نفر من بنى وليعة :

ــ يا رسول الله إنا لسنا بأصحاب إبل ، فإن رأيت أن يبعثوا إلينا بذلك على ظهر .

كانوا فى حاجة إلى إبل لحمل الصدقات ، وكانوا يرون أن يبعث إليهم أهل حضر موت بالإبل . فنظر رسول الله ــ ﷺ ــ إلى الحضرميين فقال :

ــ إن رأيتم .

ــ فإنا ننظر ، فإن لم يكن لهم ظهر فعلنا .

وكان زياد بن لبيد البياضى عامل رسول الله ــ ﷺ ــ على حضر موت ، فلما توفى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وجاء أوان جمع الصدقات ، دعا زياد الناس إلى ذلك فحضروه ، فقالت بنو وليعة لأهل حضر موت :

ــ أبلغونا كما وعدتم رسول الله ــ ﷺ ــ.

ــ إن لكم ظهرا فسهلموا فاحتملوا .

ورأى زياد بن لبيد أن لبنى وليعة إبلا وأنها قادرة على حمل صدقاتها ، فقال لهم :

— إن لكم ظهرا .

فاشتد النقاش بين بنى وليعة والحضرميين ، ثم قال بنو وليعة لزياد :

— أنتم معهم علينا .

فأبى الحضرميون أن يرسلوا إبلهم ، ولج الكنديون فرجعوا إلى دارهم وهم يفكرون فى الردة يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى . وولى زياد صدقات بنى عمرو بن معاوية بنفسه ، فقدم عليهم وهم بالرياض فراح يحملْ منهم الصدقات ، وكان أول من قابل غلاما يقال له شيطان بن حجر ، فخرج الغلام إليه بالصدقات ، فأعجبت زياد بكرة من الصدقة ، ودعا بنار فوضع على الإبل والنوق الميسم علامة الصدقات .

وجاء العداء بن حجر فنظر فإذا ناقته الأثيرة عنده بين نوق الصدقات ، إنه قد أطلق عليها اسم شذرة ، ولم يكن على العداء صدقة ، فذهب إلى أخيه يسأله الخبر فقال له أخوه :

— إنى قد أوهمت حين أخرجتها وظننتها غيرها .

فانطلقا إلى زياد وقال العداء :

— هذه ناقتى ، هذه شذرة .

فقال أخوه شيطان بن حُجر :

— صدق أخى ، فإنى لم أعطيكموها إلا وأنا أراها غيرها ، فأطلق شذرة وخذ غيرها فإنها غير متروكة .

ولم يكن لزياد أن يطلقها بعد أن وضع عليها علامة الصدقة ، فقال للغلام إن ذلك منه اعتلال ، واتهمه بالكفر ومباعدة الإسلام ، وأطل الشر

عليهما فغضب زياد وغضب الرجلان ، فقال زياد :

— لا ولا تنعم ولا هي لك ، لقد وقع عليها ميسم الصدقة وصارت في حق الله ، ولا سبيل إلى ردها فلا تكونن شذرة عليكم كالبسوس .

إن البسوس أشعلت نار حرب سقط فيها سادات صرعى ، وإن شذرة لتوشك أن توقد نار حرب لا يعلم إلا الله مداها ، فنادى العداء :

— يا آل عمرو بالرياض أضام وأضطهد ؛ إن الذليل من أكل في داره .

ونادى :

— يا أبا السُّميط .

فأقبل أبو حارثة بن سراقة بن معد يكرب في ثلة من الرجال ، فقصد لزياد بن لبيد وهو واقف فقال :

— أطلق لهذا الفتى بكرته وخذ بعيرا مكانها ، فإنما بعير مكان بعير .

— ما إلى ذلك سبيل .

— ذاك إذا كنت يهوديا .

واندفع إليها فأطلق عقالها ثم ضرب على جنبها فبعثها وقام دونها ، فأمر به زياد شبابا من حضر موت والسكون فقبضوا عليه وكتفوه وكتفوا أصحابه ، وارتهنوهم وأخذوا البكرة فعلقوها كما كانت .

وتصايح أهل الرياض وتنادوا ، وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا أمرهم ، وغضبت السكون لزياد ، وغضبت له حضر موت وقاموا جميعا دونه .

وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء وهؤلاء ، لا تعرف بنو معاوية مكان أسرائهم ولا تجد أصحاب زياد على بني معاوية سبيلا يتعلقون به ليبدءوا حربهم ، فلا بد من سبب مهما كان واهيا لشن الحرب وخوض

غمار الوغى ، فأرسل إليهم زياد :

ـــ إما أن تضعوا السلاح ، وإما أن تؤذنوا بحرب .

ـــ لا نضع السلاح أبدا حتى ترسلوا أصحابنا .

ـــ لا يرسلون أبدا حتى ترفضُّوا وأنتم صَغَرة قمأة . يا أخابث الناس ألستم سكان حضر موت وجيران السكون ؟ فما عسيتم أن تكونـوا وتصنعوا فى دار حضر موت وفى جنوب مواليكم ؟

وراحت السكون يزينون له القتال ويقولون له :

ـــ ناهد القوم فإنه لا يفطمهم إلا ذلك .

فخرج إليهم ليلا فقتل منهم فانهزموا ، ولما هرب القوم خلى عن أبى السميط وأصحابه ورجع زياد إلى منزله منتصرا . ولما رجع الأسراء إلى أصحابهم راحوا يحضونهم على القتال وقالوا :

ـــ لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلوَ لأحد الفريقين .

فأجمعوا وعسكروا جميعا ونادوا بمنع الصدقة، فتركهم زياد ولم يخرج إليهم وتركوا المسير إليه . أرسل إليهم الحصين بن نمير سفيرا فما زال يغدو ويروح بينهم وبين زياد وحضر موت والسكون حتى سكن بعضهم عن بعض ، فأقاموا بعد ذلك يسيرا . ثم إن بنى عمرو بن معاوية خرجوا إلى المحاجر إلى أحماء حموها ، وكان رؤساء بنى عمرو بن معاوية : أبضعة وجمدا ويشرحا ومخوصا وأختهم العَمرَّدة ، فنزل جمد محجرا ومخوص محجرا ومشرح محجرا وأبضعة محجرا وأختهم العمردة محجرا ، ونزلت بنو الحارث بن معاوية محاجرها ، فنزل الأشعث بن قيس محجرا ، والسمط بن الأسود محجرا ، واتفقت معاوية كلها على منع الصدقة وأجمعوا على الردة ، إلا ما كان من شرحبيل بن السمط وابنه فإنهماقاما فى بنـى

معاوية فقالا :

— والله إن هذا لقبيح بأقوام أحرار التنقل . إن الكرام ليكونون على الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا منها إلى أوضح منها مخافة العار ، فكيف بالرجوع عن الجميل وعن الحق إلى الباطل والقبيح ؟ اللهم إنا لا نمالئ قومنا على هذا ، وإنا لنادمون على مجامعتهم إلى يومنا هذا .

وخرج شرحبيل بن السمط وابنه السمط حتى أتيا زياد بن لبيد فانضما إليه ، وخرج ابن صالح وامرؤ القيس بن عابس حتى أتيا زيادا فقالا له :

— بَيِّت القوم فإن أقواما من السكاسك قد انضموا إليهم ، وقد تسرع إليهم قوم من السكون وشذاذ من حضر موت لعلنا نوقع بهم وقعة تورث بيننا عداوة وتفرِّق بيننا . خشينا أن يرفضّ الناس عنا إليهم والقوم غارون لمكان من آتاهم ، راجون لمن بقى .

— شأنكم .

فجمعوا جمعهم وهجموا عليهم فى محاجرهم فوجدوهم حول نيرانهم جلوسا ، فعرفوا من يريدون فانقضوا على بنى عمرو بن معاوية وهم شوكة القوم من خمسة أوجه فى خمس فرق ، فأصابوا مشرحا ومخوصا وجمدا وأبضعة وأختهم العَمرَّدة وقتلوا فأكثروا ، وهرب من استطاع الهرب ، وعاد زياد بالسبى والأموال ، وأخذوا طريقا يقودهم إلى عسكر الأشعث وبنى الحارث بن معاوية ، فلما مروا بهم استغاث نسوة بنى عمرو ابن معاوية الأسيرات ببنى الحارث وناديته :

— يا أشعث ، يا أشعث .. خالاتك .. خالاتك .

وثار الأشعث فى بنى الحارث وهجم على الرجال الذين كانوا يحرسون النسوة الأسيرات فأنقذهن من أيديهن . وعلم الأشعث أن زيادا وجنده إذا

بلغهم ذلك لم يسكتوا عنه ولا عن بنى الحارث بن معاوية وبنى عمرو بن معاوية ، فجمع إليه بنى الحارث بن معاوية وبنى عمرو بن معاوية ومن أطاعه من السكاسك والخصائص من قبائل ما حولهم ، وتأهب للمعركة القادمة بين زياد والأشعث من بحضر موت من القبائل .

وثبت أصحاب زياد على طاعته ، وأظهرت كندة العداوة وأبدت القبائل ميلها إلى الأشعث ، فرأى زياد أن يكتب إلى المهاجر بن أمية ، فبعث إليه رسولا فتلقاه بالكتاب وقد قطع صهيد ، مفازة ما بين مأرب وحضر موت .

وعزم المهاجر على أن ينهض لمعاونة زياد فى حربه ، فاستخلف على الجيش عكرمة ، وتعجل فى سَرَعان الناس ، ثم سار حتى قدم على زياد فقوى به ساعدالمسلمين . فانقض على كندة وعليهم الأشعث ، ودارت رحى معركة شديدة ، المسلمون ينادون بشعارهم والمرتدون يدافعون عن باطلهم ، حتى انهزموا وخرجوا هرابا ، فالتجئوا إلى حصن النجير وقد رموه وحصنوه ، وجاء إليهم رجال من كندة ومعهم من استغووا من السكاسك والسكون وحضر موت .

كانت النجير على ثلاثة طرق ، فنزل زياد على أحدها ، ونزل المهاجر على الآخر ، وكان الثالث للمرتدين يغدون ويروحون فيه وتأتى منه الإمدادات والمؤن . وسرعان ما أقبل عكرمة بن أبى جهل فى جيش المسلمين فأنزله على ذلك الطريق ، فقطع عليهم الإمدادات والمؤن .

وفرق عكرمة فى كندة الخيول وأمرهم أن يوطئوهم ، فاستشرى القتل فى كندة ، وبلغ كندة وهم فى الحصار ما لقى سائر قومهم فقال

قائل منهم :

ـــ الموت خير مما أنتم فيه ، جزوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم فأنعم عليكم فبؤتم بنعمه ، لعله أن ينصركم على هـؤلاء الظلمة .

فجزوا نواصيهم وتعاقدوا وتواثقوا ألا يفر بعضهم عن بعض ، فلما أصبحوا خرجوا من الحصن وهجموا على المسلمين فاقتتلوا بأفنية النجير حتى كثرت القتلى بحيال كل طريق من الطرق الثلاثة ، وجعل عكرمة يصول ويجول فهزمت كندة ، وعاد من بقى منهم على قيد الحياة إلى الحصن يلعق جراحه .

وكان أبو بكر الصديق قد كتب إلى المهاجر مع المغيرة بن أبى شعبة : « إذا جاءكم كتابى هذا ولم تظفروا ، فإن ظفرتم بالقوم فاقتلوا المقاتلة واسبوا الذرية إن أخذتموهم عنوة ، أو ينزلوا على حكمى . فإن جرى بينكم صلح قبل ذلك فعلى أن تخرجوهم من ديارهم ، فإنى أكره أن أقر أقواما فعلوا فعلهم فى منازلهم ، ليعلموا أن قد أساءوا و ليذوقوا وبال بعض الذى أتوا .

وانطلق المغيرة بالكتاب إلى اليمن وقد رأى أهل الحصن المواد لا تنقطع عن المسلمين ، وأيقنوا أنهم غير منصرفين عنهم ، فخشعت أنفسهم . ثم خافوا القتل وخاف الرؤساء على أنفسهم ، فعجل الأشعث فخرج إلى عكرمة بأمان وكان لا يأمن غيره ، وذلك أنه كانت تحته أسماء ابنة النعمان ابن الجون خطبها وهو يومئذ بالجند ينتظر قدوم المهاجر ، فأهداها إليه أبوها قبل أن يبادوا ، فانطلق به عكرمة إلى المهاجر واستأمنه له على نفسه ، فدخل الأشعث على المهاجر فاستأمنه على أهله وماله وتسعة ممن أحب ،

وعلى أن يفتح لهم باب الحصن فيدخلوا على قومه ، فقال له المهاجر :

ــ اكتب ما شئت واعجل .

فكتب أمانه وأمانهم وفيه أخوه وبنو عمه وأهلوهم ، ونسى نفسه من العجل والدهش ، ثم جاء بالكتاب فختمه ثم فتح باب الحصن للمسلمين فاقتحموه فلم يدعوا فيه مقاتلا إلا قتلوه ، وأسروا ألف امرأة ممن فى الحصن ، ووضع على السبى والفىء الحراس ، ودعا الأشعث بأولئك النفر الذين استأمن لهم ودعا بكتابه ، فإذا الأشعث ليس فيه فقال المهاجر :

ــ الحمد لله الذى خطأك نوءك ، يا أشعث يا عدو الله قد كنت أشتهى أن يخزيك الله .

وشده وثاقا وهم بقتله فقال له عكرمة :

ــ أخره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم فى هذا ، وإن كان رجلا نسى اسمه أن يكتبه وهو ولى المخاطبة أفذاك يبطل ذاك ؟!

ــ إن أمره لبين ، ولكنى أتبع المشورة وأوثرها .

وأخره ، وجاء المغيرة بن أبى شعبة بكتاب أبى بكر والسبى على ظهور الإبل ، وقرئ الكتاب وعرف الأشعث بما فيه فاستشعر أسى ، فلو أنه صبر مع رجاله حتى يجئ المغيرة لصالح المسلمين على الجلاء ولنجا قومه من الموت وذل الأسر .

وانطلق الأشعث مع السبى إلى أبى بكر ، فراح المسلمون يلعنونه ويلعنه سبايا قومه ، وسماه نساء قومه عُرْف النار ، كلام يمانى يسمون به الغادر ، وشرد الأشعث يفكر ؛ إنه كان قد خطب أم فروة بنت أبى قحافة أخت أبى بكر لما قدم على رسول الله ــ ﷺ ــ فزوجه وأخرها إلى أن

يقدم الثانية ، وها هو ذا يقدم الثانية وهو مقيد بالحبال بعد أن فعل ما فعل ، ترى ماذا سيفعل أبو بكر به ؟

وسارت السبايا والأسرى فقدم القوم على أبى بكر بالفتح والسبايا والأسرى ، فدعا بالأشعث فقال :

— استزلك بنو وليعة ولم تكن تستنزلهم ولا يرونك لذلك أهلا ، وهلكوا وأهلكوك . أما تخشى أن تكون دعوة رسول الله — ﷺ — قد وصل إليك منها طرف ؟ ما ترانى صانعا بك ؟

كان رسول الله — ﷺ — قد لعن الملوك الأربعة جمدا ومخوصا وأبضعة وأختهم العَمرَّدة لما ارتدوا وانضموا إلى الأسود العنسى ، وإن أبا بكر ليخبر الأشعث أنه يخشى أن يكون طرف من هذه الدعوة قد أصابه ، فارتعدت فرائض الأشعث وقال لأبى بكر :

— إنى لا أعلم برأيك وأنت أعلم برأيك .

— فإنى أرى قتلك .

— فإنى أنا الذى راوضت القوم فى عشرة ، فما يحل دمى .

— أفوضوا إليك ؟

— نعم .

— ثم أتيتهم بما فوضوا إليك فختموه لك ؟

— نعم .

— فإنما وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من فى الصحيفة ، وإنما قبل ذلك مراوضا .

إنه نسى أن يكتب اسمه فى الصحيفة لما فاوض المسلمين على فتح باب الحصن لقاء إحياء عشرة ، فكتب العشرة ونسى نفسه ، وقد ألزمه

الصديق الحجة فلم يجد أمامه إلا أن يطمع فى كرم خليفة رسول الله — ﷺ ، فقال لما خشى أن يقع به :

— أو تحسب فىّ خيرا فتطلق إسارى وتقيلنى من عثرتى وتقبل إسلامى وتفعل بى مثل ما فعلت بأمثالى وترد على زوجتى ، تجدنى خير أهل بلادى لدين الله .

إنه يلتمس من أبى بكر أن يصفح عنه كما صفح عن قيس وعمرو بن معد يكرب ، وأن يتم زواجه من أخته أم فروة بنت أبى قحافة ، فصفح عنه الصديق و لم يهدر دمه وقبل منه ورد عليه أهله وقال :

— انطلق فليبلغنى عنك خير .

وخلى عن القوم فذهبوا ، وقسم أبو بكر فى الناس الخمس واقتسم الجيش الأربعة الأخماس ، وكتب أبو بكر إلى المهاجـر يخيره اليمن أو حضر موت فاختار اليمن . فكانت اليمن على أميرين فيروز والمهاجر ، وكانت حضر موت على أميرين عبيدة بن سعد على كندة والسكاسك وزياد بن لبيد على حضر موت .

وانصرف معاذ بن جبل من اليمن إلى المدينة ، وولى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب القضاءَ ، فكان على القضاء أيام خلافته كلها ، وأمر عبد الرحمن بن عوف على الموسم فخرج ليحج بالناس .

٢١

كان أبو العاص بن الربيع مسجى فى فراشه يستشعر أنه يعيش فى ضباب ، لا هو فى دنيا الأحياء ولا هو فى دار البقاء ، إنه يرى الذين التفوا من حوله ، ويرى فى نفس الوقت الأحبة الذين ذهبوا . لا فرق عنده بين ابنته أمامة التى تجرى دموعها على خديها ، والحسن والحسين اللذين يرنوان إليه فى أسى ، وعلىّ بن أبى طالب الذى مال عليه يسأله فى رقة كيف أصبح ، وبين زوجه زينب التى كانت صورتها تملأ كل نفسه ، وخالته خديجة ، ورسول الله ـ ﷺ .

اختلط الماضى بالحاضر والأحياء بالأموات والحياة بالفناء ، ورن فى وجدانه صوت فاطمة الزهراء وهى توصى علىّ بن أبى طالب وهى تجود بأنفاسها أن يتزوج أمامة ابنة الحبيبة زينب بعد ذهابها . إن ذلك الصوت يمده بقوة فيفتح عينيه الذابلتين ويلقى نظرة على أمامة وعلىّ بن أبى طالب ، وتنبعث فيه أمنية أن يتزوج على من أمامة قبل أن يموت ليستريح . وسرعان ما تتلاشى الفكرة لتنبعث ذكرى . إنه يرى نفسه وهو ذاهب مع أمه هالة إلى بيت خالته خديجة ليخطب زينب فيحس فى أعماقه راحة ، وإن كانت أنفاسه مضطربة وحركته واهنة ، حتى أنه ليبذل جهدا ليرفع جفنيه المسبلين على ناظريه .

ووقع نظره على القلادة التى كانت فى جيد أمامة ، إنها قلادة خديجة

قدمتها إلى زينب ليلة زفافها . وطافت به خاطرة فقطب جبينه ، إن أمامة ليست لها أم لتقدم إليها القلادة الخالدة ، وغص حلقه لما خطر على قلبه أنه سيذهب قبل أن يرى زواجها .

وهيجت القلادة ذكرياته فرأى يوم بدر ، يوم وقع أسيرا فى أيدى المسلمين . إنه لا ينسى ذلك اليوم ، فلو أنه قتل كما قتل سادات قريش لمات على الكفر ، ولكن الله أكرمه حتى دخل فى دينه وعرف الهدى وطريق الحق .

وسرى فى ضميره صوت حكيم بن حزام وهو يحلف : والذى نجانى يوم بدر . إنه قسم عظيم لا يحس جلاله إلا من نجى الله من سيوف المسلمين ، فمن قتل بسيوفهم فقد أخزاه الله . إنه لن يستطيع أن يخر ساجدا شكرا لله ، ولكن كل حواسه كانت فى سجود ، وكل خوالجه كانت فى تسبيح .

وعادت القلادة لتحتل عقله ؛ إن زينب أرسلت فى فدائه قلادة أمها ، فلما رآها رسول الله — ﷺ — رق لها رقة شديدة ، فالرجل العظيم لم ينس حبه الكبير فقال فى تأثر عميق :

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا .

وطفا على سطح ذهنه ذكريات ذلك اليوم الذى مشى إليه فيه سادات قريش وقالوا :

— فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت .

كانت زينب قد آمنت برسالة أبيها وصدقته وشهدت أن ما جاء به الحق ، وثبت هو على شركه . وعلى الرغم من اختلافهما فى الدين كان قد

شغف بها حبا فقال :

ـــ لا والله ، إنى لا أفارق صاحبتى ولا أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

إنه يحبها حبا جما، وإن أقسى سنى حياته تلك السنوات الست التى فرق فيها الإسلام بينه وبينها ، وتلك السنوات القليلة التى انقضت مذ قبرها بالبقيع إلى ذلك اليوم الذى يعانى فيه سكرات الموت . وإن مما يخفف عنه كربه أنه لاحق بها ، نازل إلى جوارها .

وفتح عينيه فى جهد فوقعتا على الحسن والحسين فتذكر ابنه عليا ، وتذكر كيف أن جده العظيم كان يردفه خلفه يوم أن دخل مكة وكيف كان يحبه . فلو لم يختطفه الموت لكان الساعة إلى جوار ابنى خالته قائما عليه ، ولكان أبا لنسل رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه . إنه يشعر بأسى لانقطاع نسل رسول الله ـــ ﷺ ـــ منه بموت على .

وقفزت إلى ذاكرته أحداث ذلك اليوم الذى طرحت فيه زينب ما فى بطنها . إنه يرى نفسه عائدا إلى مكة بعد أن أطلقه رسول الله عليه السلام من الأسر ، وقد دخل على زينب الحبيبة وأمرها ونياط قلبه تتمزق أن تلحق بأبيها . إنه يخلى سبيلها لأنه وعد أباها العظيم ذلك ، فخرجت تتجهز للحوق بأبيها فلقيتها هند بنت عتبة فقالت :

ـــ يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟

ـــ ما أردت ذلك .

ـــ أى ابنة عمى لا تفعلى ، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك أو بمال فى سفرك أو بمال تتبلغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك فلا

تستحى منى ، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال .

إنها ما قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكن زينب خافتها فأنكرت أن تكون تريد ذلك . وكانت هند آكلة كبد حمزة أرق من زوجها أبى سفيان بن حرب ، فأبو سفيان قد خرج فى أثرها وهى فى هودج لها حتى أدركها بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد فروعها هبار بالرمح وهى فى هودجها وكانت حاملا ، ونخس الراحلة فسقطت زينب على صخرة فهلك جنينها ، ولم تزل تهريق الدماء حتى ماتت .

إنه عزم على أن يثأر من هبار ، وإن رسول الله — ﷺ — كان يوصى سراياه إذا ما عثروا على هبار أن يقطعوا يديه ورجليه ، ولكن هبارا جاء إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بالمدينة بعد فتح مكة وأعلن إسلامه ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— الإسلام يجب ما قبله .

وحقن هبار بالإسلام دمه .

وتذكر أبو العاص أروع حدث فى حياته ، الحدث الذى قاده إلى طريق النور . إنه قبيل فتح مكة خرج تاجرا إلى الشام بمال له وأموال لرجل من قريش ، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلا لقيته سرية لرسول الله — ﷺ — كان أميرها أسامة بن زيد ، فأصابوا ما معه وفر هاربا يترقب . وفى جنح الليل أقبل حتى دخل على زينب فاستجار بها فأجارته ، فلما خرج رسول الله — ﷺ — إلى الصبح فكبر وكبر الناس معه صرخت زينب من سقيفة النساء :

— إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

فلما سلم رسول الله — ﷺ — من الصلاة ، أقبل على الناس فقال :

— أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

— نعم .

— أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم .

ثم انصرف رسول الله — ﷺ — فدخل على ابنته فقال :

— أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلصن إليك ، فإنك لا تحلين له .

وبعث رسول الله — ﷺ — إلى السرية الذين أصابوا ماله فقال لهم :

— إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به .

— يا رسول الله بل نرده عليه .

فردوه عليه . إنه لينفعل وهو مسجى فى فراشه للذكرى ، وإن صوته ليسرى فى عين ذاته بشهادة الحق التى نطقها فى تأثر عميق فى ذلك اليوم ، وإن أصوات الناس وصوته يرن فى وجدانه أقوى مما كان ساعة أن دار بينه وبينهم الحوار الأخاذ :

— هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال؟ فإنها أموال المشركين .

— بئس ما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى .

إنه انطلق إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ، ثم قال :

— يا معشر قريش هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟

— لا. فجزاك الله خيرا ! فقد وجدناك وفيا كريما .

— فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .

أكرمه الله بأن أسلم قبل الفتح ، فكان من المهاجرين و لم يكن من الطلقاء . ورفت على شفتيه ابتسامة كانت تتسع ، فهو يرى وإن أسبل عينيه رسول الله — ﷺ — وخالته خديجة أم المؤمنين وزينب الحبيبة قد أتوا ليصحبوه فى رحلة الخلود ، فشهق شهقة لم يلتقط بعدها نفسا ، فالرجل الذى زكاه رسول الله — ﷺ — قبل إسلامه وبعده قد أسلم الروح .

٢٢

أقبل رجل على خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ ، وراح يقص عليه ما فعله العلاء بن الحضرمى فى مقاتلة المرتدين فى البحرين ، وكيف انضم إليه المثنى بن حارثة الشيبانى ، وكيف سار المثنى شمالا حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وأنه بلغ مصب دجلة والفرات ، فقال أبو بكر :

ـ ومن هو المثنى هذا ؟

ـ هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيبانى !

ـ ومن أى قبيلة هو ؟

ـ من بنى بكر بن وائل .

وراح أبو بكر يتأمل ما سمع ؛ إن معنى سير المثنى حتى مصب الفرات مناجزة الفرس . ومن يدرى لعل فى ذلك خيرا للإسلام ، ولعل فى ذلك انصراف المسلمين عما خلفته حروب الردة فى النفوس من أحقاد وما نشأ من ثارات ، والقضاء على ثورة الناس بسلطان المدينة .

وقدم المثنى بن حارثة إلى المدينة وقابل خليفة رسول الله ، وراح يقص عليه أخبار فارس وضعفها ويهون عليه أمر فتح العراق . وجعل يروى ما تلاقيه قبائل العرب التى نزلت بدلتا الدجلة والفرات من ظلم جور الدهاقين ، وأن ذلك الظلم يجعلهم كمرجل يغلى بالمقت لهم . فإذا ما

هاجم المسلمون العراق ثار العرب النازلون به للتخلص من جور الدهاقين وما هم فيه من عار ، ثم قال المثنى :

ــ أمرنى على من قبلى من قومى أقاتل من يليني من أهل فارس ، وأكفك ناحيتى .

ــ سأشاور أصحابى فى الأمر .

وأرسل أبو بكر إلى عمر وعلى وعثمان وسعد والزبير وكبار الصحابة يدعوهم إليه ، فرأوا جميعا ضرورة استشارة خالد فى الأمر . وكان خالد باليمامة قد فرغ من أمرها فبعث أبو بكر إليه رسولا فجاء على عجل ، ولما عرف ما جاء المثنى فيه رأى ضرورة أن يعد الخليفة للحرب عدتها ، وأن يعتبر ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح يلقى إليه المسلمون بأجنادهم . فأمر أبو بكر المثنى على من قبله ، وعاد خالد إلى اليمامة ، فراح المثنى يحارب الفرس يناجزهم على العراق ، وجعل الفرس يجمعون الجموع . فخشى أبو بكر أن ينتصروا على المثنى فكتب إلى خالد أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهى الأبلة ، وتألف الناس وادعهم إلى الله عز وجل ، فإن أجابوا وإلا خذ منهم الجزية ، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم .

وأمره أن لا يكره أحدا على السير معه ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وإن كان عاد إليه ، وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين .

وشرع أبو بكر فى تجهيز السرايا والبعوث والجيوش أمدادا لخالد . وانطلق خالد حتى نزل النباح والمثنى بن حارثة معسكر بخَفَّان ، فكتب إليه خالد ابن الوليد ليأتيه ، وبعث إليه بكتاب من أبى بكر يأمره فيه بطاعته ، فذهب المثنى إلى خالد سامعا مطيعا .

وراح خالد يتذكر ما أوصاه به الصديق حين وجهه لقتال أهل الردة : سر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا عن الحملة ، فإنى لا آمن عليك الجولة . واستظهر بالزاد وسر بالأدلاَّء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة ، وأقل من الكلام فإنما لك ما وعى عنك ، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله فى سرائرهم .

كان أبو بكر جنديا وقد مارس الحرب على عهد رسول الله — ﷺ — كانت نصائحه نصيحة مجرب حكيم ، فكان خالد يتذكر وصاياه كلما أقدم على معركة ، فقدم الأدلاَّء وسار ليتألف أهل فارس ومن كان فى ملكهم من الأمم ، فمضى حتى نزل بقريات من السواد يقال لها بانقيا وباروسما ، فدارت معركة بين الفريقين . فلما قتل من أهل بانقيا وباروسما خلق كثير عرضوا على خالد الصلح ، فقبل خالد منهم الجزية ، وكان الذى صالحه عليها ابن صلوبا وذلك فى سنة اثنتى عشرة ، فكتب لهم كتابا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادى ونزله بشاطئ الفرات . إنك آمن بأمان الله — إذ حقن دمه بإعطاء الجزية — وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان فى قريتيك بانقيا وباروسما ألف درهم فقبلتها منك ، ورضى من معى من المسلمين بها منك ، ولك ذمة الله وذمة محمد — ﷺ — وذمة المسلمين على ذلك ».

وصالح خالد أهل الحيرة على أن يكونوا له عيونا ففعلوا ، فقد كانوا يقاسون أشد أنواع الاضطهاد لما كانوا فى حكم الفرس . وكتب خالد بن الوليد إلى أهل المدائن : « من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس ، سلام

على من اتبع الهدى . أما بعد فالحمد لله الذى فض خدمتكم وسلب ملككم ووهن كيدكم ، وإنه من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ما لنا وعليه ما علينا . أما بعد فإذا جاءكم كتابى فابعثوا إلى بالرُّهُن واعتقدوا منى الذمة ، وإلا فوالذى لا إله غيره لأبعثن إليكم قوما يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

كان أبو بكر قد كتب إلى خالد وهو باليمامة ألا يكره أحدا على المسير معه ، فقفل أهل المدينة وما حولها إلى دورهم فاستمد خالد أبا بكر فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمى ، فقال الناس لأبى بكر :

— أتمد رجلا قد ارفض عنه جنوده برجل !؟

— لا يهزم جيش فيهم مثل هذا .

وانطلق القعقاع بن عمرو ليشد أزر خالد . وبلغ كتاب خالد هرمز صاحب الثغر فدهش من جرأة القائد العربى ، إن هرمز يحارب العرب فى البر والهند فى البحر ، وإنه ينزل الرعب فى قلوب العرب فكل العرب عليه مغيظ . وقد كانوا ضربوه مثلا فى الخبث حتى قالوا أخبث من هرمز ، وأكفر من هرمز .

بعث هرمز بكتاب خالد إلى شيرى بن كسرى وأردشير بن شيرى ، وجمع هرمز وهو نائب كسرى جموعا كثيرة وسار بهم إلى كاظمة وعلى مجنبتيه قباذ وأنوشجان وهما من بيت الملك . واقترن الجند فى السلاسل وكان أناس يعارضون ذلك ، فقال المعارضون للمؤيدين :

— قيدتم أنفسكم لعدوكم فلا تفعلوا ، إن هذا طائر سوء .

— أما أنتم فيحدثوننا أنكم تريدون الهرب .

وقدم خالد بمن معه من الجيش وهرمز فى ثمانية عشر ألفا ، فنزل تجاههم

على غير ماء ، فشكى أصحابه ذلك فقال :

— جالدوهم حتى تجلوهم عن الماء ، فإن الله جاعل الماء لأصبر الطائفتين .

فلما اشتد بالمسلمين المنزل وهم ركبان على خيولهم ، بعث الله سحابة فأمطرتهم حتى صار لهم غدران من ماء ، فقوى المسلمون بذلك وفرحوا فرحا شديدا . ورأى هرمز أن فى خالد يكمن الخطر ، فجمع أصحابه وراح يخطط معهم للغدر بقائد المسلمين ، فلما كان الغد خرج هرمز يخطر فى ثيابه المزركشة وعلى رأسه قلنسوة بمائه ألف تتألق فيها الجواهر . فوقف بين الصفين ودعا خالد للمبارزة وكان واثقا من غدر فرسانه بخالد .

ونزل خالد ومشى إليه فالتقيا فاختلفا ضربتين ، واحتضنه خالد ، وحملت حامية هرمز وغدرت وانقضوا على خالد ، فما شغله ذلك عن قتل هرمز . ورأى القعقاع خيانة أصحاب هرمز فحمل عليهم ، فلما انتهى خالد من خصمه انضم إلى القعقاع وراح يفتك بالخونة ، والمسلمون يكبرون فتنخلع قلوب الغادرين . وانجلى القتال عن قتل كل الخونة الذين واطئوا هرمز على الخيانة .

وراح خالد يسير فى الصفوف يحرض الناس على القتال ويقول :

— يا أهل الإسلام ، إن الصبر عز ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر النصر .

وصبر المسلمون .

وانهزم أهل فارس فى وقعة ذات السلاسل ، وأفلت قباذ وأنوشجان . وكانت قلنسوة هرمز فى الأنفال ؛ إنها مفصصة بالجوهر ، وإن الناس لينظرون إليها فى عجب . ونادى منادى خالد بالرحيل ، وسار الناس

واتبعت خالد الأثقال فنزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة ، وبعث خالد بالفتح وما بقى من الأخماس وقلنسوة هرمز وفيل أخذوه من المعركة ، وقدم زِرّ بن كليب إلى المدينة بالفيل مع الأخماس فيطيف به المدينة ليراه الناس ، فجعل ضعيفات النساء يقلن :

ــ أمن خلق الله هذا أم شيء مصنوع ؟

فرد الصديق الفيل مع زر ، ونفل خالدا سلب هرمز ، وكانت قلنسوته بمائة ألف .

وبعث خالد المثنى بن حارثة الشيبانى وأخاه المعنى فى آثار القوم ، وخرج المثنى حتى انتهى إلى نهر وكان عنده حصن نزلت فيه امرأة حاكم المنطقة ، فخلف المعنى بن حارثة عليه فحاصر المرأة فى قصرها . ومضى المثنى إلى الرجل فحاصره ثم أرغمه على أن ينزل من حصنه هو ورجاله ، فقتلهم واستفاء أموالهم . ولما بلغ ذلك المرأة صالحت المثنى وأسلمت فتزوجها المعنى . وترك خالد وأمراؤه الفلاحين فى أراضيهم تنفيذا لوصية أبى بكر فيهم ، وسبى أولاد المقاتلة الذين كانوا يخدمون الأعاجم .

وقد كان هرمز كتب إلى أردشير وشيرى أن خالد بن الوليد قد سار إليه من اليمامة ، وأنه بعث إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام أو الحرب ، فأمده كسرى بقارن بن فريانس ، فخرج قارن من المدائن مددا لهرمز . حتى إذا انتهى إلى المذار بلغته الهزيمة ، وانتهى إليه فلول الذين هاموا على وجوههم فرارا من سيوف المسلمين ، فراح يحرض بعضهم بعضا لقتال جيش المسلمين ، وقال فلال الأهواز وفارس لفلال السواد والجبل :

ــ إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبدا ، فاجتمعوا على العود مرة واحدة ، فهذا مدد الملك وهذا قارن ، لعل الله يديلنا ويشفينا من عدونا وندرك

بعض ما أصابوا منا .

واجتمع فلاّل الأهواز وفارس ، وفلال السواد والجبل وانضموا إلى قارن ، وهم يعتزمون أن يخوضوا معركة تشفى غليل صدورهم . وعسكر قارن بالمذار واستعمل على مجنبتيه قباذ وأنوشجان .

وعلم المثنى والمعنى بالخبر فأرسلا إلى خالد وهو يقسم الفىء على من أفاء الله عليه ، ونفّل من الخمس ما شاء الله ، وبعث ببقيته وبالفتح إلى أبى بكر ، وبالخبر عن القوم وباجتماعهم مع الوليد بن عقبة .

وخرج خالد سائرا حتى ينزل المذار على قارن فى جموعه ، فالتقوا وخالد على تعبئته فاقتتلوا والصدور تغلى بالحنق والحفيظة ، ووصية أبى بكر ترن فى وجدان خالد : فرّ من الشرف يتبعك الشرف واحرص على الموت توهب لك الحياة .

وخرج قارن يدعو للبراز فبرز له خالد ومعقل بن الأعشى بن النباشى فابتدراه ، فسبقه إليه معقل فقتله ، وقتل عاصم بن عمرو الأنوشجان ، وقتل عدى بن حاتم قباذ ، فدبت الهزيمة فى صفوف جيش قارن ، وراحت سيوف المسلمين تطعن القلوب وتطيح بالرءوس ، فقتل فى ليلة المذار ثلاثون ألفا سوى من غرق . وفروا عراة وأشباه عراة إلى السفن ، ومنعت المياه المسلمين من طلبهم ، ولولا المياه لأوتى على آخرهم .

وأقام خالد بالمذار وسلم الأسلاب لمن سلبها بالغة ما بلغت ، وقسم الفىء ونفّل من الأخماس أهل البلاد ، وبعث إلى أبى بكر ببقية الأخماس مع سعيد بن النعمان . وراح يسبى عيالات المقاتلة ومن أعانهم ، وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج وأقام لعدوه يتحسس الأخبار .

نزل القرآن على رسول الله ــ ﷺ ــ مفرقا . ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ (١) وأول ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ (٢) ، أنزل عليه وهو فى غار حراء يتعبد فى شهر رمضان . واستمر نزول الوحى فى مكة والمدينة قرابة عشرين عاما ، وكان يكتب الوحى فى مكة عبد الله بن أبى السرح وهو أول من كتب لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه من قريش ، ثم ارتد وصار يقول :

ــ كنت أصرف محمدا حيث يريد ، كان يملى علىّ : عزيز حكيم . فأقول : أو عليم حكيم فيقول : نعم كل صواب .

ونزل فيه : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ (٣) . ثم لما كان يوم الفتح وأمر ــ ﷺ ــ بقتله فر إلى عثمان بن عفان لأنه كان أخاه من الرضاعة أرضعت أمه عثمان ، فغيبه عثمان ثم جاء به بعد ما اطمأن الناس واستأمن له رسول الله ــ ﷺ ، فصمت رسول الله ﷺ ــ طويلا ثم قال :

---

(١) الإسراء ١٠٦ (٢) العلق ١

(٣) الأنعام ٢١

— نعم .

فلما انصرف عثمان قال النبى — ﷺ — لمن حوله ، وكان بعضهم قد أقسم أن يقتل ابن أبى السرح إن رآه :

— ما صمت عنه إلا لتقتلوه .

ثم أسلم وحسن إسلامه ، ودعا الله أن يختم عمره بالصلاة فمات ساجدا فى صلاة الصبح .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وعامر بن فهيرة يكتبون لرسول الله — ﷺ — فى مكة وفى المدينة ، وكان أبىّ بن كعب أول من كتب له — ﷺ — من الأنصار بالمدينة . كان فى أغلب أحواله يكتب الوحى ، وكان — ﷺ — يقول :

— خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبىّ بن كعب .

وكان زيد بن ثابت ملازما للكتابة بين يدى رسول الله — ﷺ — فى الوحى وغيره . وكان المغيرة بن شعبة ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمى ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبىّ بن سلول — وقد استظهر القرآن حفظا رجال من المهاجرين ومن الأنصار . وقد حفظه على عهد النبى — ﷺ — أربعة كلهم من الأنصار : أبىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد أحد عمومة أنس بن مالك ، وزيد بن ثابت .

وكان جبريل إذا نزل بآية أو سورة يشير إلى مكانها بالنسبة للآيات والسور التى نزلت قبلها ، فكان ترتيب الآيات والسور من لدن العزيز الحكيم .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ على جبريل القرآن مرة فى رمضان كل عام ، وقد قرأه عليه مرتين فى شهر رمضان من السنة التى توفى فيها ـ صلوات الله وسلامه عليه . ولحق عليه السلام بالرفيق الأعلى والقرآن محفوظ فى صدور القراء ومكتوب فى الرقاع والأكتاف والعُسُب .

وقتل كثير من الحفاظ فى اليمامة فراح عمر يفكر فى مصير القرآن لو قتل القراء فى مواطن أخرى ، فشرح الله صدره لجمع القرآن . فانطلق إلى أبى بكر خليفة الرسول وهو بمجلسه من المسجد فقال له :

ـ إن القتل قد استحر بقراء القرآن يوم اليمامة ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها فيذهب قرآن كثير ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن .

ولاحت الدهشة فى وجه الصديق فعمر يطلب منه أن يفعل شيئا لم يفعله رسول الله ـ ﷺ ، فقال فى إنكار :

ـ كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ـ ﷺ ؟

ودار حوار طويل بين الرجلين انتهى بأن اقتنع الصديق بوجاهة الفكرة ، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأقبل على خليفة رسول الله وعنده عمر ، فقال أبو بكر لزيد :

ـ إن عمر أتانى وقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى لأخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعوه ـ وإنى لأرى أن يجمع القرآن . فقلت له : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ـ ﷺ ؟

فقال : هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدرى فرأيت الذى رأى عمر .

وكان عمر عنده جالسا لا يتكلم ، فأقبل أبو بكر على زيد بن ثابت وقال :

— إنك شاب عاقل ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله فتتبع القرآن واجمعه .

إن زيد بن ثابت يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ولكن لم يكن ذلك وحده يكفى . فوالله لو أن أبا بكر كلفه نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليه مما أمره به من جمع القرآن .

وراح زيد بن ثابت يتتبع القرآن لا يعتمد على حفظه ، بل كان يجمعه من الرقاع والأكتاف [1] والعُسُب وصدور الرجال ، حتى وجد من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم يجدهما مع غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ [2] . كانت هاتان الآيتان آخر ما نزل على رسول الله — ﷺ ، وقد مات بعد نزولهما بتسعة أيام ، فكان خزيمة بن ثابت قد دونهما قبل أن يشتغل الناس بوفاة الرسول — ﷺ .

وجمع زيد بن ثابت القرآن كما أنزل فى صحف ، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه :

— إن أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر ، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين لوحين .

---

(١) جمع كتف وهى اللوحة من عظم الكتف كان العرب ينظفونها ويجففونها ويكتبون عليها كتاباتهم .

(٢) التوبة ١٢٨ — ١٢٩

٢٤

وقع الخبر بأردشير بمصاب قارن وأهل المذار ؛ فأرسل لأندر زغر — وكان فارسيا من مولدى السواد ولم يكن ممن ولد فى المدائن ولا نشأ بها —، وأرسل بهمن جاذويه فى أثره فى جيش ، وأمره أن يعبر طريق الأندر زغر . وكان الأندر زغر قبل ذلك على فرج خراسان ، فخرج سائرا من المدائن حتى أتى كسكر ، ثم جازها إلى الولجة . وخرج بهمن جاذويه فى أثره وأخذ غير طريقه ، فسلك وسط السواد . وقد حشر إلى الأندر زغر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين ، فعسكروا إلى جنب عسكره بالولجة . فلما اجتمع له ما أراد واستتب أعجبه، ما هو فيه وامتلأ غرورا ، فأجمع السير إلى خالد .

وبلغ خالد خبر الأندر زغر ونزوله الولجةِ فنادى بالرحيل ، وخلَّف سويد بن مقرن وأمره بلزوم الحفير ، وتقدم إلى من خلف فى أسفل دجلة وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة وترك الاغترار . وخرج سائرا فى جنوده نحو الولجة حتى ينزل على الأندر زغر وجنوده ومن انضم إليهم .

ووضع خالد لأعدائه كميناً فى ناحيتين عليهما يسر بن أبى درهم وسعيد بن مرة العجلى ، ونزل خالد على الأندر زغر بالولجة ، فاقتتلوا بها قتالا شديدا حتى ظن الفريقان أن الصبر قد أفرغ . وبارز خالد رجلا من أهل فارس يعدل بألف رجل فقتله ، فلما فرغ اتكأ عليه ودعا

بغدائه. وأصاب فى أناس من بكر بن وائل ابنا لجابر بن بجير وابنا لعبد الأسود .

واستبطأ خالد كمينه فخرج من الكمين فى وجهين ، فانهزمت صفوف الأعاجم وولوا فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه . ومضى الأندر زغر فى هزيمته فمات عطشا .

وقام خالد فى الناس خطيبا يرغبهم فى بلاذ العجم ويزهدهم فى بلاد العرب ، وقال :

ــ ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب ؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به .

وسار خالد فى الفلاحين على سيرته فلم يقتلهم ، وسبى ذرارى المقاتلة ومن أعانهم ، ودعا أهل الأرض إلى الجزية والذمة فقبلوا ذلك .

ولما أصاب خالد يوم الولجة من أصاب من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس ، غضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا هم الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى أليس وعليهم عبد الأسود العجلى . إنه يتحرق شوقا للثأر لابنه الذى قتله خالد .

وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه أن سر حتى تقدم أليس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب ، فقدم بهمن جاذويه جابان وأمره بالحث وقال :

ــ كفكف نفسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن

يعجلوك .

ومضى جابان حتى أتى أليس فنزل بها ، واجتمعت إليه المسالح التى كانت بإزاء العرب ، وعبد الأسود فى نصارى العرب من بنى عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة . وساند جابر بن بجير عبد الأسود فقد قتل خالد ابنه .

وبلغ خالدا تجمع عبد الأسود وجابر ومن انضم إليهما ، فخرج لهم ولا يشعر بدنوه جابان ، وليس مع خالد إلا من اجتمع له من عرب الضاحية ونصاراهم ، فأقبل فلما طلع على جابان بأليس قالت الأعاجم لجابان :

— أنعاجلهم أم نغدى الناس ولا نريهم أنا نحفل بهم ثم نقاتلهم بعد الفراغ ؟

— إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا ، ولكن ظنى بهم أن سيعجلوكم ويعاجلونكم عن الطعام .

فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطعمة وتداعوا إليها وتوافوا إليها . فلما انتهى خالد إليهم وقف وأمر بحط الأثقال ، فلما وضعت توجه إليهم وجعل خلفه حماة يحمون ظهره ، ثم برز أمام الصف فنادى :

— أين أبجر ؟ أين عبد الأسود ؟ أين مالك بن قيس ؟

فلم يخرج له إلا مالك ، فقال له خالد :

— يا بن الخبيثة ما جرأك علىّ من بينهم ؟ وليس فيك وفاء .

فضربه فقتله ، وأجهض الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوا فقال جابان :

— ألم أقل لكم يا قوم ؟ أما والله ما دخلتنى من رئيس وحشة قط حتى

كان اليوم .

فقالوا حيث لم يقدروا على الأكل وخالد أمامهم كمارد جبار :

ـــ ندعها حتى نفرغ منهم ونعود إليها .

كانوا يستخفون بالمسلمين وقد ظنوا أنها جولة ثم يعودون إلى أبسطتهم وأطعمتهم ، فقال جابان :

ـــ وأيضا أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون ، فالآن فأطيعونى ، سُمُّوها فإن كانت لكم فأهون هالك ، وإن كانت عليكم كنتم قد صنعتم شيئا وأبليتم عذرا .

أشار عليهم أن يضعوا السم فى أطعمتهم فإن انتصروا فما أهون الطعام الذى هلك ، وإن هزموا فتك السم بأعدائهم ، فأبوا . فجعل جابان على مجنبتيه عبد الأسود وأبجر ، والتحم الجيشان ودار قتال رهيب بين الجانبين ، المشركون صابرون يزيدهم استبسالا من يتوقعون من قدوم بهمن جاذويه ، والمسلمون يبذلون الجهد ليقضوا على أعدائهم قبل أن يأتيهم المدد . وراح خالد يصول ويجول فى صفوف أعدائه ويقول :

ـــ اللهم إن لك علىّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحدا قدرنا عليه ، حتى أجرى نهرهم بدمائهم .

وحمل المسلمون على المشركين حملة صادقة فانكشفوا ، وراحت السيوف تعمل فى رقابهم ، فأمر خالد مناديه فنادى :

ـــ الأسر الأسر ، لا تقتلوا إلا من امتنع .

فأقبلت الخيول بهم أفواجا مستأسرين يساقون سوقا ، وهزم القوم وأجلوا عن عسكرهم ، ورجع المسلمون من أجلهم ودخلوا عسكر المشركين فوقف خالد على الطعام فقال :

— قد نفلتكموه فهو لكم ، كان رسول الله — ﷺ — إذا أتى على طعام مصنوع نفله .

فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل ، وجعل من لم ير الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول :

— ما هذه الرقاع البيض ؟

وجعل من قد عرفها يجيبهم ويقول لهم مازحا :

— هل سمعتم برقيق العيش ؟

— نعم .

— هو هذا .

فسمي الرقاق . وبعث خالد الخبر مع رجل يدعى جندلا من بني عجل ، فقدم على أبي بكر بالخبر ، وبفتح أليس ، وبقدر الفيء ، وبعدة السبي ، وبما حصل من الأخماس ، وبأهل البلاء من الناس . وبلغت قتلى المشركين سبعين ألفا جلهم من أمغيشيا . فلما فرغ خالد من وقعة أليس نهض فأتى أمغيشيا ففر أهلها وجلوا عن الديار وتفرقوا فى السواد ، فأفاءها الله على المسلمين بغير حرب ، فأمر خالد بهدم أمغيشيا ، وأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله قط ، فقد بلغ سهم الفارس ألفا وخمسمائة سوى ما نفله خالد أهل البلاء ، وجاء الخبر إلى أبي بكر فقام فى الناس فقال :

— يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله[1] أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد .

ولما أخرب خالد أمغيشيا علم الأزاذبة أنه غير متروك ، وكان مرزبان

---

(١) خراذيل : عرين .

الحيرة فتهيأ لحرب خالد ، وقدم ابنه ثم خرج فى أثره حتى عسكر خارجا من الحيرة ، وأمر ابنه بسد الفرات . ولما استقل خالد من أمغيشيا وحمل الرجال فى السفن مع الأنفال والأثقال ، فاذا بخالد يفاجأ بأن السفن قد جنحت ، فارتاع المسلمون لذلك فقال الملاحون :

ـــ إن أهل فارس فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ، فلا يأتينا الماء إلا بسد الأنهار .

وفكر خالد فرأى أن ينطلق إلى ابن الآزاذبة وأن يعيد الفرات إلى مجراه . فخرج فى فرسانه وفاجأ الفرس وهم آمنون لا يفكرون فى أن يغير خالد عليهم ، فأعمل فيهم السيوف وقتل ابن الآزاذبة ، ثم سار من فوره وسبق الأخبار إلى ابن الآزاذبة ، وهجم على الفرس فقتل فيهم مقتلة عظيمة ، وفر الآزاذبة ، وفجر خالد الفرات وسد الأنهار وسلك الماء سبيله .

وقصد خالد وجنده إلى الحيرة ، فقدم الخورنق وقد قطع الآزاذبة الفرات هاربا من غير قتال ، وإنما حداه على الهرب أن وصل إليه خبر موت أردشير ومصاب ابنه .

وتتام أصحاب خالد بالخورنق ، فخرج من عسكره حتى عسكر بموضع عسكر الآزاذبة بين الغرِّيين والقصر الأبيض ، وأهـل الحيرة متحصنون فى القصور . فأدخل خالد الحيرة الخيل من عسكره ، وأمر بكل قصر رجلا من قواده يحاصر أهله ويقاتلهم ، فكان ضرار بن الأزور محاصرا القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائى ، وكان ضرار بن الخطاب محاصرا قصر القدسيين وفيه عدى بن عدى ، وكان ضرار بن مقرن المزنى محاصرا قصر بنى مازن وفيه ابن أكال ، وكان المثنى محاصرا قصر ابن

بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وكان خالد قد عهد إلى أمرائه أن يبدءوا بالدعاء ، فإن قبلوا قبلوا منهم وإن أبوا أن يؤجلهم يوما وقال :

— لا تمكنوا عدوكم من آذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ، ولكن ناجزوهم ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم .

كان ضرار بن الأزور على قتال أهل القصر الأبيض ، فأصبحوا وهم مشرفون فدعاهم إلى إحدى ثلاث : الإسلام أو الجزية أو المنابذة . وأطلقوا سهام الخوف فقال ضرار لرجاله :

— تنحوا لا ينالكم الرمى حتى ننظر فى الذى هتفوا به .

فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال متعلقى المخالى يرمون المسلمين ، فقال ضرار لرجاله :

— ارشقوهم .

فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل فأعروا رءوس الحيطان . ثم أغاروا عليهم وصبح أمير كل قوم أصحابه بمثل ذلك فافتتحوا الدور والديرات وأكثروا القتل . فنادى القسيسون والرهبان :

— يا أهل القصور ! ما يقتلنا غيركم .

فنادى أهل القصور :

— يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالدا .

فخرج إياس بن قبيصة وأخوه إلى ضرار بن الأزور ، وخرج عدى بن عدى وزيد بن عدى إلى ضرار بن الخطاب ، وخرج عمرو بن عبد المسيح إلى ضرار بن مقرن ، وابن آكال إلى المثنى بن حارثة ، فأرسلوهم إلى خالد وهم على مواقفهم ، مع كل رجل منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن .

خلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عدى وقال :

ـــ ويحكم ! ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟

فقال له عدى :

ـــ بل عرب عاربة وأخرى متعربة .

ـــ لو كنتم كما تقولون ، لم تحادوناوتكرهوا أمرنا ؟

ـــ ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان بالعربية .

ـــ صدقت .. اختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا فى ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن ناهضتم وهاجرتم وإن أقمتم فى ديار كم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة .

ـــ بل نعطيك الجزية .

ـــ تبا لكم ! ويحكم إن الكفر فلاة مضلة ، فأحمق العرب من سلكها .

ودخل عمرو بن عبد المسيح على خالد ، فقال له خالد :

ـــ من أين أثرك ؟

ـــ من ظهر أبى .

ـــ من أين خرجت ؟

ـــ من بطن أمى .

ـــ ويحك على أى شىء أنت ؟

ـــ على الأرض .

— ويلك ! فى أى شىء أنت ؟

— فى ثيابى .

— ويحك ، تعقل ؟

— نعم وأقيد .

— إنما أسألك .

— وأنا أجيبك .

— أسلم أنت أم حرب ؟

— بل سلم .

— فما هذه الحصون التى أرى ؟

— بنيناها للسفيه نحبسه حتى يجىء الحليم فينهاه .

وكتب خالد بينه وبينهم كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمرا ابنى عدى ، وعمرو بن عبد المسيح ، وإياس بن قبيصة ، وحيرم بن أكال ، عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيا ، تاركا لها وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة » .

ولما فتح خالد الحيرة صلى صلاة الفتح ثمانى ركعات ، لا يسلم فيهن ، ثم انصرف وقال :

— لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع فى يدى تسعة أسياف ، وما لقيت قوما كقوم لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوما كأهل أليس .

٢٥

كان أهل فارس مختلفين بالمدائن لموت أردشير ، فدعا خالد رجلا من أهل الحيرة و كتب معه إلى أهل فارس، وقال للرجل :

ـــ ما اسمك ؟

ـــ مرة .

ـــ خذ الكتاب فأت به أهل فارس لعل الله أن يمر عليهم عيشهم أو يسلموا أو ينيبوا .

وبلغ الرسول المدائن وقدم الكتاب ، فقرأ مرازبة فارس : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس ، أما بعد فأسلموا تسلموا . وإلا فاعتقدوا من الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر ».

كانوا مختلفين فيمن يولونه أمورهم بعد موت أردشير وإن اجتمعت كلمتهم على قتال خالد ، وخرج عمال الخراج يجمعون الخراج ويكتبون للناس : « بسم الله الرحمن الرحيم . براءة لمن كان من كذا و كذا من الجزية التى صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد . وقد قبضت الذى صالحهم عليه خالد ، وخالد والمسلمون لكم يد على من بدل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكففتم . أمانكم أمان ، وصلحكم صلح ، نحن لكم على الوفاء ».

وأقام خالد فى عمله سنة ومنزله الحيرة وأهل فارس مختلفون على من يولونه عليهم ، إنها لسنة كأنها سنة نساء .

وكان أبو بكر قد عهد إلى خالد أن يأتى العراق من أسفل منها ، وإلى عياض بن غنم أن يأتى العراق من فوقها : « وأيكما ما سبق إلى الحيرة فهو أمير على الحيرة، فإن اجتمعتما بالحيرة إن شاء الله وقد قضضتما مسالح ما بين العرب وفارس ، وأمنتم أن يؤتى المسلمون من خلفهم ، فليقم بالحيرة أحدكما وليقتحم الآخر على القوم ، وجالدوهم عما فى أيديهم واستعينوا بالله واتقوه وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم ، ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوهما ، واحذروا ما حذركم الله بترك المعاصى ومعاجلة التوبة ، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة ».

إن خالدا قد نزل الحيرة واستقام له الأمر . وفرق سواد الحيرة على جرير ابن عبد الله وضرار وسويد وغيرهم ؛ أما عياض فإنه كان فى حاجة إلى أن يمد له خالد يده فى قتال أهل دومة الجندل ، وكان خالد كارها لذلك الأمر ، فما دون فتح فارس شيء . وقال خالد للمسلمين :

— لولا ما عهد إلى الخليفة لم أنتقذ عياضا .

وخرج خالد لإغاثة عياض ، واستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو ، فسلك الفلوجة حتى نزل بكربلاء وعلى مسلحتها عاصم بن عمرو، وعلى مقدمة خالد ابن الأقرع بن حابس ، لأن المثنى كان على ثغر من الثغور التى على المدائن يناوش أهل فارس . وأقام خالد على كربلاء أياما ثم انطلق إلى الأنبار .

تحصن أهل الأنبار وخندقوا عليهم وأشرفوا من حصنهم يرقبون مقدم جيش المسلمين ، وكان على تلك الجنود سيرزاذ صاحب ساباط وكان

أعقل أعجمى يومئذ ، وقدم خالد على المقدمة فطاف بالخندق وأنشب القتال وكان قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع به ، وتقدم إلى رماته فأوصاهم وقال :

— إنى أرى أقواما لا علم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها .

وأرسلت السهام إلى العيون ففقئ ألف عين يومئذ ، فسميت تلك الواقعة ذات العين .

وتصايح القوم :

— ذهبت عيون أهل الأنبار .

فقال شيرزاذ :

— ما يقولون ؟

ففسر له فقال :

— آباذ آباذ .

فراسل خالدا فى الصلح على أمر لم يرضه خالد فرد رسله.وأتى خالد أضيق مكان فى الخندق وراح ينحر النحائر ويلقى بها فى الخندق حتى ملأه ، ثم اقتحم الخندق والذبائح جسور المسلمين ، فاجتمع المسلمون والمشركون فى الخندق وفر القوم إلى حصنهم . وأرسل شيرزاذ خالدا فى الصلح على ما أراد ، فقبل منه على أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى كوكبة من الخيل ليس معهم من المتاع والأموال شىء ، فخرج شيرزاذ حتى قدم على بهمن جاذويه ، فأخبره الخبر فلامه فقال :

— عرفت أن المسألة أسلم .

واطمأن خالد بالأنبار . ورأى أهل الأنبار يكتبون بالعربية ويتعلمونها

فسألهم :

ـــ ما أنتم ؟

ـــ قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر .

ـــ ممن تعلمتم الكتابة ؟

ـــ تعلمنا الخط من إياد .

ولما فرغ خالد من الأنبار واستحكمت له ، استخلف على الأنبار الزبرقان بن بدر ، وقصد لعين التمر وبها يومئذ : مهران بن بهرام جوبين فى جمع عظيم من العجم ، وعقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لافهم ، فلما سمعوا بخالد قال عقة لمهران :

ـــ إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدا .

ـــ صدقت ، لعمرى لأنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم كمثلنا فى قتال العجم .

فخدعه واتقى به وقال :

ـــ دونكموهم وإن احتجتم إلينا أعناكم .

فلما مضى نحو خالد قالت له الأعاجم :

ـــ ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب ؟

ـــ دعونى ، فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم ، شرّ لهم . إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفلّ حدكم فاتقيته بهم . فإن كانت لهم على خالد فهى لكم ، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا ، فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون .

فاعترفوا له بفضل الرأى ، فلزم مهران العين ، ونزل عقة لخالد على

الطريق وعلى ميمنته بجير بن فلان أحد بنى عبيد بن سعد بن زهير ، وعلى ميسرته الهزيل بن عمران ، فقدم عليه خالد وهو فى تعبئة جنده فعبأ خالد جنده وقال لمجنبتيه :

— اكفونا ما عنده فإنى حامل .

وحمل خالد على عقة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيرا ، وانهزم صفه من غير قتال فأكثروا فيهم الأسر . وهرب بجير والهذيل واتبعهم المسلمون . ولما جاء الخبر مهران فى جنده وترك الحصن ، ولما انتهى فُلال عقة من العرب والعجم إلى الحصن اقتحموه واعتصموا به .

وأقبل خالد فى الناس حتى ينزل على الحصن ومعه عقة أسير ، وكان من فى الحصن يرجون أن يكون خالد كمن كان يغير عليهم من العرب . فلما رأوه يناجزهم ويحاول أن يقتحم الحصن سألوه الأمان فأبى إلا حكمه ، فنزلوا على حكمه ، فلما فتحوا الحصن دفعهم إلى المسلمين ، وأمر خالد بعقة وكان خفير القوم فضربت عنقه ، وسبى كل من حوى الحصن وغنم ما فيه ، ووجد فى بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل عليهم باب مُغلق ، فكسره عنهم وقال :

— ما أنتم ؟

— رهن .

فقسمهم فى أهل البلاء. منهم أبو زياد مولى ثقيف، ومنهم نصير أبو موسى بن نصير، ومنهم أبو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر، وسيرين أبو محمد بن سيرين، وحُريث وعلاثة، فصار أبو عمرة لشرحبيل بن حسنة، وحريث لرجل من بنى عباد، وعلاثة للمعنى، وحُمران لعثمان. وكان نصير ينسب إلى بنى يشكر، وأبو عمرة إلى بنى مرة.

كان عياض بن غنم قد شن الغارة على أهل دومة الجندل ، و لم يفتح ذلك الحصن الحصين أمرا هينا ، فحاصر عياض القوم ، وما لبث أهل الدومة أن خرجوا من حصنهم وحاصروا جيش المسلمين وقد أخذوا عليه الطريق .

وقدم الوليد بن عقبة من عند خالد بن الوليد على أبى بكر بما بعث إليه من الأخماس ، وكان أمر عياض قد بلغ الصديق فوجه الوليد إلى عياض وأمده به ، فقدم عليه الوليد وعياض محاصرهم وهم محاصروه ، فقال له :

ــ الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف ، ابعث إلى خالد فاستمده .

فبعث عياض إلى خالد بن الوليد فقدم عليه رسوله عقب وقعة العين مستغيثا ، فأحس خالد شيئا من الضيق ، فقد كادت فارس أن تفتح له أبوابها ، ولكنه وجد أن لا بد من إغاثة عياض وجنوده ، فخلف على عين التمر عويم بن الكاهل الأسلمى ، وخرج فى تعبيته التى دخل فيها العين . ولما بلغ أهل دومة سير خالد إليهم بعثوا إلى أحزابهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضَّجاعم ، فأتاهم وديعة فى كلب ، وابن الأيهم فى طوائف من غسان وتنوخ ، وابن الحديرجان فى الضجاعم ، فقاتلوا عياضا وقاتلهم عياض . فلما بلغهم دنو خالد وهم على رئيسين : أكيدر بن عبد الملك

والجودى بن ربيعة ، اختلفوا فقال أكيدر :

ـــ أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائرا منه ، ولا أحد فى حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعونى وصالحوا القوم .

فأبوا عليه فقال :

ـــ لن أمالئكم على حرب خالد ، فشأنكم .

فخرج إلى حيِّه ، وبلغ ذلك خالدا فبعث عاصم بن عمرو معارضا له فأخذه ، فقال :

ـــ إنما تلقيت الأمير خالدا .

فلما أتى به خالدا أمر به فضربت عنقه وأخذ ما كان معه من شىء . ومضى خالد حتى ينزل على أهل دومة وعليهم الجودى بن ربيعة ووديعة الكلبى وابن الأيهم وابن الحدرجان ، فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض ، وكان النصارى الذين أيدوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة لم يحملهم الحصن .

ونزل خالد يتأهب للقتال فخرج إليه الجودى ووديعة ، وخرج ابن الحدرجان وابن الأيهم إلى عياض . وزلزلت تكبيرات المسلمين قلوب الأعداء فدبت الهزيمة فيهم ، وراح خالد وفرسانه يصولون ويجولون ويضربون الأعناق ، وراح عياض وجنوده يشدون على الأعداء ويحاربون فى سبيل الله صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص . وثار النقع وسالت الدماء ، واختلطت صيحات الفزع بالأنات ، وانهزم الجودى ووديعة على يدى خالد ، وهزم عياض من يليه وركبهم المسلمون . فأما خالد فإنه أخذ الجودى أخذا ، وأخذ الأقرع بن حابس وديعة ، وفر بقية الناس إلى

الحصن فلم يحملهم ، فلما امتلأ الحصن أغلق من فى الحصن الحصن دون أصحابهم ، فبقوا حوله ينتظرون الموت .

وقال عاصم بن عمرو :

ـــ يا بنى تميم حلفاؤكم كلب آسروهم وأجيروهم ، فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها .

وراح بنو تميم يأسرون حلفاءهم ولا يقتلونهم لوصية عاصم بن عمرو ، وأقبل خالد على الذين كانوا حول الحصن فقتلهم حتى سد بهم باب الحصن . ودعا خالد بالجودى فضرب عنقه ، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم إلا أسرى كلب فإن عاصما والأقرع وبنى تميم قالوا :

ـــ قد آمناهم .

فأطلقهم لهم خالد وقال :

ـــ مالى ولكم ! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام ؟

فقال له عاصم :

ـــ لا تحسدوهم العافية ، ولا يحوزهم الشيطان .

ثم أطاف خالد بباب الحصن فلم يزُل عنه حتى اقتلعه ، وتدفق جنود المسلمين إليه فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرارى والنساء فأقاموهم فيمن يزيد ، فاشترى خالد ابنة الجودى وكانت معروفة بالحسن والجمال .

وأقام خالد بدومة ، فأطمع ذلك الفرس فى المسلمين ، فرأوا أن يناجزوهم وأن يجلوهم عن ديارهم . وأدار رءوسهم أن عرب الجزيرة كاتبوهم للنهوض لقتال المسلمين غضبا لعقة الذى قتله خالد ، فخرج زَرْمَهر من بغداد ومعه روزبة يريدان الأنبار ، فكتب الزبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع بن عمرو وهو يومئذ خليفة خالد على الحيرة ، فبعث

القعقاع أعبد بن فدكى السعدى وأمره بالحصيد ، وبعث عروة بن الجعد البارقى وأمره بالخنافس ، فقد جاءته الأخبار أن الفرس وعرب الجزيرة اتعدوا أن يلتقوا بحصيد والخنافس . وقال القعقاع للأميرين :

— إن رأيتما مقدما فاقدما .

وانتظر روزبة وزرمهر من كاتبهما من ربيعة ليشنوا الحرب على المسلمين . فلما رجع خالد من دومة إلى الحيرة فى فرسانه ، وبلغه ما فعلت الفرس ، عزم على مصادمة أهل المدائن ؛ ولكنه كره خلاف أبى بكر فقد عهد إليه أن يبقى بالحيرة ، فأرسل القعقاع بن عمرو وأبا ليلى بن فدكى إلى روزبة وزرمهر .

وجاء إلى خالد كتاب امرئ القيس الكلبى أن الهزيل بن عمران قد عسكر بالمضيح ، ونزل ربيعة بن بجير بالثنى وبالبشر فى عسكر غضبا لعقة . أينتظر خالد حتى يصلا إلى زرمهر وروزبة ؟ فخرج خالد وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، واستخلف على الحيرة عياض بن غنم ، وأخذ طريق القعقاع وأبى ليلى إلى الخنافس .

وقدم عليهما خالد وهما بعين التمر ، فبعث القعقاع إلى الحصيد وأمره على الناس ، وبعث أبا ليلى إلى الخنافس فلم يتحرك زرمهر وروزبة ؛ كانا ينتظران أن يوافيهما عرب الجزيرة . فلما رأى القعقاع ذلك سار نحو حصين ، فلما رأى روزبة أن القعقاع قصد له استمد زرمهر فأمده بنفسه ، واستخلف على عسكره المهبوذان .

والتقى الجيشان بحصيد ، فراح القعقاع يمشى إلى أعدائه مشى الوعول ، حتى إذا ما بلغ زرمهر عاجله بضربة فتركه كأمس الدابر وقتل عصمة بن عبد الله روزبة ، فمشت الهزيمة فى صفوف الفرس ، فقتل الله

العجم مقتلة عظيمة . وكان القعقاع يصول ويجول كأسد هصور ، وصدق الصديق لما قال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا .

وهرب فلول جيش الفرس إلى حصيد مرعوبين ، وانضموا إلى المهبوذان ، وراحلوا يوسعون الأرض بأخبار صناديد المسلمين . فلما بلغهم أن أبا ليلى بن فدكى بمن معه قادم نحو الخنافس لقتالهم ، أطلقوا لسيقانهم الريح ، وهرب المهبوذان ومن معه إلى المضَيِّح حيث نزل هذيل ابن عمران .

وانتهى الخبر إلى خالد بمصاب أهل الحصيد وهرب أهل الخنافس ، فكتب إلى القعقاع وأبى ليلى وأعبد وواعدهم أن يجتمعوا بالمضَيِّح . وخرج خالد من العين قاصدا المضيح على الإبل يجنب الخيل ، فلما كانت تلك الساعة من ليلة الموعد إذا رجل يدعى حرقوص بن النعمان من النمر ، وإذا حوله بنوه وامرأته وبينهم جفنة من خمر وهم عليها عكوف ، يقولون له :

— ومن يشرب فى هذه الساعة وفى أعجاز الليل ؟!

— اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا خمرا بعدها . هذا خالد بالعين وجنوده بحصيد وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا .

وانقضت عليهم بعض الخيل فضرب رأس حرقوص فإذا هو فى جفنته ، وأخذت بناته أسرى ، وقتل بنوه ، وأغار المسلمون على الهذيل ومن معه ومن أوى إليهم وهم نائمون من ثلاثة أوجه فقتلوهم، وأفلت الهذيل فى أناس قليل ، وامتلأ الفضاء قتلى كأنما غنم قد نحرت . وقد قتل جرير بن عبد الله عبد العزى بن أبى رهم ولبيد بن جرير ، وكان معهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما .

وبلغ المدينة خبر مقتليهما فراح عمر يحاول أن يوغر صدر الصديق على

خالد بن الوليد ، ويطلب عزله عن إمارة الجيش كما فعل يوم قتل مالك بن نويرة ، فودى أبو بكر عبد العزى ولبيدا وأوصى بأولادهما وقال :

ـــ أما إن ذلك ليس عليّ إذ نازلا أهل الحرب .

وكان ربيعة بن بجير التغلبى قد نزل الثنّى والبشر غضبا لعقة ، وواعد روزبة وزرمهر والهذيل . فلما أصاب خالد أهل المضيح بما أصابهم به أمر القعقاع وأبا ليلى أن يرتحلا أمامه ، وواعدهما الليلة ليغيروا على ربيعة التغلبى ، وقد أقسم ليبغتن تغلب فى دارها .

وخرج خالد من المضيح فنزل حوران ثم الرفق ثم الحماة ، ثم اجتمع هو وأصحابه فشنوا الغارة على ربيعة من ثلاثة أوجه ، فلم يفلت من سيوف المسلمين أحد واستبى الذرارى والنساء ، وبعث بخمس الله إلى أبى بكر مع النعمان بن عوف بن العمان الشيبانى ، وقسم النهب والسبايا .

وفى المدينة استقبل الناس الغنائم والسبى بالفرح ، واشترى علىّ بن أبى طالب بنت ربيعة بن بجير التغلبى فاتخذها فولدت له عمر ورقية .

وكان الهذيل حين نجا أوى إلى عتاب بن فلان وهو بالبشر فى عسكر ضخم ، فما أرخى الليل ستائره حتى هجم جيش المسلمين من ثلاثة أوجه على جيش الأعداء وشنها غارة شعواء ، وكانت أنباء مقتل ربيعة قد تسربت إليهم فأورثتهم خيفة فهزموا بالرغب ، فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا قبلها مثلها ، وأصابوا منهم ما شاءوا ، وبر خالد بقسمه فقد باغت تغلب فى عقر دارها .

وخرج خالد من البشر إلى الرضاب وبها هلال بن عقة ، فلما سمع أصحاب هلال بقدوم خالد فروا من وجهه ، وفر هلال فى أثرهم . فدخل خالد الرضاب دون قتال ، ثم قصد إلى الفرائض . إنها تخوم الشام والعراق

والجزيرة ، فلما اجتمع المسلمون بها هبت الروم واغتاظت ، فها هو ذا خالد على حدودهم يهددهم . ونسى الروم ما كان بينهم وبين الفرس من عداوة أمام الخطر الجديد ، فاستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس ، واستمدوا تغلب وأياد والنمر فأمدوهم ، ثم انطلقوا إلى خالد ، حتى إذا صار الفرات بينهم قالوا :

— إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم .

قال خالد :

— بل اعبروا إلينا .

— فتنحوا حتى نعبر .

— لا نفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا .

فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض :

— احتسبوا ملككم . هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم ، والله لينصرن ولنخذلن .

ثم لم ينتفعوا بذلك فعبروا أسفل من خالد ، فلما التأم جمعهم قالت الروم :

— امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح من أينا يجىء .

فراحت كل جماعة تذكر مناقبها وترفع صوتها بشعارها .

ودارت رحى معركة رهيبة ، السيوف تعلو والرءوس تطير ، والوقت يمر وئيدا وئيدا ، وتكبيرات المسلمين تجلجل ، والعرق يختلط بالدم ، وجثث الروم ومن هب لنجدتهم تغطى ساحة القتال ، وخالد يصيح فى جنوده :

— ألحوا عليهم ولا ترفعوا عنهم .

فينقض عليهم فرسان المسلمين ويحشرونهم برماحهم ويسوقونهم زمرا إلى القتل ، فقتل فى المعركة وفى الطلب مائة ألف . وذاق الروم مرارة الهزيمة ، وأقام خالد على الفراض بعد الوقعة عشرا ، ثم أذن بالرحيل إلى الحيرة ، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بهم ، وأمر شجرة بن الأعز أن يسوقهم ، وأظهر خالد أنه فى الساقة ، فقد استولت عليه فكرة وعزم على إنفاذها دون أن يشعر به أصحابه .

وافى الموسم فخرج الناس للحج ، وخرج أبو بكر على الناس ، وخرج خالد حاجا من الفراض لخمس بقين من ذى القعدة لا يعلم بخروجه أحد إلا عدة من أصحابه خرجوا معه . فسار طريقا من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه ، فكانت غيبته عن الجند يسيرة . فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة الذى وضعه فقدما معا ، وخالد وأصحابه محلقون ، لم يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ، و لم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعد فأرسل إليه كتابا فوافاه الكتاب منصرفه من حجه فقرأه :

« .. سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يُشج (١) الجموع من الناس بعون الله شجيك ، و لم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتم الله لك ، ولا يدخلنك عُجب فتسخر وتخذل ، وإياك أنْ تدِل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء » .

كان أبو بكر الصديق قد رأى بعد أن رجع من الحج إلى المدينة أن يجهز

---

(١) يشج الجموع : يفرق جمع الأعداء ، والشجى : الشوك هو العجب والدل : الافتخار والغرور .

الجيوش إلى الشام ، فكان أول لواء عقده لواء خالد بن سعيد بن العاص ، فجاء عمر إلى أبى بكر فقال :

ـــ أتؤمره بعد ما قال حين أقدم من اليمن بعد وفاة رسول الله ـــ ﷺ : يا بنى عبد مناف لقد طبتم نفسا عن أمركم يليه غيركم .

إن خالد بن سعيد لم يبايع أبا بكر إلا بعد أن رضى بنو هاشم ، فلم يحفلها عليه أبو بكر ، وأما عمر فاضطغنها عليه و لم يزل بأبى بكر حتى عزلة ، وأمر يزيد بن أبى سفيان فخرج يزيد فى سبعة آلاف مقاتل .

وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص : « إنى كنت قد رددتك على العمل الذى كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولاكه مرة وسماه لك أخرى : مبعثك إلى عمان إنجازا لمواعيد رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقد وليته ثم وليته . وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك إلى خير لك فى حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك » .

فكتب إليه عمرو : « إنى سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئا إن جاءك من ناحية من النواحى » .

وكان أبو بكر قد شيع الوليد بن عقبة لما خرج لجمع صدقات قضاعة ، وقال له :

ـــ اتق الله بالسر والعلانية ، فإن من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله .

إنك فى سبيل من سبل الله ، لا يسعك فيه الإذهان والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم وعصمة أمركم ، فلا تَنِ ولا تفتر .

إن أبا بكر يريد أن يوجهه إلى الشام أيضا ، فكتب إليه وإلى عمرو : « استخلفا على أعمالكما واندبا من يليكما » . فراح عمرو والوليد يندبان الناس لقتال الروم ، فتتام إليهما بشر كثير ، وانتظرا أمر أبى بكر .

وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال :

— ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهى حسبه [١]، ومن عمل لله كفاه الله .. عليكم بالجد والقصد [٢] فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين لأحد لا أمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له . ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله لما ينبغى للمسلم أن يخصّ به : هى التجارة التى دل الله عليها ونجى بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة .

فأمد عمر ببعض من انتدب إلى من اجتمع إليه وأمره على فلسطين ، وكتب إلى الوليد وأمره بالأردن وأمده ببعضهم ، ودعا يزيد بن أبى سفيان فأمره على جند عظيم وهم جمهور من انتدب له وفى جنده سهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة وشيعه ماشيا ، واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع وأمره على حمص وخرج معه وهما ماشيان والناس معهما وخلفهما .

وكان أبو بكر قد سمى لكل أمير من أمراء الشام كورة ، فسمى لأبى عبيدة حمص ، وليزيد بن أبى سفيان دمشق ، ولشرحبيل بن حسنة الأردن ، ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن مَجزِّز فلسطين . فلما شارفوا

---

(١) حسبه : تكفيه .

(٢) القصد : الاعتدال .

الشام دهم كل أمير منهم خلق كثير ، فهرقل إمبراطور الروم خرج حتى نزل بحمص وأرسل إلى عمرو أخاه تذارق فخرج نحوهم فى تسعين ألفا ؛ وبعث جَرجَة بن توذرا نحو يزيد بن أبى سفيان فعسكر بإزائه ؛ وبعث الدراقص فاستقبل شرحبيل بن حسنة ؛ وبعث الفيقار بن بسطوس فى ستين ألفا نحو أبى عبيدة ، فهابهم المسلمون وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفا سوى عكرمة بن أبى جهل وكان ردءا لهم فى ستة آلاف . ففزعوا جميعا بالكتب وبالرسل إلى عمرو بن العاص وإلى أبى بكر الصديق : « ما الرأى ؟ » فكاتبهم عمرو وراسلهم : « إن الرأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يُقرِن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعدَّ لنا لكل طائفة منا . فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به ، وجاءهم كتاب أبى بكر : « اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فإنهم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى منكم من قلة وإنما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة على العشرة الآلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب ، واحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه » .

وتطابق رأى أبى بكر مع رأى عمرو ، فسار أمراء المسلمين إلى اليرموك .

وبلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب ، فخرجت جيوش الروم من ألوية الثغور وقد رفعت النسر الرومانى على ألوية فوق الرءوس . كانت السرايا تطوى الأرض طيا لتصل إلى اليرموك كل سرية من ثلاثمائة أو أربعمائة جندى

يقودهم رائد ، فكلما اجتمعت ست سرايا أو سبع أو ثمانى تكون منها كتيبة بقيادة دوق ، وقد احتفظوا بسر عددهم حتى لا يستطيع العرب تقدير حجم جيوشهم .

ارتدى الرومان الدروع وغطوا رءوسهم بالخوذات وتسلحوا بالقسى والرماح والنسيوف ، واجتمع الجيش الجرار وعلى المقدمة جرجة ، وعلى مجنبتيه باهان والدراقص ، وعلى القلب النيقار . و لم يكن باهان قد وصل بعد فنادى المنادى فيهم ليرفع من روحهم المعنوية .

ـــ أبشروا فإن باهان فى الأثر . مدد لكم .

ونزل جيش الروم الواقوصة وهى على ضفة اليرموك ، وصار الوادى خندقا لهم وهو هاوية لا يدرك ، وإن كانت انتصارات المسلمين فى العراق قد صكت أسماعهم ، فأراد قواد هرقل أن تستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم التى طارت شعاعا .

وانتقل المسلمون من عسكرهم الذى اجتمعوا به ، فنزلوا عليهم بحذائهم على طريقهم ، وليس للروم طريق إلا عليهم فقال عمرو بن العاص :

ـــ أيها الناس أبشروا ! حصرت والله الروم وقل ما جاء محصور بخير .

فأقاموا بإزائهم وعلى طريقهم ومخرجهم صفر سنة ثلاث عشرة وشهرى ربيع لا يقدرون من الروم على شىء ولا يخلصون إليهم ، وكان بين الجيشين مناوشات ، وكلما شن المسلمون غارة عادوا منهزمين ، فالخندق يحول بينهم وبين الالتحام مع أعدائهم ، فكانت سهام الروم تصيب الصدور بينما سيوف المسلمين البتارة لا تصل إلى أعناق أعدائهم .

وكتب أمراء الشام إلى أبى بكر يصفون له ما هم فيه ، وكان كل جند

يحارب مع أميره لا يجمعهم أحد ، وكان عسكر أبى عبيدة مجاورا لعسكر عمرو بن العاص وعسكر شرحبيل مجاورا لعسكر يزيد بن أبى سفيان ، فكان أبو عبيدة ربما صلى مع عمرو وشرحبيل مع يزيد، فأما عمرو ويزيد فإنهما كانا لا يصليان مع أبى عبيدة وشرحبيل .

وقرأ أبو بكر كتاب أمراء الشام فكتب إلى خالد بن الوليد ليأتى جموع المسلمين فى اليرموك،فخرج خالد فى أهل العراق ومعه القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى وعياض بن غنم وهاشم بن عتبة ، وراح يستحث جنوده فى السير فهو يتحرق شوقا لقتال الروم .

وطلع خالد على المسلمين فارتج المكان بالتكبير ، وفى نفس الوقت ارتفعت صيحات فرح فى معسكر الروم فقد طلع عليهم باهان وقدم قدامه الشمامسة والرهبان والقسيسين يغرونهم ويحضونهم على القتال .

كان جيش الروم أربعين ومائتى ألف منهم ثمانون ألف مقيد ، وأربعون ألفا منهم مسلسل للموت ، وأربعون ألفا مربطون بالعمائم ، وثمانون ألف فارس وثمانون ألف راجل ، والمسلمون سبعة وعشرون ألفا ممن كان مقيما ، إلى أن قدم خالد فى تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفا .

ونشط الروم بمددهم فخرجوا لقتال المسلمين ، فراح كل أمير من الأمراء يقاتلهم بجنده ، فهزم الله الروم فعادوا يتحصنون فى خندقهم ، وراح القسيسون والشمامسة والرهبان يحضونهم على القتال وينعون لهم النصرانية حتى زينوا لهم الخروج لمناجزة المسلمين الذين جاءوا لقتالهم .

وأحس المسلمون خروجهم ، وأراد كل أمير أن يخرج بجنده فلم يرتح خالد لذلك ، فسار فيهم فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ــ إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى . أخلصوا

جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده . ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى . وإن مَنْ وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعلموا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته .

— فهات ، فما الرأى ؟

— إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له .

إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله — ﷺ — هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعونى أليكم اليوم .

إنه طلب لنفسه الإمارة أول يوم فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم وأن الأمر أطول مما صاروا إليه ، وكان خالد قد عزم أن يخوض اليوم معركة قاصمة لظهر الروم ولا تقوم لها قائمة بعدها أبدا .

خرج الروم فى تعبية لم ير الراءون مثلها قط ، وخرج خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك ، فخرج فى ستة وثلاثين كردوسا إلى الأربعين ، وقال :

— إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس من التعبية تعبية أكثر فى رأى العين

من الكراديس .

فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس وعليها زيد بن أبى سفيان ، وكان على كردوس من كراديس أهل العراق القعقاع بن عمرو ، وعلى كردوس مذعور بن عدىّ ، وعياض بن غنم على كردوس ، وهاشم بن عتبة على كردوس ، وزياد بن حنظلة على كردوس ، وخالد على كردوس ، وابن سعيد دحية بن خليفة على كردوس ، وامرؤ القيس على كردوس ، ويزيد بن يحنس على كردوس ، وأبو عبيدة على كردوس ، وعكرمة بن أبى جهل على كردوس ، وسهيل ابن عمرو على كردوس ، وعبد الرحمن بن خالد على كردوس وهو يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، وحبيب بن مسلمة على كردوس ، وصفوان بن أمية على كردوس ، وسعيد بن خالد على كردوس ، وأبو الأعور بن سفيان على كردوس ، وابن ذى الخمار على كردوس ، وفى الميمنة عمارة بن مخشى بن خويلد على كردوس ، وشرحبيل على كردوس ومعه خالد بن سعيد ، وعبد الله بن قيس على كردوس ؛ وعمرو بن عبسة على كردوس ، والسمط بن الأسود على كردوس ، وذو الكلاع على كردوس ، ومعاوية بن حُدَيْج على آخر ، وجندب بن عمرو بن حُممة على كردوس ، وعمرو بن فلان على كردوس . ولقيط بن عبد قيس بن بجرة على كردوس ؛ وفى المسيرة يزيد بن أبى سفيان على كردوس ، والزبير بن العوام على كردوس ، وحوشب ذو ظليم على كردوس ، وقيس ابن عمرو على كردوس ، وعصمة بن عبد الله على كردوس ، وضرار بن

الأزور على كردوس ، ومسروق بن فلان على كردوس ، وعتبة بن ربيعة ابن بهز على كردوس . وكان القاضى أبو الدرداء وكان القاص أبو سفيان بن حرب ، وكان على الطلائع قباث بن أشيم ، وكان على الأقباض عبد الله بن مسعود ، وكان القارئ المقداد ، وقد سن رسول الله — ﷺ — بعد بدر أن يقرأ القارئ سورة الجهاد عند اللقاء وهى الأنفال .

وكان فى الجيش ألف من أصحاب رسول الله — ﷺ — فيهم نحو من مائة من أهل بدر ؛ وراح أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس فيقول :

— الله الله ، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك .

كان مع المسلمين يوم بدر فرس واحد ، أما فى اليرموك فكانوا على ظهور جيادهم العربية ؛ فرسول الله — ﷺ — عرف أهمية الفرسان بعد وقعة أحد ، فراح يرعى الخيول ويشجع المسلمين على تربيتها ، وقد وضع عنها الزكاة ، وروى أحاديث عن خيرها ، وأعطى للفرس من الفىء ضعف الفارس ، فكانت ثمرة ذلك تلك الخيول التى فتح المسلمون على ظهورها الأمصار ، ورفعوا فيها راية الإسلام .

وقال رجل لخالد :

— ما أكثر الروم وأقل المسلمين !

فقال خالد فى ثقة :

— ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان ، ولا بعدد الرجال .

٢٨

لما رجع خالد من حجه وافاه كتاب أبى بكر بالخروج فى شطر الناس ، وأن يخلف على الشطر الباقى المثنى بن حارثة ، وقال :

ـــ لا تأخذن نجدا إلا خلفت له نجدا ، فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك .

وأحضر خالد أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ واستأثر بهم على المثنى وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة . ثم نظر فيمن بقى فاختار من كان قدم على النبى ـــ ﷺ ـــ وافدا أو غير وافد ، وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ، ثم قسم الجند نصفين ، فقال المثنى :

ـــ والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم فأنَّى تعرينى منهم !

وتلكأ خالد ، وأصر المثنى على أن يترك معه نصف صحابة رسول الله ـــ ﷺ . فلما رأى ذلك خالد أعاضه منهم حتى رضى ، وكان فيمن أعاضه منهم فرات بن حيان العجلى ، وبشير بن الخصاصية ، والحارث بن حسان ، ومعبد بن أم معبد السلمى ، وعبد الله بن أبى أوفى الأسلمى ، والحارث بن بلال المزنى ، وعاصم بن عمرو التميمى ، حتى إذا رضى المثنى وأخذ حاجته ، خرج خالد قاصدا اليرموك ، وشيعه المثنى إلى قراقر ثم

رجع إلى الحيرة ، فأقام فى سلطانه . ووضع فى المسلحة التى كان فيها أخاه المعنى ، ومكان ضرار بن الخطاب عتيبة بن النهاس ، ومكان ضرار بن الأزور مسعودا أخاه الآخر ، وسد أماكن كل من خرج من الأمراء برجال أمثالهم .

والتفت خالد إلى رجاله وقال :

— كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جمع الروم ، فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين ؟

إن خالد بن الوليد يذكر يوم الحديبية ، يوم خرج للقاء رسول الله — ﷺ — وأصحابه وهم فى ملابس الإحرام ليمنعهم من دخول مكة ، فسلك رسول الله — ﷺ — طريقا وعرا فإذا هو والذين معه خلف خالد ، وإذا مكة على بعد مراحل قليلة منهم ، ولولا أن حبس ناقته — صلوات الله وسلامه عليه — حابس الفيل لدخل رسول الله — ﷺ — مكة . إن خالدا ليذكر ذلك ، وإنه يريد أن يفعل بالروم ما فعله عليه السلام بجيش قريش ذلك اليوم الذى لا ينساه ، فقال رجاله :

— لا نعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش يأخذه الفذ (١) الراكب ، فإياك أن تغرر بالمسلمين .

إن رسول الله — ﷺ — قد سلك طريقا وعرا ليتفادى من جيش قريش ، وإن خالد بن الوليد الذى اتخذ من رسول الله — ﷺ — أسوة فى حروبه لن يتردد عن اجتياز الطريق مهما كان وعرا ومهما عارض رجاله ، فعزم عليه ، و لم يجبه إلى ذلك إلا رافع بن عميرة على تهيب شديد

---

(١) الفذ : الفرد

فقام فيهم فقال :

— لا يختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له .

— أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك .

فطابقوه ونووا واحتسبوا واشتهوا مثل الذى اشتهى خالد ، فأمرهم خالد أن يحملوا معهم ماء يكفيهم خمسة أيام للشرب ، وأمر صاحب كل خيل بقدر ما يسقيها ، وحملت الإبل ما يكاد يكفيها ، ثم ركب خالد والذين معه من قراقر ..

فقال محرز بن حريش المحاربى لخالد :

— اجعل كوكب الصبح على حاجبك الأيمن ، ثم أمه تفض إلى سوى .

كان سوى على الجانب الآخر من قراقر مما يلى الشام فراح جيش المسلمين يسير خمسة أيام فى سبل صعبة ، شمس النهار تلسعهم وظلام الليل يؤخر زحفهم . وبعد جهد ومشقة بلغوا سوى وأغاروا عليها ، فلما بلغ غسان خروج خالد على سوى وانتسافها اجتمعوا بمرج راهط ، وعلم خالد بخروج غسان فانطلق حتى صار إلى دمشق ثم مرج الصفر ، فلقى عليه غسان وعليهم الحارث بن الأيهم، فانتسف عسكرهم وعيالهم . ونزل بالمرج أياما وبعث إلى أبى بكر بالأخماس مع بلال بن الحارث المزنى ، ثم خرج من المرج وسار حتى نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان فاجتمعوا عليها وحاصروها حتى صالحت بصرى على الجزية ، وفتحها الله على المسلمين فكانت أول مدينة

من مدن الشام فتحت فى خلافة أبى بكر .

ثم ساروا جميعا إلى فلسطين مددا لعمرو بن العاص وعمرو مقيم بالعربات من غور فلسطين ، وسمعت الروم بهم فانكشفوا إلى أجنادين وعليهم تذارق أخو هرقل . وأجنادين بلد بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين .

وسار عمرو بن العاص حين سمع بأبى عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان حتى لقيهم ، فاجتمعوا بأجنادين وحاصروها ، وكان على الروم رجل منهم يقال له القبقلار ، وكان هرقل استخلفه على أمراء الشام حين صار إلى القسطنطينية ، وإليه انصرف تذارق بمن معه من الروم ، فلما تدانى العسكران بعث القبقلار رجلا عربيا من قضاعة وقال له :

ــ ادخل فى هؤلاء القوم فأقم فيهم يوما وليلة .

فدخل فى الناس رجل عربى لا ينكر ، فأقام فيهم يوما وليلة ثم أتاه فقال له :

ــ ما وراءك ؟

ــ بالليل رهبان وبالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ولو زنى رجموه ، لإقامة الحق فيهم .

ــ لئن كنت صدقتنى لبطنُ الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ، ولوددت أن حظى من الله أن يخلى بينى وبينهم فلا ينصرنى عليهم ولا ينصرهم على .

ثم تزاحف الناس فاقتتلوا ، فلما رأى القبلار ما رأى من قتال المسلمين قال للروم :

— لفوا رأسي بثوب .

— لم ؟

— يوم البئيس لا أحب أن أراه ، ما رأيت فى الدنيا يوما أشد من هذا .

فاحتز المسلمون رأسه وإنه لملفف ، وقتل من المسلمين سلمة بن هشام ابن المغيرة وهبار بن الأسود وجماعة أخر من قريش ، وانتصر المسلمون بأجنادين ، وقتل خليفة هرقل ، ثم رجع هرقل للمسلمين فالتقوا باليرموك .

واستقام أهل فارس على رأس سنة من مقدم خالد الحيرة ، بعد خروج خالد بقليل على شهر براز بن أردشير بن شهريار ، فوجه إلى المثنى جندا عظيما عليهم هرمز جاذويه فى عشرة آلاف ومعه فيل ، وكتبت المسالح إلى المثنى بإقباله فخرج المثنى من الحيرة نحوه وضم إليه المسالح وجعل على مجنبتيه أخويه المعنى ومسعودا ، وأقام له ببابل .

وأقبل رمز جاذويه وعلى مجنبتيه الكوكبذ والخوكبذ وكتب إلى المثنى :
« من شهربراز إلى المثنى ، إنى قد بعثت إليك جندا من وحش أهل فارس ، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم » .

فأجابه المثنى : « من المثنى إلى شهربراز ، إنما أنت أحد رجلين : إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك . وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليهم . فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير » .

فجزع أهل فارس من كتابه وقالوا لشهربراز :

— جرأت علينا عدونا بالذى كتبت إليهم ، فإذا كاتبت أحدا فاستشر .

ونزل المثنى على خمسين ميلا من المدائن ، وأقبل جاذويه وجنده يتقدمهم الفيل ، والتقى الجيشان ببابل ودار القتال فراح الفيل يضرب المسلمين بخرطومه فيفرق صفوفهم . فرأى المثنى ضرورة القضاء على الفيل فشد وجماعة من رجاله عليه وجعلوا يطعنونه حتى أردوه قتيلا ، ثم شددوا النكير على الفرس وحمى وطيس القتال وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ، فجاء النصر من عند الله وحاقت الهزيمة بالفرس ، ففروا والمسلمون فى أثرهم حتى بلغوا المدائن ووقفوا يطرقون أبوابها .

وبلغ شهربراز هزيمة هرمز جاذويه فمات كمدا ، وفكر المثنى فى أمره أيهجم على المدائن بمن معه من الجند ؟ إن نفسه لتصبو إلى فتحها ، ولكن فتحها بمن معه ضرب من المحال . فرأى أن يكتب إلى الصديق يخبره بانتصاراته وأن يسأله المدد ، فكتب بما يجيش فى صدره وانتظر رد الخليفة وهو يتحرق شوقا لفتح المدائن .

واختلفت فارس فيمن يولونه خلفا لعاهلهم ، وأخيرا أجمعوا أمرهم على تولية دخت زنان ابنته ، فتولت الملك فلم يسمع لها بل تآمروا عليها وخلعوها ، وتولى سابور بن شهرباراز الملك ولكنه كان حدثا ، فقام بأمره الفرخزاد . وتقدم الفرخزاد إلى سابور يسأله أن يزوجه آزرميدخت ابنة كسرى فقبل ، إلا أن آزرميدخت رأت فى ذلك امتهانا لكرامتها فقالت لسابور :

— يا بن عم ، أتزوجنى عبدى ؟!

— استحى من هذا الكلام ولا تعيديه علىّ ، فإنه زوجك .

فبعث إلى سياوخش الرازى وكان من فتاك الأعاجم ، فشكت إليه الذى تخاف فقال لها :

— إن كنت كارهة لهذا فلا تعاوديه فيه وأرسلى إليه وقولى له : فليقل له فليأتك فأنا أكفيكه .

وأحكمت المؤامرة واستعد سياوخش ، فلما كانت ليلة العرس أقبل الفرخزاد حتى دخل ، فثار به سياوخش فقتله ومن معه ، ثم خرج بها معه إلى سابور فقتلوه ، وملكت آزرميدخت بنت كسرى .

رأى المثنى الفتن تكاد تأكل فارس ، وأن كل الظروف فى جانبه . وأبطأ خبر أبى بكر على المسلمين فلم يستطع المثنى مكثا ، فخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية ، ووضع مكانه فى المسالح سعيد بن مرة العجلى . وخرج المثنى قاصدا المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين والمشركين وليستأذن فى الاستعانة بمن ظهرت توبته وندمه من أهل الردة ممن يستطيع الغزو ، وليخبره أنه لم يخلف أحدا أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم ، فأبو بكر لم يكن يستعمل من تاب من أهل الردة .

كان منزل أبى بكر السُنْح عند زوجته جبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبى زهير من بنى الحارث بن الخزرج ، وكان قد حجَّر عليه حجرة من سعف فما زاد على ذلك . فأقام هنالك بعد ما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة ، وربما ركب على فرس له وعليه إزار ورداء ممشّق فيوافى المدينة ، فيصلى الصلوات بالناس ، فإذا صلى العشاء رحل إلى أهله بالسُّنح ، فكان إذا حضر صلى بالناس وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب،فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسنح يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يروح لقدر الجمعة فيجمع بالناس .

وكان رجلا تاجرا فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو بنفسه فيها ، وكلما كفيها فرعيت له . وكان يحلب للحى أغنامهم ، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحى :

ـــ الآن لا تحلب لنا منائح دارنا .

فسمعها أبو بكر فقال :

ـــ بلى لعمرى لأحلبنها لكم ، وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه عن خُلق كنت عليه .

فكان يحلب لهم . فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر ثم نزل إلى المدينة

فأقام بها ، وأراد أن يخرج للتجارة فرأى أن أمور الناس لا تصلح بالتجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم ولا بد لعياله مما يصلحهم ، ففرض له فى كل سنة ستة آلاف درهم .

وكان نقش خاتم أبى بكر : نعم القادر الله ، وكان أبو عبيدة بن الجراح على بيت المال ، وكفاه عمر القضاء فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان ، وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان .

وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد ، وعلى الطائف عثمان بن أبى أمية ، وعلى حضرموت زياد بن لبيد ، وعلى خولان يعلى بن أمية ، وعلى زبيد ورمع أبو موسى الأشعرى ، وعلى الجند معاذ بن جبل ، وعلى البحرين العلاء بن الحضير . وبعث جرير بن عبد الله إلى نجران ، وبعث بعبد الله بن ثور إلى ناحية جُرَش ، وبعث عياض بن غنم إلى دومة الجندل ، وكان بالشام أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان وعمرو . كل رجل منهم على جند وعليهم خالد بن الوليد .

وتزوج أبو بكر فى الجاهلية قُتيلة بنت عبد العزى فولدت له عبد الله وأسماء ، وتزوج أيضا فى الجاهلية أم رومان بنت عامر فولدت له عبد الرحمن وعائشة ، وتزوج فى الإسلام أسماء بنت عميس وكانت قبله عند جعفر بن أبى طالب فولدت له محمد بن أبى بكر ، وتزوج أيضا فى الإسلام حبيبة بنت خارجة فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم .

وكان رجلا أبيض نحيفا خفيف العارضين ، أحنى رقيقا ، معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة، حمش الساقين ممحوص الفخذين .

ومرض أبو بكر فقد اغتسل فى يوم بارد فحُم لا يخرج إلى الصلاة ، وأمر عمر بن الخطاب أن يصلى بالناس . فكان الناس يدخلون ليعودوه

وهو يثقل كل يوم ، وكانت داره أمام دار عثمان بن عفان فكان عثمان ألزم الناس له فى مرضه .

وقيل له :

ـــ لو أرسلت إلى الطبيب .

فقال فى صوت خافت :

ـــ قد رآنى .

ـــ فما قال لك !

ـــ قال إنى أفعل ما أشاء .

وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ، وكان يتبع خطوات رسول الله ـــ ﷺ ـــ فكانت أيامه امتدادا لأيام نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه . وأراد العقد لعمر بن الخطاب فدعا عبد الرحمن بن عوف فقال .

ـــ أخبرنى عن عمر .

ـــ يا خليفة رسول الله ، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكنَّ فيه غلظة .

ـــ ذلك لأنه يرانى رقيقا . ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما هو عليه . ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتنى إذا غضبتُ على الرجل فى الشىء أرانى الرضا عنه ، وإذا لنت له ، أرانى الشدة عليه . لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا .

ـــ نعم .

ثم دعا عثمان بن عفان فقال :

ـــ يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر .

— أنت أخبر به .

— على ذاك يا أبا عبد الله !

— اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته ، وأن ليس فينا مثله .

— يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئا .

— أفعل .

— لو تركته ما عدوتك ، وما أدرى لعله تاركه والخيرة له ألا يلى من أموركم شيئا . ووددت أنى كنت خلوا من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم . يا أبا عبد الله لا تذكرن مما قلت لك من أمر عمر ولا مما دعوتك له شيئا .

ونهض أبو بكر وأسماء بنت عميس ممسكته ، فأشرف على الناس وهو يقول :

— أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإنى والله ما ألوت [١] من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة ، وإنى قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا .

— سمعنا وأطعنا .

ودعا أبو بكر عثمان فقال له :

— اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين . أما بعد ..

ثم أغمى عليه فذهب عنه ، فكتب عثمان : « أما بعد فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، ولم آلكم خيرا منه » .

---

(١) ألوت : قصرت .

ثم أفاق أبو بكر فقال :

— اقرأ عليّ .

فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال :

— أراك خفت أن يختلف الناس إن افتُلتت نفسى فى غشيتى.

— نعم .

— جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله .

وأقرها أبو بكر ، وخرج مولى لأبى بكر يقال له شديد بالصحيفة إلى عمر ، فجلس عمر فى المسجد والناس معه وبيده جريدة وراح يقول :

— أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله — ﷺ — إنه يقول : إنى لم آلكم نصحا .

وقرأ شديد الصحيفة ، ودخل طلحة بن عبيد الله على أبى بكر فقال :

— استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه فكيف به إذا خلا بهم ، وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك ؟

فقال أبو بكر وكان مضطجعا :

— أجلسونى .

فأجلسوه فقال لطلحة :

— أبالله تخوفنى ؟ إذا لقيت الله ربى فسألنى قلت : استخلفت على أهلك خير أهلك .

وفى الصباح دخل عبد الرحمن بن عوف على أبى بكر الصديق فوجده مهتما ، فقال له عبد الرحمن :

— أصبحت والحمد لله بارئا .

— إنى وليت أمركم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد

أن يكون له الأمر دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذرى [١] ، كما يألم أحدكم أن ينام على حسك .

والله لأن يقوم أحدكم فنضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا ، وأنتم أول ضال بالناس غدا فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالا . يا هادى الطريق إنما هو الفجر أو البحر .

— خفض عليك رحمك الله فإن هذا يهيضك فى أمرك ، إنما الناس فى أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ولا نعلمك أردت إلا خيرا ولم تزل صالحا مصلحا ، وأنك لا تأسى على شىء من الدنيا .

— أجل ، إنى لا آسى على شىء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن وددت أنى تركتهن ، وثلاث تركتهن وددت أنى فعلتهن ، وثلاث وددت أنى سألت عنهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم . فأما الثلاث اللاتى وددت أنى تركتهن فوددت أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شىء وإن كانوا اغلقوه على الحرب ، ووددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة السلمى وأنى كنت قتلته سريحا [٢] أو خليته نجيحا ، ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة وكنت قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين فكان أحدهما أميرا وكنت وزيرا .

وأما اللاتى تركتهن فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيرا كنت ضربت عنقه فإنه تخيل إلىّ أنه لا يرى شرا إلا أعان عليه ، ووددت أنى حين

---

(١) الأذرى : نسبة إلى أذربيجان .

(٢) قتلته سريحا : قتلا يسيل به الدم ، خليته نجيحا : تركته وقد صبرت عليه .

سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذى القصة فإن ظفر المسلمون ظفروا وإن هزموا كنت بصدد لقاء أو مددا ، ووددت أنى كنت إذا وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله .

ووددت أنى كنت سألت رسول الله — ﷺ — عن هذا الأمر فلا ينازعه أحد ، ووددت أنى كنت سألته : هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟ ووددت أنى كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعمة [1] فإن فى نفسى منهما شيئا .

وقدم المثنى بن حارثة الشيبانى إلى المدينة وقد عقد أبو بكر لعمر ، فدخل على الصديق وهو مريض فأخبره خبر المسلمين والمشركين ، واستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبته وندمه من أهل الردة ممن يريد الغزو ، فقال أبو بكر :

— علىّ بعمر .

فجاء فقال له :

— اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به : إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا . فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى . وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى . ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت على أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفى رسول الله — ﷺ — وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله ، وبالله لو أنّى أنى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة نارا . وإن فتح الله

(١) بنت الأخ والعمة : من دوى الأرحام لا يرثان .

على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم[١] .

وحضرت الوفاة أبا بكر فى نفس اليوم ، يوم الاثنين ، فقال لمن عنده :

ـــ انظروا كم أنفقت منذ وليت من بيت المال فاقضوه عنى .

فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم فى ولايته فدفعوه إلى عمر ، فقال عمر :

ـــ لقد أتعب مَن بعده .

وغابت الشمس فالتفت أبو بكر إلى زوجه أسماء بنت عميس وقال :

ـــ غسلينى .

ـــ لا أطيق ذلك .

ـــ يعينك عبد الرحمن بن أبى بكر يصب الماء .

وقال لعائشة :

ـــ فى كم كفن النبى ـــ ﷺ ؟

ـــ فى ثلاثة أثواب .

ـــ اغسلوا ثوبَىَّ هذين .

وكانا ممزقين .

ـــ وابتاعوا لى ثوبا آخر .

ـــ يا أبه ، إنا موسرون .

ـــ أى بنية ، الحىّ أحق من الميت ، إنما هما للمهلة والصديد .

وقالت عائشة :

---

(١) باقى أحداث حروب العراق والفرس فى كتاب «سعد بن أبى وقاص» للمؤلف.

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فتقلص وجه أبي بكر وبان فيه الغضب وقال :

— ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولكن : « وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » .

وراح ينشد بصوت خافت :

وكل ذى إبل موروث وكل ذى سلب مسلوب

وكل ذى غيبة يئوب وغائب الموت لا يئوب

وأوصى عائشة أن يدفن إلى جنب النبى — ﷺ — وحشرجت روحه فقال :

— رب توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين .

ولفظ أبو بكر أنفاسه الطاهرة بعد ما غابت الشمس ، فارتفع الصياح فى بيته فسأل أبو قحافة وكان قد ذهب بصره عن الخبر ، فقيل له :

— مات ابنك .

— رزء فادح .

وأقامت عائشة على أبيها النوح ، فأقبل عمر بن الخطاب حتى قام ببابها فنهاهن عن البكاء على أبى بكر ، فأبين أن ينتهين فقال عمر لهشام بن الوليد :

— ادخل فأخرج إلىّ ابنة أبى قحافة أخت أبى بكر .

فقالت عائشة لهشام حين سمعت ذلك من عمر :

— إنى أحرج عليك بيتى .

فقال عمر لهشام :

ــ ادخل فقد أذنت لك .

فدخل هشام فأخرج أم فروة أخت أبى بكر إلى عمر فعلاها بالدرة فضربها ضربات ، فتفرق النوح حين سمعوا ذلك .

وحُمل أبو بكر على السرير الذى حُمل عليه رسول الله ــ ﷺ ، وصلى عليه عمر فى مسجد رسول الله ــ ﷺ ، وحفر له ودخل قبره عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وجعل رأسه عند كتفى رسول الله ــ ﷺ ــ وألصقوا اللحد بلحد النبى ــ ﷺ . وقبر الرجل الذى كانت خلافته امتدادا للأيام المباركة أيام رسول الله ــ ﷺ .

وخرجت عائشة ووقفت على قبر أبيها فبكت ثم قالت :

ــ نضر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزا بإقبالك عليها . ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله ــ ﷺ ــ رزؤك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا متنجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك . فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية عن القضاء فيك .

وسار عمر فى هجعة الليل وفكره يعمل ؛ إنه يذكر ما كان من أبى بكر ومنه لما عزم أبو بكر على فتح الشام ، إن أبا بكر دعا إليه الصحابة وأهل الرأى فقال :

ــ إن رسول الله كان عوّل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه واختار له ما لديه ، والعرب بنو أم وأب وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم

بالشام ؛ فمن هلك منهم هلك شهيدا وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين مستوجبا عند الله عز وجل ثواب المجاهدين .

فصمت أهل الرأى ، أخذتهم هيبة الروم فقال عمر :

— والله ما استبقنا إلى شىء من الخير قط إلا سبقتنا إليه . قد والله أردت لقاءك بهذا الرأى الذى ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد .

سرّب إليهم الخيل فى إثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود ، تتبعها الجنود فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومعز الإسلام وأهله ، ومنجز ما وعد رسوله .

وفى ظلام الليل رأى بعين الخيال خروج عمرو بن العاص وأبى عبيدة ابن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان إلى الشام ، وتذكر أن خالد بن الوليد قد صار أميرا على جيوش المسلمين باليرموك فانقبض . إن رأيه فى خالد سيئ ، فعزم على أن يستفتح عهده بعزل خالد عن إمارة جيوش المسلمين ، فهو لم ينس له قتل مالك بن نويرة وزواجه من زوجته وقتل عبد العزى بن أبى رهم ولبيد بن جرير وكان معهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما .

وجاء الصبح فخرج إلى الناس فأقبلوا عليه يبايعونه ، فلما كان الظهر ازدحم الناس فى المسجد فصعد عمر المنبر درجة دون الدرجة التى كان أبو بكر يقوم عليها ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى — ﷺ — وذكر أبا بكر وفضله ثم قال :

— أيها الناس ! ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم .

وتوجه بنظره إلى السماء وقال :

ــ اللهم إنى غليظ فلينى ! اللهم إنى ضعيف فقونى ! اللهم إنى بخيل فسخنى !.. إن الله ابتلاكم بى وابتلانى بكم ، وأبقانى فيكم بعد صاحبىّ . فوالله لا يحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى ، ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن الجزء (١) والأمانة . ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم .

وراح يكتب إلى أبى عبيدة بن الجراح يوليه على جند خالد : « ... أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه ، الذى هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ؛ ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة . وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك ، فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبها عنك ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم .

(١) الجزء : أن يجزى كلا بعمله .

٣٠

كان خالد بن الوليد على جيش المسلمين . إنه جمع الأمراء جميعا فى جيش واحد وطلب أن يولوه الإمارة يوما فأمروه وهم يعتقدون أن الأمر سيطول وأن كل أمير منهم سيتولى قيادة الجيش يوما ، وما دار بخلدهم أن سيف الله المسلول سينهى المعركة فى ذلك اليوم بانتصار حاسم للمسلمين .

أمر خالد عكرمة والقعقاع وكانا على مجنبتى القلب أن ينشبا القتال ، فتقدم الرجلان والذين معهما ونشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان ، فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فانطلق إليه فرسان المسلمين يسألونه عن الأخبار ، فأخبرهم أن المسلمين فى المدينة بخير وأن خليفة رسول الله سيمدهم بالرجال ..وكتم محمية بن زنيم وهو الرسول خبر موت أبى بكر حتى لا يفت فى عضد المسلمين لما رأى الرجال ينازلون الرجال ، والحرب دائرة بين الكفر والإيمان .

وأخذ الفرسان محمية بن زنيم إلى حيث كان خالد . فلما كانا يتناجيان بعيدا عن الناس أسر محمية إلى خالد أن أبا بكر قد مات ولم يخبره بأمر عزله ، وأخبره أنه قال للجند إن المدينة بخير وأن خليفة رسول الله سيمدهم بأمداد ، فقال له خالد :

ـــ أحسنت .

ووقف محمية بن زنيم مع خالد يكتم سر الكتاب ، وخرج من صفوف الروم جرجة حتى كان بين الصفين ونادى :

— ليخرج إلىّ خالد .

فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه ، ودنا كل منهما من صاحبه حتى اختلفت أعناق دابتيهما وقد أمن أحدهما صاحبه ، فقال جرجة :

— يا خالد أصدقنى ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المتوسل بالله . هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه ، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟

— لا .

— فبم سميت سيف الله ؟

— إن الله عز وجل بعث فينا نبيه — ﷺ — فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه . فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ، ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله بذلك . فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

— صدقتنى .

كان جرجة قد سمع بالإسلام مذ بعث رسول الله — ﷺ — كتابه إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبى يسأله فيه الإسلام ، وإن جرجة ليفكر فى ذلك الدين وفيما جاء به كلما خلا بنفسه . إنه ليجده دينا يتساوق مع المنطق والفطرة ، وشرح الله صدره للإسلام فقال لخالد :

— يا خالد أخبرنى إلام تدعونى ؟

— إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وللإقرار بما

جاء به من عند الله .

ـــ فمن لم يجبكم ؟

ـــ فالجزية ونمنعهم .

ـــ فإن لم يعطها ؟

ـــ نؤذنه بحرب ثم نقاتله .

ـــ فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟

ـــ منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا .

ـــ هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذُّخر ؟

ـــ نعم وأفضل .

ـــ وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟

ـــ إنا دخلنا فى هذا الأمر وبايعنا نبينا ـــ ﷺ ـــ وهو حى بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات ، وحُقَّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسلم ويبايع . وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل فى هـذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا .

ـــ بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى ولم تتألفنى .

ـــ بالله لقد صدقتك ولا بى إليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله لوَلِّى ما سألت عنه .

ـــ صدقتنى .

وقلب الترس ومال مع خالد فكبر المسلمون ، واربدت أوجه الروم وطاف بهم غضب وخوف . غضب على جرجة وخوف مما يأتى بعد أن

انضم جرجة إلى صفوف المسلمين .

وقال جرجة لخالد :

— علمنى الإسلام .

فدخل به خالد إلى فسطاطه فصب عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين . وحملت الروم على المسلمين حملة شديدة فأزالوا المسلمين عن مواقفهم ، ولم يثبت إلا المحامية عليهم عكرمة بن أبى جهل . إن الدماء لتثور حارة فى عروق عكرمة ، وإنه ليقول فى انفعال شديد :

— قاتلت مع رسول الله — ﷺ — فى كل موطن وأفر منكم اليوم ؟

ثم نادى :

— من يبايع على الموت ؟

فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا أمام فسطاط خالد وقد خلصت إليهم الجراح جميعا . وخرج خالد ومعه جرجة وراح يجوس خلال الروم ، خالد يضرب بسيفه رقاب الأعداء وجرجة يدافع عن الدين الذى دخل فيه ، وكانت النسوة خلف جيش المسلمين فأخذن يضربن من انهزم من المسلمين بالخشب والحجارة ويصحن .

— أين تذهبون وتدعوننا للعلوج ؟

وراحت خولة بنت ثعلب تنشد :

يا هاربا عن نسوة تقيات فعن قليل ما ترى سبيات

ولا حصيات ولا رضيات

كان الزبير بن العوام أفضل صحابى فى جيش خالد . فاجتمع إليه جماعة من صناديد المسلمين فقالوا له :

— ألا تحمل فنحمل معك ؟

فحمل الزبير وحملوا ، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا فراح الزبير يخوض فى صفوف الروم ويلعب بسيفه يضرب الرقاب ويطعن القلوب ، ثم عاد إلى مكانه فجاءه جماعة من الأبطال وقالوا :

— احمل فنحمل معك .

— إنكم لا تثبتون .

— سنثبت .

فحمل الزبير وحملوا ، فلما واجهوا صفوف الأعداء أحجموا وأقدم ، واستمرت رحى المعركة دائرة وارتفعت الشمس ثم مالت لا يسمع إلا قعقعة السيوف وصهيل الخيول وصلصلة السلاسل التى ربطت بها جند الروم . وثبت خالد وجرجة والزبير وعكرمة بن أبى جهل والذين معه والحارث بن هشام . وتنادى المسلمون فنظموا صفوفهم وراحوا يقاتلون صفا كأنهم بنيان مرصوص وارتفعت أصواتهم بالتكبير . فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف ، وانطلق سهم استقر فى عين أبى سفيان بن حرب فأخرجه من عينه أبو حسمة ولم يفت ذلك فى عضد المسلمين . واشتد القتال فراحت سيوف المسلمين تحصد رقاب الروم وراحت الشمس تغوص فى الأفق الغربى ، ونال الجهد والتعب من الرجال ، وملأ العرق أعين المقاتلين وخالد على ظهر جواده كالطود قد عزم على أن يقضى على أعدائه قبل أن يرخى الليل سدوله .

وأصيب جرجة ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما ، وصلى الناس الظهر والعصر إيماء ، وسقط عكرمة بن أبى جهل متأثرا بجراحه ، ولفظ عمرو بن عكرمة أنفاسه ، واستشهد سلمة بن

هشام وعمرو بن سعيد وإبان بن سعيد ؛ وطعن خالد بن سعيد طعنة قاتلة فداسته الخيل فلا يدرى أين مات .

واستمر الطفيل بن عمرو يقاتل وقد خلصت إليه الجراح ؛ إن دمه يسيل من كل جسمه وهو يثب وثوب الأسد الجريح ، إنه وطد العزم على أن يقتل كل من يصل إليه سيفه قبل أن يستشهد ، واستمر يصول ويجول ويضرب من الأعداء كل بنان قبل أن يجود بأنفاسه الطاهرة .

كان الطفيل بن عمرو قد رأى رؤيا أوَّلَها بأنه يستشهد ، وقد تحققت رؤياه وأمسى من الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون . وراح ابن الطفيل يخوض فى صفوف الأعداء لعل الله يرزقه الشهادة ويلحق بأبيه ، ولكنه كان يخترق الصف ويخرج منه والدماء منه تسيل ليعود ليخوض فى الصف يطيح رءوس الذين كانوا فى السلاسل مقيدين .

كان تذارق أخو هرقل فى صفوف الروم . إنه يقاتل بائسا فقد عاد إلى ذاكرته ما دار بينه وبين هرقل لما جاءهما خبر دخول قواد المسلمين لغزو الشام . إن ذلك الحوار يرن فى وجدانه فيشيع الهزيمة فى نفسه ، إن هرقل يقول لرجاله :

ــ أرى من الرأى ألا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن تصالحوهم ، فوالله لئن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفا وتقر لكم جبال الروم ، خير من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم فى جبال الروم .

إن تذارق أخا هرقل ليذكر والندم يعتصره أنه نخر لما سمع من قيصر العظيم تلك المقالة ، وخرج فى جيوش الروم ليؤدب المسلمين . وإنه ليرى الهزيمة قد لاحت ؛ فياليته ألقى إلى أخيه سمعه ولم يتملكه الغرور . ليته استمع إلى أخيه لما قال : « لا تقاتلوهم فإنه لا قوام لكم مع هؤلاء القوم ،

إن دينهم دين جديد يجدد لهم ثبارهم[1] ، فلا يقوم لهم أحد حتى يُبلى » إنهم أعرضوا عنه وقالوا له : « قاتل عن دينك ولا تجبن الناس ، واقض الذى عليك ».

إن الحماس وحده لا يقضى على الأعداء . لقد ثبت حقاً أن المسلمين قد تسلحوا بإيمان عميق ، بينما كانت قلوب الروم هواء قد دفعوا إلى المعركة كأنما يساقون إلى الموت مقيدين فى سلاسل الحديد . إن المسلمين لما نزلوا اليرموك ، بعثوا إليه :

ـــ إنا نريد كلام أميركم وملاقاته ، فدعونا نأته ونكلمه .

فأبلغوه فأذن لهم . فأتاه أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وضرار بن الأزور وأبو جندل بن سهيل ودخلوا عليه بأقدام ثابتة ورءوس مرفوعة ، لم يضطربوا لدخولهم على تذارق أخى هرقل إمبراطور الروم ، ولم تبهرهم السرادق التى كانت من الديباج بل إنهم احتقروها ، فلما انتهوا إليها أبوا أن يدخلوا عليه فيها وقالوا :

ـــ لا نستحل الحرير فابرز لنا .

فبرز إلى فرش ممهدة ودار بينه وبينهم حوار ، إنهم طالبوه بالإسلام أو الجزية أو القتال فسخر منهم واحتقر شأنهم فكان القتال ، إنه قتال رهيب لم يلق مثله من قبل ، اشترك فى معارك كثيرة وقاتل الفرس فلم يلق ما يلقاه اليوم ، إنه يقاتل أناسا يفرحون بالموت أكثر من فرحهم بالنجاة .

وبلغ هرقل وكان دون مدينة حمص أنباء ذلك الحوار الذى دار بين أخيه وبين أمراء المسلمين فقال للذين كانوا عنده من القواد ورجال مملكته :

---

(١) ثبارهم : قوتهم وصبرهم على موالاة القتال .

— ألم أقل لكم ؟ هذا أول الذل . أما الشام فلا شام ، وويل للروم من المولود المشئوم .

دخل على هرقل بعد أن تولى عرش الأباطرة المنجمون وقالوا له : إن شعبا مختونا سيقضى على مملكته ، فحسب أن اليهود هم ذلك الشعب ، وما دار بخلده أن العرب الذين كانوا قبائل متفرقة فى صحراء جرداء هم ذلك الشعب الموعود .

إنه تلقى دحية الكلبى رسول النبى العربى فى قصره ، وأكرم مثواه ، وقرأ كتاب محمد بن عبد الله ورد على الكتاب ردا كريما . إن محمداسأله الإسلام فخاف على ملكه ولم يدخل فى الدين الجديد ، ولو أنه أسلم كما أسلم النجاشى لما سارت إليه جحافل العرب لتتحقق نبوءة النجوم .

ودار القتال عند اليرموك عنيفا لا رحمة فيه ، وانقض فارس من فرسان المسلمين على تذارق أخى هرقل وطعنه طعنة قاضية ، فسقط عن فرسه يتخبط فى دمه حتى استقر جثة هامدة تتزين بجوهر عجز أن يحفظ عليها حياتها أو كرامتها .

وتضعضع الروم ، وهجم خالد بالقلب وحمل حملة صادقة حتى كان بين خيلهم ومشاتهم ، وكانت ساحة القتال واسعة يمكن للخيل أن تجرى فيها ، ثم تضيق عند نهايتها حتى يصبح الهرب منها عسيرا . فراح فرسان الروم يفرون أمام فرسان المسلمين وينسلون من المهرب الضيق إلى الصحراء . فلما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفسحوا لها الطريق فتفرقت فى البلاد ، وبقى المشاة وحدهم فى الميدان هدفا لسهام المسلمين وسيوفهم .

وأقبل خالد وفرسانه على المشاة فراحوا يضربون بالحراب فى الصدور

ويطيحون بسيوفهم الرءوس ، فدب الفزع فى قلوب المقيدين بالسلاسل ففروا إلى خندقهم ؛ ولكن أين المفر ؟ إن خيل المسلمين تقتحم عليهم خندقهم وفرسان المسلمين يجنون الرءوس ، فتقهقر المسلسلون والمقيدون مرعوبين حتى سقط كثير منهم فى الهاوية لتدق أعناقهم ، فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من ذهبت نفسه شعاعا من الفزع ، فيهوى الواحد بالعشرة لا يطيقونه ، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف ، فتهافت فى الهاوية عشرون ومائة ألف ؛ ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق ، سوى من قتل فى المعركة من الخيل والمشاة .

وأسدل القبقلار وأشراف من أشراف الروم برانسهم على وجوههم وقالوا:

— لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور ، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية .

فأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب ، وماتت المعركة بعد موت المقاتلين الروم وفرار من فر منهم . فسار خالد بن الوليد فى الخنادق حتى بلغ رواق تذارق فدخله ليبيت فيه ، وشغل المسلمون بجمع الأسلاب وما خلف الروم فى عسكرهم وما تركوا فى أرض المعركة .

وأصبح الصباح فخرج خالد من رواقه ليلقى نظرة على أرض المعركة فإذا برجال قادمين يحملون جريحين ، فنظر خالد إلى الجريحين فإذا هما عكرمة بن أبى جهل (عمرو بن هشام) وابنه عمرو بن عكرمة وهما فى النفس الأخير . فوضع رأس عكرمة على فخذه ووضع رأس عمرو على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء ، ولم تنفع جهود خالد فى إنقاذهما فأسلما الروح ، فقال خالد :

— كلا ، زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد .

كانت العداوة مشبوبة بين المسلمين وأبى جهل ، فلما أسلم عكرمة بن أبى جهل كان بعض المسلمين يعيرونه بأبيه ، فنهى رسول الله — ﷺ — عن سب الآباء لأن ذلك يسىء للأحياء . وعلى الرغم من ذلك النهى كان بعض المسلمين يصرح أن الله لن يكرم أبناء أبى جهل بالشهادة ، ولكن الله أكرم ابن أبى جهل وحفيده فالله عادل لا ينتقم من الآباء فى الأبناء ، فكلّ مسئول عن عمله ، وإن الله يقول فى كتابه العظيم ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [1] .

قضى خالد على جحافل الروم عند اليرموك فى يوم واحد ، إنه يوم مشهود فى تاريخ الإسلام ، وهو يوم مشهود فى حياة سيف الله المسلول ، فراح أبو عبيدة بن الجراح ينظر فى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعزل خالد وهو فى حيرة من أمره ، لا يدرى كيف يعلن النبأ دون أن يثير حفيظة صدور جنود لا يزالون فى نشوة النصر يذكرون بالفخر والإعجاب عبقرية فارس الإسلام الذى قادهم إلى فوز عظيم نادر ، قلما يجود الزمن بمثله .

وأعلن أبو عبيدة نبأ موت الصديق ومبايعة الناس لعمر بن الخطاب فسرت فى النفوس موجات أسى لموت أبى بكر . وكانت أسماء بنت أبى بكر مع زوجها الزبير بن العوام ؛ إنها قاتلت بالأمس مع النساء اللاتى قاتلن الأعداء لما نكص الرجال على أعقابهم فى أول النهار ، وإنها شاركت المسلمين أفراحهم لما جاء الله بالفتح ، وقد أمضت الليل مع صواحبها فى تضميد الجراح ، فإذا بها تتلقى من النساء والرجال أرق العزاء .

---

(١) الأنعام ١٦٤

وتذكرت رسول الله — ﷺ — فقد قرنت انتصاراته بالأحزان ، ماتت ابنته رقية يوم عاد منتصرا فى بدر ، ومات عمه حمزة يوم أحد ، وراح يبتهل إلى ربه ألا يفجعه فى علىّ بن أبى طالب ابن عمه وزوج ابنته يوم الخندق ، وماتت زينب وأم كلثوم بعد أن جاء نصر الله والفتح . إن لها فى رسول الله أسوة حسنة ، فلم تندب و لم تشق الجيب و لم تخمش الوجه ، بل صبرت صبرا جميلا يليق بربيبة الإسلام .

واستقبل أناس تولية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بفرح فياض ، بينما استقبل آخرون النبأ فى إشفاق وخيفة . و لم ينشرح صدر خالد للخبر فقد أحس أن فى الكتاب شيئا فى شأنه ، فابن الخطاب لا يحبه وقد طلب من أبى بكر مرارا أن يعزله و لم يقم وزنا لأنه ابن عم أمه ، أفيسكت عنه عمر وقد تولى إمارة المسلمين ؟

إن البريد لم يدفع إليه الكتاب وهو أمير الجيوش ، بل دفعه إلى أبى عبيدة وما ذلك إلا إيذانا بعزله . فمشى إلى أبى عبيدة يسأله الخبر ، فقال له أبو عبيدة إن أمير المؤمنين أمر بعزله وتوليته قيادة اللواء الذى كان يقوده أبو عبيدة قبل أن يصبح أميرا على الجيوش .

أطرق خالد هنيهة ثم قال :

— الحمد لله الذى قضى على أبى بكر الموت وكان أحب إلى من عمر . والحمد لله الذى ولّى عمر وكان أبغض إلىّ من أبى بكر ، وألزمنى حبه .

وقبل خالد أن يكون قائدا للواء أبى عبيدة عن طيب خاطر لم يثر و لم يشق عصا الطاعة فهو سيف الله المسلول سواء أكان قائد الجيوش فى اليرموك ، أم كان أمير لواء لما فتح المسلمون بيت المقدس ، أم جنديا عاديا فى جيش عمرو بن العاص لما فتح مصر به فقد أمر أن يطيع ولو ولّى عليه عبد

حبشى . كانت تلك وصية رسول الله — ﷺ — للمسلمين عامة ، وإنه ليطيع راضيا وصايا حبيبه نبى الإسلام عليه السلام .

وانقضت بموت أبى بكر الصديق أيام رسول الله — ﷺ ، فقد كانت خلافته امتدادا لعصر النبى — صلوات الله وسلامه عليه ، لم يبدل ولم يغير وكان متبعا ولم يكن مبتدعا ، وكان صاحبه فى الحياة وفى الممات .

القاهرة فى ٢٥ / ١١ / ١٩٧٠

المراجـع

القرآن الكريم	
الكتاب المقدس	
صحيح البخارى	
السيرة النبوية	ابن هشام
إنسان العيون (السيرة الحلبية)	على بن برهان الدين الحلبى
بلوغ الأرب	للألوسى
نهاية الأرب	النويرى
إيران فى عهد الساسانيين	كريستنسن — ترجمة يحيى الخشاب
نور الأبصار	الشبلنجى
إحياء علوم الدين	الغزالى
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	الفاسى
حقوق الإنسان فى الإسلام	للدكتور على عبد الواحد وافى
محمد رسول الله	مولاى محمد على
الرسول . حياة محمد	ر . ف . بودلى — ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار
الإسلام والنظام العالمى الجديد	مولاى محمد على ترجمة أحمد جوده السحار
الدين القيم	المودودى
المستشرقون والإسلام	المهندس زكريا هاشم زكريا

نساء النبى — الدكتورة بنت الشاطئ
عبقرية محمد — عباس محمود العقاد
الروض الأنف — السهيلى
تاريخ الطبرى
مشكلة الحرية — الدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون — عباس محمود العقاد
أسباب النزول — الواحدى
شرح نهج البلاغة — ابن أبى الحديد
الملل والنحل — الشهرستانى
فجر الضمير — تأليف . چيمس هنرى برستيد
ترجمة : الدكتور سليم حسن
تفصيل آيات القرآن الحكيم — جول لابوم
ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى
الوحى المحمدى — السيد محمد رشيد رضا
سلم الواعظين — عبد الله بن الشيخ حسن الفارسى الكوهجى
الحضارة البيزنطية — ستيفن رنسيمان
كتاب الخراج — لأبى يوسف
الإسلام والاشتراكية — ميرزا محمد حسين
ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب
النظرية العامة لكينز بين الرأسمالية والاشتراكية
دكتور جمال الدين محمد سعيد
رأس المال — كارل ماركس
ترجمة دكتور راشد البراوى
الربا فى الإسلام — ترجمة فاروق حلمى

للمؤلف

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

الطبعة الأولى

أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربي الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى		فبراير سنة ١٩٧٥
مذكرات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٥

القصص الديني

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ جزءا
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

فى ٢٠ جزءا

١	— إبراهيم أبو الأنبياء	اكتوبر ١٩٦٥
٢	— هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	— بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	— العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	— قريش	مايو ١٩٦٧
٦	— مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧	— اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨	— خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	— دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	— عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١	— الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	— غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	— غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	— غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	— صلح الحديبية	يونيه ١٩٦٩
١٦	— فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	— غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨	— عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	— حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	— وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

الأستاذ على أحمد باكثير

١ ـ اخناتون ونفرتيتى
٢ ـ سلامة القس
٣ ـ وا اسلاماه
٤ ـ قصر الهودج
٥ ـ الفرعون الموعود
٦ ـ شيلوك الجديد
٧ ـ عودة الفردوس
٨ ـ روميو وجولييت
(مترجمة عن شكسبير بالشعر المرسل) *
٩ ـ سر الحاكم بأمر الله
١٠ ـ ليلة النهر
١١ ـ السلسلة والغفران
١٢ ـ الثائر الأحمر
١٣ ـ الدكتور حازم
١٤ ـ أبو دلامة (مضحك الخليفة)
١٥ ـ مسمار جحا
١٦ ـ مسرح السياسة
١٧ ـ مأساة أوديب
١٨ ـ سر شهرزاد
١٩ ـ سيرة شجاع
٢٠ ـ شعب الله المختار
٢١ ـ امبراطورية فى المزاد
٢٢ ـ الدنيا فوضى
٢٣ ـ أوزوريس
٢٤ ـ فن المسرحية من خلال تجاربى الشخصية
٢٥ ـ دار ابن لقمان
٢٦ ـ قطط وفيران

رقم الإيداع : ٤٠٣٣

الترقيم الدولى ٣ ـــ ٢٧٥ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧

